من أكثر الروايات مبيعًا في العالم

أدريان يانج

مكتبة تعاويذ النسيان

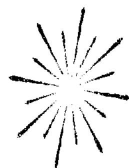
رواية

"رواية ساحرة بما تحتويه من الأسرار والغموض، وكذلك الماضي الذي لن يظل مدفونًا إلى الأبد".
- جودي بيكولت

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة



تعاويذ النسيان



أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ليست مجرد مكتبة

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الطبعة الأولى 2025

للتعرف على فروعنا نرجو زيارة www.jarir.com
إذا كانت لديكم أي ملاحظات حول الترجمة أو الكتاب، أو اقتراحات لترجمة كتب أخرى، فالرجاء مراسلتنا على:

jbpublications@jarirbookstore.com



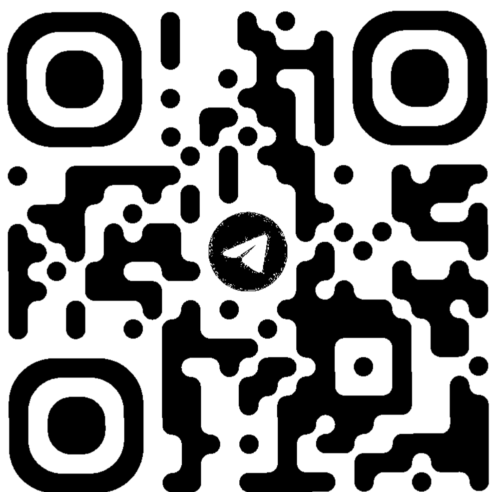
SPELLS *for* FORGETTING

A Novel

ADRIENNE YOUNG

فيبل

أهدي هذه الرواية إلى لورا وبراندون وآدم. كم أنا محظوظة لوجودكم بجانبي!



تعاويذ

الفصل الأول

أوجست

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت هناك حكايات لا تعرفها إلا الجزيرة؛ حكايات لم يسمع بها أحد من قبل، ولكني سمعت بها، فقد كنت إحداها ذات يوم.

وقفتُ في مقدمة العبَّارة حتى ظهرت جزيرة سيرشا من بين خيوط الضباب، كالوحش النائم بينما تغمره المياه الباردة. تسببت الرياح الباردة في تخدير أصابعي المتشبثة بالسياج، بينما كانت أصابعي تزداد تشبثًا بالسياج كلما ازدردت لعابي. كنت أتخيل تلك اللحظة ألف مرة، حتى من قبل ذلك، عندما لم أكن مقتنعًا تمامًا بوجود هذه الجزيرة، ولكنها ظهرت أمامي واقعًا حقيقيًّا مثل اللحم الذي يكسو عظامي.

دسست يديَّ في جيبيْ سترتي، موجهًا ظهري لهذا المشهد، كما لو أن ذلك سيبدد كل الظلام الذي حلَّ هناك. آخر مرة حدث أن وقفتُ في مقدمة هذه العبَّارة، كنت أبلغ الثامنة عشرة من عمري، وبدلًا من رؤيتي هذه الجزيرة تزداد حجمًا كلما اقتربت منها، شاهدتها تختفي، وتختفي معها حياتي التي عشتها هناك. أدارت أمي وجهها بعيدًا عني؛ حتى لا أرى دموعها التي تلهب وجنتيها المحمرتين، ولكني كنت أستطيع أن أسمع بقلبي الكلمات التي لم تستطع هي أن تنطقها، وكأنها أرادت أن تقول إنني كنت أفسد كل شيء، وإنها لن تسامحني على ذلك حتى في قرارة نفسها.

تحول ناظراي إلى الصندوق القابع عند قدميَّ، والذي ظهر من خلال فتحته الضيقة جرة ذات وجه زمردي ناعم. حتى في آخر أيامنا تلك، لم تنبس أمي ببنت شفة عن هذا الأمر. لقد أقسمنا ألا نعود إلى سيرشا، وبالفعل لم نعد. وكان هذا أحد الوعود الكثيرة التي قطعناها على أنفسنا... إذن لماذا بعد كل هذه السنوات خالفت الوعد؟

لم أكن لأصل إلى أية إجابة عن هذا السؤال.

"سيدي؟"، قاطعني هذا الصوت الغارق في الريح العاتية المتدفقة على العبَّارة، بينما كنت غارقًا في أفكاري، ومضت عيناي اللتان أزعجهما ضوء الصباح الساطع، فرأيت امرأة تقف أمامي، ترتدي معطفًا ثقيلًا من النايلون أزراره محكمة الإغلاق، ويحمل شعار المركب. مدت يدها إليَّ، وانتظرتْ بينما تقول: "تذكرتك؟".

قلت لها: "آه، معذرة"، ثم فتحتُ الحقيبة المعلقة على كتفي، ودسست فيها يدي حتى عثرت على التذكرة.

أخذتْ مني التذكرة، فلمست يدي، وراحت تقرأ الخاتم المطبوع على التذكرة، والذي يحمل الوقت والتاريخ.

"هل أنت متجه إلى الوطن؟"، هكذا سألت وقد برز أنفها الوردي من فوق ياقة المعطف، وكان صوتها مكتومًا. ولكن، يا لهذه الكلمة التي أثلجت صدري! *الوطن*.

قلت لها: "ماذا؟" ووقفتُ ساكنًا، أنظر إلى وجهها، أبحث عن أية إشارة يمكنني التعرف عليها من خلالها، لكنها كانت تصغرني بعدد من السنوات؛ ربما عدد كبير من السنوات. إذا كانت من سيرشا، فلن تتعرف على وجهي، وهي بالتأكيد لا تعرف اسمي، أو الاسم المكتوب في التذكرة.

أعادت لي التذكرة، وقالت لي متلعثمة: "معذرة، لا أقصد التطفل، ولكن فقط...، هذه ليست تذكرة ذهاب وعودة... ولا أرى الكثير منها على متن هذه العبَّارة؟".

تنحنحتُ، ودسست التذكرة في جيبي، وقلت لها: "لقد أتيت في زيارة فقط".

لم تكن هذه الجزيرة وطنًا، حتى إن كانت كذلك من قبل، وكانت المرأة على حق، لا أحد يأتي إلى سيرشا للإقامة.

على الرغم من أن فمها كان متواريًا خلف وشاحها، فإنني استطعت أن أرى عينيها العابستين اللتين كان يبدو عليهما الشك والريبة. لقد نظر الكثيرون إليَّ بمثل هذه النظرات من قبل.

أخذت تفحصني بعينيها، فنظرت إلى سترتي، ثم إلى حذائي، ثم عادت مرة أخرى لتنظر إلى وجهي، وقالت: "حسنًا، استمتع برحلتك"، كان يبدو عليها عدم الارتياح عندما دارت حولي، ثم سارت بمحاذاة السياج لأسفل العبَّارة.

ظهرت من خلفها الجزيرة واضحة جلية تحت السماء، وحلَّق زوج من طيور النورس فوق منحدرات سوداء متعرجة تلقفت الرياح الباردة التي جابت الأرض، وجعلتها تبدو كأسنان وحش جائع. لا يهم عدد السنوات التي مرت؛ فالذكريات ظلت راسخة لم ترحل.

قيل لي أثناء طفولتي إن الناس على البر الرئيسي يختلفون عنَّا، ولكن عندما عشت بينهم استوعبت هذا الأمر جيدًا. لقد تحسنت شخصية أمي على مر السنين، وظهرت للوهلة الأولى مثل الأمهات الأخريات، ولكنها ما زالت تقضي فترة الاعتدال الخريفي وسط الغابات، وفترة الانقلاب الشمسي في الصيف عند شاطئ البحر. وما زالت تتمتم بكلمات قديمة عند استخدام فناجين الشاي، كما رأيتها تتمتم بإحدى التعويذات، بينما نمر أمام منزل جارنا أكثر من مرة.

كان واضحًا عندما غادرنا سيرشا أنها لم تكن راغبة في التحدث عن هذه الجزيرة، كأن تلك السنوات الماضية قد ولَّت حبيسة في مكان سريٍّ تظاهرْنا بأنه غير موجود. لم تكن تلك المرة الأولى التي خيَّبتُ فيها ظن أمي، كما أنها لم تكن الأخيرة كذلك.

في لحظة، وفي غمضة عين، أدركت أن كل صيف قضيناه في البستان، وكل ريح هبت على البحر المظلم، وكل ليلة قضيناها في كابينة الصيد، كلها دُفنت بداخلي كجثة مكفَّنة بعيدًا عن ضوء الشمس؛ ولهذا السبب تحديدًا لم أؤمن بكل هذا، عندما قرأت الخطاب المكتوب بخط اليد، والذي طوته أمي في وصيتها، وبعد أيام فقط من مشاهدتي إياها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

بعد سنوات عديدة قضتها أمي بعيدًا عن هذا المكان، دون أن تتحدث عنه مطلقًا خلال هذه السنوات، غادرت هذا العالم وفي قلبها أمنية واحدة.. أن تُدفَن رفاتها في جزيرة سيرشا.

لقد استغرق الأمر مني أربعة أشهر لأحجز رحلة جوية إلى سياتل، حتى يمكنني تحقيق رغبتها. أغلقتُ ستائر النافذة أثناء رسو العبَّارة، وكنت أشعر بغصة في حلقي. ما كنت أرغب في رؤية تلك السلسلة من الجزر السوداء على مرمى البصر، أو لون المياه الأزرق المائل للفضي. كانت هناك أشياء ميتة أحيتها نكهة الريح المالح، سواء أردتُ ذلك أم لا. وكنت بالفعل أهاب الأشهر أو السنين التي قد تستغرقها عملية إعادة هذه الذكريات إلى مهدها.

رن هاتفي أسفل سترتي، فسحبته من جيبي الخلفي، واتسعت حدقتا عينيَّ عندما رأيت اسم المتصل - إيريك- على شاشة الهاتف. تنفستُ الصعداء، ثم حملت حقيبتي على كتفي، وضغطت على شاشة الهاتف لأرد على المكالمة الواردة.

"مرحبًا!".

"هل وصلت؟".

مررت من خلال أبواب العبَّارة المؤدية إلى الكابينة ذات الأرضية المصنوعة من مادة اللينوليوم، فرأيت صفًّا من المقاعد الخضراء المثبتة التي تشبه الدلاء. في أحد الأركان، توجد طاولة يقف خلفها رجل قصير، يرتدي مريلة بيضاء ملطخة ببعض البقع، فوق رداء من الصوف الكثيف، وكان يبدو على هذا الرجل الشعور بالإحراج، بينما ينظر إليَّ من خلف ماكينة صنع القهوة المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ.

"أكاد أصل".

انحنيت لأنظر من النافذة الضبابية التي اخترقتها أشعة الشمس لتشبه بقعة بيضاء على الزجاج المخدوش.

"حسنًا، لقد تلقيت رسالتك، إن كل ما تحتاج إلى البحث عنه في الحقيقة هو بعض الأوراق المهمة التي ربما تركتها هناك. سوف تحتاج إلى عقد المنزل كي تتمكن من إعادة بيعه، أو سندات ملكية، أو عقود زواج، أو حسابات مصرفية، أو أي شيء آخر. وأنت بحاجة لوجود شخص بجانبك لإنهاء صفقة بيع المنزل، إلا إذا أردت أن تواصل الذهاب والعودة للتعامل مع كل هذه الأمور". كان صوت إيريكفظًّا على الطرف الآخر من المكالمة الهاتفية، كأنه يشبه خيطًا مشدودًا بين هذا العالم، والعالم الآخر - حياتي البسيطة في بورتلاند - وتاريخي غير البسيط في سيرشا... واصل إيريكحديثه: "هل هناك أمور أخرى غير محسومة؟".

شعرت بالاستياء متتبعًا بناظريَّ حدود الجزيرة حتى اختفت في البحر. كان هناك مائة شخص يمكنني التفكير فيهم، لكنَّ شخصًا واحدًا فقط شغل كل تفكيري.

رددت على إيريكقائلًا: "لا، البستان هو ما لاقى الرعاية والاهتمام بناءً على رغبة هنري". ذكرت اسم جدي الذي لم أتفوه به لسنوات... واصلت حديثي: "إنه فقط المنزل، ربما تركنا بعض المعدات القديمة الخاصة بالمزرعة في المنزل، أو شيئًا من هذا القبيل".

"متى يتوجب عليك العودة إلى الصف الدراسي؟".

الصف... لم أفكر في الصف الدراسي في الجامعة لأسابيع، ولكن مشهد الروافع الخشبية ذات اللون البرتقالي التي ظهرت من خلال النوافذ المقوسة الطويلة، جعلتني أشعر بأنني ابتعدت كثيرًا. قلت لإريك: "ليس قبل الفصل الدراسي الثاني، لقد حصلت على إجازة حتى يمكنني رعاية والدتي".

قال إريك: "هذا صحيح". ثم تغيرت لهجته قليلًا، واستطرد: "حسنا، أنجزْ كل ما لديك هناك، وعُد سريعًا".

قلت له: "هذا ما أخطط له"... ثم تنفست الصعداء، بينما أنظر إلى الوجوه التي لفحتها الريح، والتي ملأت سطح العبَّارة بالخارج. كان هذا التوقيت هو نهاية الموسم، ولكن لا تزال هناك أعداد كثيرة من السائحين متجهة إلى البستان. قلت: "يا إريك؟".

"نعم".

خفضت صوتي قائلًا: "أشكرك على مساعدتي في كل هذه الأمور".

قال: "من الجميل أن يصبح زميل غرفتك محاميًا"، ثم صدرت عنه ضحكة صغيرة مستطردًا: "على أية حال، إنني متأكد من أنني مدين لك بشيء أو بآخر".

إن إيريكلم يكن مجرد زميل غرفة، بل كان صديقًا، وربما لم يكن لي صديق غيره، كما أنه كان الشخص الوحيد الذي أخبرته بشأن جزيرة سيرشا، حتى لو لم أتفوه قط بكلمة واحدة عما حدث هناك.

فقلت له: "أقصد هذا، أشكرك".

"يمكنك أن تحضر لي زجاجة من الشراب عندما تعود!". توقف برهة ثم قال: "ما رأيك؟".

"بـكل تأكيـد". فُتـح البـاب مجـددًا، وملتُ لأمرٍّ مـن خلاله، وشـعرت بغصة في حلقي عندما رأيت صواري المراكب في المرفأ. فاستطردت: "من الأفضل أن أنهي المكالمة الآن، ومن المحتمل أن تختفي تغطية الشبكة في أية لحظة".

"أراك الأسبوع المقبل".

"إلى اللقاء".

دوَّى بـوق العبَّـارة عندما أنهيت المكالمة الهاتفية، واندفعتُ إلى الخارج، فرأيت مقدمة العبَّارة تلامس مياه البحر الزرقاء الداكنة، محدثة سيلًا من الزَّبَد الأبيض.

اجتاحنـي شـعور بالكراهيـة نحـو أمي في هـذه اللحظـة، فالمياه أصبحـت أكثر ضحالـة، والجزيـرة تقترب. شـعرت بالغضب لأنني فكرت فـي أنانيتها التي دفعتني للعودة إلى الجزيرة، فرغم كل شي أنا مدين لها بهذا.

بعـد أيـام قليلة، سـوف أرحل. يمكننـي أن أدير ظهري للجزيـرة، كما فعلت منذ أربعة عشر عامًا. ولكن هذه المرة، لن أعود أبدًا. لقد عشت ما يكفي من السنوات، لأعرف أن هناك بعض الأشباح الساكنة في أعماقنا إلى الأبد.

إن سيرشا لها أسرارها، وكذلك نحن.

الفصل الثاني

إيميري

لا أعرف متى بدأت أتسلل خارج غرفة دوتش بودن في الصباح، فقد كانت هذه واحدة من القواعد غير المعلنة التي كانت مرسومة كخيط غليظ يحيط بحياتي من جميع جوانبها.

ظهرت فوق كتفي دائرة من ضوء الشمس بزغت من خلف الأشجار، ومن خلال الستارة الرقيقة المصنوعة من الكتان، تمكنت من رؤية الضباب الشاحب الذي ساد الجزيرة في صمت خريفيٍّ رهيب. كان دوتش يغط في نوم عميق، وتخرج أنفاسه من مؤخرة حلقه، ورائحته تعبق الغرفة، مع رائحة سيجاره المألوفة. ففي كل مرة أتذوق هذا السيجار على طرف لساني، تراودني ذكريات الليالي السابقة.

بدأ الجدال في المطبخ، وزادت حدته مع ثلاث كئوس من الشراب، واستمر حتى خفتت النيران منذ ساعات، لكنني أعرف دوتش جيدًا بما يكفي لإنهاء أي عراك يدور بيننا.

أحطت جسدي بذراعيَّ، وأنا أتأمل البزوغ المبكر لضوء الصباح، هذا الضوء الذي أحال شعر دوتش إلى خيوط من الذهب. لقد أصبحت معالم وجهه أكثر حدة على مر السنوات، فقد صارت بشرة وجهه التي كانت يومًا ما مليئة بالنمش، شاحبة من تأثير الشمس والريح المالحة، ولكن كان هناك جزء منه ما زال على عهده

كالطفل الصغير النحيل الذي عهدته منذ أن كنا صغيرين، وربما كانت تلك هي المشكلة.

كانت هناك ساعة على الطاولة المجاورة للفراش، وكانت عقارب الساعة تُحدث صوتًا خافتًا، وكان العقرب الطويل يشق طريقه على وجه الساعة. وفي غضون ثماني دقائق، رن المنبه الخاص بدوتش، وأيقظه ليبدأ صباحًا مبكرًا في الحديقة، ولكنني كنت سأرحل قبل أن يفتح عينيه، كعادتي دائمًا.

نهضت ببطء من مكاني، وكنت حريصة على ألا أُحدث أي صوت مزعج. كانت أغصان الشجر في الخارج تصطدم بزجاج النافذة، وكانت الأغصان تتحرك وتتمايل بفعل الريح، كما رأيت صورتي منعكسة على الزجاج.

سادت الهمسات في شهر أكتوبر هذا، وكانت أعين الناس تتجه نحو الغابة كثيرًا، حيث لم تتأثر أية شجرة بتغيرات الفصول. لقد امتد فصل الصيف طويلًا حتى تجاوز وقته المعهود، ورغم ذلك، عاودت الأمطار الباردة الهطول على خليج بوجيت ساوند، وكانت الجزيرة ما زالت تكسوها الخضرة تمامًا مثل شهر يوليو، وكان هذا الأمر غريبًا، حتى بالنسبة لجزيرة سيرشا.

لم يتحرك دوتش عندما خطوت على ألواح الأرضية القديمة، محاولة التقاط ملابسي التي ألقيت بها في هذا المكان في منتصف الليل. ارتديت سترة ناعمة، وأحكمت تزريرها حتى عنقي، ثم ارتديت حذائي الطويل. فتحت الباب فأحدثت مفصلاته صريرًا خافتًا، ثم خرجت إلى الباحة.

كان منزل نيكسي توماس فوق التل راسيًا بين الأشجار خلف أرض زراعية مسيجة، وكانت نوافذ المنزل قاتمة، وقد غادرت الشاحنة القديمة، وكنت سعيدة كوني لم ألحق بنيكسي. زادت عيناها الحذرتان حدة وحساسية على مدار السنوات منذ أن ماتت أمي، وكذلك سمعها على ما يبدو.

أحكمت إغلاق السترة قبل أن أدس يديَّ في الجيبين العميقين. كان الطريق الغباريُّ المؤدي إلى المدينة مزدحمًا على كلا الجانبين بالأشجار السامقة، وهو ما جعل الجزيرة تغرق في صمت عميق، حتى عندما كان البحر يهيج بفعل العاصفة.

واصلت قدماي خطواتهما عندما رن جرس الميناء بصوت واهن، وكان الجرس قابعًا بين الأشجار، بينما لمعت ساعتي بضوء الشمس، عندما حاولت مطالعتها لمعرفة الوقت.

تنهدت قائلة: "هراء".

في غضون دقائق، سوف يصل المركب، فتمتلئ الجزيرة بالسائحين الذين يحضرون في هذا الوقت من العام لالتقاط التفاح من حدائق سولت. وعندما تمتلئ حقائبهم القماشية، يتجولون بين متاجر المدينة، وينتهي بهم المطاف إلى ملهى والدي لتناول كأس من الشراب، بينما ينتظرون المركب الأخير.

بعد أيام قليلة أخرى، سوف تتوقف المراكب، وسوف يُعْلَن عن إغلاق البستان بسبب حلول فصل الشتاء، لكن هذا العام، لم يصل الشتاء مبكرًا كعادته. شعرت بإنهاك في أطرافي، فتباطأت خطواتي، ونظرت مندهشة إلى ومضات من الضوء الساطع لشيء ما، لكن سرعان ما اختفى هذا الضوء خلف انحناء الطريق. شعرت بوخز خفيف على بشرتي، يزداد من موضع إلى آخر، أعرف هذا الشعور، إنه يشبه الحمَّى المفاجئة.

عندما كنت طفلة، كانت همسات الجزيرة تشبه صوت أمي، عندما كانت تتمتم إلى نفسها بينما تقبع في الحديقة، أو صوت أنين الأمواج التي تتكسر على الشاطئ الصخري. ولكنني أدركتُ منذ وقت طويل أن هذه الأصوات، أحيانًا ما تجلب معها فألًا غير حسن وأقدارًا غير مرحَّب بها.

سرت مع انحناء الطريق ببطء، واقتربت من حافته، ولكنني توقفت فجأة عندما رأيتها. وراء غابة العشب الأحمر كانت هناك شجرة جوز، يتجاوز عمرها مائتي عام، وكانت أوراقها قد تحولت إلى اللون الذهبي.

كانت هذه الشجرة لامعة متلألئة كالنار وسط الضباب، وكانت كل ورقة من أوراقها مشبعة باللون الأصفر الذي عادة ما يغطي الجزيرة في فصل الخريف، كأنها أبراج صنوبر مشتعلة.

أحكمت قبضتي على حزام حقيبتي، بينما كنت أخطو خطواتي الأخيرة تحت الشجرة، محتضنة واحدًا من الأفرع المتدلية، وكان هناك طائر الزرزور جالسًا دون حراك، ورأسه متجهٌ إلى أحد الجانبين، وتلألأ ريشه باللونين الأرجواني والأخضر، وأحاط رقبته اللون الأبيض الناصع، كأن هناك ياقة حول رقبته.

كانت طيور الزرزور متأخرة في مغادرتها تمامًا مثل الأشجار. فبحلول شهر سبتمبر، تهاجر هذه الطيور نحو الجنوب، ولكن هذا العام لم تهاجر وظلت باقية. رمقني أحد هذه الطيور طويلًا في صمت تام، وكانت عيناه تشبهان نقاط الحبر، قبل أن يقفز فجأة من فوق الفرع ويبدأ الطيران مختفيًا عن الأنظار.

هبت ريح باردة تداعب خصلات شعري المنسدلة حول وجهي، وكنت أرتجف بينما أرنو إلى أفرع الأشجار، فلم تسقط ورقة واحدة من الأوراق الكتانية، ولكن ظل حفيفها مسموعًا، كأنه تعويذة لم أستطع سماعها بوضوح.

أسفل التل كانت المدينة قابعة وسط الضباب، تشغل بقعة الأرض المنخفضة. برج دار العبادة الأبيض هو الشيء الوحيد الذي كان مرئيًّا، حيث يبرز وسط الضباب كعيدان القصب في البحيرة. ضاقت عيناي بينما كنت أشاهد الضباب يتحرك فوق تيار من الأشياء الحمراء والصفراء خلف هذا الضباب. وبعد لحظات، بدأ الضباب ينقشع، وبدأتُ أدرك أن أظافر أصابعي تحك راحة يدي.

كانت الأوراق المدببة لأشجار القيقب في شارع ماين تهتز على أغصانها، وكانت تتلون باللون الأحمر القاني، فمنذ ستة أسابيع تقريبًا - ومن دون سابق إنذار - تحولت كل شجرة في سيرشا بين ليلة وضحاها.

كان لديَّ من المعرفة ما يجعل من الصعب تجاهُل مثل هذه الأشياء. نحن جميعًا كذلك، فهذا الوقت من العام هو الذي تنكشف فيه الحجب بين العوالم، وفي هذه اللحظة شعرت بوخز أصابع هذا العالم الآخر في عمودي الفقري.

رن جرس المرفأ مجددًا، مشيرًا إلى وصول العبَّارة إلى الميناء، وبدأت أنزل إلى أسفل التل. أسرعت خطاي، وقاومت رغبتي في النظر ورائي، وفي النهاية اتسع الطريق المؤدي إلى شارع ماين الممتلئ بالأشجار غير المتساوية الطول. كانت الأبنية ذات لون أخضر وأزرق مثل بوجيت ساوند، وهي الألوان التي انصهرت معًا في ضوء النهار. وكان يعلو هذه المباني أسقف من الطحالب، بينما كانت نوافذ هذه الأبنية ذات الضلفة الواحدة أول ما استقبل ضوء النهار بينما كنت أمرُّ بجوارها.

دسست خصلة من شعري خلف أذني، بينما أدخلت يدي في جيبي لأمسك بالمفتاح المعدني الثقيل. كانت الحروف المطبوعة على اللافتة المكتوبة بخط اليد والمعلقة على الممشى قد تلاشت، وأصبحت ملساء بفعل رياح البحر.

مقهى بلاك وود
الأعشاب المقوية وأوراق الشاي

عندما رأيت من يقف أسفل اللافتة، تأوهت، وتوقفت عند أسفل الدرجات الحجرية غير المستوية.

كانت نيكسي واقفة خلف حائط مائل بجوار الباب، وكان أمام فخذها ثمرة قرع بيضاء كالشبح ومغطاة بالزوائد؛ إنها النوع المفضل لي.

كانت ترتدي بنطالا عمليًا كبير الحجم للغاية، وكانت خصلات شعرها المثبتة أعلى رأسها قد تفككت.

رفعت أحد حاجبيها قائلة: "هل ترين هذه الأشجار؟".

تتبعت ناظريها إلى شجرة الصمغ اللاذع عبر الشارع، وكانت تلك الشجرة مغطاة بما يشبه عباءة العنبر الجميلة، وكان انعكاسها مضيئًا على النوافذ من خلفي. وكذلك مثل شجرة الجوز التي رأيتها على التل، لم تسقط ورقة واحدة منها على الأرض.

"رأيتها"... أجبتها بينما التوي فمي على أحد الجانبين.

عندما اتجهت عيناها نحوي أخيرًا، لمحت فيهما نظرة استفهام. لم تكن نيكسي عمتي بالمعنى الحقيقي، ولكنها كانت الصديقة المقربة لأبي وأمي، منذ أن كانوا جميعًا أطفالًا. وعلى حد علمي لم أفز قط في جدال دار بيني وبينها.

قالت بصوت حاد: "تغيرت كلها في ليلة واحدة، يا لها من مصادفة، ألا تعتقدين ذلك؟".

يعرف كلانا أن الأمر ليس كذلك، لقد تعلمت منذ صغري كيف أقرأ نُذُر الشؤم، وهي الطريقة التي تعلم بها الأطفال في البر الرئيسي قراءة الحروف والأرقام. كدخول فراشة إلى المنزل من خلال النافذة، ورؤية البومة في وضح النهار، ورؤية الوهج البسيط لهالة تحيط بالقمر أحيانًا في الشتاء.

كانت جدتي ألبرتين تقف أمامي عندما كنت أجلس على أحد المقاعد في المطبخ، وكانت تقوم بتقليب إناء لطهي التوت بملعقة خشبية. ما زالت نبرة صوتها العميق تُحدث صدى بداخلي، لكنني أيضًا أدركت أن بعض الهواجس تظل دفينة

بين طيات الزمن، ولا يمكن رؤيتها إلا عندما تعود بذاكرتك للنظر إليها، ولقد رأيت بالفعل نصيبي من هذه الهواجس.

وصلت إلى الدرج، ووضعت المفتاح في القفل، وحاولت ثلاث مرات، ثم دفعت الباب بكتفي حتى انزلق المزلاج، وانفتح الباب. كانت تفوح بالمكان رائحة عتيقة من نبات اللافندر، ونبات المريم، فشممت ألف ذكرى وذكرى، دون أن أعبأ بعدد المرات التي استنشقت فيها هذه الرائحة.

تسلل ضوء شاحب من نوافذ المتجر، فظهرت خيوط أشعة مضيئة من الغبار وسط الظلام، سرت من خلالها لأصل إلى الخطاف الصدئ على الحائط لأعلق عليه حقيبتي. تدلت حزم من الأعشاب البرية من العوارض الخشبية، والرفوف المبطنة بأكياس ورقية بنية اللون متراصة بشكل أنيق، وكانت هذه الحزم مكدسة على الجدران، حتى وصلت إلى السقف.

كانت هناك أكياس من الشاي عليها ملصقات مكتوبة بخط اليد، لتحديد أنواع الشاي لمعالجة كل الأعراض المرضية: مثل القلق، وآلام الدورة الشهرية، والتخلص من آلام الحلق. وكانت المشروبات الأكثر غموضًا، والتي لا يمكنك العثور عليها في البر الرئيسي، هي التي جاء لها الناس من كل حدب وصوب، وعبروا من أجلها المياه في أيام فصل الخريف القاتم. كانت هناك وصفات لإشعال الحب، وجلب الحظ، أو استدعاء الأحلام، وكانت تلك الوصفات تمثل القليل مما كان يزخر به المتجر، منذ أن تم فتح أبوابه لأول مرة عام 1812.

أغلقت نيكسي الباب خلفها، ووضعت ثمرة القرع في أقرب مكان، وقالت: "أعتقد أنني يجب أن أعود لأطمئن عليكِ". كسرت عبارتها تلك الصمت العقيم الذي ساد بيننا، وكانت كل منا تعلم سبب وجودها هنا.

رددت: "لتطمئني عليَّ؟".

استبدلتُ بسترتي مئزرًا من الكتان، وانشغلت يداي بربطه.

رفعت حاجبيها بما ينم عن علمها، وقالت: "بعد الليلة الأخيرة، يا إلهي! لقد سمعت الجزيرة بأكملها الشجار الذي دار بينكما. هممم، سمعت كذلك أن الأمور كانت تسير في صفك". وضعت إحدى يديها على فخذها وانتظرت، لكنني لم أكن لأبلع الطعم. "كم مرة ستجعلين هذا الصبي يطلب منك الزواج؟".

قلت بنبرة حاسمة: "لن نتحدث عن هذا الأمر مجددًا".

تمنيت أن تضع هذه العبارة نهاية لهذا الحديث.

"أعرف أنكِ لا تريدين سماع ذلك، ولكن يجب قول ذلك".

"لقد قلتِ ذلك، *مائة مرة*". اهتزت علامة "مغلق" المعلقة على الباب، تتدلى من السلسلة، عندما أدرتها على كلمة "مفتوح".

خفضت نيكسي من نبرة صوتها، وانتظرت مني أن أنظر إليها، وقالت: "إذن، متى سوف تبدئين فى الاستماع؟ في يوم ما سيتوقف عن السؤال".

ازدردت لعابي بصعوبة، وتذكرت الطريقة التي حرَّك بها دوتش كتفيه، بينما كان واقفًا عند الحوض في الليلة السابقة. كانت نيكسي على حق، في يوم سيصاب بالتعب والإرهاق من جراء سؤالي وطلبه أن تربطنا علاقة مستقرة، وأن نتزوج، ونبدأ تكوين أسرة. لن نقضي لياليَ أخرى طويلة ساهرين في الكابينة أو على الشاطئ في إجازات نهاية الأسبوع. كانت الفكرة مخيفة بالقدر نفسه الذي تبعث به على الراحة، وكان هذا هو الجزء الأسوأ في الأمر كله.

استفسرتُ مغيرة الموضوع: "هل سنظل نعمل للغد؟".

رمقتني نيكسي بنظرة غاضبة، ثم تراجعت في النهاية وقالت: "نعم".

كانت الكلمات التي لم تتفوه بها واضحة في عينيها بينما كانت تنظر إليَّ. لم يكن هذا الحوار هو آخر ما تحدثنا به، ولن ينتهي حديثنا أبدًا ما دمتُ أتظاهر بأنها مخطئة في الحكم عليَّ.

منذ البداية، ولم يرق لنيكسي قط تلك العلاقة التي تربطني بدوتش، كما أنها لم تحاول أن تتحمل عناء الاحتفاظ بها لنفسها. وكان خوفها الحقيقي يتمثل في أنها بعد رحيلها - مثل أمي - سوف تتركني وحيدة، وظل قلقها يتفاقم كل أسبوع.

انحنت إلى الأمام، وقبَّلتني على خدي، لتبث بداخلي السلام والطمأنينة.

سحبت الجرس النحاسي المعلق عند الباب، فرن بصوته المدوي، ولكنني لم أطمئن حتى نزلتْ على الدرج وغابت عن ناظريَّ.

نظرت إلى السماء الرمادية. يبدو أن الأمطار ستبدأ الهطول خلال دقائق، ولكن ذلك لن يمنع وصول العبَّارة. وبطول الشارع، اتجهت السحب المنخفضة نحو الغابات، وما زلتُ أرى شجرة الجوز الصفراء واقفة مثل الحارس عند قمة التل. اختفت الشجرة، ثم ظهرت ثانية عندما انقشع الضباب، تمامًا كضوء الشمعة التي تخفت بفعل الريح، ثم تشتعل مرة أخرى.

تحرك انعكاس صورتي على المرآة ذات الإطار. عدت بناظري أرمق نفسي بعينيّ الزرقاوين توهجت عيني اليسري بدفقة من اللون الأخضر اللامع الذي رسم نجمة في قزحية عيني. عندما كنت طفلة قالت لي جدتي إن هذا يعني أنني موسومة بشيء ما، وأنني كنت مميزة بطريقة أو بأخرى. لكنني هنا الآن، في متجر والدتي، أرتدي مئزرها. لقد ورثت حياة كاملة، حياة كنت قد أقسمت أنني لن أعيشها أبدًا.

تجولت حول طاولة العمل البدائية الموجودة في الجزء الخلفي من المتجر، واستبدلت الشموع التي احترقت بالكامل قبل أن أنهي صنع كمية الشاي الجديدة في الليلة السابقة. كانت صفحة كتاب الأعشاب المفتوحة ما زالت تحملق إليَّ من مكانها، الذي توجد فيه وسط برطمانات العنبر الزجاجية.

كان هناك كتابان ملازمان لتاريخ العائلة؛ كتاب الأعشاب وكتاب بلاكوود للتعويذات، وكان كتاب التعويذات محفوظًا لدى جدتي ألبرتين، على رف الموقد أعلى المدفأة. سيمثل هذا الكتاب موطنًا لها حتى تفارق الحياة، ثم يصبح بعدها في حوزتي، ولكن كتاب الأعشاب ظل بين جدران المتجر.

كان الكتاب الثقيل ذو الغلاف الجلدي بمثابة دفتر يوميات تسجل فيه السيدة بلاكوود وصَفاتها وملاحظاتها الخاصة بالأعشاب، حتى أصبح الدفتر بمثابة كتاب مدرسي. كانت الصفحات السميكة مغطاة برسومات نباتية تصاحبها تدوينات بخط اليد ملأت الهوامش. كان كل معالج بالأعشاب يستخدم هذا الكتاب العتيق، ويدون فيه ما توصل إليه من أبحاث طوال فترة حياته، وكذلك ما زال مطلوبًا مني أيضًا أن أدون مساهماتي الخاصة في هذا الكتاب.

مرَّرت طرف إصبعي على الصفحة، حتى توصلت إلى المكان الذي توقفت عنده من قبل.

فتحت البرطمان الذي يحتوي على الزهور المسحوقة أولًا، ثم نثرت البتلات الرقيقة في الوعاء الخشبي العريض الموجود أمامي، امتلأ الهواء بغبار الزهور المسحوق فاستنشقت رائحة أزهار الصيف العطرية وقد ملأت رئتيَّ. بعد ذلك التقطت برطمان القرفة المبشورة، ثم خلطت المكونات برجَّةٍ خفيفة، وخلال تلك اللحظة مع الأنفاس الملتقطة، أصبح الهواء رقيقًا وهشًّا. شعرت بالتجاعيد المتعمقة عند حاجبيَّ، ومال رأسي بينما أنصت، وتسلل الدفء إلى جسدي مجددًا، بشكل هادئ ولكنه محسوس.

ساد الصمت الأجوف، ولكنه تلاشى فجأة عندما وقع انفجار في المتجر فأصابتني رجفةٌ، وأسقطتُ الوعاء من فوق الطاولة. انزلق البرطمان من بين أصابعي، وتحطم عند قدميَّ، وتناثرت البتلات الوردية على الأرض الخشبية، عندما هبت ريح سريعة عبر النافذة، وأطفأت كذلك ضوء الشموع الموجود بدفقة واحدة. تجمدتُ، وأمسكت أصابعي بغطاء البرطمان المسطح بإحكام شديد، حتى شعرت بأطرافه المدببة تجرح يدي الرقيقة، فتساقطت قطرات من الدم من خلال أصابعي.

على الجانب الآخر من المتجر، انكسر زجاج النافذة، فظهرت من خلاله خطوط متعرجة. حبست أنفاسي، وتردد في ذهني صوت هامس، بينما كنت أخطو خطوات مترددة حول الطاولة.

استطعت رؤية شظايا ذهبية وقرمزية متطايرة في الخارج، فضغطت يدي النازفة على صدري، بينما كانت نبضات قلبي تدق مثل الطبول في المراسم الشعائرية.

في الوقت نفسه، تطايرت أوراق الشجر في الشارع مثل سرب من الجراد، ولكن عندما نظرت لأسفل، تسابقت أصوات الغابة إلى المتجر لتملأ الفراغ بين الجدران تصاحبها برودة الشتاء.

كان طائر الزرزور ملقى على الأرض ميِّتًا أمام النافذة. كان جناحاه اللامعان ممدودين، وعظام صدره البيضاء تعكس الضوء.

كانت الإشارات خفية في بعض الأحيان، كظل عابر، أو صدى صوت بين الأشجار. وفي أحيان أخرى، لم تكن الجزيرة وديعة في إرسال رسائلها.

وقفت هناك، أحدق إلى الطائر، وشعرت بالتواء مؤلم بين أضلاعي، وفي اللحظة التالية، دوَّى صوت بوق العبَّارة.

الفصل الثالث

إيميري

قالت ليودا: "يا له من فأل سيئ".

فتحتُ زجاجة من خلاصة نبات البندق، وبللت طرف قطعة قماش، ونظرت إلى الجرح القطعي في يدي، وخارج النافذة، ظهر زوجها هانز يلتقط طائر الزرزور، وكان يرتدي قفازين في يديه، ورفع الطائر في الهواء، ليتفحصه للحظات قبل أن يضعه في حقيبة من الخيش.

تنهدت ليودا قائلة: "الأشجار أولًا، ثم هذا. لو كانت والدتك موجودة لقالت الكلمات نفسها".

كانت على حق، فهذا تحديدًا ما كانت أمي ستقوله لو كانت شاهدة على ذلك.

سحبت ليودا شعرها الفضي بعيدًا عن وجهها، لتكشف عن عينيها اليافعتين المحاطتين برموش سوداء تشبه الأكاليل. كانت امرأة صغيرة الحجم، وقوامها نحيفًا داخل سترتها الفضفاضة، لكن صوتها كان دائمًا مدويًا، بما لا يتناسب مع المساحة الضيقة للمتجر.

اختفى هانز عن الأنظار، وعندما عاد، كان يحمل في يده مقشة قديمة؛ حيث كان يكنس الطوب من جانب إلى آخر بحركات قوية وطويلة متسببًا في تطاير الغبار في الهواء. وعندما انتهى، خلع القبعة الصوفية عن رأسه، ومرر إحدى يديه عبر شعره الأبيض الرقيق.

لاحظت الجرح بصعوبة، بينما كانت ليودا تضغط القماش على راحة يدي. كانت ليودا، بجوار عملها في إدارة الصيدلية المجاورة، تعمل قابلةً، وهو ما يعني أنها تقريبًا استقبلت كل طفل في المدينة، بمن في ذلك أنا، ووالداي، ولكنها دائمًا تحظى بذوق رفيع.

رفعت نظري عن يديَّ ولمحت فمها مائلًا إلى أحد الجانبين، كما لو أنها تفكر في أمر ما. ولكن أيًّا كان ما تفكر فيه، فقد اعتقدت أنه من الأفضل أن تتفوه به بصوت مرتفع.

"نبات إكليل الجبل يمكنه إصلاح أي شيء". تركت القماش، واستلَّت السكين من طاولة العمل الخاصة بي، واتجهت نحو حزمة الأعشاب المتدلية من العوارض الخشبية. قائلة: "أين الملح الأسود؟"، وقفت على أصابع قدميها حتى استطاعت أن تقطع بعض براعم إكليل الجبل.

ترددت قبل أن أتجه نحو أحد الأدراج الصغيرة في الكوخ الموجود في الجزء الخلفي من المتجر، وفتحت الدرج، ووجدت برطمان الحلوى الهلامية بغطائه الصدئ، وكان زجاج البرطمان رماديًّا من أثر الفحم المطحون داخل الدرج.

رن الجرس النحاسي القديم بينما فتحتُ الباب، ونزعتُ الغطاء من البرطمان، ثم انحنت بالخارج نحو الرصيف، ونثرتُ محتوى البرطمان على البقعة التي كان طائر الزرزور راقدًا فيها منذ لحظات. من الشائع والمعتاد نثر الملح على الأرض التي تشهد حالات موت حتى لا ينتشر ظل الموت في أي مكان.

عندما انتهيت، نظرت إلى الشارع في كل الاتجاهات، وشاهدت أوراق الشجر متناثرة فوق الممرات، وعلى مسافة بعيدة ظهرت بالفعل حشود من الناس عند مدخل المرفأ، وكانت أبواب المتاجر تفتح الواحد تلو الآخر. وخلف النوافذ استطعت رؤية أكثر من وجه مألوف لي.

"أعتقد أن هذه العاصفة سوف تمر سريعًا". أغلقت الباب من خلفي، وتمنيت أن يكون الحديث عن أي شيء آخر من الأسباب التي تطرد البرودة من الهواء.

تمتمتْ: "ربما سنرى، كيف أحوال والدك؟".

التقطتُ المقشة من الزاوية، وكنستُ الزجاج المتناثر حول قدميها وأجبتها: "أعتقد أن حاله أفضل، ولكنه ربما يخبرني بعكس ذلك".

ذهبتُ ناحية الطاولة، وأخذتُ قطعة طويلة من الخيوط المشذبة التي استخدمتُها أنا في حزم الطرود من خلف السجلات القديمة، ثم وضعتُ نبات إكليل الجبل بشكل منظم، وربطته ثم عقدته ثلاث مرات، فهي معتادة أن تعقده هكذا.

هزت رأسها قائلة: "حسنًا، ليس من المستغرب أنه كان على مشارف الموت، هناك على سطح الماء، قبل الفجر، في قارب الصيد، كان يبدو شابًّا يبلغ عشرين عامًا، إنه محظوظ أن الأمر لم يتجاوز نزلة برد".

دسَّت يدها في جيب سترتها، وأخرجت كيسًا ورقيًّا صغيرًا ووضعته على الطاولة. "مرتان كل يوم، والأفضل أربع مرات، قد يبدو مذاقها كريهًا، ولكنها ستحقق الهدف". رفعت أحد أصابعها في الهواء، واستطردت: "اغمريه من خمس إلى عشر دقائق، ليس أقل من ذلك. أخبريه أنتِ بذلك".

"سأفعل".

يبدو أن هذا قد أشعرها بالراحة، فعقدت ذراعيها، ونظرت من خلال نافذة الباب، وقد أحال الضوء لون عينيها الأزرق إلى الرمادي الشاحب، فقالت بينما تزم شفتيها: "الأمطار في الخارج تهطل بالفعل".

كان السكان المحليون في سيرشا يكرهون السائحين الموسميين بقدر حاجتهم نفسها إليهم؛ لكننا أدركنا بالعمل والكفاح ماذا يحدث عندما تكون العبَّارة فارغة. كان آخر سكان البر الرئيسي سيتوجه إلى الجزيرة، قبل إغلاق كل شيء بسبب الشتاء، ولم يكن بمقدوري تحمُّل عدم فتح المتجر فكان يمثل لي آخر زيادة للدخل يمكنني الحصول عليها قبل حلول الربيع، حيث تبدأ العبَّارة العمل مجددًا حسب المواعيد المحددة. عندئذٍ سيكون لدينا زائرون لمشاهدة الحيتان وصيد الطيور، وربما يحضر عالِم أو اثنان للبحث عن عيش غراب نادر، أو لإجراء فحوصات للمياه. نحن نرى كل هؤلاء بالعين نفسها، ونعدُّهم غرباء.

كان أبي دائمًا ما يقول إنهم شرٌّ لا بد منه، رغم أنه لم يبد منزعجًا بشأنهم مطلقًا، على النقيض من ليودا. كانت عائلة مورجان إحدى أقدم العائلات على الجزيرة، وكانت أكثرها حماية للجزيرة كذلك.

رأيت فمها ملائلًا ونظرتها أصبحت باهتة، عندما مرت امرأة ترتدي سترة وردية عبر النافذة المكسورة، وفتاة صغيرة تظهر خلفها. شعرت أيضًا بالأمر نفسه؛

أي تراجع سحر الجزيرة ورونقها، عندما ضخَّت العبَّارة هذا العدد من الزائرين، مثل الماء الذي يتدفق من شقوق في الرصيف.

دلفت المرأة إلى الداخل وقالت: "صباح الخير!". كانت وجنتاها محمرتين من ركوبها العبَّارة. نزعت القفازين من يديها، وقالت: "الطقس بارد في الخارج، أليس كذلك؟!".

قلتُ بينما أنظر إلى ليودا: "بلى بالتأكيد".

تراجعت بخطواتها، وهي تشاهد الفتاة الصغيرة وكانت شفتاها ملتويتين، كما لو أنها تخشى أن تعض الطفلة كعبيها.

بمجرد أن ابتعدت عنها، أمسكت ليودا بحافة الباب لمنعه من الغلق، ونظرت إلى نبات إكليل الجبل على الطاولة، ثم قالت بصوت غليظ: "لا نستقبل الضيوف بينما نقف على عتبة الباب يا عزيزتي".

تناهى إلى مسامعي بعض الكلمات البغيضة التي لم أتمكن من فهمها، بينما سارت عائدة إلى الصيدلية المجاورة.

قلت: "هل يوجد ما يمكنني مساعدتك بشأنه؟"، ثم انحنيت نحو الأرضية لكنس كومة الزجاج المكسور، والأعشاب الجافة، وجمعها في وعاء القمامة.

ابتسمت لي المرأة ابتسامة عريضة وهي تلتقط كيس شاي، لكن تحول ناظرها إلى برطمان الملح الأسود على طاولة العمل، حيث كان كتاب الأعشاب ما زال مفتوحًا.

وضعت وعاء القمامة على الطاولة، ورفعت الجانب الثقيل من الكتاب ثم أغلقته سريعًا.

السياح الذين يأتون إلى سيرشا لا يأتون فقط من أجل التفاح، فالمدينة قد تغيرت كثيرًا خلال الأعوام المائة الأخيرة، وانتشرت قصص عن الجزيرة والأشخاص الذين عاشوا فيها. معظم المتاجر لم تكن بها خدمة الإنترنت "واي فاي"، وشبكات الهاتف المحمول كانت خارج التغطية بعيدًا عن المرفأ، لكن السيَّاح يتوافدون للسير في الشارع وسرد تلك الحكايات.

السحرة... لقد سمعت الأطفال من البر الرئيسي يهمسون بهذه الكلمة كأنها سر، وذلك منذ أن كنت صغيرة، ألهو وألعب في متجر أمي، بينما كانت تمارس عملها. لقد عدَّت ذلك دائمًا أمرًا غريبًا؛ لأن هذه الكلمة لا تعد سرًّا في سيرشا،

وكان ذلك سحرًا عميقًا يسري في دماء كل امرأة على هذه الجزيرة، كما قد تسلل إلى أرض البستان، فتتطاير الأوراق كل ربيع، وتتساقط لتذبل كل خريف على أرضية البستان.

تخلى الناس في البر الرئيسي عن عاداتهم، وانفصلوا عن جذورهم وعائلاتهم، لكن الأمر كان مختلفًا في سيرشا. بينما كان العالم الخارجي يحرق الساحرات، كنا نعيش هنا على الجزيرة.

قالت المرأة بينما جحظت عيناها ناظرة إلى الزجاج المكسور في وعاء القمامة: "ماذا حدث هناك؟".

أفرغت وعاء القمامة، وقلت: "لا شيء، إنه مجرد طائر".

فحصت الكسر الذي أصاب النافذة من خلفي.

التقطتُ كتاب الأعشاب من فوق الطاولة، وضممته بذراعيَّ، ثم وضعته في درج القفص. شعرت بنظراتها الفاحصة تتبعني، بينما كنت أدور حول الطاولة، لكنني تجاهلتها، وقد كنت ماهرة في ذلك.

عندما اتجهَت أخيرًا إلى طاولة التسجيل ومعها عبوة الشاي في يديها، وجَّهت لها ابتسامة دافئة، وقلت: "هل هناك شيء آخر؟".

"هذا يفي بالغرض".

التقطت عودًا من العسل من الوعاء الفخاري بجوار طاولة التسجيل، وأعطيته الفتاة الصغيرة، لكن ظهرت عليها مشاعر الخوف، بينما كانت ممسكة بالممسحة السميكة التي تأثرت بالانفجارات التي وقعت.

ضحكت المرأة، ونظرت إلى كل منَّا، وقالت: "حسنًا تفضَّلي".

أخذتها الفتاة على مضض، وأدارت العصا بين أصابعها، وشاهدت الضوء اللامع على ذرات السكر الكريستالي بداخلها. مرَّرت أمها يدها على رأسها بحنان، قبل أن تسحب حافظة نقودها من حقيبتها.

"كما تعلمين، لم أحضر إلى هنا منذ حدوث الحريق".

ضغطت المفاتيح الموجودة على طاولة التسجيل القديمة، وانزلق إصبعي على الرقم تسعة. وعندما نطق فمها بالكلمات عادت المفاتيح إلى وضعها السابق، وكانت قد تركت أثرًا لحبر أسود على الإيصال.

قلت لها، وما زلت محتفظة بابتسامتي: "حسنًا، مرحبًا بعودتك".

قالت: "كنا نأتي إلى هنا كل عام عندما كنت طفلة، وعندما كانت المرأة التي تملك هذا المتجر تقرأ أوراق الشاي، وكانت والدتي دائمًا ما يكون معها ما تقرأه".
ألقت نظرة سريعة على الكوخ المصنوع من أشجار الصنوبر الموجود في مؤخرة المتجر، وفي هذا الكوخ كانت قد وُضِعَت الأكواب القديمة وأطباقها بشكل مرتب وأنيق.

وقعت عيناي على فنجان الشاي الأخضر ذي الإطار الذهبي، وكانت حافته مكسورة، وقد كان موجودًا على الرف العلوي. لم يصادف أن لامست يداي هذا الفنجان منذ أربعة عشر عامًا، كما أنني أقسمت ألا ألمسه مرة أخرى.

قلت لها: "حسنًا، نحن لم نعرض ما يمكن قراءته منذ وقت طويل". بدأت مرة أخرى بيدي الراسخة تحديد الأرقام بشكل إيقاعي ثابت.

وكي أتحرى الدقة، فقد كان ذلك منذ ست سنوات. كانت أمي هي آخر شخص يقرأ الأوراق في المتجر، وبقدر ما كنت مهتمة، ظل الأمر على حاله.

تجهمت، وقالت: "أوه، يجب أن تفعلوا ذلك، فهو أمر مهم يزيد من خبراتكم، كما تعلمين".

حدقت إليها، وتأملت متفحصة الخط المرسوم بعناية لأحمر الشفاه، والذي يشبه تقريبًا لون معطفها نفسه. كانت تنقر بأظافرها المطلية على الطاولة التي كانت تفصل بيننا.

"لقد توقفنا عن الحضور إلى هنا بعد وقوع حادث، بكل تأكيد لم نصدق ما سمعناه حينها، وكان هذا الحادث هو ما تتناوله جميع الأخبار لمدة شهور، وفي الليلة نفسها ماتت تلك الفتاة المسكينة، أليس كذلك؟ ماذا كان اسمها؟ ليلي؟".

عضضت على شفتي السفلى عندما سمعت ذلك، صوت قعقعة أكواب الشاي على صحونها، وكان هذا الصوت هادئًا حتى حوَّلت المرأة ناظريها تجاه هذا الصوت، ثم ضاقت عيناها عندما خفت الصوت، وحلَّ محله صوت قطرات المطر على سطح المتجر.

وضعت الشاي في الكيس، وربطته بإحكام مستخدمة الخيط، وشددت الرباط بقوة، وقلت لها: "هذا صحيح".

قالت: "كان الأمر برمته غريبًا"، ثم خفضت رأسها لترى وجهي، ثم استطردت: "ما الذي اعتقده الناس هنا بالنسبة لما حدث لها؟".

للحظة، تقابلت عيناي مع عينيها. إنني أعرف جيدًا هذه النظرة، إنها الفضول المرضي - مجرد فضول وتسلية بهذه الأحداث المثيرة. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يحضر فيها شخص ما إلى المتجر ليطرح الأسئلة نفسها.

كان هناك فهم وإدراك غير معلنين لما يحدث على جزيرة سيرشا. لم نتحدث عما وقع في تلك الليلة، خاصة ليلي مورجان، وخاصة لهؤلاء الذين حضروا من خارج الجزيرة.

عندما لم أجب عن سؤال هذه المرأة، ابتسمت بخجل، وقالت: "على أية حال، أعتقد أنني يجب أن أحضر ابنتي. حافظي على طباعك وعاداتك الآن، انظري إلى البستان، كل شيء يبدو جميلًا".

قلت: "حسنًا، كان هذا منذ وقت طويل". وكان الأمر كذلك بالفعل. لقد مرت أربعة عشر عامًا، ولكن لم يعد مهمًّا الآن كيف أصبحت أفرع شجر التفاح يانعة خضراء، فما زلت أشعر بالصبغة السوداء التي خلَّفها الحادث على الأرض من حولي.

اقتربت من الطاولة وفتحت الباب، وكنت ممسكة بالكيس الذي كان يفصل بيني وبينها، وقد ترددت المرأة للحظات قبل أن تأخذها.

كانت الطفلة تراقبني من وراء أمها، وكانت تبدو خائفة من نظراتي إليها.

"شكرًا لحضورك إلى هنا".

سحبت الفتاة، ونزلتا على الدرج، ثم انفتحت المظلة بينما انطلقتا في طريقهما نحو صف الأشجار الذي يبدو على مسافة من هنا. كانت الريح في الخارج قد أصبحت نشطة، وتجمعت السحب كأنها دخان خفيف فوق رءوسنا.

عدت إلى الداخل، وتركت الباب ينغلق من خلفي. كان المتجر قد أصبح خاويًا كما لم يحدث منذ الصباح، كأن الدفء الذي عادة ما يملأ المكان قد ولَّى.

توجهت نحو النافذة، ووضعت إصبعي على الكسر الذي أصاب الزجاج، وتتبعته. تناثرت آثار الريش على الزجاج حيث اصطدم به طائر الزرزور، وتحولت أنفاسي إلى ضباب غلَّف طرف ريش الجناح.

بينما كنت عائدة إلى الطاولة، شعرت بصرير الألواح الأرضية تحت قدميَّ، والتقطت حزمة نبات إكليل الجبل التي كانت ليودا قد أحضرتها، ثم قمت بتدويرها بين أصابعي قبل أن أتجه نحو الباب، وأرفع أصابع قدميَّ على عتبة الباب كما طلبت منِّي أن أفعل.

ربما كان ذلك نتيجة الحديث عن الحادث المؤلم أو الجدال الذي دار بيني وبين دوتش. ربما كان ذلك هو الشعور الذي دائمًا ما ينتابني في هذا الوقت نفسه من كل عام، وربما كان ذلك نتيجة التحول المفاجئ للأشجار، يا لها من مصادفة كما وصفتها نيكسي! ولكنَّ كلًّا منا تعلم أنه ليست هناك مصادفات على جزيرة سيرشا.

الفصل الرابع

أوجست

أربعة عشر عامًا، ولم يتغير شيء.

توقفت العبَّارة، وقد ملأت الهواء برائحة الوقود المحترق، بينما كنت أنظر عبر سياج العبَّارة إلى الرصيف بالأسفل. كانت ألواح الخشب الرمادية قد صبغها اللون الأخضر نتيجة الطحالب على طول الحواف الممتدة بين قوارب الصيد القديمة الصدئة، والقوارب الراسية بالفعل على المرفأ.

كان طاقم العبَّارة يستعد للمغادرة بمجرد نزول أول الركاب على الدرج، وكنت أحمل حقيبتي على ظهري منتظرًا. قام الطاقم بتغيير اتجاه العبَّارة، حيث قاموا بتشغيل أربع رحلات أخرى قبل غروب الشمس، لكن اليوم لم ينتهِ بعد، فقد بدأ توًّا على الجزيرة.

هبط سرب من الحمام على العبَّارة بينما كان الحشد يتضاءل، وتدافع السرب تحت قدميَّ باحثًا عن أية فتات ربما تركها الركاب. رفعت غطاء الرأس، واهتز الدرج المعدني تحت قدميَّ، بينما نزلت إلى سطح العبَّارة. كلما طال الوقت الذي لا يتعرف فيه أحد عليَّ، صارت الأمور أقل تعقيدًا، لكن في اللحظة التي وطئت فيها قدماي أرض الجزيرة شعرت بمدى ثقلهما.

ضاق الممر الخشبي بينما توجهت إلى المرفأ، واقتربت من كشك التذاكر، حيث كان يجلس أحد الأشخاص خلف الزجاج الضبابي. ملت نحو القوارب، حرصًا

مني على ألا يراني أي شخص، سواء أحد صبية جالواي، أم أحد عمال البستان، الذي طال به العمر حتى إنه لم يعد يستطيع جرف القش. لكن على كل حال، لقد عرفوا القصة، وانتشرت الأخبار في كل أرجاء المدينة بشكل سريع.

اكتظ شارع ماين بأعداد هائلة من السائحين، لكنني سرت في الزقاق الذي يمر خلف الأبنية التي امتدت على شاطئ الجزيرة. في أية لحظة، يعود الصيادون بما يجود به صيدهم في الصباح، وعندئذٍ تكون أبواب المتاجر مفتوحة. كان هذا الوقت من العام هو نهاية موسم قطف التفاح، وهو أحد أكثر الأوقات زخمًا وازدحامًا. وخلال أسبوعين، تتغير مواعيد العبَّارة، فتصبح الجزيرة أكثر هدوءًا، حيث تعود الشياطين إلى سيرشا، لكنني رحلت قبل ذلك بوقت طويل.

عندما وصلت إلى دار العبادة في نهاية الشارع، كان المطر يتساقط بغزارة على غطاء الرأس المرفق بسترتي. غاص حذائي في أوراق الخريف المتساقطة، وقام الحشد بفتح مظلاتهم الواحدة تلو الأخرى، بينما كانوا يتجهون يسارًا نحو البستان. ولكنني سلكت الطريق الترابي متجهًا يمينًا نحو الأشجار.

كانت الأشجار العملاقة ذات اللون الأخضر طويلة كما لم أتذكرها؛ ما أصابني بغصة في حلقي. كنت أكره هذه الصورة كما لم يفعل أي شخص آخر. بالنسبة لي، كانت الجزيرة تشبه حجرًا مربوطًا في كاحلي، كأن كل شيء كان يشبه الضوء الذي أراه على السطح قبل أن أغرق. كان أملي الوحيد يتمثل في المغادرة، وقد تحققت أمنيتي، حتى لو كانت قد بدت مختلفة عما تخيلته.

كنت أشتم رائحة الشتاء في الهواء، لكن كان لا يزال بعيدًا، فما زال يتبقى شهران آخران حتى يتساقط الثلج على الجزيرة، ويعمها الصمت المقلق، الصمت الذي كان يبدو لي صوتًا أجوف لم يكن موجودًا في أي مكان آخر، وكان هذا أيضًا شيئًا حاولت نسيانه، لكني فشلت.

سمعت صوت محرك قديم من خلفي، بينما كنت أسير عبر الأشجار، لكني أبقيت ناظريَّ متجهين للأمام، وأحكمت قبضتي على حزام حقيبتي. كان من المستحيل أن أكون غير مرئي في هذا الطريق، فهو يؤدي إلى أحد الأماكن القليلة التي لا يرتادها السائحون، وهذا يعني أن الطريق سيكون خاليًا من المارة.

كان الأمان الذي يتميز به حرم جامعة إيفردين يبدو بعيدًا جدًّا الآن. المكتب القديم المصنوع من خشب البلوط والنوافذ ذات الزجاج الملون، والممرات الضيقة

في أبنية الجامعة. لقد قبلت وظيفتي في بورتلاند كي تصبح حياتي أفضل، لكنها لم تكن كذلك على الرغم من الفصل الدراسي المكتظ بالطلاب، والجامعة التي لم تخلُ من الصخب. كانت الليالي في شقتي هادئة، باستثناء التحية الروتينية من تلك المرأة العجوز التي كانت تسكن في الجوار عندما كنت أفتح باب شقتي المشفر كل مساء. كان صديقي الوحيد الذي أتناول معه الشراب بعد ساعات العمل هو إريك، ولم أكن ماهرًا كذلك في المواعدة مطلقًا. وكانت تلك واحدة من اللعنات العديدة التي اصطحبتني من هذا المكان.

مرت بجانبي شاحنة زرقاء قديمة بسرعة شديدة، وعندما ظننت أنها ستواصل سيرها، أضاءت مصابيحها الخلفية الحمراء. لقد انفجرت إطاراتها وسط الأغصان المتساقطة والأحجار المدفونة، وتوقفت الشاحنة، وبدوري توقفت في منتصف الطريق عندما أدركت أنني تعرفت عليها.

كانت آخر مرة رأيت فيها هذه الشاحنة، عندما رمقني المارشال جيكوب بلاكوود بنظرة سوداء.

نزل زجاج النافذة في باب الشاحنة بجوار السائق، وتدلت منها يد كبيرة، بينما كان السائق يراقبني في المرآة الجانبية، ويبدو أنه ينتظرني.

شعرت بغصة في حلقي، واختناق في أنفاسي، ونظرت إلى الأشجار للحظة، قبل أن أبدأ السير متجهًا نحوه. عرفت أن هذا اللقاء لا يمكن تجنبه.

خرج الدخان من أنبوب العادم ناحية الطريق، وتوقفت أمام نافذة السائق. رمش جيكوب بعينيه قبل أن تواجهني نظراته. استحال لون عينيه الغائرتين إلى الرمادي بعد أن كان أزرق في الماضي، لكن شكل فمه لم يتغير. كان جيكوب فخورًا وعنيدًا، وما زال أثر الكحوليات التي يتجرعها يبدو على عروقه جيدًا.

قلت له: "أعتقد أنني عرفت أن شخصًا ما قد اتصل بك بالفعل".

نزع جيكوب القبعة من فوق رأسه ووضعها على لوحة القيادة، وقال: "اركب".

نظرت إلى الطريق الخالي في كلا الجانبين، قبل أن أرى المقعد الخالي في الجانب الآخر من الشاحنة. لقد كرهت هذا الرجل، لكني ربما سأحتاج إليه إذا ما كنت سأفعل ما جئت لأجله.

انزلقت الحقيبة من فوق كتفي عندما استدرت حول مقدمة الشاحنة، وفتحت باب الشاحنة المواجه للناحية الأخرى، لم ينبس جيكوب ببنت شفة عندما دلفت داخل الشاحنة، ثم أدار المحرك، وانطلق حتى قبل أن أغلق الباب.

ظل جيكوب منتبهًا إلى الطريق، وقال: "ماذا تفعل هنا يا أوجست؟"، وكان صوته خافتًا، حيث طغى عليه صوت المحرك.

" لا أعتقد أن هذا الأمر يخصك جيك".

نظر إليَّ عندئذ، وتفحصني بنظراته، كما لو أنه قد شعر فجأة بعدم تأكده من هوية الشخص الذي ركب الشاحنة توًّا. لم يكن المارشال يرفع نظره عني خلال الأشهر التي سبقت مغادرتي سيرشا، وحملت نظراته الآن الاتهام نفسه الذي وجهته لي قبل ذلك.

عندما لم يتفوه بكلمة أمسكت حقيبتي، وفتحتها لأخرج منها الجرة الصغيرة.

نظر إليها، وفغر فاه، ثم أغلق شفتيه، ولم يتكلم.

قلت: "جئت لأدفنها".

حرَك فكيه، ثم ثبت ناظريه مرة أخرى على الطريق، لكنني استطعت ملاحظة الألم الذي انتابه في هذه اللحظة. قال لي، وكان يعني ما يقول: "أشعر بالأسف لسماع ذلك".

جعلتني كلماته أكزُّ على أسناني، لقد أدار ظهره لكل ما حدث لنا منذ ذلك الحين. الجميع فعل ذلك. لقد نشأت مع جيك، بينما كان يشغل المكان، الذي تركه أبي عندما رحل. لقد علَّمني كيف أصطاد، وكيف أغير الإطارات، وكان يصطحبني من المدرسة في الأوقات التي اشتدت فيها العاصفة.

ازدردت لعابي، ونظرت إلى خارج النافذة، حيث كان المطر يتساقط على الزجاج الذي شابه الضباب... لا أريد التفكير في تلك الأيام الخوالي... في النهاية، كان جيكوب مثل الآخرين ولا يختلف عنهم.

ظهرت مجموعة قليلة من الأكواخ خلف الأشجار المتمايلة التي اصطفت على الطريق. عائلة إلسنرز، وعائلة هيرشز، وعائلة كيليرز. لقد عرفت كل منزل، وكل صفٍّ من الأشجار في البستان. كنت لا أزال أسير بينها في مخيلتي، فأحيانًا كنت أفعل ذلك.

المنازل، والوظائف، والقوارب... كلها كانت تنتقل من أحد أفراد العائلة إلى الفرد التالي، حتى ظل كل شيء على الجزيرة كما هو، لم يتغير خلال الأعوام المائة الأخيرة، حتى إن الحريق لم يكن بإمكانه أن يمحو أيًّا منها.

"لقد أرادت مني أن أدفنها هنا، هل هناك مشكلة في ذلك؟". لقد منحته الجرأة ليتحدث، وكنت أريد منه أن يفعل ذلك. إذ لم أعد ذلك الطفل الغبي الخائف كما كنت عندما غادرنا.

فكر جيكوب للحظة، وشعرت بأنه يفاضل بين خياراته. النكسة التي حلَّت على المدينة، هذا هو ما سيجذب انتباهه. لا أحد يعرف كم كانت مدة عقوبته لكل شيء حدث بعد مغادرتنا، ولكنني متأكد من أنه قد تعرض للعقوبة. لقد سارت الأمور على هذا النحو على الجزيرة، ولكنني لم أعد أهتم بأي من كل هذا طوال هذه المدة.

"هل زاكريا لا يزال..."

لم أعرف كيف أطرح السؤال.. هل ما زال يعيش في المقصورة القديمة؟ هل ما زال يتولى شئون المقبرة؟ هل ما زال حيًّا؟ إن كان لا يزال حيًّا، فربما تخطى التسعين من عمره الآن.

أجاب جيكوب: "نعم ما زال".

"من يمكنني التحدث معه بشأن بيع الكوخ؟".

ظهر على وجهه تعبير لم أستطع تمييزه، لكن عندما رمقني بنظرته، كانت تعبيرات وجهه لا تزال غامضة. أعتقد أنني ربما توهمت ذلك. قال: "سأرسل شخصًا ما".

دوى صوت الفرامل وتباطأت الشاحنة، ثم أدار عجلة القيادة. شعرت بغصة في حلقي عندما ظهر الكوخ أمامي، فقد ظهر الكوخ على الطريق، ونصفه مغطى بنبات العسله والتوت الأسود. كانت الشرفة غارقة في أحد الجوانب، والنوافذ معتمة. كانت رؤية الكوخ مؤلمة أكثر مما اعتقدت.

قال لي: "أريد منك أن تعود إلى العبَّارة في اللحظة التي تكون فيها أمك تحت الثرى". الآن هو من يبعث فيَّ الجرأة للتحدث.

تمتمت قائلًا: "صدقني، لن أقضي دقيقة هنا دون إرادتي".

أمسك جيك بمقبض ناقل الحركة، وتوجَّه بالشاحنة إلى ساحة الانتظار، ثم توقفت الشاحنة. قال: "إنني جاد في ذلك يا أوجست". وقد ملأت كلماته ثقيلة الوطأة مقصورة الشاحنة، بينما كانت يداه ممسكتين بعجلة القيادة.

كانت هناك قواعد يتبعها الجميع على الجزيرة، وهي اتفاق حول ما هو متوقع فعله من الناس الذين يعيشون على الجزيرة. لقد نشأت وأنا مثقل بهذا العبء؛ البستان واسم عائلتي، لكن كل ذلك قد تغير في الليلة التي وقع فيها الحريق.

أغلقت حقيبتي، وقفزت إلى خارج الشاحنة، وسرت في الممشى الخفي إلى حد ما، والذي يقود إلى المنزل الصغير. خفت صوت الشاحنة بينما واصلت طريقها مبتعدة، وعندما التفتُّ للوراء كان جيكوب قد رحل. ازدادت ضربات قلبي عندما رأيت الأشجار عبر الطريق القذر غير المستوي. كان منزل عائلة بلاكوود مختبئًا خلف طريق الشجر الأحمر.

شعرت بأنفاس حبيسة عندما اشتعلت النار في صدري، تحركت الأشجار الكثيفة بفعل الريح، واستطعت رؤية الشرفة تلوح من خلفها. لم أجد أية سيارة في ممر المنزل، ولكنه كان نظيفًا ويوحي بوجود من يسكنه، وقد شعرت بالرهبة عندما رأيت الحديقة وقد تم الاعتناء بها. كنت أتمنى بكل وجداني أن أجد منزل عائلة بلاكوود خاليًا، ولكن يبدو أن نوح وهانا ما زالا يعيشان هناك.

أخرجت المفتاح من جيبي، وأسرعت خطاي نحو الشرفة. بدا انعكاس صورتي غريبًا على الزجاج بينما يمر سريعًا عبر النافذة، ولكن كان هناك شيء خطأ به، تنفست مرة أخرى بثقة وثبات، قبل أن أدير القفل وأدفع الباب لأفتحه. اختلطت رائحة الغبار والورق مع الهواء الرطب في الخارج، وقد جعلني السكون بين الجدران أشعر بالقشعريرة.

لم تكن السنوات رحيمة بهذا المنزل القديم؛ فقد كانت هناك بقعة ماء داكنة تعلو أحد الجدران، وكانت النافذة المجاورة لطاولة الطعام مكسورة. تركت حقيبتي تنزلق من كتفي إلى الكرسي الخشبي الهزاز، بينما دلفت إلى الداخل، ووضعت الجرة على الطاولة الخشبية الصغيرة. يبدو أن أحدًا لم يلمس هذه الطاولة على الإطلاق، كل شيء كان كما تركناه تمامًا؛ الأطباق على الأرفف، والكتب على الرف، والصور الفوتوغرافية، كل شيء كان كما رأيته آخر مرة.

في ذلك الصباح، استيقظنا قبل الشروق، وجمعنا أغراضنا تلك التي تكفي لملء حقيبة صغيرة فقط، ثم سلكنا الطريق المظلم إلى المدينة، وتوجَّهنا إلى المرفأ، لقد رحلنا قبل أن يلاحظنا أية شخص.

الفصل الخامس

إيميري

انتظرت ساعة الذروة الصباحية لتنتهي قبل أن أخلع مئزري وأرتدي سترتي. كانت الطوابير تصطف أمام باب المقهى والمخبز في وقت الغداء، لكن أبي ظل مستعدًّا لفتح المقهى للجمهور الذي يحضر في فترة ما بعد الظهيرة.

كانت مياه الأمطار تعانق الأرصفة، وكان السياح يختبئون تحت مظلاتهم، ويحملون حقائب قماشية معبأة بالتفاح الأحمر والأصفر على أكتافهم، وكان الأطفال يحملون ثمرات القرع بين أذرعهم.

كانت أشعة الشمس الذهبية تمحو الضباب الصباحي، ولكنها كانت أحيانًا تخبو خلف السحب المظلمة. كانت الشمس كثيرًا ما تختفي كلما اقترب الشتاء. كان السياح يرحلون مع ضوء الشمس، وتتحول جزيرتنا إلى تلك المدينة الهادئة التي لا يزورها أحد كثيرًا، قبل أن يحل فصل الخريف.

رفعت غطاء سترتي على رأسي، وعبرت الطريق نحو سوق أدلمان. كانت الأبواب مفتوحة أثناء هطول المطر، واستطعت رؤية إيتسل تتواصل مع الزبائن خلف النافذة الكبيرة. كان اسم العائلة منقوشًا على الزجاج بأحرف أثرية، وكان الزبائن كثيرًا ما يلمسونها مئات المرات سنوات طويلة.

"بكل تأكيد سنحتاج إلى بناء سقف جديد قبل الشتاء المقبل، يا إلهي! كنا بحاجة إلى ذلك، وسوف أقضي عطلة نهاية الأسبوع أمسح الأرضية". تمتمت

إيتسل بذلك مع أحد الرجال عند الطاولة الرئيسية، بينما كنت أختبئ تحت ستارة من المطر المتساقط من المزراب.

رفعت إيتسل يدها تحييني قائلة: "مرحبًا إم !"، قبل أن تعود لتغليف قطعة جبن في ورقة بنية مربعة.

قلت بشكل تلقائي: "مرحبًا"، ثم مسحت حذائي في السجادة.

كانت معتادة الوقوف عند طاولة التسجيل، لكن زوجها روبرت كان يبتعد عن الطاولة الصغيرة، ويقف في الزاوية الخلفية كالمعتاد، مرتديًا مئزره الأبيض. لقد توقف روبرت عن طهي السمك وشرائح البطاطس الشهيرة لمدة عام كامل، بعد أن قامت إحدى المجلات بوصف سوق أدلمان واحدًا من أفضل المطاعم، في شمال غربي المحيط الهادي للمأكولات السياحية. لعدة أشهر كان الناس يقصدون هذا المطعم، وكانوا يأتون من بوجيث ساوند، حتى إنهم كانوا يملأون شارع ماين حتى المرفأ. الآن يقوم روبرت بتشغيل المقلاة بعد مغادرة العبَّارة المسائية.

تتبعت الرف السفلي إلى نهاية الجدار، ثم انعطفت إلى الممر التالي. كان كل جزء في المطعم مليئًا بسلاسل الكمثرى والقرع، وأرغفة الخبز، وبرطمانات المربى. كان القليل منها يحمل ملصقات ورقية عليها خط يد جدتي.

وضعت صندوقًا من البيض على فخذي، وأخرجت أرغفة الخبز من الكومة، وتجمدت يداي في الهواء عندما شعرت بعينيَّ تخرجان من محجريهما. نظرت حولي لأتفحص المطعم حتى رأيت مولي تولز وسارة هالستد مجتمعتين معًا في الزاوية، وتبدو على وجهيهما تعبيرات حادة متجهة نحوي.

كانت مولي تحمل طفلة صغيرة ذات شعر أشقر، بينما كانت سارة تعقد ذراعيها على بطنها الدائري الممتلئ. كنت أذهب إلى المدرسة مع كل منهما، ولكنهما توقفتا عن التواصل معي منذ التخرج، شأنهما شأن الجميع هنا.

تجاهلتهما، ووضعت الخبز تحت ذراعي، وذهبت إلى الطاولة التي تقف عندها إيتسل تنتظرني بالفعل.

أشارت إلى النافذة الكبيرة خلفنا، وقالت: "رأيت جيك يتجول في الشارع هذا الصباح".

"حقًّا؟".

ابتسمت، وداعبت أنفها في فضول قائلة: "هذا الرجل دائمًا ما يكون منشغلًا بشيء ما".

كانت هي عادة أول من يسمع الشائعات، نظرًا لتمتعها بإطلالة على شارع ماين بأكمله، وكون المارشال عمّي يعني أنني أحمل عبء الإجابة عن التساؤلات وفضول الناس عندما يحدث شيء ما.

قالت لي بينما تلفت انتباهي: "حسنًا، أي شيء آخر؟". وسمعت صوت طاولة التسجيل عندما انفتح الدرج.

"هذا كل ما في الأمر". مررت إليها ورقة من فئة الخمسة دولارات، ونظرت مرة أخرى في اتجاه مولي.

اختفى صوت همساتهما بسبب صوت الحوارات الدائرة على الرصيف، ربما تتناول هذه الأحاديث مقترحات دوتش، أو صعوبة إنجابي الأطفال بسبب تقدُّمي في العمر. لقد اعتدت أن أكون مثار الأحاديث، فكل شخص في الجزيرة له رأيه الخاص بشأني أنا ودوتش، ولكن الحقيقة أسوأ كثيرًا مما يتخيله أي شخص.

"حسنًا... قابلي هذا الشخص الذي يبدو أنه أفضل من سابقيه، يا عزيزتي". ابتسمت لي إيتسل بينما قالت لي ذلك، وقامت بإخفاء خصلات شعرها الفضي خلف أذنيها. كان تركيزها منصبًّا على الشخص التالي في الطابور.

وضعت البيض والخبز، وعدت أدراجي إلى الخارج حيث المطر. كانت هناك فترة لاحقتني فيها النظرات والهمسات، في كل مكان، عندما كانت العبَّارات خالية، والبستان نصف ممتلئ بالأشجار المحترقة، لكن هذه اللحظة شهدت استقبال سيرشا نوعًا مختلفًا من الغرباء... رجال الشرطة، والمحققين، ورجال الطب الشرعي.

لقد استغرق الأمر سنوات لأشعر كما لو أن المدينة بأكملها لا تراقبني... كانت تنتظر.

كان لا يزال بإمكاني أن أشم رائحة الدخان لتلك الليلة، ورؤية ألسنة اللهب الطويلة، تصل إلى السماء مثل وحوش غاضبة تتلوى. كان لا يزال بإمكاني سماع دوي الصرخات وهي تعم الغابة، والشعور بالبرودة التي لازمت يدي أسابيع بعد ذلك، وكان أسوأ ما في الأمر هو شعوري بالوحدة خلال السنوات التي تلت ذلك.

حاولـت تنحية هـذه الأفكار عـن ذهني، وسـلكت الرصيف المتعرج أسـفل التل. امتـدت الصـورة الباهتـة لمرفـأ جزيـرة سيرشـا، حتى وصـل إلى مدخـل الأرصفة الفارغة، حيث كانت بعض قوارب الصيد لا تزال مفقودة. كانت نوافذ كشك التذاكر مغطـاة بالبخـار نتيجـة التكثف، حيـث كان شـكل العامل بداخله يبـدو كظل يتحرك خلف الزجاج. وبجانبه كان يوجد متجر أبي في نهاية صف طويل من المتاجر.

عندمـا فتحـت الباب الثقيـل، كان المقبض النحاسـي المشـوه بـاردًا كالثلج في يـدي، ورمقـت بنـاظـريَّ عندما دخلـت، وحاولت عينـي التكيف مع الضـوء الخافت. كانـت القلادات الزجاجية معلقة على الأكشـاك الخشـبية، وكانـت ملائمة الجلدية الباليـة، ولكـن ضوء النهار الرمادي كان الشـيء الوحيد الذي يضيء المقهى. خلف الطاولـة الخشـبية المنحنيـة، كان أبـي يحرك كأسًـا في يديه قبـل أن يضعها بجوار الصنابير.

"صبـاح الخيـر يا أبي". تحركـت بين الطاولات، وقمت بفك الوشـاح الذي كان ملتفًّا حول رقبتي.

ابتسـم أبي، بينمـا يمسـك كوبًا آخر من الحوض، وقال لي: "أليـس هنـاك شـيء آخر أفضل من ذلك لتفعليه في فترة راحتك؟".

اقتربـت لأقـف بجـواره، ووقفت علـى أصابع قدميَّ حتـى يمكننـي أن أضع ذقني فوق كتفيه، فقلت له: "ينبغي لشخص ما أن يتأكد من أنك لا تحيا فقط على الجبن المشوي والقهوة".

صـدرت عنه ابتسـامة ملتوية من أحد جانبي فمـه، وأصبحت الندبة التي امتدت مـن عنـد ياقة قميصه، وغطـت نصف وجهه مألوفـة الآن. أسـتطيع تذكُّر كيف كان يبدو شكل وجهه من دون هذه الندبة بصعوبة.

لـم يكـن شـكل جلده الوردي المتجعد شـيئًا مثيـرًا، مقارنة بمـا كان عليه عندما كان مسـتلقيًا على الفراش في المستشـفى. لم أكن أسـتطيع تحمُّل رؤيته حينها. لم يكن ذلك بسـبب الجروح التي غطت تقريبًا نصف جسـده، ولكن بسـبب الألم الذي كنت أعرف كم كان يعانيه. كان تحسُّن حالته هو الشيء الوحيد الذي جعلني أواصل حياتي منذ ذلك الحين.

وضعت البيض والخبز على الطاولة، وأخرجت عبوة الشاي العشبي من جيب سترتي، وقلت له: "قالت ليودا، يجب عليك أن تتناول ذلك مرتين على الأقل كل يوم حتى تتعافى من السعال".

ألقى الخرقة على كتفه، وأخذ مني عبوة الشاي وشمَّها، ثم قال: "بربك ما هذا؟!".

ابتعدت بناظريَّ عنه، وقلت له: "دردار أحمر، وجذور عرق سوس. تقول ليودا إنه ينبغي لك عدم الوجود بالخارج، عندما يكون الطقس بمثل هذه البرودة، على الأقل حتى تتحسن صحتك".

عاد إلى أكوابه، وهز رأسه قائلًا: "يمكنك إخبار ليودا بأنني لا أهتم..."

"خمس عشرة دقيقة، نوح بلاكوود". قاطعته، حتى أعطي أفضل انطباع لديَّ عن ليودا، عندما ضحك، حككت كتفي بكتفه، واندفعت عبر الباب المتأرجح المؤدي إلى المطبخ الموجود في الجزء الخلفي من المقهى، وقلت له: "هل حصلت على أي شيء هذا الصباح؟".

صاح قائلًا: "في صندوق الثلج".

شددت المقبض غير الثابت في مكانه، واهتز كل شيء عندما انفتح الصندوق، وبداخله كان يوجد إناء فضي به ثلاث سمكات مدفونة في الثلج، فقال لي: "ربما ينبغي أن آخذ واحدة معي إلى المنزل".

"على الرحب والسعة".

أغلقت صندوق الثلج، وأخذت عود ثقاب من الوعاء الموجود على الرف، وأشعلته، ثم أدرت مفتاح الموقد. اشتعل الموقد محدثًا صوتًا عاليًا، وضعت عليه الغلاية، وشاهدت اللهب الأزرق من تحتها.

كانت صورة والدتي معلقة على الحائط أعلى الموقد، وكانت حوافها صفراء، ومتعرجة. كانت تقف على الطريق أمام منزلنا مرتدية فستانًا قطنيًّا أبيض، به زهور صفراء صغيرة. كان الفرح يبدو في عينيها كما لو أنها تفكر في شيء ما لم تتفوه به مطلقًا. لاح على جبهتها خصلات شعر صغيرة ذات لون أشقر، فوضعت إصبعين على شفتي، ثم وضعتهما على وجهها.

لم أكن قد توليت بعد رعاية هذا المتجر عندما ماتت، فقد كنت أرعى أبي أيضًا.

بالأمس فقط، وفي هذا الوقت نفسه، كانت قد مرت أربع سنوات كأنها دهر، لكنني أحب أن أتذكرها بهذه الطريقة، بدلًا من رؤية صورتها الموجودة أمامي.

صوت الباب المكسور في الشارع والذي يحتك بالأرضية المبلطة، جعلني أرمش بعيني، فتلاشت صورتها من مخيلتي. سحبت فنجانًا وطبقًا من الرف ووضعتهما على الطاولة عندما بدأت الغلاية تصدر صوتها المعتاد.

تسللت أصوات عميقة من خلال شق باب المطبخ المتأرجح، بينما أحضرت بعض الأعشاب من الكيس البني الصغير، وسمعت طنين الأعشاب والأوراق المجففة، عندما كنت أصب عليها الماء المغلي، ثم وضعت الطبق فوق الفنجان.

سمعت صوتًا يقول: "أوجست سولت".

تجمدت، وتوجهت بناظريَّ نحو الباب.

أعرف تمام المعرفة هذا الاسم الذي يسكن وجداني، ويسري في دمي، وعندما تفوهت به آخر مرة، كنت أبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا.

قال أبي بصوت حريص خافت: "هل أنت متأكد؟". لكن صوته كان قويًّا؛ ما جعل أمعائي تتقلب.

ارتعشت يداي عندما أمسكت بالفنجان، وخطوت ثلاث خطوات عبر المطبخ الصغير، ومن خلال النافذة الصغيرة، استطعت رؤية عمي جيك يقف على الجانب الآخر من منضدة المشروبات. كانت أزرار معطفه الأصفر القديمة مُحكمة الغلق حتى ذقنه.

تصلب ووقف بشكل مستقيم، عندما دلفت من الباب الذي احتك بكعب حذائي الطويل وتأرجح منغلقًا من خلفي. نظرت إلى كل من عمي وأبي حتى شعرت كأن عاصفة من الكلمات قد دارت بينهما دون أن يتفوها بكلمة واحدة.

تنحنح جيك قائلًا: "على أية حال، أعتقد أنني يجب أن أُطلعك على الأمر، عندما نجتمع في دار العبادة بعد وصول العبَّارة الأخيرة". وحاول تفادي نظراتي عندما التفت إليَّ.

قال أبي فجأة: "جيك؟"، وكان لا يزال ينظر إلى أعلى المنضدة، حيث كانت الأكواب مرصوصة على شكل برج من الجواهر.

توقف جيك، وبدا لحظة كأنه خائف.

"شكرًا".

رمقه جيك بنظرة خاطفة قبل أن يواصل السير، ويندفع إلى الخارج.

انتظرت أن يقول أبي أي شيء، وما زلت أضغط على الفنجان بين راحتي. احترقت أصابعي، لكنني أحكمت قبضتي أكثر، وحبست أنفاسي وأنا أتساءل: "ما هذا؟".

تجول بناظريه عبر الغرفة، ونظر إلى كل شيء ما عدا المكان الذي كنت أقف فيه. كان يبدو عليه الجمود والصرامة، وسمعته يتململ بينما يمسك بالخرقة بين يديه.

تمكنت من التحدث عن الألم الذي يعصر حلقي، وقلت "أبي؟"، وشعرت برعب شديد مما قد يقوله، وكنت بالفعل أعرف ما سوف يقوله.

نظر إليَّ أخيرًا، وأخرج نفَسًا ثقيلًا، بينما يستند إلى الطاولة بإحدى رجليه، فانتابني شعور كالثلج يسري بين أضلعي، فحرك شفتيه، وأغلقهما كما لو أنه يحاول أن يستجدي الكلمات التي يريد أن يتفوه بها وعندما نطقها، سمعت همسات الغابة مجددًا كما سمعتها في الصباح؛ تلك الهمسات التي اعتصرت قلبي.

"لقد عاد، يا إيميري".

الفصل السادس

بعد الحريق بإحدى عشرة ساعة

إيميري

"إيميري، متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها ليلي؟".

نظرت إلى النافذة السوداء التي ظهر عليها انعكاس صورتي بوهج برتقالي، واشتعلت النيران في المدفأة من خلفي، وسمعت طقطقة الخشب داخل النيران، وعلى الرغم من ذلك ما زال المنزل يسوده البرد.

"إم؟". انحنى عمي لينظر إليَّ، وكانت وجنتاه يكسوهما السخام، وظهرت علبة التبغ من جيب قميصه أسفل سترته. ظهر عليه القلق بينما تتلوى أصابعي تحت البطانية القذرة التي لفتها نيكسي حولي. الشيء الوحيد الذي جعلني ما زلت أتنفس هو تذكُّري يدَ نيكسي التي كانت تدلك ظهري في دوائر صغيرة.

قلت بصوت لا يشبه طبيعة طريقة تحدُّثي: "في المقهى، قبل الحفل".

رفع قلمه، وقال: "في أي وقت؟". خطَّ بقلمه في دفتر الملاحظات الذي أخرجه من جيبه.

تذكرت وجه ليلي يومض في ذهني، وشعرها الأشقر يضيء مثل الذهب في التوهج الظاهر من النافذة، عندما كانت تجلس أمامي على الطاولة.

أغلقت عينيَّ، محاولة محو الصورة من ذهني، وقلت: "في وقت الغداء، ربما في الثانية عشرة والنصف".

كان صوت القلم الذي يخط في دفتر الملاحظات الخاص بجيك يدوّي في أذني، فقال: "هل تعرفين أين ذهبت بعد ذلك؟".

"لا".

قال بنفاد صبر: "هل سألتِها؟".

ازدردت لعابي: "لا... ولكنها لا بد أنها عادت إلى المنزل بعد ذلك؛ لأنني عندما عدت، وجدتها قد تركت لي ملاحظة على خزانة ملابسي".

أومأ برأسه، وهو لا يزال يدون ما أقوله: "ماذا كتبت؟".

حاولت أن أتذكر، بينما قمت بترتيب المئات من اللحظات التي دارت في رأسي؛ ليلي على الرصيف في المطر يوم ذكرى ميلادها؛ ليلي في الغابة تطاردني بين الأشجار؛ ليلي ترقد على سريري، وتسند قدميها إلى الحائط.

قلت: "طلبت أن أقابلها على الشاطئ قبل الحفل، لكنها لم تحضر".

"أي شاطئ؟".

قلت بصوت متردد: "شاطئ هالو".

"هل رأيتِها في البستان الليلة الماضية؟".

في صباح الليلة الماضية، نظرت عبر النافذة، حيث كان ضوء الفجر يصبغ السماء باللون الأزرق. أومأت برأسي بالنفي إجابة عن سؤاله، وكانت الدموع تترقرق في عيني، وتحول الألم في حلقي إلى صرخة منكسرة، بينما دسست رأسي في البطانية.

وضع جيك قلمه، وصمت للحظات قبل أن يقول: "هل رأيتِ أوجست أمس؟".

فركت وجنتي بيدي، ونظرت إلى وجه عمي الشاحب، فلأول مرة على الإطلاق أشعر بأنه تقدم في العمر، وقلت: "ماذا؟".

"متى آخر مرة رأيتِ فيها أوجست، يا إيميري؟".

ظهرت نيكسي بجواري مشوشة مثلي تمامًا.

قلت بوهن: "لماذا تسألني عنه؟!".

قال سريعًا: "أجيبي فقط عن سؤالي".

قالت نيكسي بصوت حاد: "على رسلك يا جيك".

"حسنًا، أريد أن أعرف أين كان كل شخص في الليلة الماضية".

قلت بنبرة دفاعية: "التقيته عند المنارة في صباح أمس".

أمسك جيك بقلمه مرة أخرى، وقال: "هل تعرفين أين ذهب بعد ذلك؟".

نظرت إلى عمي بإمعان، ولم ترق لي نظرات عينيه، فقلت: "إلى البستان. كان عليه القيام ببعض الأعمال، وبعد ذلك من المفترض أن يساعد أمَّه للإعداد لحفل التخرج".

"هل رأيتِه في البستان؟".

تنفست قائلة: "لا". في خضم الصور التي تسابقت في ذهني - الدخان المتصاعد، وألسنة اللهب، وأناس يركضون في الغابة يصرخون - لم يكن هناك.

قالت نيكسي بينما هبت واقفة: "يجب علينا أن نذهب لنلحق بالعبَّارة في موعدها".

شعرت بنار تغلي في أمعائي، وتذكرت كيف كانت تعبيرات وجه أبي عندما وضعوه في الطائرة المروحية، لينقلوه إلى المستشفى في البر الرئيسي. كان هناك مكان يكفي فقط لاصطحاب أمي، وكانت تنتظرنا في سياتل.

أمسكت نيكسي بيديَّ لكي أقف، فاستندت إليها محاولة أن أشعر بقدمي من تحتي.

قلت لعمي بشكل غير متوقع: "فقط اسأل إيلويز، يا جيك. وسوف تخبرك؛ فقد كان أوجست بصحبتها".

نظر إليَّ جيك، وتفحص وجهي بعينيه، كما لو كان يبحث عن شيء ما فيه، فطرأت على ذهني فكرة باهتة.

إنه لا يصدقني.

الفصل السابع

إيميري

ذرعت أرضية المقهى في الظلام جيئة وذهابًا، وكنت ممسكة بقوة بطرف سترتي، حتى أصبح الصوف رطب الملمس.

كان شارع ماين والميناء خاليين، بينما كان الضوء ينحني ويتلاشى مع غروب الشمس فوق أسطح المنازل. لقد مرت الساعات في ضبابية مخيفة، بينما كنت أشاهد الشارع من النافذة وأنا أتصبب عرقًا باردًا.

كان أبوت ويتيتش، محرر مجلة سيرشا، على وشك الانتهاء من جولاته، حيث كان يتنقل من بيت إلى بيت للدعوة إلى عقد اجتماع في المدينة. وفي دقائق معدودة فقط، كان كل من في الجزيرة قد سمع بعودة أوجست سولت.

شاهدت ورقة شجر واحدة تتهاوى على أرضية الشارع، قبل أن أرفع عيني لأرى الأشجار المتراصة على الطريق خاوية من أوراقها. كان الهواء يحمل سحرًا غريبًا، وكان كثيفًا وعطِرًا، استشعرت كأنه يتدفق من الأرض مثل الينبوع.

ظهرت الأضواء في الظلام السائد بالخارج، وتمايلت الفوانيس بين الأشجار مثل الفراشات المضيئة، وكانت كلها متجهة نحو دار العبادة. في اللحظة التالية، فُتحت الأبواب في الشارع، وانتشر الضوء الكهرماني على الحجارة المغمورة بالمطر، حيث كان نصف المدينة قد تجمع بالفعل.

مسحت يدي على بنطالي الجينز، وانتظرت حتى يفرغ الشارع، قبل أن ألفَّ وشاحي حول رقبتي، وفتحت الباب. تحرك ظل فوق الممشى بينما أغلقت الباب خلفي؛ إنه دوتش. بدت سترته الزرقاء سوداء في الظلام، وكان شعره الأشقر نصف مدسوس تحت غطاء سترته. وضع كلتا يديه في جيبيه، وكان وجهه لامعًا بنور دارالعبادة. انعكس ذلك في عينيه وهو ينظر إليَّ من أسفل الدرج.

كانت النظرات التي بدت على وجهه تشبه تلك التي بدت على وجهي - نظرات الخوف. قال بصوت أجش عميق بسبب البرد: "لقد أتيت لمعرفة ما إذا كنت قد سمعتِ بما حدث".

لم أره منذ أن تشاجرنا في الليلة السابقة، وفكرت في الذهاب للعثور عليه في البستان، بعدما حضر عمي إلى المقهى، لكنني لم أتمكن من تحمُّل فكرة أن أكون الشخص الذي يتحدث معه بهذا الشأن. لم أستطع أن أفكر في الكلمات، فضلًا عن قولها بصوت عالٍ.

لقد عاد أوجست... وبعد كل هذه السنوات عاد.

قلت بهدوء: "سمعت"، وكرهت الطريقة التي تحدثتُ بها.

لسنوات، كنت مستعدة لأن أفعل أي شيء فقط لأسمع أن أوجست قد عاد. لقد تخيلت ذلك مليون مرة، حتى سالت الدموع من وجهي وتفطَّر قلبي ألمًا، لكنني تجاهلت هذا الأمر منذ فترة طويلة، ولكن لماذا أشعر الآن بصعوبة التنفس؟ إذا استطاع دوتش أن يرى الدموع في عيني الآن ما اهتم بها، فهو من أحدث هذه الفجوة الشاسعة بيننا الآن، وهو من نسج خيوط الماضي الذي أصبح عائقًا أمام كل منا، وبينما وقفت مع دوتش تحت مصباح الشارع غير المضاء الآن، شعرنا فجأة كأننا في الثامنة عشرة من عمرنا مرة أخرى.

تعالت الأصوات من الأبواب المفتوحة في آخر الشارع، فعضضت خدي من الداخل قبل أن ألتف حوله متوجهةً إلى مصدر الضوء.

أمسكني من ذراعي وأوقفني، وقال لي: "انتظري دقيقة... لن تذهبي، أليس كذلك؟".

نظرت إلى وجهه وأنا في حيرة من أمري، وقلت: "ماذا؟ بل بالطبع سأذهب".

اعتدل دوتش في وقفته، وتجاوزت نظراته رأسي وهو يقول بصوت منخفض: "هل أنتِ متأكدة من أن هذه فكرة جيدة؟".

ابتعدت عنه دون أن أعطيه إجابة، ربما لم تكن فكرة جيدة، لكنني قضيت وقتًا طويلاً مبتعدة عن الأنظار، بعد أن رحل أوجست عن سيرشا. لا أنوي القيام بذلك مرة أخرى، بل لا أستطيع.

كانت هناك فترة صمت قبل أن أتمكن من سماع خطى دوتش تتبعني عبر الشارع. كانت الأوراق المتساقطة المبللة متراكمة أمام مدخل دار العبادة مثل الأعشاب البحرية التي تخلِّفها العاصفة. وفوقنا، كان برج دار العبادة الأبيض يعانق السماء السوداء، لكن جرسه لم يقرع ولو مرة واحدة في حياتي. وعلى الرغم من ذلك جاء أكثر من رجل دين إلى دار العبادة لإعادة ممارسة طقوسها.

لم يبق منهم أحد.

"حسنًا... الآن دعنا ننه الأمر".

انتقل صوت جيك عبر النوافذ المفتوحة، وارتفع فوق صوت الأحاديث الجانبية بينما توقفت أمام الأبواب. كانت سترته لا تزال مغلقة حتى ذقنه، ووجنتاه محمرتين من هواء الليل البارد، والهالات السوداء تحت عينيه قد جعلته يبدو أكثر إرهاقًا من المعتاد. وقف في الممر الأوسط، ولف قبعته بين يديه عندما رآني... ربما كان يأمل ألا أحضر.

استنشقت نفَسًا ملأ رئتيَّ بالهواء البارد قبل أن أتخطى عتبة الباب، وقد ساد الصمت بين أرجاء دار العبادة. نظرتْ إليَّ أعينُ الحاضرين، تبعتها الهمسات، وكنت أعرف ما يقولون.

"إيميري وأوجست... ". كان اسمانا مجتمعين معًا، ويتردد صدى الأحرف في غياهب الصمت، كما كانت دائمًا. صررت على أسناني، وازدردت الشعور المجوف الذي بعثه في داخلي.

لمس دوتش مرفقي بيده، فسحبني على طول الجدار، حيث كان أبي يقف في الزاوية الخلفية. ظهرت على وجهه الدهشة عندما رآنا، وعرفت أنه كان يفكر في الشيء نفسه، فنحن لا ينبغي أن نكون هناك.

لقد انطلق بسرعة على أية حال، فأفسح لي المكان، وعندما حدقت إلينا المرأة التي كانت بجانبه، ركز عليها نظره الثاقب حتى صرفت انتباهها عنا. ونظرت إلى الناحية الأخرى. كان أبي ماهرًا في حمايتي بأية وسيلة، حتى لو مرت سنوات دون أن أحتاج إلى مساعدته.

جلس دوتش خلفي، وقد جعلني دفء الغرفة أمد يدي لأرخي الوشاح الذي يلتف حول رقبتي. لم يكن هناك مجال للتنفس، وكان الجميع يراقبني. فكرت فيما سأفعل، وماذا أود أن أقول.

عندما غادر أوجست لم يكن قد غادر سيرشا فحسب، وإنما غادرني أنا كذلك، وكثيرًا ما كنت أحمل عبء ذنوبه وخطاياه على عاتقي.

بدا الأمر كما لو كان كل شخص تقريبًا على الجزيرة حاضرًا ومصطفًّا أسفل النوافذ الزجاجية الملونة الممتدة فوق رءوسهم. انتشر أعضاء مجلس المدينة بين الحشود، وهم: والدي، ونيكسي توماس، وليودا مورجان، وزاكريا بير، وبرنارد كيلر.

قال جيك: "الآن، أنا متأكد من أنكم جميعًا سمعتم أن أوجست سولت وصل على متن العبَّارة هذا الصباح".

عندما سمعت اسم أوجست منطوقًا بصوت عالٍ مرة أخرى شعرت بوخز الألم على جسدي. رأيت خلفي دوتش وقد بدا متجهمًا.

تابع جيك حديثه: "أعلم أن هناك الكثير من المشاعر السيئة. لا بد أن يؤدي هذا إلى اكتشاف الأشياء التي عملنا جميعًا بجد لتجاهلها طوال السنين الماضية".

"حسنًا، ماذا يفعل هنا يا جيك؟".

نظرت خلف والدي لأرى جد ليلي، هانز مورجان، واقفًا على قدميه. كانت كلتا يديه مثبتتين في جيبيه، كما لو كان يمنع نفسه من الاصطدام بشيء ما. وكانت ليودا تجلس إلى جانبه.

لم يستغرق الأمر من والدي ليلي وقتًا طويلًا لمغادرة سيرشا بعد وفاتها، لكن هانز وليودا بقيا. عندما رحلوا جميعًا، لم يتبق أي عضو من عائلة مورجان على جزيرة سيرشا، وكم كان من الصعب تخيل ذلك!

تحرك الحضور في مقاعدهم، وتحولت كل عين إلى جيكوب، في انتظار إجابته.

"لقد جاء لدفن إيلويز". خف صوته، وشعرت بالهواء في الغرفة يتغير مع الكلمات.

شعرت بغصة في حلقي؛ ما جعلني أجفل.

إيلويز.

كانت والدة أوجست محبوبة قبل الذي حدث، لقد كانت بمثابة الأم الثانية بالنسبة لي، ولا يمكن فصلها عن والدتي ونيكسي منذ الطفولة.

"يبدو أنها ماتت قبل بضعة أشهر، وطلبت أن يُدفن رمادها هنا في سيرشا مع أقربائها".

كانت ليودا أول من تُجادل، فقالت بينما كانت واقفة في وسط الغرفة: "الآن، انتظر دقيقة واحدة فقط". توقفت وقد بدا العبس على وجهها النحيل تحت قبعتها المتماسكة، لكنها استطردت: "أنت لا تقول إننا سنسمح له بدفنها في المقبرة؟".

تجمد جيك، فقد كان مستعدًّا لهذا. "بلى".

صاح أحد الحضور "نحن ندفن موتانا فقط في سيرشا!"، واندلع المكان الخانق بأصوات غاضبة.

راقبت وجه والدي بعناية بحثًا عن أية علامة على ما كان يفكر فيه، لكنه كان رزينًا. تجولت عيناه الفارغتان ببطء، وكان الضوء يسطع فيهما.

رفع جيك يده في الهواء بفارغ الصبر، وقال بصوت أعلى: "كل فرد من عائلة سولت يُدفن في هذه الجزيرة منذ تأسيس هذه المدينة لأول مرة".

سخرت ليودا، وحركت يدها في الهواء. وقالت: "لقد تخلت إيلويز عن هذا الحق عندما أخفت عنا كل ما يخص ابنها".

اتفق معها قليل من الحضور: "إنها ليست من عائلة سولت على أية حال".

أصبحت إيلويز الابنة غير المرغوب فيها لهنري سولت عندما تزوجت من ابنه كالفن، لكن كالفن هرب وتركها عندما كان عمر أوجست بضع سنوات فقط. ألقى هنري باللوم على إيلويز، فدفعت سيرشا ثمن التكفير عن ذلك الذنب طوال السنوات الماضية.

"لم تكن إيلويز هي الوحيدة التي فعلت ذلك"، كانت تلك همسة أخرى قطعت هدير الأصوات، فتصلبتُ، وازدرت لعابي بصعوبة، تطلعت أعين الحاضرين بسرعة في اتجاهي، وانحنى دوتش نحوي قليلًا.

قال جيك: "الآن، لا أعتقد أنني يجب أن أذكِّركم جميعًا بأن أوجست لم يُتهم مطلقًا بقتل ليلي مورجان".

ساد صمت آخر، لكن هذه المرة كان موقرًا. كان اسم ليلي له قدسيته في سيرشا، ولم أسمعه يتردد إلا مرات قليلة في السنوات الأخيرة، لم تكن المدينة فقط هي التي تغيرت في تلك الليلة، بل تغيرت الجزيرة أيضًا. قالت جدتي إن

الجزيرة قد بدأت إخفاء الأسرار عنا بعد ذلك. وأصبحت تلك الأسرار مثل كرمة التوت البري، تخنق كل من اقترب منها، كل من اقترب من الحريق أو ليلي.

وكل من اقترب من أوجست سولت.

لقد قسمت ليلة حريق البستان حياتي إلى نصفين: نصف ملون بضوء كهرماني مشحون بأنفاس ساخنة في ظلام الغابة، والقمر الأحمر معلق في سماء الليل. والنصف الآخر متأثر بسبب ضياع النصف الأول. لقد تغير كل شيء في لحظة واحدة. ويمكنني الآن أن أشعر بالإغماء تحت الريح التي تهز النوافذ ذات الزجاج الملون.

لم يعد أي شيء كما كان مرة أخرى.

قال هانز بنبرة غير معهودة من الغضب: "الجميع في هذه الغرفة يعلم أنه قتل حفيدتي، يا جيك. هذا لا يتغير لمجرد أنك لم تستطع إثباته".

انكمش عمي عند سماع هذه الكلمات، وانكمشت عضلات فكه.

كان مقتل ليلي الذي لم يُكشف عن غموضه هو العار الأكبر لجيك، وأعظم فشل له. في بلدة لم يحدث فيها أي شيء سيئ على الإطلاق، كانت وظيفته كمارشال تتضمن دائمًا التوسط في نزاعات الجيران أو أعمال التخريب العرَضية التي يرتكبها كل صيف عدد قليل من المراهقين معاقري الشراب؛ لكن لم تشاهد البلدة جرائم مثل القتل من قبل.

لكن لم يكن سرًّا أيضًا أن جيك كان يحب إيلويز سولت، حتى لو لم تكن هي تحبه بالقدر نفسه، ولم يكن الاعتقاد في ذلك الوقت هو أن جيك لم يتمكن من إثبات أن أوجست هو من قتل ليلي، ولكن ربما لم يكن يريد ذلك.

تنحنح والدي، ودخل في وهج الأضواء المعلقة، قائلًا: "مذنب أم غير مذنب، أنا شخصيًّا لا أعتقد أن إيلويز يجب أن تدفع ثمن خطايا ابنها، لقد كانت واحدة منا".

لم يجادل أحد في ذلك. لم يكن هناك خلاف حول كراهية البلدة لأوجست، لكن إيلويز كانت تمثل أمرًا مختلفًا. والدي، جيك، نيكسي، إيلويز... لقد نشأوا جميعًا معًا مثل الأشقاء.

قال جيك مرة أخرى: "لقد تقرر بالفعل، سوف يقوم أوجست بدفن رماد إيلويز في المقبرة، وبعد ذلك سيكون على متن العبَّارة الأولى من هذه الجزيرة. أعدك

بذلك. حتى ذلك الحين، طُلب منه أن يحافظ على هدوئه، وألا يقترب من أي من أهل المدينة، وأنا أقول الشيء نفسه لكم جميعًا الآن؛ لا أريد أن أسمع بأي شخص يضايقه أو يتعرض له. هل أنا واضح؟". ترك نظراته تجوب الغرفة، في انتظار أن يعترض شخص ما.

لكن لم يكن هناك سوى الهدوء. كما لو كان كل من في دار العبادة يتذكر آخر مرة وقفنا فيها تحت هذا السقف نتحدث عن ليلي.

ارتدى جيك قبعته مرة أخرى، ورفض الاجتماع، ولم أتحرك بينما وقف الجميع في صمت متجهين نحو الأبواب.

هبطت يد والدي بهدوء على كتفي قبل أن يتجول بين الحشد، وشاهدت ليودا تتحرك في الاتجاه نفسه، يليها زاكريا وبرنارد. لم تكن نيكسي بعيدة عنهم، وكان الحديث عن إيلويز يلمع في عينيها، حتى بدت كأنها تبكي.

مهما كان قرار جيك، فإن مجلس المدينة لا يزال لديه المزيد ليقوله عنه. لقد خرجوا من الباب الجانبي، وكانوا يتجادلون بالفعل في همسات صارمة، وبعد لحظات قليلة، كنت أنا ودتش الوحيدين المتبقيين في دار العبادة.

"هل أنتِ مستعدة؟".

حدقت إلى الأرض بشرود، والتقطت الخيط المنسل من طرف سترتي. لم أكن أعرف لماذا أشعر بالذنب في أي وقت يثار فيه موضوع أوجست. لقد مرت سنوات منذ أن ابتعد أوجست عن دوتش وأنا كذلك. "سأعود إلى المنزل".

أطلق نَفَسًا طويلًا، لكنه كان متعاطفًا أكثر منه غاضبًا، وكنت سعيدة. لم تكن لديَّ القدرة على الجدال معه: "هيا يا إم. دعيني أسِر معكِ".

قلت بقسوة بعض الشيء: "أنا بخير يا دوتش"، وندمت على ذلك على الفور.

لم يبدُ أنه انزعج، تقريبًا كما لو كان يتوقع ذلك. منحني إيماءة واحدة قبل التوجه نحو الأبواب لم ينظر إلى الوراء حيث اختفى في الظلام.

انتظرت حتى ساد الصمت في شارع ماين قبل أن أبدأ السير إلى المنزل. كان الطريق الترابي مظلمًا تقريبًا، لكني حفظت كل منحنياته وصخوره المدفونة، حتى إنني أستطيع أن أسير عليه وعيني مغلقة.

تسلل ضوء القمر الأبيض الحليبي عبر أغصان الأشجار فوق رأسي، وومض فوقي مثل البرق. وأخيرًا أصبحت السماء صافية، وانقشعت الغيوم لتكشف عن

النجوم المتلألئة، لكنني أستطيع بالفعل أن أشم رائحة المزيد من المطر مع الريح الشرقية.

عندما وصلت إلى قمة التل، حدقت إلى الأرض، وتنفست ثلاث مرات قبل أن أجد القوة اللازمة لرفع عيني. كان منزل إيلويز سولت يقع بعيدًا بين الأشجار، على الجانب الآخر من الطريق الذي يقع فيه منزلي. كانت الأرض مغطاة بنبات العسلة والأغصان الصيفية، وكانت الشرفة مائلة من جانب واحد مع بعض آثار العفن.

لقد كان هناك حقًّا، خلف ذلك الباب.

في ليلة حريق البستان، هبت رياح عاتية من البحر، وتدحرجت فوق الجزيرة في عاصفة غاضبة. وفي تلك اللحظة، انقسم الزمن مثل حبل مهترئ إلى ما قبل وما بعد. أدى سقوط غصن تفاح قديم إلى سقوط مصباح كيروسين في القش بجوار الحظيرة، وفي غضون دقائق، اجتاح الحريق صفًّا كاملًا من الأشجار.

وبالنظر إلى الوراء، قال الناس إن الحريق كان بمثابة تحذير مشئوم، وإنذار لما ستجده نيكسي في الغابة بعد ساعة واحدة فقط، عندما كانت كل روح في سيرشا تكافح الحريق. في اليوم التالي، وقف جيك في دار العبادة ليخبر البلدة بأكملها بأن الشابة ليلي مورجان قد ماتت.

ارتطم الهواء البارد ببشرتي، واندفع تحت ياقة قميصي، وجعلني أرتعد. أضاءت نوافذ كوخ سولت للمرة الأولى منذ اختفاء أوجست، وكانت تشبه العيون التي تراقب من الغابة. لأكثر من مرة تساءلت عما إذا كنت قد حلمت بذلك. تساءلت عما إذا كان حقيقيًّا يومًا ما، أم مجرد قطعة غير مكتملة في مخيلتي، مدفونة بداخلي ومؤلمة مثل الشظية تحت بشرتي، لكن تلك الليالي في الغابة كانت من أوضح الذكريات التي كانت لديَّ قبل الحريق؛ حيث كانت لا تزال مطلية بألوان مشبعة، وممتلئة بالأنفاس حتى الآن.

أغمضت عينيَّ محاولة أن أستبدل بالصور القديمة أخرى جديدة. منظر البحر في الأيام العاصفة أو القوارب في الميناء، لكن كل شيء كان يعود إلى أوجست الذي ارتبط بكل شيء بشكل جوهري. وكم كان كذلك لفترة طويلة!

الفصل الثامن

دوتش

كان الطريق إلى البستان هو الطريق الذي قدت عليه شاحنتي آلاف المرات.

اهتزت الشاحنة من جانب إلى آخر عندما قمت بالدوران الأخير، وتوقفت تحت اللافتة المعلقة فوق البوابة، انتظرت والمحرك يهدر بينما كان مرتادو العبَّارة الأولى يعبرون الطريق تحتها، وكانت الحروف القديمة المخدوشة على اللافتة تشكل عبارة "بساتين سولت".

لقد أعيد طلاء اللافتة بعد الحريق، لكن سنوات المطر جعلتها غير مقروءة مرة أخرى، وهكذا كانت الأمور في الجزيرة... الموت في كل وقت ومكان.

ابتسم لي طفل صغير، بينما كان والده يجره عبر الطريق، ورفعت إصبعين متيبسين من عجلة القيادة كإشارة له.

ربما كنت في عمره نفسه تقريبًا في المرة الأولى التي مشيت فيها إلى البستان وحدي، أبحث عن والدي عندما لم يحضر إلى المنزل بضعة أيام، ووجدته فاقدًا الوعي في الحظيرة، واضطُررت إلى الاستعانة بشخص ما لنقله إلى الجزء الخلفي من شاحنته والعودة إلى المنزل.

كان مجرد عامل مزرعة لديه طموحات متهورة لإدارة المكان يومًا ما، لكنه كان الشخص الوحيد على الجزيرة الذي لم يرَ نفسه على حقيقتها، مجرد شخص لا قيمة له، عمل في البستان معظم حياته حتى وُجد ذات مرة ميتًا بين الأشجار إثر

نوبة قلبية، لم يكن لينجو من الرحلة إلى سياتل حتى لو وجده أحد على قيد الحياة، كنت في الثانية والعشرين من عمري في ذلك الوقت، وأتذكر أنني اعتقدت أن كل هذه الأمور كانت بمثابة نهاية جيدة بالنسبة له.

الآن كنت أجلس على الكرسي الذي كان يريده دائمًا، ولكنه لم يكن مناسبًا له.

لم تكن مهمة إدارة البستان موكلة لي، ولم يتفاجأ أحد أكثر مني، عندما طلب مني مجلس المدينة أن أتولى هذا المنصب، كان أوجست سولت الابن الوحيد لجزيرة سيرشا الذي كان له حق المطالبة بالمزرعة، إلا إنه لم يرغب في ذلك مطلقًا، دائمًا ما كنت أعتقد أن هذا المكان مخصص لي، حيث كنت أحتفظ بالقصاصات التي تركها أوجست سولت على الطاولة، والتي ما زالت موجودة.

قمت بتمشيط شعري المبلل بالمطر إلى الخلف بيد واحدة، ووضعت مرفقي على النافذة المفتوحة، ونظرت إلى صورتي في المرآة الجانبية. الساعات التي قضيتها مستيقظًا في الظلام بدا تأثيرها على وجهي، وكان عليَّ أن أقنع نفسي بعدم النهوض والتوجه إلى منزل إيميري. كنت أعرفها أفضل مما كانت تتمنى، ولهذا السبب تحديدًا لم أذهب، فكلما حاولت جذبها ابتعدت.

نظرت إلى صندوق القفازات المغلق، حيث كان الجلد يتقشر من حافة المقبض، وكان الخاتم الذي اشتريته لها موجودًا هناك لمدة ست سنوات تقريبًا، منذ اليوم الذي اشتريته فيه في سياتل، لقد كان خاتمًا ذهبيًّا بسيطًا، وهو الشيء الوحيد الذي كنت أتخيل أنها ترغب في ارتدائه، على الرغم من أن إيميري بلاكوود لم تكن شخصية بسيطة على الإطلاق.

عبرت آخر مجموعة من المارة الطريق، واستطعت إعادة ناقل الحركة إلى مكانه، وانحرفت إلى الطريق الضيق الذي أدى إلى منزل البستان، وشعرت بنظرات تتجه نحوي عندما توقفت في مكان وقوف السيارات المعتاد بجانب الحظيرة. لقد شعرت بها حتى قبل أن أغادر فراشي في ذلك الصباح.

"مرحبا دوتش".

على الجانب الآخر من الباب، كانت كيت تعمل بالفعل، ومآزرها محكمة الغلق فوق ملابسها الحرارية، لإبقائها دافئة في أول صباح بارد حقًّا، وقفت كيت بين

كومة الصناديق على الأرض، وبيدها مثقاب، وعيناها تحملان تلك النظرة التي تنم عن وجود أسئلة تراودها، ولم يكن لدى أحد الجرأة لطرحها بصوت مرتفع.

نزلت من الشاحنة، وحرصت على النظر إلى عينيها وأنا ألقي التحية: "صباح الخير".

"صباح الخير".

لا يهم إذا كنت ما زلت الرئيس هنا الآن، أو ما هي بقايا الاحترام المثيرة للشفقة التي تمكنت من اكتسابها، كنت أعلم أن جلوسي في دار العبادة الليلة الماضية، بسبب ظهور أوجست في سيرشا، قد أعادني مرة أخرى أربعة عشر عامًا في عيون هذه المدينة.

ذات مرة، كان عالمي كله هو أوجست وإيميري وليلي، إذا وُجِد أحدنا، فسيكون الآخرون على مقربة، لكنني حاولت ألا أفكر في تلك الأيام. هذا الطريق يؤدي إلى مكان واحد فقط.

استغرق الأمر سنوات حتى تعود هذه المدينة إلى وضعها الطبيعي، ولكن مع نمو أشجار التفاح الجديدة عامًا بعد عام، زادت المسافة بيننا جميعًا وبين تلك الليلة، وفي بعض الأحيان، شعرت كأن ليلي قد مُحيت تمامًا من الجزيرة.

تجولت في الحظيرة المزدحمة، وفتحت قفل مكتب المدير في الزاوية الخلفية، وتركت الباب مفتوحًا في الداخل. كانت الغرفة التي تشبه الكشك مكتظة بمكتب وخزانة ملفات ولوح من الفلين على الجدار الخلفي. غطت أكوام الورق كل سطح تقريبًا، وقمت بالضغط على أحد مفاتيح الكمبيوتر؛ ما أدى إلى إعادة الشاشة القديمة إلى الحياة.

بدأت العمل في البستان عندما كنت مراهقًا مثل أي شخص آخر في المدينة، وعُيِّنت عامل مزرعة في الصيف بينما كنا نستعد لموسم الحصاد. حينها خطرت لي فكرة غبية بأن أذهب إلى الكلية في سياتل في مكان ما على طول الطريق، والحصول على منحة دراسية بعد الخضوع لاختبارات الرياضيات البسيطة، لكن الأمر استغرق فصلًا دراسيًّا واحدًا حتى تركت الدراسة، وعدت أتوسل إلى هنري سولت ليعيدني إلى وظيفتي القديمة.

الآن أنا مدير كل شيء، وهذا وحده من شأنه أن يجعل هنري يستشيط غضبًا لو كان على قيد الحياة.

تطل النوافذ الزجاجية الواسعة على أرضية الحظيرة، وتتراقص لمحات من الضوء عبر المكتب، بينما يتدفق الزوار عبر الأبواب المفتوحة على مصراعيها، علت ثرثرتهم حتى فاقت الألم الذي في رأسي والوجع الذي في ظهري.

رجعت إلى الكرسي، وأخذت قائمة الطلبات من أعلى الرف.

"لو لم أكن أعلم جيدًا لاعتقدت أنك كنت تتجنبني يا دوتش بودن".

رفعت عيني عن القائمة، ونظرت إلى المدخل المفتوح، كان فم ليودا مورجان مائلًا على جانب واحد وهي تنظر إليَّ. كان يجب أن أعرف أنها ستظهر، فلم تكن هناك مشكلة واحدة على هذه الجزيرة لم تتسبب ليودا في إثارتها كانت هي من وضعتني على هذا الكرسي، ولم تدعني أنسى ذلك أيضًا.

دخلت دون دعوة، وأسندت نفسها إلى زاوية المكتب، وطوت يديها فوق إحدى ساقيها. ظهر اسمها على شاشة هاتفي مرتين منذ الشروق، لكنني تجاهلت اتصالها في المرتين.

نقرت على قلمي متسائلًا: "ألا ينبغي لك أن تفتحي الصيدلية؟".

"أعتقد أن لدينا أمورًا أكثر أهمية من ذلك، أليس كذلك؟".

قمت بالنقر على الآلة الحاسبة، دون أن أنظر للأعلى متسائلًا: "ما هي؟".

"أنت تعرف بالضبط سبب وجودي هنا". ثم عقدت حاجبيها، وتحركت للخلف لتغلق باب المكتب، ثم قالت بصوتها الهامس: "ماذا سنفعل بشأن أعمال أوجست؟".

وضعت القلم جانبًا، ثم التفتُّ أخيرًا لمواجهتها، قلت وأنا أحاول إقناع نفسي: "إنه هنا لدفن إيلويز، وليست لنا علاقة بهذا".

"أنا وأنت نعلم أنه ليس هنا فقط لدفن ذلك الرماد".

انفتح الباب من جديد ليكسر الصمت الذي ساد للحظات، ووقف ماثيو باردا على الجانب الآخر، وهو ينظر إلينا بخجل.

"مرحبًا ليودا".

ابتسمت مرغمة: "أهلًا يا عزيزي".

تردد ماثيو قبل أن يعيد انتباهه إليَّ "آسف... لقد توقف الجرار مرة أخرى، إنه في الصف الثامن والستين".

تنفست الصعداء، وشعرت بالارتياح، ووقفت، ثم خرج ماثيو عندما عبست ليودا في وجهه، فلم تكن لتتخلى مطلقًا عن موقفها، ولم ينته الأمر بشكل جيد على الإطلاق.

عندما هممت بالابتعاد عنها قالت بنبرة تحذيرية: "نحن بحاجة للتعامل مع هذا يا دوتش".

توقفت على الجانب الآخر من الباب، وقلت: "لا يوجد ما يدعو للقلق، لنر ما ستصل إليه الأحداث".

نظرت إليَّ وهي تزم شفتيها، ولم يعجبها كلامي، لكنها عرفت أنني كنت على حق. إن إثارة أحداث الماضي لن تفيد أيًّا منا، كلما غادر أوجست مبكرًا، كان ذلك أفضل.

أعدت وضع قبعتي إلى رأسي، وسرت نحو الأبواب المفتوحة، حيث كان ماثيو ينتظر في شاحنة المزرعة. تصاعد العادم من أنبوب العادم، وملأ الهواء البارد بالضباب، ونظرت كيت من الصناديق الموجودة على أرضية الحظيرة، وعيناها محدقتان إلى الضوء.

لكن للحظة، أضاء شعاع الشمس شعرها الأشقر، وعينيها الزرقاوين. في جزء من الثانية لم تكن كيت واقفة هناك، بل كانت ليلي.

عندما رمشتُ، كانت قد اختفت.

الفصل التاسع

أوجست

الطريق الذي سلكته عبر الغابة ذهابًا وإيابًا إلى منزل زاكريا بير عندما كنت طفلًا، أصبح غير مرئي الآن. سرت بين أشجار السرخس والشجيرات الكثيفة، ووجدت طريقي عبر الأشجار حتى لمحت زاوية سقف الكابينة.

كان الطريق أكثر وعورة مما رأيتها من قبل، وكان المنزل مهددًا بأن تطغى عليه أشجار الكروم التي تسللت عبر الأغصان، سقطت مثل ستارة فوق الجدران الخارجية.

عاش زاكريا وحيدًا في هذه الزاوية من الغابة قبل ولادتي، وبخلاف عائلة بلاكوود، كان هو الجار الوحيد الذي حظينا به على الإطلاق. تولت والدتي مهمة الاعتناء به، وبالعودة إلى ذلك الوقت، حدث أنه في الموعد الذي يخرج فيه للصيد من كل يوم، عبرت صف الأشجار، ولاح المنزل الصغير في الأفق، ووجدت الدخان يتصاعد من المدخنة، والدجاج لم يخرج بعد من الحظيرة. إذن فهو ما زال في المنزل.

تجولت عيناي في الغابة من حولي، قبل أن أتتبع صوت المعدن الذي يرن في الجانب البعيد من المنزل، حيث كان السقف المعدني يطل على الجدول. لم تكن الحظيرة أكثر من مجرد هيكل عظمي من الخشب، لكن السقيفة كانت لا تزال قائمة، وكان سقفها صدئًا.

جلس زاكريا على كرسي معدني فقد كل طلائه تقريبًا، وكان منحنيًا فوق شفرات جزازته التي كانت موضوعة على الطاولة. كان السطح المائل مليئًا بالجرار وعلب الصفيح المليئة بالبراغي والمسامير ذات الأحجام المختلفة، وكانت هناك زجاجات شراب فارغة هنا وهناك.

كان سرواله الطويل أبيض اللون مثبتًا بحمالات مطاطية زرقاء داكنة، تصل إلى كتفية العريضتين، ولم يبق على رأسه الكثير من الشعر، وإن كان ما تبقى منه ممشطًا.

كان يمسك بمِبَرد دوَّار في يده، والذي أوقف دورانه فجأة عندما سمع وقع خطواتي. إذن لا يزال هذا العجوز يتمتع بحاسة سمع قوية على أية حال.

قال وهو يدير ظهره لي: "كنت أتساءل إذا كنت سأراك".

لم أستطع معرفة ما إذا كان يقصد أنه كان يأمل أن يفعل ذلك، أم أنه كان يأمل ألا يفعل ذلك، لكنني قررت أنني لا أريد حقًّا أن أعرف.

"كيف حالك يا زاك؟".

"كل شيء على ما يرام"، قام بتشغيل المِبرَد مرة أخرى، وكشطه أسفل النصل بزاوية.

"تبدو بخير".

وأخيرًا وضع المِبرَد جانبًا، وجلس على الكرسي. رفع حاجبيه الأبيضين الكثيفين عندما نظر إليَّ. توجهت نظراته إلى كتفيَّ ووجهي. آخر مرة رأيته كنت طفلًا.

تحركت شفته السفلية، لكنه لم يقل ما كان يفكر فيه.

قلت: "جيك يقول إنك لا تزال حارس المقبرة"، أومأ برأسه مرة واحدة، وانحنى على الطاولة كما لو كان ظهره يؤلمه، فاستطردتُ: "ماذا يجب أن أفعل لـ..."

قاطعني: "سأعتني بالأمر".

لذلك عرف... ربما كانت المدينة بأكملها تعرف ذلك الآن، لكنني لم أتمكن من سماع أي تلميح في صوته عما إذا كانت الأخبار المتعلقة بأمي تعني له أي شيء، ربما كانت قد ماتت بالنسبة له منذ وقت طويل.

قال: "سأقوم بإنجاز ذلك في غضون أيام قليلة".

انتظرت أن يقول شيئًا آخر، أي شيء، لكن كانت هناك دائمًا ما يشبه العاصفة في عينيه الزرقاوين الداكنتين.

أخرجت هاتفي من جيبي الخلفي وقلت: "دعني أعطك رقمي ويمكنك..."

" لا أحتاج إليه".

أدركت أنه ربما لم يكن هناك حتى خط هاتف منزلي، ولم تكن هذه هي الطريقة التي يتبعها الناس هنا.

أصابت قطرة مطر سترتي فنظرت إلى قمم الأشجار، حيث عاد اللون الرمادي إلى السماء، وبحلول الوقت الذي نظرت إليه مرة أخرى، كان زاكريا قد استدار بالفعل على كرسيه، ومِبرده في يده.

"حسنًا... شكرًا لك".

انتظرت لحظة أخرى قبل أن أغادر، وأمسكتُ يدي بالهاتف بقوة أكبر مما هو ضروري. لقد كنت على دراية جيدة بالتعامل مع مثل هذا الموقف قبل مغادرتي، ولكن بعد أن عشت بعيدًا سنوات عديدة، شعرت بأن تأثيره مختلف.

في أي مكان باستثناء سيرشا، كنت مجرد شخص عادي، لكنني لم أكن طبيعيًّا هنا مطلقًا، ولا حتى قبل ليلي، لقد كنت دائمًا وريث البستان، وحفيد هنري، وآخر عضو في عائلة سولت.

كان برنارد كيلر ينتظر في نهاية الممر، عندما عدت إلى الكوخ كان واقفًا على جانب الطريق، وبالتحديد على الجانب الآخر من البوابة، كأنه يخشى أن يفتحها، إذا كان عليَّ أن أخمن، فسأقول إن خرافات البلدة منعت أي شخص من المغامرة - بالاقتراب كثيرًا من الكوخ منذ أن غادرت.

عندما رآني، أصبح متصلبًا، واستقامت كتفاه تحت السترة التي كان يرتديها. لقد كان حجمه صغيرًا جدًّا، وكان شعره البني متناثرًا على جبهته.

سحب أزرار قميصه وهو يشعر بضيق التنفس... ثم قال: "أوجست"، في محاولة سيئة للتحية، نطق اسمي بنبرة جوفاء خالية من أي معنى.

"مرحبًا سيد كيلر".

لم أكن أعرف ماذا أسميه أيضًا، كل تعاملاتي مع برنارد كانت في مكتب جدي، عندما كان يتولى الأمور القانونية الخاصة بالبستان. لقد كان المحامي الوحيد

فـي الجزيرة، وقد كلفه مجلس المدينة بالتدخل، عندمـا مرض جدي في أحد أيام الصيف، ورفض رؤية الطبيب.

كانـت الوظيفـة تتألف في الغالب مـن توجيهات برنارد له، بالتعامل مع الأشـياء التي قد أهملها أو تجاهلها تمامًا، مثل الاحتياط الذي يجب اتخاذه لحماية المدينة إذا ما مات جدي، وكان معظم الناس على يقين بموت جدي، لكنني لم أكن محظوظًا إلى هذا الحد، فبنهاية الصيف، كان جدي قد شُفي من مرضه، وبقينا عالقين معه.

"قال جيك إنك بحاجة إلى شخص ما للتعامل مع بعض الأمور العقارية؟". علّق برنارد إبهامًا في حزامه، ثم نقر باليد الأخرى على عمود السياج.

تفحصتـه جيـدًا، فقد كان متملمـلًا وعصبيًّا، وقلت: "نعم، أنـا هنا لبضعة أيام فقط، ولكننـي أخطط لبيع الكوخ، هل يمكنك تولي الأمر؟".

أجاب بصوت مرتفع قليلًا: "بالتأكيد أستطيع فعل ذلك".

"حسنًا... سأحضر لك الأوراق والمفاتيح قبل أن أعود إلى المدينة".

"بـكل تأكيـد... فقـط أحضرها إلـى المكتب، واتركهـا مع كلوديا وسـوف تتولى الأمر".

نظـرت إليه، ورأيت التوهج الأحمر لبشـرته، كانت هنـاك بضع حبات من العرق في صدغه على الرغم من البرد. لقد بدا عليه التوتر الشديد.

"إذا كان هذا كل شيء، فسأذهب إذن"... لقد ترك السياج.

شـاهدته وهو يعبث بالمفاتيح ويعود إلى السـيارة، وبمجرد تشغيل المحرك، مد يده إلى سترته وأخرج منديلًا، فمسح به جبينه قبل أن يضغط دواسة البنزين بقوة أكبر مما كان يقصد، وتحركت الإطارات الخلفية في الوحل.

مضت صاعقة واحدة من البرق فوق قمم الأشجار، فنظرت للأعلى، وشاهدتها تشـبه شـبكة عنكبوتية عبر السماء، مثل الجذور المتشـابكة لإحدى الأشجار. كانت الكهربـاء تطن في الهواء، وارتفعت بحدة عندما سـقطت عينـي على الجانب الآخر من الطريق.

توقـف كل شـيء عندمـا رأيتهـا، ثم تسـلل البـرد القارس إلى بشـرتي، وسـكنت الغابة، ولم يبق إلا صوت الريح المتسارع عبر الأشجار.

علـى الجانـب الآخر مـن الطريق، وقفـت إيميري بلاكـوود بجانب الشـاحنة في الطريـق المرصـوف بالحصـى، ممسـكة بمجموعة مـن المفاتيح بيد واحـدة. كانت

أنفاسـها تُطلق بخارًا في الهواء، وصدرها يرتفع وينخفض تحت السـترة القماشـية المشـمعة. انقبضـت كل عضلـة فـي جسـدي، وثبتتنـي في مكانـي، فـازدردت لعابي بصعوبـة، وشـعرت بغصة في حلقي. أمضيت دقائق لا كثيـرة من حياتي أتخيل هذه اللحظـة، حيـث تخيلتها مـرارًا وتكرارًا في ذهني، ورسـمت صورتهـا من كل ذكرى، ولكـن الآن بعـد أن أصبحـت قريبًـا – علـى مسـافة لا تزيـد علـى ثلاثيـن خطوة من الشـخص، الـذي كان يطاردنـي طوال الأعوام الأربعة عشـر الماضيـة، لم تكن لدَّي أية فكرة عما يجب القيام به.

حدقـت إلـى وجهـي، دون أن ترمش، وبـدا أن وجههـا قـد تغير لونـه، وانفرجت شـفتاها. سـحبت الريـح خصلـة من شـعرها الداكن علـى خدها مـن جديلة نصف مفككة، كان شكل وجهها مختلفًا الآن، فاقدًا نعومة الشباب، لكنها كانت أكثر جمالًا إلى حد ما.

اتخذت خطوة لا إرادية إلى الوراء، وشددت قبضتي في جيبيَّ، بينما كنت أبحث بشـكل محموم عن شـيء أقوله، لكنني لم أسـتطع التوقف عن التحديق إليها. كانت تلك اللحظة تحمل ندوب أربعة عشر عامًا من الألم، ومحاولة خرقاء لرأب الصدوع القديمة.

تـرددت للحظـة قبـل أن تصـل بطريقـة عشـوائية إلـى بـاب الشـاحنة لتفتحـه. شـاهدتها متجمـدة وهي تتسـلق إلـى الداخل، وتعيـد المحرك إلى الحيـاة، وقبل أن ألتقط نفسًا آخر كانت تختفي في الطريق.

لقـد تمنيـت ألا تكـون هنـا، وتمنيـت أيضًا لـو أنها غـادرت منذ فتـرة طويلة كما خططنا لذلك، وقبل أن تئول الأمور إلى ما آلت إليه، لكنها لم تفعل ذلك.

ذلك الشعور الذي تسلل داخلي عندما نزلت من العبَّارة، لم يكن بسبب الجزيرة أو البستان أو الليلة التي تغير فيها كل شيء:

بل كان بسبب إيميري بلاكوود.

الفصل العاشر

إيميري

لـم أعـد متأكدة من أيٍّ شـيء ورد في ذهني، هل هو ذكريـات أو مجرد أحلام. لقد فقدت القدرة على التمييز منذ فترة طويلة.

كانت الساعات تمر ببطء وأنا أعمل، بينما كنت أركز إحدى عينيَّ على النافذة، استغرق الأمـر معظم اليـوم حتى أدركت أنني كنت أنتظر، كنـت أتمنى، وفي الوقت نفسه كنت خائفة من عودة أوجست. لم يترك الارتعاش يديَّ منذ وقفت على الجانب الآخر من الطريق أمامه، وبمجرد إغلاق المتجر، بقيت أعمل حتى وقت متأخر من الليل، على البحث عن الإيصالات وأي شيء آخر يمكنني العثور عليه للقيام به.

كان إدراكي لعودته يمثل لي أمرًا مهمًّا، لكنَّ رؤيته، وكذلك أن أستبدل بالذكرى شيئًا حقيقيًّا، كانا أمرين مختلفين تمامًا.

اشـتقت لـه فـي العديد من الليالـي، وكنت أتخيله يعـود ليتسـلق نافذتي ويقترب منـي، كنـت أختبـئ تحـت اللحـاف فـي الظـلام وعينـاى مغمضتـان؛ لأننـي عندمـا أغمضهما كنت أستطيع رؤيته. وفي بعض الأحيان، كنت أشـعر بيديه تمسد شعري. وبينما كنت أستغرق في النوم، كنت أسمع صوته الأجش عندما يستيقظ، وضحكته، والطريقة التي كان ينطق بها اسـمي، كنت أتخيله يلمسـني، ووجهي يعانق الوسـادة، وصوت أنفاسي مثل البحر الهائج حتى أفتح عيني وأتذكر أنه رحل.

لن يعود أبدًا، ويصبح صوت بكائي مريرًا ومحطمًا.

أحيانًا كنت أستيقظ وأصدق للحظة أنه موجود؛ لأنني ما زلت أشعر به يتحسس بشرتي، وأشم رائحته في ملاءاتي، لكن الذكرى كانت دائمًا ما تتملكني، كانت تتمثل في بقايا البستان المتفحمة والجزيرة الصامتة، والندوب التي غطت وجه والدي، والفراغ في حياتي الذي كانت ليلي تشغله ذات يوم، حينئذ كنت أغمض عيني مرة أخرى، والدموع الساخنة تنزلق على وجنتي، وأعود إلى الظلام.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل عندما وصلت إلى شرفة جدتي. لو كان هناك مفتاح للمنزل القديم، فلن أراه قط. لم يغلق أحد في سيرشا أبوابه حتى بعد موت ليلي.

تسللت عبر الممر المظلم إلى الغرفة التي كنت أنام فيها عندما كنت طفلة صغيرة، ونمت على السرير المرتب، دون أن أخلع سترتي، ولا أزال مرتدية حذائي، هنا كنت إيميري فقط - حفيدة ألبرتين - وليست الفتاة التي أحبت الصبي الذي قتل ليلي مورجان، أو الفتاة التي كذبت لحمايته.

نمت نومًا مضطربًا، وعندها عاودني الكابوس.

سماء مرصعة بالنجوم، وبحر أسود هادر، و صراخ شديد.

بعد موت ليلي، كان الكابوس يلاحقني كل ليلة دون انقطاع، لكن مرت سنوات منذ استيقظت وأنا أشعر بدموع باردة تلسع بشرتي.

تنفست منتظرة أن يتكيف بصري مع الضوء الدافئ القادم من النافذة، ما زلت أستطيع تذوق الماء المالح البارد على لساني، لكن المنزل كان هادئًا. جلست ببطء، وتركت الرؤية تتراجع في ذهني، حتى لم تعد أكثر من بقعة سوداء صغيرة. عشت معها فترة كافية لأعرف أنها لم تختف حقًّا أبدًا.

أرجحت ساقي على أحد جانبي السرير، وأغمضت عيني حتى استعادتا صفاءهما. كانت الغرفة لأمي عندما كانت صغيرة، ثم أصبحت لي عندما مكثت في منزل جدتي، وبعد الحريق، أصبحت الجدران الأربعة ملاذًا؛ حيث اختبأت من العالم. لقد راودني الشعور نفسه الآن.

كانت جدتي تقف حافية القدمين عند الموقد عندما دخلت المطبخ، وقد لفّت رداءها القطني المزهر حول جسدها الصغير، وكانت تحرك الملعقة الخشبية في قدر صغيرة بيدها، وتقلب كعكة بنية اللون باليد الأخرى. كانت تنظر نظرة شاردة عبر المطبخ، لكن أذنيها كانتا متجهتين نحوي وهي شاعرة بدخولي.

قالـت لـي: "صباح الخير"، كانت هذه الكلمة عفوية، لكنها نطقت بنبرة حذرة. وُلدت جدتي كفيفة، لكنها كانت ترى دائمًا أكثر مما أريدها أن تراه.

رددت بهدوء: "صباح الخير يا جدتي".

كان الدخـان يتصاعـد من الزبـد على الموقد الحديدي، ما جعـل ضوء الصباح ضبابيًّا، وذهبت إلى النافذة، وفتحتها حتى أسـمح للهواء المنعش المشـبع بالمطر بـأن يدخـل. كانت الشمس بالفعل فـوق الأشـجار، وصبغت الغابـات بصبغة غبارية دافئـة، علـى الرغم من هطول الأمطـار الغزيرة. جعل هذا المطر يتـلألأ في الهواء بشكل ساحر.

قالـت: "سـمعت أنـك أتيـت الليلـة الماضيـة. لـديَّ إبريـق قهـوة مكتـوب عليـه اسـمك"... أشـارت بمرفقها نحو زاوية الموقد، حيث كانت فوهة آلة صنع القهوة لا تزال تتصاعد منها الأبخرة.

صببـت لنـا كوبين ووضعتهما على الطاولة، بينمـا كانت هي تقوم بإعداد كعكات الشواية على لوح تقطيع اللحوم. كان إيقاعًا أعرفه، إيقاعًا يمكنني التنبؤ به. صبت صلصة التوت الأزرق في وعاء أخضر، وأخرجت إبريق الشراب من الثلاجة.

"أؤكد لكِ أنني لم آت إلى هنا لأجعلك تطعمينني"... تراجعت في الكرسي.

تحسسـت المنضـدة بيد واحـدة حتى نهايتها، ثـم وجدت طريقها إلـى الطاولة، وجلست أمامي، حيث كانت هنـاك ابتسامة ساخرة على شفتيها، ثم قالت: "اعتقدت أنك أحببت كعكاتي المشوية".

قلت: "بالفعل"... ابتسمت، ووضعت قطعتين على كل طبق من أطباقنا.

قالت: "إذن... ما الأمر؟".

قلت: "لا شيء".

أجبت بسرعة كبيرة، لكن جدتي كانت امرأة صبورًا. التقطت سكينها، وتحسست طبـق الزبدة، وكشـطت كومة سـميكة منـه. راقبتها وهي تضع الزبـد على الكعكات، بينما كنت أحتسي قهوتي.

مـن خلال المدخل المقوس المؤدي إلى المطبـخ، كان بإمكاني رؤية ولهب النار فـي غرفة المعيشـة. كان رف الموقد الخشـبي ممتلئًا بالأصـداف والزهور المجففة والشـموع المحترقة جزئيًّا. كان هنـاك حجر مستطيل تمامًا ملفوف بإحكام ومعقود

بخيوط الجوت. في وسط الرف كان يوجد كتاب بلاكوود للتعاويذ، وكان غلافه الجلدي الداكن مهترئًا وناعمًا. كان الكتاب السميك زاخرًا بالطقوس والتعويذات والسحر القمري الذي توارثته عائلتي بالطريقة نفسها التي توارثت بها علم الأعشاب. عندما كنت طفلة، كنت أجلس أمام تلك النار وأقلب الصفحات السميكة، وأستنشق رائحة الحبر القديم والشيح المجفف الذي كان مضغوطًا بين الصفحات. كانت الكثير من تلك الذكريات تخص ليلي.

قالت أخيرًا: "اتصلت نيكسي أمس بعد الظهر".

أغمضت عينيَّ، وضغطت بإصبعي على صدغي. لم تكن لتسمح لي بالتهرب من الكلام بسهولة، وكنت أستطيع دائمًا الاعتماد على نيكسي في مثل هذه المواقف.

"قالت إن ابننا قد عاد".

حدقت إليها، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أجيب: "إنه ليس ابننا، يا جدتي".

وضعت ذقنها على يديها المطويتين، وقالت: "هل ذهبت لرؤيته بعد؟".

"لا"... كانت حدة صوتي سببًا في تصلب الكلمة، ودفعت الشعر المتشابك بعيدًا عن وجهي. لم تكن كذبة على وجه الدقة، لقد رأيته، لكنني لم أذهب لرؤيته.

"لماذا؟".

قلت وأنا أزدرد لعابي: "لأنني لا أستطيع، أنت تعلمين جيدًا أنني لا أستطيع".

كان الجميع في سيرشا يعتقدون أن أوجست قتل ليلي وأفلت من العقاب. سأكون كاذبة إذا قلت إنني لم أتساءل في بعض الأحيان عما إذا كان هذا صحيحًا أم لا، لكن السبب الذي جعلني لا أستطيع الذهاب لرؤيته كان أكثر تعقيدًا من ذلك. لمدة أربعة عشر عامًا، كانت حياتي محددة بأسئلة، لم تكن لديَّ إجابات عنها، ولم أكن متأكدة مما إذا كنت أريدها بعد الآن.

التقطت شوكة الطعام الخاصة بي، ودفعت حبات التوت الأزرق حول حافة طبقي، وقلت: "لم أركِ في الاجتماع الليلة الماضية".

أجابت جدتي: "كما تعلمين، تتعب عظامي بعد غروب الشمس، لقد أصبحت طاعنة في السن، ولا أستطيع القيام بأي عمل في المدينة على أية حال".

ابتسمت عند سماع ذلك، فلم تكن ألبرتين كبيرة في السن على فعل أي شيء.

همست: "لم يكن آل مورجان سعداء بسماح جيك له بدفن إيلويز هنا".

رفعت حاجبها، وقالت: "حسنًا، دائمًا ما كانت ليودا موهوبة في وضع أنفها في المكان الذي لا ينبغي أن يكون فيه"، ثم ضمت يديها معًا فوق الطاولة، "أنا سعيدة لأن والديّ ليلي ليسا هنا ليعانيا كل هذه الضجة".

في بعض الأحيان، كنت أقضي شهورًا دون أن أفكر في أوسكار ولي مورجان. انتقلا إلى البر الرئيسي بعد عامين من الحادث، وكنت أشعر بالخجل من مدى الارتياح الذي شعرت به عندما رحلا. كانت ذكريات ليلي تجوب في كل مكان، وكنت سعيدة برحيل كل منهما.

قالت بلطف: "يجب عليك، أن تذهبي لرؤيته".

فجأة، شعرت كأنني على وشك البكاء عندما سمعت صوتها، عاد وجه أوجست إلى ذهني، كما كان عندما التقت عيناه بعيني عبر الطريق، وعندما انقبض فكه بقوة، عضضت شفتي لأمنعها من الارتعاش، ثم أخذت رشفة من القهوة، واستنشقت رائحتها.

"ربما لا أحصل على فرصة أخرى لتهدئة قلبك يا عزيزتي".

سقطت دمعة واحدة على خدي، ولو لم أكن أعرف جدتي، لكنت سعيدة لأنها لم تتمكن من رؤية تلك الدمعة، لكنها كانت تمتلك حواسَّ لا نمتلكها نحن جميعًا؛ حيث كانت قادرة على التقاط النبرة الدقيقة للألم على مسافة ميل.

قلت: "قلبي بخير"... وضعت يدي على ذراعها، لتعزية نفسي أكثر من طمأنتها.

مرة أخرى، تجولت عيناي في كتاب التعويذات أكثر من مرة، فعندما أستيقظ من الكوابيس أو عندما ينهكني الشعور بالوحدة، أفكر في المجيء إلى هنا لأفتحه. وأبحث في صفحاته عن شيء قد يسكِّن ألمي الذي انغرس في أعماقي عندما غادر أوجست. لم أكن متأكدة تمامًا من أنني لم أكن أفعل ذلك، عندما كنت أقود السيارة إلى منزلها في منتصف الليل.

سألت وهي تحمل القهوة الساخنة أمامها: "حسنًا، ماذا تنوين أن تفعلي؟". سقطت خصلة من شعرها الأبيض الطويل على كتفها، وتهاوت في حضنها.

في آخر مرة كنت فيها مع أوجست سولت، كانت عيناه تلمعان مع شروق الشمس، وكانت لمسته دافئة على بشرتي الباردة. اختلطت تلك السنوات معًا في شريط طويل من الرياح المظلمة التي كانت تدور في ذهني ممثِّلة خيوطًا خرقاء من الذكريات

المكسـورة التي كنت حريصة على عدم سـحب أطرافها، كانت هناك وحوش نائمة، جائعة، لكننـي كنت لا أزال خائفة من فقدانها.

همست: "لا أعلم".

لقد مرت أربعة عشر عامًا منذ رحيل أوجست، لكنه لم يفارق خاطري مطلقًا.

الفصل الحادي عشر

ستة عشر شهرًا قبل الحريق

إيميري

صرخت ليلي وقد امتزجت كلماتها بضحكاتها: "دوتش بودن، سأقتلك!". سرعان ما سحبها دوتش من الماء، وألقاها وسط الأمواج المتلاطمة.

اختفت ليلي وغطتها الرغوة البيضاء للأمواج قبل أن تطفو مرة أخرى، بينما كان شعرها الأشقر الفاتح منسدلًا على ظهرها، حتى خصرها تقريبًا، وقد ارتفعت ملابسها حتى ركبتيها.

كنت أشاهدهما وأنا ممسكة بزجاجة المشروب التي سرقتها من المقهى. وضغطت بأسفل قدميَّ العاريتين على الحجر الدافئ تحتهما. كان يومًا مشمسًا وهو أمر نادر الحدوث في أوائل الربيع، وكان الماء باردًا جدًّا، ولا يشجع على السباحة، لكنهما قفزا من فوق الصخرة على أية حال. كان لدينا نحن الأربعة طقوسنا في مثل تلك الأيام، فكنا نسير مباشرة إلى شاطئ هالو بعد انتهاء اليوم الدراسي، لكن جَدَّ أوجست كان قد استدعاه إلى البستان مرة أخرى.

حاولت ليلي الخروج من الماء فمد دوتش يده إليها مرة أخرى، وخرجت بصعوبة من الماء، واستلقت على البطانية بجانبي وقد بدا عليها الإعياء، تمددت، وكوَّرت ملابسها خلف رأسها مثل الوسادة، فاستلقيت بدوري بجانبها. كانت الشمس

مشـرقة والسـماء صافيـة، إلا أنها لم تخـلُ من بعض التجمعات مـن الغيوم الكثيفة، وقد كان منظرها متناقضًا بشدة مع اللون الأزرق الرمادي للبحر الهائج.

تركـت زجاجة المشـروب تتجه نحـو ليلي، فأخذتها وأفرغتها فـي جوفها قبل أن أرميها في الرمال.

ثم سألتني: "ما الذي جعله يستغرق كل هذا الوقت؟".

أجبتها: "لا أعرف"، ثم أغمضت عيني، بينما تسربت أضواء الشمس الحمراء والبرتقالية خلف جفوني.

شـعرت كأن أوجسـت قـد أمضـى كل لحظة من حياتـه ذلك العام وهـو يعمل في البستان، فقد كان يعمل قبل دراسته وبعدها، وأحيانًا حتى وقت متأخر من الليل. لم أحب هنري سولت قط، لكنني كرهت والد أوجست في تلك الأيام أيضًا، على الرغم من أن أيًّا منا لا يتذكره، لكن رحيله جعل كل شيء يقع على عاتق أوجست.

وضعـت ليلـي خدهـا البارد علـى كتفي، وكان مثـل الجليد في برودتـه، ثم قالت: "دعينا نذهب إلى ويلكي بوينتي هذه الليلة".

سألتها: "وماذا نفعل؟".

أجابتني: "لا أعرف... ما أهمية ذلك؟".

التفت برأسـي لألقي نظرة عليها، كانت ذراعاها الطويلتان ممدودتين بجانبها، وأصابعها تمسح الرمال.

قلت: "يمكننا التسلل إلى المقهى و..."

اعترضت قائلة: "لقد وصلت إلى حصتي الأسـبوعية من الشـراب التي يمكنني تناولها دون أن يلاحظ أحد ذلك"، قاطعتها قائلة:

"حسـنًا، يمكن لدوتش أن يسرق خزانة الشـراب الخاصة بوالده، فقد كان هذا دوره على أية حال".

هز دوتش كتفيه موافقًا قبل أن يرفع عينيه نحونا، ثم قال بصوت أجش من بين أنفاس السيجارة التي كان يدخنها: "أخيرًا!".

أرجعت رأسي للخلف وأنا أرى ظل جسد أوجست وهو يرتسم فوق الصخور على الطريق المؤدي إلى الأشجار. كان بالفعل يخلع القميص ويلقي به على الأرض. كان جسـده يلمع ببريق العرق الذي تجمَّع على بشـرته بعد سـاعات العمل في البسـتان،

سقطت خصلات شعره على جبهته مخفية عينيه، وكانت عضلات فكه ورقبته وكتفيه تبدو مشدودة.

جلست على مرفقي وأنا أراقبه وهو يسبح في الماء البارد. كنت أعرف ما تعنيه تلك النظرة على وجهه. لقد تشاجر مع جده.

أخرج دوتش زجاجة مشروب من الصندوق، ثم فتحها، وعندما صعد أوجست مرة أخرى فوق الصخور وهو يمسد شعره بمياه البحر، ناوله دوتش إياها.

حجبت ليلي عينيها عن الشمس بيدها، ونظرت إليه وهي تقول: "سنذهب إلى ويلكي بوينتي الليلة".

رد عليها أوجست: "لا أستطيع فعل ذلك، فعليَّ أن أعمل غدًا في الصباح الباكر".

تذمرت ليلي وقالت: "يا إلهي، أنتم يا رفاق مملون جدًّا".

تجاهل أوجست كلامها، ووجد مكانًا بجانبي.

راقبته بعناية وهو يرفع الزجاجة إلى شفتيه مرة أخرى، وفكرت أنني إذا سألته عن حاله، فسيقول إنه بخير، ولن يتحدث معي أمام دوتش وليلي.

حاولت ليلي إقناعه مرة أخرى فسألته: "ماذا لو أعدناك إلى المنزل قبل منتصف الليل؟".

استطعت أن أرى أنه أدرك أنه لا جدوى من الجدال معها، فقال وهو يهز كتفيه: "حسنًا".

أمسكت ذراعه بيدي وضغطتها برفق. كانت قطرات الماء تتساقط من شعره، وتسلك مسارات أسفل ظهره، كما كانت توجد كدمة قاربت على الاختفاء، وكانت مرئية بصعوبة تحت كتفه.

قال بهدوء، مجيبًا عن السؤال الذي كان يدور في ذهني: "إنني بخير"، لكنه لم ينظر نحوي عندما كان يقول ذلك.

اقتربت ليلي مني، وقد اقشعر جلدها الفاتح، واصطبغت وجنتاها باللون الوردي، ثم قالت: "يا إلهي، إنني أتجمد من البرد".

ذكّرتها: "لقد حذرتكِ من أن الماء بارد".

لكن إخبار ليلي بعدم القيام بشيء كان يعني أنها ستفعله، خاصة إذا كنت أنا من يقول ذلك الشيء.

التقـط دوتشـ قميصـه الـذي كان قد خلعه وألقـاه نحوها، قبـل أن يعرض عليها سـيجارة. حدقت ليلي إليها للحظة قبل أن تأخذها، وتأخذ نَفسًـا منها، لكنها تركت القميص، ولفت ذراعيها حول ركبتيها وارتجفت.

هز دوتش رأسه، وضحك في مرارة.

حدقت ليلي إليه، ثم سألته: "ما الأمر؟".

أجابها: "لا شيء، أنتِ فقط شخص يمكن التنبؤ بتصرفاته في بعض الأحيان".

سـاد الصمـت، ثـم قالـت بحدة وهـي تنظر نحـوه وتضيـق عينيها: "مـاذا يعني هذا؟".

جلت بنظري بينهما، لكن دوتش استدار عائدًا نحو الماء متجاهلًا إياها.

دارت ليلي بعينيها ثم قالت: "يجب أن أذهب، سيخرج والدي للبحث عني"، ثم نهضـت واقفة، وطبعت قبلة على رأسـي، وانتزعت صندلهـا من الصخور، ثم قالت: "سأقابلك في منزلك".

قلت لها: "وداعًا"، ثم شددت سترتي بإحكام، ففي غضون خمس دقائق أخرى، ستكون الرياح باردة بشكل لا يطاق.

شـاهد دوتشـ ليلي وهي تمشي بين الأشجار، فألقى آخر سيجارة معه في الماء، ثـم قـال وهو يخطو فوقي، ويلقي بزجاجته الفارغـة في الصندوق: "يجب أن أذهب أنا أيضًا".

تمتمت: " ماذا يحدث؟".

قال أوجسـت، بقسـوة بعض الشيء: "ومن يهتم؟"، ثم دفع شعره المبلل للخلف مرة أخرى، بينما كان دوتش يسير نحو الغابة خلفنا.

أحاطنـي أوجسـت بذراعيـه، وفكرت في أن ليلي تتمتع بحسـ درامـي، فعلى تلك الجزيرة حيث كان كل يوم يشـبه تقريبًا اليوم السـابق، ابتكرت هي طرقها الخاصة لجعل كل شيء يبدو رائعًا، ولكننـي عادةً ما حاولت البقاء بعيدة عن كل ذلك.

صمت أوجست بينما تكسرت الأمواج على الصخور، ولامس الماء أقدامنا.

سألته بهدوء: "هل تريد التحدث عن الأمر؟".

أخذ رشفة أخرى، ثم قال: "في الواقع، لا رغبة لي في ذلك".

لم أضغط عليه لأنني لم أنجح في ذلك قط. ركزت بعيني على اللون الأزرق تحت بشرته. كانت العلامة غير مرئية تقريبًا الآن، ولكن ستكون هناك علامة أخرى وأخرى.

لا أعرف متى اتفقنا بالضبط على البدء في الحفاظ على ذلك السر، ولكن كلما تَقَدَّم بنا العمر، كنت أتساءل عن مدى سرية الأمر. كان هنري سولت مكروهًا من قبل الجميع تقريبًا في الجزيرة، لكنه كان أيضًا يمتلك كل القوة، فمن دون البستان، لن تكون هناك أهمية لبلدتنا، لكن لا أحد يعيش إلى الأبد، ولا حتى في سيرشا، وفي نهاية اليوم، أدركت أننا جميعًا كنا ننتظر موته.

وضع أوجست الزجاجة بين قدميه، واستند بمرفقيه إلى ركبتيه ثم قال: "هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟".

أجبته: "نعم، بالتأكيد".

تردد وصمت فترة طويلة، حتى ظننت أنه ربما غيَّر رأيه بشأن ما كان سيقوله، ثم قال: "ماذا لو فعلنا ذلك حقًّا؟".

سألته: "فعلنا ماذا؟".

أجابني: "رحلنا".

رفعت حاجبيَّ وأنا أتأمل النظرة التي ارتسمت على وجهه. كنا نمزح دائمًا ونتحدث عن مغادرتنا سيرشا عدة أشهر، يمكننا فقط أن نصعد على متن العبارة في صباح أحد الأيام ونرحل، لكننا لم نكن جادين مطلقًا، لم أكن أعتقد أننا كذلك على أية حال.

ثم تابع: "بعد التخرج...". توقف قبل أن يكمل: "ماذا لو فقط رحلنا؟".

ضحكت بعصبية، وسحبت ذراعي من يده، وقلت: "لا أعرف ما إذا كنت جادًّا".

أجاب: "أنا جاد بالفعل"، ولم ينظر نحوي كما لو كان خائفًا من إجابتي.

حدقت خلفه، نحو الماء، وقد بدأت السحب الداكنة في التجمع، وتحول البحر من اللون الأزرق إلى الرمادي في غضون لحظات، وكان يمكنني أن أشم رائحة المطر في الهواء، كان هناك دائمًا أطفال يتحدثون عن مغادرة سيرشا، لكن معظمهم لم يفعلوا ذلك، وأولئك الذين تركوها كانوا يعودون إليها مرة أخرى، ولم يكن هذا سؤالًا بسيطًا يمكنني أن أجيب عنه بإذا كنت أريد ذلك أم لا، فقد كانت عائلاتنا في سيرشا، وكان هناك دوتش وليلي، وكان هناك البستان، ومتجر الشاي.

سألته: "وماذا عن البستان ووالدتك؟".

انتفض أوجست، وسحب إحدى يديه ووضعها على عنقه، ثم سألني: "هل ستأتين معي؟". في تلك المرة، نظر نحوي، وجعلتني الطريقة التي نظر بها إليَّ أشعر بالقلق.

عض شفته السفلية، واستدار نحو الماء، ثم قال: "لا تهتمي... إنها فكرة غبية". رفعت ركبتي إلى صدري، وثبّتُّ عيني على الرمال التي تفصل بيننا. لم يرغب أي منا في أن يسلك الطريق نفسه الذي سلكه والداه في الحياة، إلا أن كل هذا بدا حتميًّا، وكنت أعتقد دائمًا أنه ما دامنا بقينا معًا، فهذا شيء يمكننا أن نتقبله في النهاية. لم أسأل نفسي قط عما إذا كنت أرغب في مغادرة سيرشا؛ لأن هذا هو المكان الذي كان يوجد فيه أوجست، لكن المغادرة معًا كانت فكرة جذابة ولا تقاوم، وبدت لي في جمالها مثل أشعة الضوء التي تلامس قمم الجبال قبل شروق الشمس.

استنشقت نَفسًا عميقًا، ثم أجبته: "أجل، سأفعل"، جاءت الإجابة بسهولة لدرجة أنها فاجأتني أنا نفسي، لكنها كانت الحقيقة.

قال أوجست في هدوء: "أنا جاد يا إيم".

تحركت من مكاني على الصخرة، واستدرت حتى أتمكن من رؤية عينيه، ربما بدا الأمر مزحة، لكن لم يكن أي منا يضحك الآن.

ظهرت ابتسامة صغيرة على شفتيَّ، وقلت: "وأنا أيضًا".

الفصل الثاني عشر

إيميري

كنت قد وصلت إلى المتجر في وقت متأخر من الظهيرة، ووجدت ملاحظة مكتوبة على الباب.

بدأ المارة في شارع ماين في التوجه إلى المقهى، وفي غضون ساعات قليلة، كانت العبَّارة الأخيرة ستقلهم إلى منازلهم.

ظاهريًّا، كان يومًا كأي يوم آخر، ولكن في الحقيقة، كانت أجواء الجزيرة قد بدأت الغليان. كان بإمكاني أن أشعر بذلك مع هبوب الرياح، وأنا أصعد الدرجات إلى المتجر، وعيناي تتجهان نحو النافذة المكسورة.

وعلى قطعة الورق العالقة في إطار الباب، رأيت ما كتبه بيتر بسرعة بخط يده، ولو لم أستطع فك رموز ملاحظات ساعي البريد لنصف حياتي، لبدت تلك الكلمات لي غير قابلة للقراءة.

طرد للتسلُّم

أعدت المفتاح إلى جيبي، ونزلت الدرجات متتبعة الرصيف المائل. كان مكتب البريد عبارة عن مبنى صغير يقع بين المخبز ومتجر بيع الأدوات المعدنية، وكانت به نافذة واحدة فقط تطل على الشارع.

كان هناك جرس حديدي معلق بحبل على الجانب الآخر من الباب، وكان يجلجل عندما أفتح الباب، وفي الداخل كانت موظفة البريد تفحص كومة من الأوراق على

مكتبها، وانعكس ضوء الشمس على نظارتها الشمسية البيضاوية، بينما جعل القلق ابتسامتها تبدو باهتة وهي ترحب بي قائلة: "مرحبًا يا إيم".

كان هذا تحديدًا السبب وراء رغبتي في تجنب المدينة، والسبب وراء عدم سماح ألبرتين لي بذلك.

قلت وأنا أرفع قطعة الورق وألوِّح بها في الهواء: "مرحبًا يا مارجريت، لقد تسلمت ملاحظة بيتر".

نهضت من كرسيها وهي تقول: "أوه، نعم"، وكان تقوُّس ظهرها يجعلها تنحني إلى الأمام، ويجعل من الصعب عليها إبقاء نظارتها على أنفها، وتابعت: "قال لي إنكِ بالخارج".

بدا الأمر كأنه سؤال. لم يفوت أي شخص أي شيء يحدث في هذه الجزيرة، وربما قضى كل صاحب متجر في شارع ماين الصباح في تكهُّن السبب وراء عدم وجودي في متجر الشاي، فبعد اجتماع الليلة الماضية لن يكون هناك أي شخص في سيرشا لم يتحدث عني.

ابتسمت لي مارجريت ابتسامة عريضة وهي تنتظر الإجابة، وخلفها كانت الملصقات الخاصة بالطوابع التي يعود تاريخها إلى عام 1968 معلقة على الحائط، ولم يكلف أحد نفسه عناء إنزالها.

أجبتها: "كنت أطمئن على ألبرتين فقط". كانت تلك هي الحقيقة التي يمكنها التحقق منها، إذا قارنت الملاحظات مع أي شخص رآني في ذلك المكان من الغابة.

قالت مارجريت: "آه، حسنًا، دعيني أرَ ما إذا كان بإمكاني فك تغليف ذلك الطرد لك".

قلت لها: "شكرًا"، واختفت الابتسامة من شفتيَّ بمجرد أن تراجعت إلى الخلف وأخذت أعبث بوشاحي بين يدي.

كنت أعرف كيف أمارس هذه اللعبة؛ فقد أصبحت أجيد تجاوز مراقبة الآخرين لي، والتعامل مع الاستفسارات غير المعلنة والتطفل غير المباشر، وعندما كنت أعتقد أن الأمور قد استقرت أخيرًا، كان كل شيء يعود إلى الظهور مرة أخرى من خلال شائعة أو نظرة غريبة تتجه نحوي في السوق. كان الناس أكثر تسامحًا مع دوتش؛ حيث عدُّوا خطاياه ناتجة عن طيش الشباب، وعندما عيَّنه مجلس المدينة مديرًا للبستان، نسي الناس ماضيه بسهولة، ولم أكن أنا محظوظة مثله.

دفعت مارجريت الباب مرة أخرى وهي تحمل طردين بين ذراعيها، ووضعتهما على المكتب، وكادت تسقطهما، فقفزت للأمام لألتقط الطرد الذي كان في الأعلى قبل أن يسقط.

ضحكت، ودفعت نظارتها إلى مكانها، ثم قالت: "أوه!، شكرًا لكِ يا عزيزتي، هل يمكنكِ تسليمه إلى ليودا، لن تمانعي، أليس كذلك؟ يا لها من مسكينة!".

ستجد ليودا نوعًا مختلفًا من الاهتمام من المدينة الآن، بعد أن انفتح هذا الجرح تلك الليلة مرة أخرى. ومع رحيل والديّ ليلي، كانت هي وهانز الشخصين الوحيدين المتبقيين من عائلة ليلي. لم أكن أعرف أي الشعورين أسوأ... الشفقة أم الشك.

قلت لها: "بلى". حملت الطرود، ورميت بالملاحظة في سلة المهملات، ثم قلت: " أراكِ لاحقًا يا مارجريت".

أغلقت الباب خلفي، ورفعت غطاء رأسي، وسرت في طريقي نحو الصيدلية، ورأيت الدخان وهو يتصاعد من سقفها. كان كل من ليودا وهانز، جَدَّيّ ليلي، من بين عدد قليل من الأشخاص في المدينة، الذين بدا أنهم ما زالوا يتذكرون أنه عندما ماتت ليلي، فقدتُ أنا أفضل صديقة لي، وبعد فترة وجيزة، فقدتُ كل شيء آخر.

لم يكن هناك مصباح واحد مضاء في ذلك المتجر المعتم، عندما دلفت إلى الداخل. كان الهواء البارد يتسرب عبر النوافذ المفتوحة، حيث كانت الزجاجات الملونة الممتلئة بالأدوية النباتية، تتوهج مثلما تتوهج الأواني الزجاجية الملونة في الخزائن المفتوحة، وكانت تحتوي على كل شيء من الفطر الذي جُمِعَ، بالإضافة إلى اللحاء المقشر، والجذور المتشابكة، التي غُسِلَت من آثار التربة العالقة بها.

صاحت ليودا من الغرفة الخلفية: "سأكون معكِ في الحال!".

خلف المنضدة، كانت هناك قدر حديدية تغلي على الموقد الصغير، وقد امتلأ المتجر برائحة حلوة، كانت مزيجًا من رائحة المريمية الطازجة وتوت العرعر المطحون، وبجانبه، كانت تقبع على المنضدة الأوعية الزجاجية الفارغة ذات اللون العنبري، في انتظار أن تُملأ بالدفعة التالية من العسل العشبي.

دارت حول الزاوية بيديها المبللتين اللتين حشرتهما في مئزرها، وقالت: "حسنًا"، وتعثرت قليلًا عندما رأتني، وقالت وهي تتنهد وتبتسم: "أوه، إنه أنتِ يا إيم".

رفعت الطرد أمامي وأنا أقول: "هذه لكِ، طلبت مني مارجريت إحضارها هنا".

التقطت النظارات المعلقة حول رقبتها، ووضعتها على أنفها، وهي تتنهد قبل أن تأخذ الطرد مني وتقول: "يا إلهي!"، ثم بحثت بأصابعها عن السكين الصغيرة في جيب مئزرها، ومررتها على طول الحواف الملصقة بشريط بثلاث ضربات سريعة. قررت أن أفتحها لها عندما تضعها على المنضدة، فمددت يدي إلى الداخل لإخراج اللفائف ووضعها على المنضدة. للحظة، تذكَّرنا عاداتنا القديمة، وتبدد التوتر الذي كان يخيم على المكان منذ لحظات، كانت هناك فترة لم أكن أعرف فيها ما إذا كانت ليودا ستتمكن من التحدث معي مرة أخرى، فضلًا عن النظر إليَّ، لكننا قطعنا جميعًا شوطًا طويلًا منذ ذلك الحين.

التقطتْ أحد الطردين، وبدأتْ فتحه قبل أن تضعه مرة أخرى، وأعاد ذلك إلى ذهني ذكريات الصيف التي عملت فيها هنا، عندما كنت فتاة مراهقة، وعندما كان متجر الشاي مغلقًا في ذلك الموسم. وبدت لي تلك الذكريات حية ومشرقة، فقد كانت ليلي حاضرة في كل منها.

قالت ليودا: "ليس هنا يا عزيزتي".

سحبت ليودا السلسلة المحيطة برقبتها عندما رأت كومة الورق الملفوفة التي قمت بفكها، وظهر المفتاح الهيكلي القديم في النهاية، حيث سقط في راحة يدها، فذهبت إلى الخزانة الزجاجية بجوار الحائط الخلفي، وانفتح القفل ومن ثم الباب.

قالت ليودا وهي تتحدث لنفسها تقريبًا: "أخشى أن يكون نبات اليبروح نباتًا سامًّا بقدر ما هو طبي".

انحنت أمامه، وناولتها الحزم الواحدة تلو الأخرى، حتى استقرت في السلة البلاستيكية الصغيرة على الرف السفلي، وكان هناك وعاء مملتئ بريش الطيور، ووعاء آخر مملوء بأسنان الثعابين فوقه، إلى جانب أشياء أخرى جمعتها من الجزيرة. كانت هذه المكونات خاصة بشيء يختلف عن العلاجات والأدوية التي كانت تصنعها. عندما كنا صغارًا، كنت أنا وليلي نخبئ أشياء في تلك الخزانة لنستخدمها في تعويذاتنا الخاصة، ثم نختبئ في الصوبة الخاصة بجدتي، ثم نتفوه بكلمات تبدو عتيقة أمام لهب شمعة.

قالت ليودا وهي تنهض على قدميها وتئن: "تعيد هذه الرائحة الذكريات"، ثم أومأت بذقنها إلى قدر العسل العشبي التي كانت تغلي فوق الموقد.

ابتسمت وقلت لها: "لم تدفعي لنا أي شيء تقريبًا مقابل صنعنا تلك الكميات الكبيرة، وقد ظل العسل عالقًا في شعري أسابيع".

قالت ليودا: "حسنًا، كان عليَّ أن أشغلكما، فقد كنتما تثيران المتاعب منذ لحظة ولادتكما، وكان يجب عليَّ أن أعرف ذلك، فلم يفصل بين ولادة كل منكما سوى ثلاثة أسابيع فقط".

كنت قد سمعتها تروي تلك القصة مرات لا تحصى، وكانت دائمًا ما تخفض صوتها قليلًا، وتميل بزوايا فمها للأسفل وهي تقصها.

انحنيت إلى المنضدة، وراقبتها وهي تغلق الخزانة.

ثم قالت دون أن تنظر إليَّ: "لقد رأيتكِ في الاجتماع الليلة الماضية".

سألتها: "هل تعتقدين أنه لم يكن ينبغي لي أن أذهب؟".

بدا أنها كانت تفكر في الأمر، ووجدت مكانًا تقف فيه على الجانب الآخر من طاولة البيع، قبل أن ترفع يدها لتضع شعري خلف أذني، ثم قالت: "لا... أنا سعيدة لأنكِ كنتِ هناك"، بدت متعبة، وحتى أكبر سنًّا من عمرها البالغ اثنين وسبعين عامًا. مدت يدها بجانبي، والتقطت لفافة أخرى، وأمسكت بها، وقلبتها بين أصابعها بتوتر، ثم ظلت صامتة لحظة قبل أن ترفع عينيها الزرقاوين نحو عينيَّ وتسألني: "هل كنتِ تعلمين أنه قادم؟".

سألت في دهشة: "ماذا؟"، آلمتني كلماتها، فأجبت: "لا، لم أرَ أو أتواصل مع أوجست منذ رحيله، وأنتِ تعرفين ذلك يا ليودا".

أومأت برأسها، وزمت شفتيها؛ ما جعل الخطوط حولهما تبدو أكثر عمقًا، ثم قالت: "بالطبع لم تفعلي ذلك".

حاولت أن أتفحص وجهها والنظرة التي ارتسمت عليه، فقد كانت ليلي حفيدة ليودا الوحيدة، وقد تغيرت كثيرًا بعد وفاة ليلي. لقد تغيرنا جميعًا، لكنها لم تتخلَّ عني مطلقًا، مثل العديد من الأشخاص الآخرين على الجزيرة، وكانت هناك أوقات كنت أتساءل فيها، ما إذا كانت ليودا في بعض الأحيان تلومني، ربما لأنني لم أكن مع ليلي في تلك الليلة، أو لأنني دافعت عن أوجست عندما كان الجميع مقتنعين بأنه قتلها، لم أمتلك مطلقًا الشجاعة للسؤال عن ذلك.

كان هنــاك الكثيــر من النــاس في المدينــة الذين اعتقدوا أننــي كنت أعرف أين ذهــب أوجســت عندمــا اختفــى، وأنني كذبت من أجلــه، وخنت ليلــي، فلقد تصدرت وفاتهــا عناويــن الصحــف في المدينــة، وجلبت للجزيرة ســنوات من الانشــغال غير المرغوب فيه، خاصة عندما ظهرت التفاصيل؛ فتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا وُجــدت في وســط الغابــة، ورئتاهــا ممتلئتان بمياه البحــر، ولا يُعرف كيف وصلت إلى هناك، ولم يستطع أحد تفسير ذلك.

ثم بعد أســابيع قليلة فقط من الإعلان عن عدم توجيه تهمة القتل إلى أوجســت، اختفــى هــو وإيلويز، ولم يودعا أحدًا، ولم يتركا أي شــيء يشــي بالمــكان الذي ذهبا إليه. لقد اختفيا فقط.

قالــت أخيــرًا، وهــي تعود إلى حالتهــا الطبيعية: "لماذا لا تأتين لتناول العشــاء؟ لقد صنع هانز فطيرة تفاح الليلة الماضية".

أغمضــت عينــي، والتقطــت الطــرد الآخــر، ووضعتــه بيــن ذراعي، ثــم قلت: "لا أستطيع. سأذهب إلى نيكسي بعد إغلاق المتجر".

حدقت إليَّ بصمت لحظة قبل أن تعود إلى طاولة البيع: "حســنًا، المرة المقبلة إذن".

أومأت برأســي، وأنا أشــاهدها وهي تغمس الملعقة الخشــبية الطويلة في القدر وتبدأ التحريك: "في المرة المقبلة".

الفصل الثالث عشر

أوجست

فتحت درجًا آخر، وتصفحت الملفات وأنا أسعل. كان الغبار يملأ الهواء، ويلف كل شيء بضباب خانق يشتت ضوء ما بعد الظهر، وحتى مع هطول المطر في الخارج وفتح النوافذ، ظل هذا الهواء غير الصحي موجودًا، ما جعل رئتيَّ تحترقان.

كنت أقضي ساعات في فحص الأوراق التي نظمتها والدتي بعناية، وكانت خزائن الملفات القديمة منسية في الغرفة الخلفية، ومن خلال شق الباب، كان بإمكاني أن أرى غرفة النوم التي كانت تخصني ذات يوم، وكانت زاوية السرير مغطاة بغطاء السرير، وكانت ألواح الأرضية تبدو بيضاء، ومع هذا لم أستطع أن أجبر نفسي على الدخول إلى هناك.

لم يكن هناك الكثير من الذكريات السيئة في هذا المنزل، حيث كانت والدتي صديقتي أكثر من كونها والدتي، وكانت تمثل عائلتي الوحيدة بجانب جدي وإيميري.

أطبقت على فكي بقوة وأنا أخرج الملف التالي من الدرج، فباستثناء بعض شهادات الميلاد، ووثيقة تأمين منتهية الصلاحية على المنزل، ومقتطفات من *مجلة سيرشا*، كانت المحتويات في أغلبها تخص البستان.

لقد تركني والدي عندما كنت في الثانية من عمري، وأخذت والدتي مكانه في البستان، حيث كانت تدير الجزء الخاص بالكتب والأنشطة السياحية، بينما كان

جـدي يديـر أعمـال الزراعة. نظر هنري إليهـا دائمًا بوصفها عبئًـا عليه، بينما كان الجميع في الجزيرة يعرفون أن والدتي هـي التي جعلت المدينة مزدهرة.

لقد أحبت والدتي المزرعة ولم أفهم المبرِّر قط، وأوضح جدي لها أنها لن ترثها أبدًا، فقـد كان يفضـل أن يشـاهد كل شـجرة فيها تغرق في المحيط، بدلًا مـن رؤيتها تؤول إليها يومًا ما. لن يذهب البستان إلا إلى واحد من عائلة سولت، ولم يرها مطلقًا واحدة منهم.

كان الكوخ هو أول شيء تملكه والدتي حقًّا، فلقد جاءت من العدم، وعندما مرت سبع سنوات على رحيل والدي قامت بتسجيل المنزل باسمها، فغضب هنري لذلك بشدة.

لكن في النهاية، لم تتحقق أمنيته، وكنت سعيدًا لأنه كان عليه أن يستسلم للأمر قبل أن يموت، وبعد أن غادرنا، لم يكن هنـاك أحد يمكنه أن يترك له البسـتان سـوى سكان البلدة، وهو ما أقسم أنه لن يفعله أبدًا.

ومع ذلك، قامت أمي بفهرسة قوائم الطلبات، وسجلات المعدات، والملاحظات حـول البـذور، وقوائـم الموظفيـن، وكل شـيء أغفله جـدي، أو لم يكلف نفسـه عناء تعقُّبه. كان لدى كل عائلة في سيرشـا شـخص يعمل في البسـتان في فترة ما، وكان هـذا هـو العمـل الصيفـي لمعظم الأطفـال، والعمـل الموسـمي في الخريـف لجميع الآخرين تقريبًا. كان بسـتان عائلة سـولت هو الذي بنى تلك المدينة ثم أدارها بعد ذلك، حتى اندلع الحريق.

وفـي آخـر مرة رأيتـه فيها، كان قد احترق ما يقرب من نصف صفوف الأشـجار التي تركت خلفها آثارًا من الخطوط السوداء المتفحمة على الأرض، وكنت أحلم بها أحيانًا، وأستيقظ ورائحة الفحم تدور في الهواء من حولي، قبل أن أتذكر أين كنت. ومهما ابتعدت، كانت ذكريات البستان وندوبه تلاحقني.

فكرت في الذهاب لرؤيته، فربما يمكنني أن أمشي بين الأشجار للمرة الأخيرة، لكن كان هناك في ذلك البستان أشباح أكثر مما يمكنني إحصاؤها.

فتحـت المجلد التالي، ورتبت الأوراق، ومـررت بعيني على الكلمات، والتي كُتبت بالحبر الخاص بالآلة الكاتبة القديمة، وشعرت بأن توقيع والدتي الموجود في أسفل كل صفحـة تقريبًـا يحـدق إليَّ مـن جديد، وكانـت الرزمة المغلفة بالمشـبك الورقي تحتوي على بيانات مسح الأراضي، التي امتدت حتى تصل إلى التلال التي تقع على الجانـب الغربـي مـن الجزيـرة، وكان كل شـبر فيها يمتلـئ بثمار التفاح مـن كل لون تقريبًا، وكنت أعرف منذ نعومة أظافري معلومات عن الفاكهة أكثر كثيرًا مما أردت

أن أعرف، وكان جدي يقول دائمًا إن حب البستان كان يجري في دمائنا، لكنه كان بالنسبة لي مجرد لعنة، وما زلت أكرهه بسبب ذلك.

أغلقت الملف، ووضعته على الكومة المهملة، ثم خلعت نظارتي وفركت عيني. لم أر نسخة من صك ملكية الكوخ، ولم أتمكن من العثور على نسخة أخرى في منزل والدتي في بروسبر أيضًا، انزعجت لأنني إذا كنت سأبيع العقار وأقطع آخر علاقتنا بهذا المكان، فسأحتاج إليها.

علاقتي، صححت لنفسي. فلفترة طويلة كنا معًا، والآن أنا وحدي.

تردد صدى صوت طرقة ثقيلة على الباب الأمامي في جميع أنحاء المنزل، بينما كنت أمد يدي إلى الملف التالي فتجمدت في مكاني، وحدقت إلى النافذة المفتوحة، فلم أسمع صوت سيارة تقترب، وفي تلك اللحظة شعرت بالخوف يتملكني.

عندما سمعت الطَّرق مرة أخرى، وبصوت أعلى الآن، نهضت من مكاني، ونزلت إلى الرواق بخطوات مترددة، ونظرت خلف الستارة، لأرى ظلًّا طويلًا لشخص ما ينعكس على الزجاج.

فكرت أنها ليست هي من يطرق الباب، فهذا الظل أطول من أن يكون لها، وحاولت تهدئة نفسي، وتنفستُ بعمق.

وبينما كنت أعبر غرفة المعيشة لألقي نظرة عبر الستارة، سمعت صرير الألواح الخشبية القديمة على الأرضية، وعندما وصلت أخيرًا، رأيت نوح بلاكوود يقف ويداه محشورتان في جيبيه، وهو ينظر نحو الطريق. رجعت خطوة سريعة إلى الوراء، وأزحت شعري من فوق جبهتي، بينما كنت أجول بناظريَّ في أنحاء الغرفة.

تمتمت وأنا أمد يدي إلى مقبض الباب: "يا إلهي!".

فُتح الباب، فغمر الضوء المكان، واستدار نوح لينظر إليَّ، وجفلت عندما رأيت الندوب، وزاد ذلك من الكآبة التي انتابتني آنفًا. كانت الندوب قد غطت جانب وجهه بالكامل تقريبًا، ولكنها لم تمتد أبعد من ذلك، فلم يكن لها وجود بالقرب من ياقة قميصه ذي الأزرار، لكن هذه لم تكن الطريقة الوحيدة التي تغير بها هذا الرجل الذي كنت أتذكره شابًّا وسيمًا بشكل ملحوظ، بشعره الداكن وجسده ذي العضلات، لم أصدق أنه هو نفسه والد إيميري، فقد غزا الشيب شعر هذا الرجل الذي يقف أمامي الآن، وتجمعت تجاعيد عميقة على جانبيْ وجهه الذي لا يزال يشبهه وهو شاب.

ازدردت لعابي، محاولًا ألا أحدق إلى الجلد الوردي المتموج المخطط الذي كان على خده: "السيد بلاكوود".

خلع قبعته من رأسه، ووضعها أمامه ثم قال بصوت أجش: "أوجست!"، وكانت عيناه لا تزالان تنظران إليَّ في حنان كما عهدته دائمًا، كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أرغب دائمًا في إرضائه، وأيضًا السبب الذي جعله هو وشقيقه جيك مختلفين تمامًا عن بعضهما.

ودون قصد مني وقفت بشكل أكثر استقامة، وأنا أعدِّل من وضعية قميصي في توتر ثم قلت: "هل تريد الدخول؟".

أومأ برأسه مبتسمًا، لكن جانبًا من فمه لم يتحرك قال: "بالتأكيد... شكرًا".

تراجعت للخلف، ونظر هو حول المنزل وقد ارتسم تعبير غريب على وجهه، بينما كان يخطو إلى الداخل، كما يبدو أنه يتذكر كل الأوقات التي كان فيها هنا من قبل، أوقات تناولنا العشاء معًا حول مائدتنا، والليالي التي كنا نقضيها أمام النار، وقد جعلني ذلك أتذكر هذه الأوقات أيضًا، رغم أنني حاولت ألا أتذكرها. كانت الأمور أسهل عندما كنت أسترجع الماضي بوصفه بداية حياتي في بروسبر.

قال وهو ينظر إليَّ: "سمعت أنك عدت، فاعتقدت أنه يجب أن أمرَّ عليك".

قلت له: "سعدت برؤيتك يا سيد بلاكوود"، وكرهت كيف بدوت كأنني ما زلت في السادسة عشرة من عمري.

قال لي: "لقد مر وقت طويل"، وعندما استقرت عيناه على عينيَّ أدركت أنهما كانتا تحملان شيئًا آخر في داخلها، ربما سؤالًا ما، ثم تابع: "أعلم أن تلك الندبة تبدو قبيحة، لكنها لم تعد تؤلمني منذ فترة طويلة"، ثم رفع يده نحو وجهه.

ازدردت لعابي، وأدركت أنه رآني وأنا أحدق إليها فقلت: "متأسف".

قال نوح: "لا بأس"، واتخذ خطوتين نحو الموقد، ومد يده لمسح الغبار من أعلى كتاب كان موضوعًا هناك، ثم تابع: "ماذا تفعل هذه الأيام يا بني؟".

جلست على المقعد الموجود أمام المنضدة ممتنًّا لتغيير الموضوع، لقد كان يفعل ذلك دائمًا كي نستطيع إجراء محادثة خفيفة، وكان هذا هو كل ما أستطيع فعله، لكن صوته وهو يناديني بحميمية جعلني أرتجف.

أجبته: "في الحقيقة أقوم بالتدريس".

كرر الكلمة كأنه يحاول أن يتخيل الأمر: "التدريس".

استطردت: "في كلية خاصة صغيرة في بورتلاند في قسم التاريخ".

قال نوح: "أعتقد أنني يمكنني تخيل ذلك"، ثم جال بنظره فوق رف الموقد مرة أخرى حتى استقر على الصورة المؤطرة هناك، ثم التقطها وتأمل الصورة المرفقة خلف الزجاج، كانت لأمي وهانا، زوجته، وقد وقفتا جنبًا إلى جنب على الشاطئ، وكل منهما تحمل طفلًا رضيعًا، أنا وإيميري.

توتر قليلًا، ثم أعادها إلى مكانها، وقال: "لقد فقدناها منذ بضع سنوات. لا أعرف ما إذا كنت قد سمعت بالأمر".

عقدت حاجبيَّ، وقلت: "ماذا؟".

قال نوح: " حدث ذلك منذ بضع سنوات الآن، لقد توفيت بالسرطان".

تنحنحت ثم قلت: "أنا آسف، لم أكن أعلم".

شعرت بالحرارة تسري في جسدي؛ وانتابني شعور بالغثيان. فقدت والدتي، لكن ذلك حدث في العالم الخارجي. بدا أن شيئًا ما في هذا المكان يجعله خارج نطاق الزمن. كان وقع موت هانا أشبه بالنظر إلى الشروخ في الزجاج، وفكرت على الفور في إيميري.

قال نوح: "يبدو أنه من الصواب أن يُدفنا هناك معًا، ألا تعتقد ذلك؟".

ابتسمت نصف ابتسامة، لكن نبرة صوتي تغيرت وأنا أقول: "نعم... هذا صحيح".

عندما رفعت ناظريَّ مرة أخرى، كان نوح يعبث بحافة قبعته بطريقة جعلتني أشعر بالتوتر، ثم قال كأنه كان يفكر في الشيء نفسه: "لقد كنا دائمًا نفكر في إيلويز كفرد من أفراد عائلتنا، كلاكما في الحقيقة".

قلت: "أعرف يا سيد..."

تابع: "كنا نفكر فيك مثل ابن لنا يا أوجست"، ثم أوقفني، وقال تلك الكلمة مرة أخرى: "أعتقد أنك تعرف ذلك".

قلت: "بالفعل، أعرف".

نظرت إلى وجه والدتي في الصورة. لقد كانت هي وهانا ونيكسي أخوات أكثر منهن صديقات. لقد كنَّ الوحيدات اللاتي لم يُدِرن ظهورهن لي بعد كل ما حدث مع ليلي، وقد أزعجتني معرفة ذلك بشكل كبير.

قال نوح: "حسنًا، إذن أرجو أن تتفهم الأمر عندما أطلب منك الابتعاد عن إيم أثناء وجودك هنا".

ساد صمت غير مريح بيننا بينما كنت أحدق إليه.

هز كتفيه، ثم قال: "أعتقد فقط أنه من الأفضل أن تتركها وشأنها".

وعندما لم أعد أستطيع تحمُّل النظر إليه فترة أطول، نظرت نحو الأرض وقلت: "أنا لست هنا لأراها"، كانت تلك هي الحقيقة، ولكنها بدت كأنها كذبة.

تنهد نوح وقد بدا عليه الارتياح وقال: "حسنًا، هذا جيد".

استغرق الأمر مني دقيقة لأستجمع شجاعتي لأسأله: "هل هي..."، ثم ازدردت لعابي، ولم أجرؤ على النظر في عينيه.

أجابني: "إنها بخير".

أومأت برأسي، فلم أكن أعرف ما يمكنني قوله بعد ذلك.

تقدم نحوي، وحاولت ألا أرتجف عندما مد يده الثقيلة ووضعها على كتفي، وقال: "عليك أن تودعني قبل أن تغادر؛ فأنا أعيش في كوخ للصيد الآن".

أجبرت نفسي على الابتسام، وأومأت برأسي، وقلت: "سأفعل يا سيد بلاكوود".

ثم ارتدى قبعته وفتح الباب دون أن ينبس ببنت شفة، وأغلقه خلفه. أخرجت الهواء المحبوس بداخل صدري، وفركت وجهي بيديَّ، وأغلقت عينيَّ إلى أن تلاشى صوت خطواته.

وعندما فتحتهما مرة أخرى، نظرت عبر الطريق نحو النافذة التي تواجه منزل بلاكوود، وبصعوبة استطعت تمييز الطلاء الأصفر على الكوخ من خلال الأشجار، فقد كانت صورة إيميري وقد اعتادت الوقوف هناك في الممر، عالقة في ذهني.

لا أتذكر حقًّا متى تغيرت الأمور بيننا، فقد نشأت أنا وإيميري ودوتش وليلي في عالم منفصل خاص بنا على تلك الجزيرة، وفي وقت ما من حياتنا معًا، وقعت في حب إيميري، وكنت حينها صغيرًا جدًّا وساذجًا جدًّا، أستطيع أن أرى ذلك الآن، لكن جذور تلك المشاعر المتشابكة كانت لا تزال مدفونة في أعماقي، وكان الألم الذي شعرت به عندما رأيتها واقفة على الجانب الآخر من الطريق لا يزال موجودًا. لقد ظل موجودًا دائمًا.

الفصل الرابع عشر

إيميري

سلكت الطريق الطويل المؤدي إلى متجر نيكسي، كيلا أكون مضطرة إلى المرور بجانب كوخ عائلة سولت نهارًا، لكن تجنب دوتش لم يكن بالأمر السهل.

عندما كنا نتشاجر، كان عادةً ما يبتعد، ويمنحني بعض الوقت قبل أن نعود إلى روتيننا المعتاد، وأحيانًا أزوره في منزله أو يأتي هو إلى منزلي، وكنا نقضي العشاء وعطلات نهاية الأسبوع معًا، وأيام العطلات كنا نقضيها في الخارج على متن القارب، وربما كانت الأمور لتسير على هذا النحو، لولا ما جرى في اليومين الماضيين، فعلاقتي بدوتش ومشكلاتنا معًا شيء، والماضي الذي تقاسمناه مع أوجست كان شيئًا آخر تمامًا.

عندما رأيت كوخه في أسفل التل، ولم تكن الشاحنة موجودة في الممر، أحسست بالراحة، كان منزله هو أحد المنازل القليلة على الجزيرة التي بُنيت حديثًا، وكان يبدو واضحًا بشكل ملحوظ على الطريق الممتلئ بالأشجار، خاصة عندما اكتمل بناؤه لأول مرة، وكانت رائحة الخشب الجديد لا تزال تفوح منه من الداخل، لكنّ كلًّا من المطر والثلج بدأ في تغيير مظهره الخارجي ليبدو جزءًا من طبيعة سيرشا، كأنه كان موجودًا هناك منذ الأزل، كانت لتلك الجزيرة طريقتها الخاصة في الاستحواذ على الأشياء.

تتبعت الهمهمات الطويلة للجنادب التي كانت تحوم حول الأشجار، وسادت الغابة الألوان النارية المميزة للخريف، ففي يوم واحد فقط، تبدلت الأوراق، وتغير الهواء أيضًا، وأصبح عليلًا ومنعشًا في ظل غروب الشمس الساحر.

وكانت آخر ثمرات اليقطين الذابلة مطمورة في الحقل خلف منزل نيكسي، وقد قبعت في رقعة من الأرض تحيط بها النباتات الأخرى، خلف سياج خشبي يحيط بأرض توماس، وستتركها نيكسي تتعفن لآخر واحدة فيها، حتى تصبح بذورًا لمحصول العام المقبل، وتغطي الأرض ثمار اليقطين الجديدة.

كان الخشب الخارجي للمنزل مطليًّا باللون الأزرق الباهت، الذي كان قد تشقق فأظهر السقف المعدني، وظهرت نيكسي مرتدية مئزر النجار القديم الذي كان يرتديه والدها، وقالت وهي تدفع الباب الشبكي محدثًا صريرًا قويًّا: " حان الوقت يا جبانة!".

قلت وأنا أحمل كيس السمك والبطاطس الدافئ بين ذراعيَّ: "هل تريدين أن تأكلي أم لا؟".

فركت نيكسي يديها معًا وهي تدندن فرحة، ثم صعدت الدرج، وارتطم حذائي بإطار الباب قبل الدخول، وبمجرد أن خطوت فوق العتبة، شعرت كأنه يمكنني التنفس مرة أخرى. كانت نيكسي أول من يفهمني دون أن أتكلم، لكنها كانت أيضًا أول من يترك الأمور تسير دون أن تفصح عن أي شيء، وكنت بحاجة إلى ذلك الآن.

أخرجتُ زجاجتين من المشروب وفتحت غطاءيهما بالفتاحة المثبتة في الحائط، ثم قالت: "لقد ذاب الشمع، أحتاج فقط إلى غمس الشموع وتقطيعها، ولن أقوم بتحضير دفعة أخرى حتى العام الجديد"، ثم رفعت شعرها الفضي الطويل عن كتفها، وتركته يتساقط على ظهرها وهي جالسة.

قلت لها وأنا أفك تغليف صناديق الكرتون: "لقد قلتِ ذلك الشهر الماضي"، وسرعان ما امتلأ المطبخ برائحة السمك المقلي الدافئة والمالحة.

قالت نيكسي: "حسنًا، لا يمكنني منع نفسي إذا استمر هؤلاء الحمقى القادمون على العبَّارة في شراء كامل مخزوني"، وضعت قطعة من البطاطس المقلية في فمها، ثم تناولت مشروبها منتظرة أن أفعل الشيء نفسه، ثم قالت: "لنشرب نخب هؤلاء الأوغاد من سياتل"، ثم قرعت زجاجتها بزجاجتي.

كنت أستمع إليها وهي تثرثر عن الإمدادات والطلبات من المتجر في المدينة الذي يبيع شموعها طوال فصل الشتاء، وعندما أفرغت محتويات الأكياس، أحضرت زجاجتين أخريين من الثلاجة. كان المشهد مألوفًا، وكنت ممتنة جدًّا لذلك، وللحظة شعرت برغبة في البكاء، وبدا الأمر كما لو كان كل شيء طبيعيًّا ـ كما اعتدنا على أية حال - الشيء الوحيد المختلف كان غياب أمي، وقد افتقدتها أكثر في اليومين الماضيين، أكثر مما افتقدتها في العامين الماضيين.

دفعت نيكسي باب المطبخ فتبعتها للخلف، ووقفت أرى كيف صبغت أشعة الشمس كل شيء بلون الشفق الأزرق الداكن، وكانت الحظيرة الحمراء تبدو أطول وأعرض من المنزل الصغير، وكانت أبوابها مفتوحة بما يكفي للسماح بالضوء البرتقالي ليمر عبرها.

أمسكت نيكسي بالحلقة الحديدية بكلتا يديها، وفتحت الباب، فالتقطت مئزرًا كان معلقًا على مسمار حديدي قديم مثبت في الحائط، وكانت هناك أدوات زراعية قديمة صدئة تتدلى من السقف، وبجانبها صفوف من البصل الأصفر والأحمر معلقة على أحد الجدران، لتجف قبل بيعها في سوق المزارعين في الربيع.

ارتشفت رشفة طويلة، وتركت المشروب يحرق جوفي قبل أن أجلس على المقعد، وكان الحوض المعدني ممتلئًا بشمع العسل الذائب الشفاف الذي كان يلمع في ضوء الفانوس. أشعلت نيكسي الموقد تحته، ورفعت الإطار من الخطاف الموجود على العمود، ثم قمنا معًا بتمرير الفتيل من خلال حاملات الشموع، التي احتوى كل واحد منها على أربع وعشرين شمعة.

كانت تلك العملية لا تحتاج إلى تعليمات، فقد كنت أساعد نيكسي على صنع شموعها منذ أن كنت طفلة، وكانت لديَّ بعض الندوب التي تثبت ذلك، وقبل أن أبلغ السن الكافية التي يُسمح لي فيها بغمس حاملات الشموع، كانت وظيفتي هي تقطيع الفتيل، بينما كانت والدتي ونيكسي تهتمان بِدِلاء الجلفنة، وكانتا تتناولان المشروبات وتضحكان، حتى يمكنني رؤية بريق الدموع في أعينهما، وكنت أستطيع تقريبًا سماع صوتيهما، بينما يتردد صداهما في الزوايا المظلمة من الحظيرة.

سألتني نيكسي أخيرًا وهي تقص وتربط فتيلًا: "لم أر ألبرتين في الاجتماع الليلة الماضية، هل ذهبتِ للاطمئنان عليها هذا الصباح؟".

ارتديت زوجًا من قفازات القنب، وتأملت وجهها، كانت عيناها مثبتتين على المقص الذي كان في يديها، لكن كتفيها كانتا مشدودتين إلى الوراء قليلًا، وقد أطبقت فكها، فقلت أخيرًا: "نعم".

سألتني: "وما الأمر إذن؟".

أجبتها: "تقول إنها كبيرة في السن جدًّا وأعمال المدينة ترهقها"، ثم رفعت حامل الشمع الأول، وأنزلته في الشمع السائل.

ضحكت نيكسي نصف ضحكة، ثم قالت: "ألا نقول جميعًا الشيء نفسه؟".

رفعت الحامل مرة أخرى، وتركته يقطر آثار الشمع قبل أن أهزه بقوة وأسلمه لها، فغمرته على الفور في حوض الماء ليتصلب ثم رفعته مرة أخرى.

سألتني وهي لا تنظر إليَّ: "كيف حالك؟ هل أنتِ بخير؟".

كنت مستعدة لهذا السؤال، ولطريقة نيكسي اللطيفة المحببة التي على الرغم من ذلك كانت دائمًا ما تتسبب في إزعاجي أردت أن أخبرها بأنني لا أعرف ما إذا كنت بخير، وأنني عندما رأيت أوجست، شعرت كأن الغابة بأكملها تبتلعني، لكن الاعتراف بذلك كان شيئًا خطيرًا.

قلت بثبات: "أنا بخير".

تغير صوت نيكسي حينها، وأدارت ظهرها لي وقالت: "إيميري..."، ثم علقت أول مجموعة من الشمع لتبرد، ولكن عندما جلست مرة أخرى كانت تنظر إليَّ في ترقُّب.

مددت يدي إلى المجموعة التالية، وقلت: "كل شخص يمر بتجربة الحب الأول يا نيكسي".

قالت معترضة: "ليس هكذا، وليس بتلك الطريقة". أثرت تلك الكلمات فيَّ بقوة، وكانت بمثابة تهديد لحالة الهدوء التي حاولت الحفاظ عليها بعناية منذ أن رأيت أوجست.

تابعت بحذر أكبر الآن: "لقد كنتما... لم يكن هذا حب طفولة عاديًّا يا إيم".

ضغطتُ على وجنتي، وأثارت تلك الكلمات موجة من الألم بداخلي، ثم قلت بصوت متهدج: "لقد مرت أربع عشرة سنة".

قالت: "إذن؟".

قلت في غضب: "لقد غادر في النهاية، بعد كل ما حدث، بعد ليلي، ووالدي...، لقد غادر فقط، لم يعد أي شيء من هذا يهم الآن".

تمتمت: "بالتأكيد لا يهم".

كززت على أسناني، ونظرت إليها في غضب وسألتها بحدة: "ماذا؟".

تابعت نيكسي بحدة: "هل تعتقدين أنني لا أعرف لماذا لن تتزوجي من دوتش؟، لم ترغبي أبدًا في الزواج لأنكِ لم تستطيعي الزواج من أوجست، ولم ترغبي في إنجاب الأطفال لأنهم لن يكونوا أطفاله"، نظرت إلى عيني مباشرة ثم قالت: "قولي لي إنني مخطئة".

حدقت إليها دون أن أرمش، وبالكاد كنت أتنفس، لم تقل ذلك صراحةً أبدًا من قبل، لكنها اتهمتني بذلك مرارًا وتكرارًا بالطريقة التي كانت تنظر بها إليَّ، لقد كانت تلك الكلمات مختلطة دائمة بألف كلمة أخرى نتبادلها بيننا.

أنهت نيكسي صنع الشموع التالية في صمت، بينما انعكست جميع أفكارها على وجهها مثل الظلال القاتمة، واستطردت نيكسي: "بعد أن غادر.. كانت هانا قلقة من أننا لن نستعيدك أبدًا، وأننا ربما فقدناكِ للأبد".

بصعوبة أتذكر الأشهر التي تلت مغادرة أوجست، فقد قضيتها تحت اللحاف على سريري، وتركت الساعات المؤلمة تمر، وكنت أراقب الضوء وهو يتسلل فوق ألواح الأرضية في صمت، وأستمع إلى صوت أمي على الجانب الآخر من الباب، وفي النهاية فقدت الرغبة في البكاء.

وعندما غادرت غرفتي أخيرًا، قضيت كل لحظة من يقظتي في محاولة اكتشاف المكان الذي ذهب إليه، لكنه غادر دون أن يترك أي أثر، ولم يكن هناك أي خيط واحد يمكنني تتبعه.

قلت وأنا أزدرد لعابي: "يبدو الأمر كما لو كان الجميع يراقبونني ويهمسون".

انحنت نيكسي إلى الأمام، ووضعت مرفقيها على ركبتيها، وكأنها تقاوم رغبتها في النهوض واحتضاني، ثم قالت: "إنهم خائفون فقط، فلا أحد يريد التفكير في ليلة الحريق"، بدت كأنها كانت تسترجع تلك الذكريات المظلمة.

كانت هذه هي الكلمات التي حددها الناس في وصف ذلك اليوم، من خلال إبقاء اسم ليلي بعيدًا عن ألسنتهم قدر الإمكان. لم تكن الليلة هي الليلة التي ماتت فيها ليلي مورجان، ولكن كانت مجرد ليلة الحريق.

سحبت القفازات من يدي، وقربتها مني، ثم قلت: "لم تخبريني قط بذلك، ومتى وجدت ليلي".

لوت شفتيها، ونظرت لأسفل، وقالت: "إنه ليس شيئًا أريد حقًّا أن أعيشه مرة أخرى يا إيم".

قلت: "أعرف، أنا فقط..."، ثم أغمضت عيني وسألتها: "هل تعتقدين أنه فعل ذلك حقًّا؟".

سألتني وقد عقدت حاجبيها: "ماذا؟".

شعرت بأن وجنتيَّ كانتا تحترقان وأنا أراقبها، ثم قلت: "أنا لم أسألك قط إن كنتِ تعتقدين أن أوجست هو من قتلها، أعتقد أنني كنت خائفة مما قد تقولينه".

بدت نيكسي مرتبكة حقًّا، ثم قالت: "لقد كان مع دوتش تلك الليلة".

قلت بهدوء: "لا يصدق الجميع ذلك".

كان الجميع في الجزيرة مقتنعًا بأن أوجست هو من قتل ليلي، والسؤال الذي لم يستطع أحد الإجابة عنه هو لماذا؟ والشيء الوحيد الذي منع اعتقاله هو تصريح دوتش للشرطة، بأنه وأوجست كانا في المنارة في الوقت نفسه تقريبًا.

تنهدت نيكسي، وأخذت رشفة أخرى، ثم قالت: "إنهم يريدون شخصًا ما ليلقوا اللوم عليه، ولقد اتخذت هذه المدينة قرارها بشأن أوجست، ولم يهم ما إذا كان هناك دليل أم لا، لقد كان مذنبًا في نظرهم، وأنا لا ألوم إيلويز على اصطحابها له إلى بروسبر".

ثم فجأة سُمع صوت مثل خرير الماء وهو يتدفق على الصخور، وكان هذا الصوت يهز نوافذ الحظيرة بينما تحركت الرياح بقوة، وحولت نظري بسرعة، ولكن قبل أن أنطق بكلمة، انطفأ الفانوس فجأة، ولم يتبق سوى بصيص من ضوء القمر يمر عبر الفتحة الموجودة في الباب.

بصوت خفيض أطلقت نيكسي سبة، ونهضت وأخذت تعبث بمحتويات طاولة العمل الموضوعة على الحائط، وهي تبحث عن عود ثقاب لتشعله، وكنت أنا أحدق إلى اللهب الأزرق للموقد الموضوع عند قدميها، والأفكار تتسارع في ذهني.

أشعلت عود الثقاب، وأعادت نيكسي إشعال الفانوس في اللحظة نفسها، فملأ الضوء البرتقالي الحظيرة، ولكن عندما عادت عينا نيكسي إلى التركيز عليَّ، كانتا قد تغيرتا.

قلت في حيرة: "بروسبر؟".

بدأت يداها تتحركان في عصبية وهي تكمل المجموعة التالية، وقد نظرت لأسفل على الفور، ثم قالت: "ما الأمر يا عزيزتي؟".

قلت: "لقد قلتِ للتو إن إيلويز اصطحبته إلى بروسبر".

تلعثمت نيكسي قبل أن تقول: "هذا ما سمعته على ما أعتقد".

راقبتها، وقد ضيقت عينيها، لكنها كانت قد وقفت، وهي تعلق المجموعة التالية على الرف فقلت: "من قال؟ متى سمعتِ *يا نيكسي؟* ".

حدقت إليَّ للحظة بينما كان ضوء الشمعة يتراقص فوق شعرها الفضي، ثم تحدثت بصوت منخفض لدرجة أنني بصعوبة استطعت تمييز الكلمات: "اعتقدت أو ربما كنت قد تخيلت أنها ستخبرك في النهاية".

قلت ويداي مقبوضتان في حجري: "من؟".

استدارت نيكسي أخيرًا لتنظر إليَّ، واحمرت وجنتاها وهي تمسح راحتيها بالمئزر، وقالت: "هانا، لقد تبادلتا الرسائل، والدتك وإيلويز"،

لم يعد صوتي مثلما يبدو دائمًا، حيث كان مكتومًا بسبب اضطرابي نتيجة تدفق الأفكار عبر ذهني، في محاولة مني لاستجلاء حقيقة ما كانت تقوله فسألتها: "رسائل؟".

قالت نيكسي: "لقد كانتا صديقتين يا إيميري، ولقد ظلتا على اتصال بعد أن غادرت إيلويز وأوجست الجزيرة".

وببطء، نهضت من المقعد وقلبي ينبض بقوة في صدري، ثم قلت: "كيف لم تخبرني هي بذلك؟ كيف *أمكنكما* فعل ذلك؟".

بدت نيكسي مذعورة الآن، وضغطت بأصابعها على شفتيها، كأنها تحاول التفكير في الشيء الصحيح الذي يمكنها قوله، ثم قالت أخيرًا: "إيميري، لقد تغيرتِ بعد أن غادر، فقد فقدت ليلي وأوجست، وشعر والدك بالحزن، وأعتقد أن هانا كانت خائفة من أنه إذا نكأت ذلك الجرح، فلن يندمل مرة أخرى أبدًا".

سألتها في عدم اكتراث: "إذن طوال ذلك الوقت... كنتِ تعرفين أين هو؟".

أجابت نظرة عينيها عن سؤالي، كانت تعرف، وكذلك كانت والدتي. ضغطت بيدي الباردة على خدي الساخن، وشعرت كأن المكان يدور من حولي.

صاحت نيكسي: "إيميري".

ثم بدأت السير نحو الباب، وانتزعت الفانوس من الخطاف، ودفعت الباب، ومشيت في الظلام، وضوء القمر يطبع قبلاته الباردة على بشرتي اللامعة والمبللة بحبات العرق واختفت رائحة الكيروسين، وحلت محلها رائحة الصنوبر.

صاحت مرة أخرى: "إيميري!".

أطلقت الأشجار أنينًا عندما هبت عاصفة من الرياح الباردة على الغابة، ونظرت إلى السماء التي كانت مرئية من خلال الأغصان، فبدا الليل حزينًا، وسرت قشعريرة على ذراعي عندما وصلت إلى الطريق، بينما اختفى صوت نيكسي.

كان حذائي يضرب الحصى، فأشعر كأن تلك الضربات هي صوت دقات قلبي المتسارعة، بينما أسترجع ذكريات لا حصر لها مع والدتي باحثة عن أي تلميح، أو إيماءة صغيرة. لقد كانت أفضل صديقة لي بعد وفاة ليلي. كانت الضوء الخافت الذي قادني للعودة من تلك الهاوية. كان هناك جزء مني لا يستطيع أن يصدق أبدًا أنه يمكنها أن تكذب عليَّ، لكن كان هناك جزء آخر صدق أنها قد كذبت بالفعل.

تردد صدى صوت خافت عبر الأشجار: "*إيميري!*".

لم يكن صوت نيكسي، بل صوت آخر، صوت لم أسمعه إلا في كوابيسي.

"إيميري!"، صدح صوت ليلي باسمي، مغلفًا بالضحك: "أين أنت يا إيميري؟".

سمعت صوتًا في الظلام فاستدرت، ورفعت الفانوس أمامي، فتراقص اللهب الخافت أمامي لينير الطريق، وبحثت في الظلام، وسرت في دائرة والقلق يتملكني.

لم يكن هناك شيء، لكنني شعرت به - شيء أقرب من بقايا روحي.

انطلقت من جديد، وتسارعت خطواتي وأنا أنظر خلفي، وعندما ظهر المنزل أخيرًا، أطلقت زفرة طويلة، وحاولت ألا أنظر نحو منزل أوجست الذي مررت به في طريقي، ثم صعدت الدرج بسرعة متجهة نحو المدخل، وفتحت الباب الذي لم يكن مغلقًا، وبمجرد أن دخلت، استندت بجسدي إليه حتى أتأكد من غلقه، وشعرت بالعرق البارد يتقاطر على بشرتي.

ثم خمشت وشاحي فسقط على الأرض، وعندما نظرت من النافذة مرة أخرى، كان الطريق لا يزال خاليًا وهادئًا.

همست لنفسي وأنا أضغط براحة يدي على جبهتي الساخنة: "لا شيء، لا يوجد شيء هناك".

عبثت أصابعي بمهارة بأزرار قميصي وخلعته، وعلقته على ظهر الكرسي قبل أن أذهب ناحية المدفأة. كان القميص القطني الرقيق الذي كنت أرتديه تحته رطبًا؛ ما جعلني أرتجف.

ثم وضعت ثلاثة جذوع خشبية جديدة على الشبكة الحديدية، وأخذت حزمة من الحطب من الدلو، وأشعلت عود الثقاب الطويل، ثم وقفت أمام المدفأة، وأنا أشاهد اللهب يمسك بحواف الجذع الخشبي حتى صعدت رائحة الخشب المحترق لأنفي فهدأتُ قليلًا، وبدأت نبضات قلبي المتسارعة في الانتظام، بينما تسرب الضوء الدافئ في الأعلى نحوي، وبدأت أحرك عينيَّ من زاوية مظلمة إلى أخرى حتى هبطتا على الحبل الصغير المتدلي من فتحة العلية.

بعد وفاة والدتي وانتقال والدي إلى العيش في كوخ الصيد، أصبح المنزل الصغير ملكي، وإذا كان ما قالته نيكسي صحيحًا أن والدتي قد احتفظت بالرسائل، فلن يكون هناك سوى مكان واحد يمكنني أن أتخيل أنها كانت تخبئها فيه.

وقفت ثم ذهبت لأحضر كرسيًّا صغيرًا من الغرفة الجانبية عند المدخل، وسحبته عبر الأرضية الخشبية غير المستوية، فأصدر صريرًا عندما وضعته أسفل الفتحة الصغيرة، ثم صعدت، ومددت يدي إلى الحبل لأسحبه، فانزلق سلم العلية ثم أحضرت مصباحًا يدويًّا من درج المطبخ، قبل أن أصعد لتباغتني الرائحة القوية للورق القديم ونشارة الخشب.

وتحرك شعاع الضوء الأبيض فوق صناديق الكرتون المطوية، التي كانت تحمل كتابة كُتبت بقلم الشحم الأسود بخط يد والدتي المائل.

صور فوتوغرافية وتذكارات ولوازم خياطة.

رفعت نفسي إلى العلية الصغيرة وأخرجت أول صندوق من تحت كومة من سلال الخوص، كانت زوايا الصندوق مثبتة بشرائط لاصقة، حيث كانت الوصلات قد تمزقت أكثر من مرة، فتحت الغطاء، ونظرت إلى الداخل.

كانـت أكوام الصور القديمـة المقلوبة مبعثرة فوق العديد مـن ألبومات الصور. أخرجـت أول صنـدوق، وقلبت الصفحات، وقلبت الألبوم رأسًـا على عقب، وهززته، وعندما لم يسقط شيء، مددت يدي إلى الشيء التالي.

فتحـت صندوقًـا تلـو آخـر، وامتلأ الهـواء بالغبار، حتى اسـتقر شـعاع المصباح اليدوي على الحافة المستديرة لصندوق القبعات، فتجمدت يداي في الهواء قبل أن أرفعه من تحت أكوام الورق وأضعه أمامي، ثم رفعت الغطاء وضغطت أصابعي على حوافه، بينما هبطت عيناي على محتوياته.

مظاريف.

انزلـق الغطـاء مـن بين يدي، وأنا أحـدق إلى النص المائل الـذي يغطي الغلاف الخارجـي، وتـرددت قبـل أن ألتقط واحـدًا من منتصـف الكومة، وأزحتـه من تحت خيط معقود، وأمسكت به أمامي.

هنـاك كان عنوان المرسل مكتوبًا، وقد تلطخ الحبـر الأسود فوقه.

سومرفيلد

18 جراس فالي رود

بروسبر، أوريجون 97110

عضضت على شفتي السفلية، وسرعان ما شعرت بحرقان في أنفي عندما فتحت الرسالة، ثم سقطت قطعة مربعة من ورق الكرتون في حِجْري فالتقطتها، وأمسكت بها في الضوء، كان هنـاك شعار من نوع ما محفورًا في المنتصف، وفوقه كتب "كلية إيست هارت"، وضعتها أمامي بعناية، واهتزت الرسالة بين يدي وأنا أقرأ الكلمات.

هانا...

أعلـم أننـي كتبت لـكِ منذ بضعة أسـابيع فقط، لكن ليـس لديَّ شـخص آخر لأشـاركه الخبر؛ فأول شـيء أفعله عندما يحدث أي شـيء مهم هنـا، هو الجلوس على المكتب والبدء في كتابة رسـالة أخرى لكِ. لقد تخرج أوجست في مدرسة إيست هارت أمس، ولم أستطع أن أصدق عينيَّ عندما رأيته يعبر

تلك المنصة - شيء لم نكن نعتقد أننا سنشهده قط، أتذكُرين؟ كان تخرجه في المدرسة الثانوية صعبًا جدًا. أقسم أنكِ لن تعرفيه هذه الأيام. أنا فخور بـه جـدًّا لدرجة أنني أوشـكت على البـكاء، هل يمكنك تصديـق ذلك؟ بكيت أكثر من بضع مرات. لقد أرفقت بالخطاب صورة أجبرته على التقاطها، ما أثار استياءه كثيرًا. إنني أعتقد حقًّا أن بعض الأشياء لا تتغير.

سقطت عيناي على البطاقة مرة أخرى، وأجبرت نفسي على التقاطها، وتشوشت رؤيتي من أثر دموعي، لكن الغضب لم يمنعني من فتحها.

رأيت وجه أوجست بابتسامته الخجولة التي ارتسمت على شفتيه، وانفجر كل الغضب والألم اللذين كانا بداخلي، وترقرقت دمعة ساخنة على خدي. كان أوجست يقف في ظل الضوء المتقطع لشجرة بلوط عملاقة، وكان رداء التخرج الأخضر مفتوحًا، وهو يمسك قبعته في إحدى يديه.

وخلفه كان هناك اسم مسطر في قائمة الخريجين.

أوجست سومرفيلد

تحركت شفتاي بصمت فوق الاسم، سومرفيلد، وليس سولت.

أغلقت الصورة، وأعدت طي الورقة، ولم أكمل الرسالة، فقد كانت الكلمات أشبه بسكين حادة تخترق جسدي، ولم أكن أرغب في معرفة المزيد.

الفصل الخامس عشر

إيميري

كانت الشاحنة تتأرجح ذهابًا وإيابًا وأنا أقودها إلى أسفل التل باتجاه الكوخ، وانبثق نور الفجر في السماء فتمايلت أوراق الأشجار، لكنني لم ألاحظ ذلك لأنني قضيت نصف الليل في السير ذهابًا وإيابًا أمام نار المدفأة، وأنا أحاول استيعاب الأمر.

عندما غادر أوجست وإيلويز جزيرة سيرشا تركا كل شيء خلفهما، واختفت بعض الملابس من الخزائن، لكن الثلاجة كانت لا تزال مليئة بالطعام، وكان هناك حطب مقطوع حديثًا ومكدس على الشرفة، وحتى كانت هناك بعض الخطابات في صندوق البريد بجوار النافذة الأمامية، بدا الأمر كما لو أن الأرض قد انشقت وابتلعتهما.

وبمجرد انتشار الخبر في جميع أنحاء الجزيرة، اتجهت كل الأنظار في سيرشا نحوي للمرة الثانية، وأراد الجميع، حتى عمي، معرفة أين ذهب أوجست وإيلويز، لكنني لم أكن أعلم، وعاودني الشعور نفسه بالقلق الذي شعرت به في تلك الليلة، لم أكن أعلم، لكن أمي كانت تعلم.

وقعت عيناي على المقعد المجاور لي، حيث كان التنجيد ممزقًا، كاشفًا عن حشو المقعد، وشعرت كأن الرسالة التي فتحتها في الليلة السابقة تحدق إلَّي. قضيت ساعات بلا نوم في تقليب المظاريف الواحد تلو الآخر، وفحص التواريخ ومحاولة ربطها بأحداث كنت أسترجعها من الذاكرة، قبل أن أبدأ ترتيب محتويات

الكومة، طبقًا لترتيبها الزمني، وصلت الرسالة الأولى بعد شهر واحد فقط من رحيل أوجست، والرسالة التالية، بعد شهرين من ذلك. كان هناك ما لا يقل عن خمس عشرة أو ست عشرة رسالة في العام، كل منها مفتوحة، وقد اهترأت حوافها من كثرة ما أمسكتها أمي بين يديها.

لم أكن أمتلك الشجاعة لقراءة رسالة أخرى، لكن العنوان وحده أوضح سبب عدم تمكُّني من العثور عليهما.

سومرفيلد.

طوال تلك الأشهر من البحث كنت أبحث عن إيلويز وأوجست سولت.

في البداية، كنت أبحث في أيام عطلات نهاية الأسبوع، فلم يكن لدينا إنترنت في المتجر أو المنزل آنذاك؛ لذا كنت أذهب إلى المدينة لاستخدام الكمبيوتر، وأبحث في الإنترنت عن أي أثر لأوجست. كنت أستيقظ قبل والديَّ، وأستقل أول عبَّارة إلى المدينة، وأصل قبل ميعاد فتح أبواب المكتبة الموجودة وسط المدينة.

بدأت بالخطوات الأساسية، فأدخلت اسميهما في محركات البحث، ونقرت على كل نتيجة، وعندما لم أجد شيئًا، جربت البحث باسم كل منهما مع كل ولاية، على أمل أن أجد شيئًا يمكنني أن أعتمد عليه في بحثي، ثم جربت مكتب البريد بعد ذلك، فأرسلت خطابًا إلى منزل أوجست في سيرشا، وأنا أرجو أن يكونا قد حددا عنوانًا لإعادة توجيه الخطابات، لكنهما لم يفعلا ذلك، ووصلت الرسالة إلى صندوق بريده بعد يومين، وعندما رأيت ساعي البريد يسلمها انفجرت في البكاء.

أنشأت حسابات على كل منصات وسائل التواصل الاجتماعي التي خطرت على بالي، وبحثت عن اسمه، وكان قلبي ينبض بسرعة وأنا أفحص الصور المصغرة لكل ملف تعريف، وأنا أتشوق لرؤية وجهه بينها، ثم أصبح الأمر هوسًا. كان هذا هو كل ما أفكر فيه ليل ونهار، وفي النهاية تحولت عطلات نهاية الأسبوع في سياتل إلى أيام عمل، ومع تبدُّل الفصول من الربيع إلى الصيف، لم أعد أمكث في المنزل مطلقًا تقريبًا.

كذبت على والديَّ بشأن مكان وجودي، وأخبرتهما بأنني حصلت على وظيفة في مقهى في المدينة لتوفير بعض المال الإضافي، واستمرت تلك الخدعة شهورًا حتى اليوم الذي عدت فيه إلى المنزل بعد حلول الظلام، وكانا جالسين على طاولة المطبخ في انتظاري.

يجب أن يتوقف هذا.

إنه لن يعود يا إيم.

وكان وقْع تلك الكلمات مثل سهم أطلق نحو صدري، أو صوت عظامي وهي تتهشم. ما زلت أتذكر الألم الذي شعرت به في رئتيَّ بدتا كأنهما تحترقان، وسمعت نفسي وأنا أطلق صرخة قوية من أعماقي.

لم أصدق ذلك إلا في تلك اللحظة، أنه *لن* يعود.

أدركت أنني قد وصلت إلى طريق مسدود؛ فقد كانت أمامي دائرة كثيفة من الأشجار، فضغطت على المكابح، وبدلّت سرعة الشاحنة لأضعها على وضع الانتظار قبل أن تتوقف، وانتزعت الرسالة ودفعتها في جيبي، ودفعت الباب القديم الصدئ فانفتح بصوت مرتفع.

كان كوخ الصيد الخاص بوالدي عبارة عن مأوى للقوارب أكثر من كونه منزلًا، وكان يستند إلى ركائز بداخل خليج فروست، حيث كان الماء يبدو شفافًا مثل الزجاج في المساء، وكانت الأشجار طويلة جدًّا، لدرجة أنه لا يمكنك رؤية سوى جزء صغير من السماء، وامتد اثنان من مراسي القوارب نحو مقدمة السفينة، حيث كان قاربه يرسو، بأشرعته الحمراء والبيضاء الملفوفة بإحكام.

نزلت نحوه والرسالة مكومة بين أصابعي، ولم أزعج نفسي بالطَّرق عندما صعدت الدرج، بل أدرت المقبض، وتركت الباب ينفتح أمامي، واستقبلني الضوء الأزرق الخافت ورائحة الألواح الخشبية التي غمرت المكان، وتجمعت أمامي في الحال كل الذكريات، كان هذا هو السبب الذي جعلني لا أحب المجيء إلى الكابينة، فبين جدران هذا المكان، كانت لا تزال عالقة في ذاكرتي ذكرى الليالي التي كنا نقضيها وسط أضواء الشموع، وفترات الصباح الجليدية وأوقات ما بعد الظهيرة على سطح السفينة، والتي نادرًا ما تكون فيها الشمس ساطعة، وفي كل تلك الذكريات كان يطفو الوجه نفسه – وجه أوجست، وبغض النظر عن كل الوقت الذي مر، فإن إحساسي بطعم سعادة تلك اللحظات لم يخفت، فشعرت بالفراغ والخواء الداخلي.

صحت بصوت مرتفع: "أبي؟". لكن لم تكن هناك إجابة.

كان والدي يقضي معظم وقته وهو يتناول وجباته في المقهى، لكنها لم تكن تفتح أبوابها إلا بعد بضع ساعات أخرى، وكانت هناك أكوام من الأوراق متناثرة على

سطح الطاولة الخشبية القديمة، وبجانبها موقد بروبان وصندوق ثلج على السطح، بدا كمطبخ مؤقت، ووضع اللحاف المطرز على السرير في الزاوية، ولكن لم يكن حذاء والدي موجودًا في المكان الذي اعتاد أن يضعه فيه.

درت حول الطاولة، وضغطت على إبريق القهوة الممتلئ إلى نصفه، حيث كان لا يزال دافئًا.

لم يكن من المفترض به أن يقترب من الماء حتى يزول سعاله، ولكنه بالطبع لم يكن ينتبه لذلك. واتجهت نحو النوافذ المطلة على الرصيف، وتفحصت الأشجار حتى رأيته. كان يخفض صنارة الصيد الخاصة به في القارب.

لم يكن هناك شخص أثق به أكثر من والدي. وفي غضون لحظات، سأعرف ما إذا كان قد كذب عليَّ، ترددت وأنا أفكر في ثمن تلك المعرفة. ماذا سيحدث لي إذا كان الأمر كذلك؟ لكن الأمر لم يكن يتعلق فقط بليلة الحريق وكل ما أعقبها، بل كان الأمر أعمق من ذلك.

دفعت الباب الشبكي، ونزلتُ من فوق سطح السفينة على الدرجات المتهالكة، وبمجرد أن سمعني أشرق وجهه، وابتسم لي.

سحب القبعة فوق أذنيه قبل أن ينحني ليعيد ربط الحبل ثم قال: "مرحبًا يا عزيزتي".

توقفت أمامه، وشعرت بالحرارة تغزو بشرتي تحت سترتي الصوفية.

عندما نظر إليَّ تجمد في مكانه، ثم سألني: "ما الأمر؟".

فتحت فمي ثم أغلقته، وحركت قدمي.

أصبح صوته الآن أعمق، كما كان يحدث عندما يكون قلقًا وقال: "إم؟"، وكان هذا الصوت في حد ذاته ذكرى.

قبل أن أتمكن من تغيير رأيي، أخرجت الرسالة من جيبي، وأمسكتها لينظر إليها، بدا مرتبكًا، واتخذ خطوة نحوي حتى يتمكن من قراءة الكتابة التي كانت مكتوبة عليها، كتمت أنفاسي التي كنت أحبسها ولم أخرجها، إلا بعد أن رفع حاجبيه فجأة، ولم أكن بحاجة حتى إلى سؤاله.

همست وقلبي يخفق بقوة: "هل كنت تعلم بهذا؟".

استدار نحو الماء، وهو ينظر نحو الأفق قبل أن ينظر إلى الكوخ، ثم قال: "لماذا لا ندخل ونتحدث؟".

قلت: "أبي". وشعرت كأن تلك الكلمة كانت آخر شيء يربطني بالأمل في أن أكون مخطئة، تابعت: "هل كنت تعلم؟".

أراد أن يكذب، واستطعت أن أرى ذلك من الطريقة التي التقت بها عينا كلٍّ منا لأجزاء من الثانية فقط، ثم قال بهدوء: "اعتقدت والدتك أنه من الأفضل ألا نخبرك".

شعرت فجأة بثقل في قدمي، كأنه كان يسحبني مباشرة لأهوي إلى قاع المياه المتجمدة. حدقت إلى الرسالة التي كانت في يدي، وأفلتت مني ضحكة بائسة، جلبت الدموع إلى عيني، ثم قلت: "طوال ذلك الوقت، وعندما كنت أبحث عنه، كنت تعرف بالضبط أين هو ولم تخبرني".

حدق إلى حذائه، فلم يكن هناك شيء يمكنه أن يقوله لتبرير هذا، وكان يعلم ذلك.

سألته في وهن: "كيف يمكنك أن تفعل ذلك بي؟".

تقدم نحوي فتراجعت على الفور لأحافظ على وجود مسافة بيننا، ثم قال: "أنا آسف يا إيم. والدتك..."

قاطعته قائلة: "هي ماذا؟ إنها ليست هنا، لذا إذا كنت ستحاول أن تلومها هي على هذا..."

رفع يديه في الهواء وقال: "أنا لا أحاول فعل ذلك. لقد كان قرارًا مشتركًا، كنا خائفين من أن تغادري، وأن تلاحقيه إذا علمت مكانه"، كان يتكلم بحذر الآن: "لم تكوني في حالة تسمح لكِ بمغادرة المنزل يا إيميري، كنت..."، ثم صمت، وبدا أن تذكُّره لذلك كان مؤلمًا بالنسبة له.

لكنني كنت أعرف، وقد كنت أتذكر تلك الأيام بشكل أفضل من أي شخص آخر. لقد انهرت عندما غادر أوجست الجزيرة، ليس فقط لأنني أحببته، ولكن لأنني شعرت بالوحدة حقًّا لأول مرة في حياتي.

همست لنفسي: "أنا حمقاء حقًّا"، ومسحت دمعة نزلت على خدي.

مد يده نحوي وقال: "إيميري".

هززت رأسي، ودفعت بالرسالة مرة أخرى إلى جيبي، وقلت وأنا أتنفس في ثقل: "أنت مثلهم تمامًا".

قال أبي: "كنا نحاول حمايتك".

ابتسمت بحزن، والتقت عيناه بعيني، وقلت: "هل أنت متأكد من أن هذا كان كل ما كنت تحميه؟".

ارتخى فمه، واتسعت عيناه عندما قلت ذلك، وللمرة الأولى، كشفت عن حقيقة الأمر الذي لم نتحدث عنه حقًّا بيننا. كان والدي يحبني، ولكن كان هناك أكثر من سر على هذه الجزيرة.

ثم استدرت وارتحت عندما لم يتبعني، ونزلت السلم، وفي نهاية الرصيف مررت بالمنزل، وعندما وصلت إلى الشاحنة صعدت إلى الداخل، وأغلقت الباب وأنا أجهش بالبكاء. امتلأت الكابينة الصامتة بصوت بكائي، وارتجف المفتاح في يدي بينما حاولت إدارة المحرك.

ورن هاتفي الذي كان موضوعًا على المقعد المجاور، وأضاءت الشاشة برسالة نصية من دوتش.

أود أن أطمئن عليكِ؛ فلم تكوني في المتجر.

حدقت إلى الشاشة حتى أظلمت، ووضعت جبهتي على عجلة القيادة، فبعد رحيل أوجست، حاول والداي إعادتي إلى حياتي العادية مرة أخرى، وكذلك فعلت نيكسي، لكن كان هناك جزء مني ما زال يعيش في ظلال الماضي؛ فلقد تسلل شبح الماضي ورائي طوال كل تلك السنوات، حتى عندما كنت متأكدة من أنني تركت كل شيء خلفي.

كان دوتش هو الشخص الوحيد في الجزيرة الذي فهم ذلك، ففي النهاية، كان هذا هو الشيء الذي جمعنا معًا، وكل ما كان لدينا هو الرابط الذي بيننا، خاصة عندما كان الجميع ضدنا، لكن كلما حاول أن يقترب مني، أردت العودة إلى ذلك الظلام.

ثم أدرت المفاتيح حتى هدر المحرك، وأصدرت العجلات صوتًا حادًّا وهي تتحرك فوق الأغصان المتساقطة، ثم عدت إلى الطريق، وعوت الرياح الباردة خارج الشاحنة، فبردت بشرتي الساخنة.

كان والداي على حق، لو كنت أعلم المكان الذي ذهب إليه أوجست، لتبعتُه، لكن الحقيقة بدأت تتضح لي أخيرًا الآن... لم يكن الأمر فقط أنه غادر الجزيرة.

فربما لم أكن أعرف أين أجده، لكنه كان يعرف مكاني، كان يعرف دائمًا، لم يكن أوجست تائهًا، لم يُؤخذ بعيدًا ولم يكن ينتظرني في مكان ما، هو لم يعد مطلقًا.

لم يعد مطلقًا من أجلي.

الفصل السادس عشر

تسع سنوات قبل الحريق

إيميري

أمسكت جدتي بعود الثقاب بيني وبين ليلي، وقد تشتتت نظرات عينيها، ثم قالت: "الشمعة؟".

كانت ليلي هي من أمسكت بها، وهي تجيب عن السؤال الذي ظل معلقًا، بينما عم الصمت غرفة المعيشة، فقالت: "الهواء".

ثم سألت، وهي تدير وجهها نحوي: "والملح؟".

التقطت الوعاء الصغير الذي ملأته، وحركته نحو المنتصف على الأرضية، وقلت: "الأرض".

قالت جدتي: "هذا صحيح".

كانت جدتي ألبرتين تعلمني كيف أتعامل مع الأعشاب، وكيف أقرأ مراحل القمر منذ أن بدأت الكلام، لكن لم يُسمح لي قط بفتح كتاب *بلاكوود*، لم يحدث ذلك حتى حلول ذكرى ميلادي التاسعة.

كانت هذه هي السن التي بدأت فيها والدتي تتعلم من جدتها، وكما قالت ألبرتين: "هكذا يجب أن أعلِّم حفيدتي".

كان أول درس لها من كتاب التعاويذ هو أن كل تعويذة يجب أن تكون مبنية على عنصر من العناصر الأربعة؛ التراب والهواء والنار والماء.

انعكس لهب الشمعة على عيني ليلي الزرقاوين الشاحبتين، عندما أطفأت عود الثقاب، وتبدد الدخان في الهواء فوق رءوسنا عندما حركت ألبرتين الكتاب نحوي، ثم قالت: "الآن، اقرئيه بصوت مرتفع".

وضعت إصبعي على الكلمة الأولى، ثم تابعت القراءة: "تعويذات للنمو".

صاحت جدتي وهي تتحسس برعم الزهرة الذي قطفته من إحدى الأواني في الصوبة: "حسنًا"، وعندما وجدته سلمته لي، وكانت بتلات اللافندر مغلقة بإحكام، وكانت أطرافها المدببة مرتبة في شكل حلزوني مثالي، تابعت: "استمري يا ليلي".

ضغطت شفتا ليلي على بعضهما بحماس، واقتربت مني وهي تقرأ من فوق كتفي: "الشمس في الأعلى، والجذور في الأسفل، استيقظي من النوم، وازدهري".

حدقت إلى برعم الزهرة، وأنا أحبس أنفاسي في صدري.

أومأت جدتي برأسها، ثم قالت: "حسنًا، الآن مرة أخرى".

كررت ليلي الكلمات وهذه المرة انضممت إليها، وتلعثمت قليلًا قبل أن أقول بصوت واضح: "الشمس في الأعلى، والجذور في الأسفل، استيقظي من النوم وازدهري".

بدأت الحرارة تسري تحت بشرتي ببطء، وارتفعت قشعريرة من معصمي إلى كتفي. كان هذا الشعور الذي تعرفت عليه الآن، هو الهمس السحري.

كانت تلك هي المرة الخامسة التي حدث فيها ذلك، وأصبح الوخز في أطراف أصابعي حادًّا ومؤلمًا تقريبًا، قبل أن ترخي البتلات قبضتها عليه وينفتح برعم الزهرة فجأة.

اتسعت عينا ليلي، وفمها، وقالت: "لقد نجح الأمر!".

قالت جدتي وهي تضحك، وتمد يدها نحوي: "بالطبع نجح"، ثم تحسست أصابعها الزهرة قبل أن تأخذها وتقربها من أنفها، وتشمها وتقول: "ليس سيئًا".

ثم أمسكت تفاحةً في الطبق، وقلبتها على جانبها، وقطعتها من المنتصف بسكينها ذات المقبض الخشبي، وعندما فصلت النصفين عن بعضهما، وجدت

البذور مدسوسة في اللحم الأبيض المقرمش، على شكل نجمة خماسية الرءوس، علامة الساحرة.

تابعت: "كانت أولى أشجار التفاح المزروعة على الجانب الغربي من الجزيرة، مزروعة من خمس بذور لذات النوع من التفاح".

تحسستُ نجمة التفاحة بطرف إصبعي، بينما كانت جدتي تحكي القصة مرة أخرى. لقد سمعتها ألف مرة، لكنني لم أملَّ من تلك الحكاية مطلقًا.

قالت ليلي بفخر: "زرعتها جريتا مورجان".

أومأت ألبرتين برأسها: "هذا صحيح، لقد زرعت جدتك الكبرى الأشجار من شتلة صغيرة حتى أصبحت بستانًا الآن".

تمتمت ليلي: "حتى سُرقت".

عبس وجه ألبرتين، لكن ليلي لم تلاحظ ذلك.

كانت عائلة مورجان تعتني بالبستان في البداية، إلى أن تزوجت حفيدة جريتا من أحد أفراد عائلة سولت فتحولت ملكيته، والآن، نُقِلَ من أحد أفراد عائلة سولت إلى الآخر، ولكن حدث ذلك بعد مرور ما يقرب من مائتي عام على زراعة الأشجار الأولى، ولكن الفضل يعود في الأساس لنساء سيرشا.

تذمرت ليلي، وأسقطت الزهرة المتفتحة في الوعاء، وقالت: "هل يمكننا أن نفعل ذلك مرة أخرى؟".

وضعت جدتي نصفي التفاحة على الأرض بيننا، وجلست، وسقطت ضفيرتها البيضاء الطويلة فوق كتفها، وكادت تلمس خصرها، ثم قالت: "حسنًا، سنجرب استخدام زهرة الأقحوان هذه المرة"، ثم لمست بيدها الحائط، واتجهت نحو المطبخ، فانغلق الباب الزجاجي عندما اختفت.

بسطت ليلي يديها على الصفحات المفتوحة من كتاب التعاويذ، وعيناها تتلألآن. راقبتها وهي ترفع بصرها نحو المطبخ، وفي الحال ميزت تلك النظرة، وبعناية، وضعت إصبعها على إحدى صفحات الجزء الخلفي من الكتاب وفتحتها.

ثم جلست بشكل أكثر استقامة، ومددت يدي نحوها، وقلت: " ينبغي لنا ألا..."

دفعت ليلي يدي بعيدًا، وقالت: "ششش... أنا فقط أنظر".

عضضت باطن خدي، وأنا أراقب الباب الخلفي، فأنا أعرف أن جدتي ستغضب إذا ضبطتنا نتلصص على الكتاب، وقد كانت تمتلك القدرة لمعرفة ما كنا نفعله دون أن ترانا.

طقطق غلاف الكتاب عندما فتحت ليلي الصفحة، وضاقت عيناي عندما رأيت ما بدا كأنه هيكل عظمي لثعبان مرسوم عبر الصفحة بحبر أسود باهت، وبجانبه كانت هناك قائمة مكتوبة.

قلب غراب

جذر شجرة كرونوورت

جمجمة ثعبان

ست حبات من نبات الزعرور مسحوقة

ثم صرَّت مفصلات الباب الخلفي، وأغلقت ليلي الصفحات مرة أخرى، وفتحت عينيها. كانت جدتي تحمل مجموعة من أزهار الأقحوان من الحديقة في إحدى يديها ومقصًا في اليد الأخرى.

ثم استقرت في جلستها بيننا، وقالت: "هل الجميع علي أهبة الاستعداد؟".

نظرت إليَّ ليلي، التي ارتسمت على شفتيها ابتسامة شقية، فأجابتها: "نعم يا سيدة ألبرتين".

الفصل السابع عشر

إيميري

لا أعرف لماذا احتفظت بها.

وقفت أمام خزانة الأدراج في غرفة نومي، وأنا أحمل كأسًا من الشراب في يدي وأتلفع بلحاف ملفوف حولي بإحكام، فمنذ سنوات لم يُفتح الدرج السفلي، لكن محتوياته كانت أشبه بجثة مدفونة متعفنة تحت ألواح الأرضية.

عندما توفيت والدتي وانتقل والدي إلى كوخ الصيد، لم تطاوعني نفسي باستخدام غرفتهما. كانت لا تزال موجودة على الجانب الآخر من الرواق، ولم تتغير غرفتي كثيرًا في تلك السنوات أيضًا، فكنت لا أزال أشعر بأنها جزء من منزلي، لكنها لم تكن تبدو كأنها غرفتي بشكل كامل.

استرخيت في الفراش، ووضعت ساقًا فوق أخرى، وشعرت على الفور كأنني عدت إلى الماضي - إلى تلك الليالي المظلمة بعد الحريق. سقط اللحاف من فوق كتفي نحو خصري، وتناولت مشروبًا آخر قبل أن أضع الكأس بجانبي، وأطلقت زفرة قبل أن أضع أصابعي على المقابض، وكشطت حافة الدرج بينما كنت أفتحه، وتحت كومة من السترات الصوفية المطوية. وجدتها.

تذاكر العبّارة.

7 يونيو، كان هو اليوم الذي كان من المفترض أن يتغير فيه كل شيء، وقد تغير بالفعل، ولكن ليس بالطريقة التي تصورناها.

لقد فكرت مائة مرة في رميها، بسبب أنني كنت خائفة مما قد يبدو عليه الأمر، إذا وجدها أي شخص كان الناس بالفعل يتهمون أوجست، ومعرفة أننا كنا نخطط لمغادرة سيرشا في اليوم التالي لوفاة ليلي، لن تؤدي إلا إلى تفاقم الأمور، ولكن بعد رحيله، أصبحت التذاكر هي الشيء الأخير المتبقي.

لم أخبر أحدًا قط بخطتنا لمغادرة الجزيرة، ولا حتى دوتش، وكان هناك جزء مني يعتقد فترة طويلة، أنه إذا كنت أنا وأوجست لا نزال نحتفظ بهذا السر الأخير، فإنه لا يزال يربطنا شيء بطريقة ما، وكان هذا هو الأمل البائس لفتاة محطمة القلب، ورغم أنني كنت أعلم أن هذه التذاكر كانت أشبه بسم بطيء يتسلل عبر عروقي، فقد احتفظت بها.

الشيء التالي الذي وجدته في الدرج هو الصورة التي كانت ملتصقة بمرآة خزانة ملابسي عندما كنت مراهقة، وقد وضعتها جانبًا بعد الجنازة.

ترددت قبل أن أسمح لنفسي بالنظر إليها. كانت ليلي تبتسم لي ابتسامة عريضة، كان رأسها مائلًا إلى أحد الجانبين وهي جالسة على الرصيف، وأصابع قدميها في الماء. لم أكن أعرف ما الذي كانت تضحك عليه، ولا يمكنني أن أتذكر أبدًا. كنت أجلس بجانبها وأنا في الخامسة عشرة من عمري، وقد استدرت لأنظر إليها، فشعرت كأن الحال كانت دائمًا هكذا. كنت أراقبها، وأتبعها، وأحاول تقليد روحها العفوية الخالية من الهموم.

لم يتوقف المطر ثمانية أيام بعد وفاة ليلي، وقالت إدارة الإطفاء إن هذا هو السبب الوحيد لعدم احتراق البستان بالكامل. بدأت القطرات الأولى التساقط في الساعات الأولى بعد الحريق، بينما كنت أنا ونيكسي على متن العبَّارة المتجهة إلى سياتل. قضينا الأيام الأربعة التالية في المستشفى مع والديَّ، وعندما عدت إلى سيرشا، كان المطر لا يزال يهطل.

كانت جدتي تسميه تطهيرًا؛ وهي طريقة الجزيرة في تنقية نفسها مما حدث.

ما زلت أتذكر التابوت بسطحه الأسود اللامع المغطى بأزهار برية، الأزهار النجمية وحشيشة الناردين المخزني ونبات المريمية، التي تميز موسم الصيف واقتراب موعد الانقلاب الفصلي.

وكنت قد سمعت والدتي ونيكسي تتحدثان في المطبخ في ذلك الصباح عن التأبين. لم يكن هناك أي شخص يريد أن يلقي خطبة التأبين، لا والداها، ولا

أجدادها، حتى معلمة ليلي المفضلة رفضت، ما الذي يمكن قوله أمام نعش فتاة ميتة؟ لم تكن هناك كلمات يمكنها أن تعبر عن ذلك.

على أية حال، لم يتذكر أحد ما قيل، كل ما أتذكره هو صوت والدة ليلي وهي تبكي.

مددت يدي إلى الدرج مرة أخرى، ودفعت كومة من الأوراق جانبًا، حتى وجدت أصابعي الشيء الذي كنت أبحث عنه حقًّا؛ مجلد الملفات البني، فسحبته إلى حضني، مترددة في فتحه. كان يحتوي على التذاكر التي أخفيتها لحماية أوجست، وهذا ما أخفيته لحماية والدي ونيكسي.

في الداخل، لم يكن هناك سوى ورقة واحدة؛ صك ملكية بساتين عائلة سولت.

وإذا رآه أي شخص آخر في سيرشا، فلربما لن يفهم ما فعلته؛ لأنه لم يعرف ما فعلت.

بعد ستة أشهر من وفاة هنري سولت، أعلن أبوت ويتيش في *مجلة سيرشا*، أن الرجل العجوز قد ترك البستان إلى سكان المدينة، وكان قد مر عامان تقريبًا منذ أن توقفت عن البحث، ولكن لم أستطع التوقف عن التفكير في أنه إذا تمكنت من الحصول على الوصية، فقد أجد بعض الأدلة التي سترشدني إلى أين ذهب أوجست وإيلويز، وعلى الرغم من أنني لم أجد أي دليل، فإنني قد وجدت شيئًا آخر.

تردد صوت رنين الهاتف على الأرض فأغلقت المجلد، وأخرجت الهاتف من جيبي الخلفي، كان اسم دوتش ظاهرًا على الشاشة.

عضضت شفتي السفلى، والتقطت كأس الشراب وتجرعته قبل أن أجيب. قلت وأنا أحاول أن أجعل نبرة صوتي تبدو مرحة: "مرحبًا"، لكنه بدا مصطنعًا؛ ما جعلني أغمض عيني.

لم ينخدع دوتش وقال: "مرحبًا"، ثم توقف قبل أن يقول: "هل أنتِ في المنزل؟".

قلت: "نعم... ما الأمر؟".

"سأذهب إلى المتجر بعد قليل لقياس الزجاج، هل يجب عليَّ أن أمرَّ لأحصل على المفتاح".

أغلقت المجلد وقلت: "لا، سأكون هناك، فلديَّ بعض الأشياء التي يجب عليَّ القيام بها".

قال وقد كان يتكلم بحذر الآن في نبرة بدت رسمية تقريبًا: "حسنًا، سأراك هناك".

قلت: "إلى اللقاء".

أغلق الهاتف قبلي، فضغطت زاوية الهاتف على جبهتي، وتنهدت. كانت محادثاتي غير المنطوقة مع دوتش أكثر من تلك المنطوقة، وكانت محادثات طويلة ومتقطعة حول أشياء لم يرغب أي منا في التحدث عنها، ولكن في النهاية، كانت الأمور قد وصلت إلى ذروتها، وكان ذلك ما يحدث دائمًا.

لم نتحدث بعد عن مشاجرتنا التي دارت قبل بضعة أيام، ولم تكن هناك فرص كثيرة لفعل ذلك، وكنت أفضّل أن يحدث ذلك الأمر في المتجر وليس في المنزل، حيث كنت أعرف كيف ستسير الأمور.

ثم أعدت الحافظة إلى قعر الدرج وأغلقته، ودفعني صوت النقر على النافذة إلى الالتفات برأسي، ونظرت بطرف عيني في محاولة مني لرؤية ما وراء انعكاس صورتي على الزجاج. وفي الخارج، كان فرع شجرة الحور يهتز، وأغصانه الصغيرة تضرب الزجاج. ولم أر الزرزور الذي كان يقف على طرف الغصن إلا عندما وقفت على مسافة بوصات قليلة، وكان رأسه مائلًا إلى أحد الجانبين وهو يراقبني، وكان مختفيًا تقريبًا في الظلام.

رفعت يدي، ولمست الزجاج، وغطى الضباب أطراف أصابعي قبل أن يطير الطائر تاركًا الغصن يتأرجح مرة أخرى، وعندما رفعت يدي، كان الشكل الذي رسمته لا يزال مرسومًا هناك على زجاج النافذة.

كانت أوراق الأشجار قد تبدلت أخيرًا مع قدوم الخريف، لكن الزرزور لم يكن قد غادر بعد. لم أكن أريد التفكير فيما قد يعنيه ذلك، لكنني كنت متأكدة من أنه يعني شيئًا ما.

ارتديت سترتي قبل أن ألتقط المفاتيح المعلقة على الخطاف وأفتح الباب، وخرجت قبل أن أنظر لأعلى. حبست أنفاسي عندما رأيت فجأة شخصًا عريض المنكبين أمامي، وكدت أصطدم به .

سقط غطاء سترتي للخلف، وتجمد الدم في عروقي، وسمعت حينها طنينًا مؤلمًا يكاد يثقب أذني.

أوجست.

كان يقف على الدرجة العليا، على مسافة قدمين أو ثلاث أقدام.

التقت عيناه البنيتان بعينيَّ تحت ضوء الشرفة المتأرجح، ولم أكن قادرة على رؤية لونهما عبر الطريق عندما رأيته من قبل، لكنني استطعت رؤية لونهما الآن.

راقبته وهو يزدرد لعابه، وعضلاته تبدو مشدودة تحت قميصه، وكانت الأكمام مرفوعة حتى المرفقين تقريبًا، وكان شعره الأسود الجامح متجعدًا عند الأطراف، وتغطي فكه لحية شعثاء، وكان يقف وقد بدا أطول مني بنحو قدم على الأقل الآن، لكنه بدا كما هو، تمامًا كما كنت أتذكره.

مرت عيناه على وجهي، كأنه كان يفكر في الشيء نفسه، وما زال يحمل صورتي من الماضي في ذهنه، وكان شعوري وهو ينظر لي أشبه بطعنات السكين.

قال: "إيميري".

كان صوتًا ظللت أسترجعه في ذهني لعدد كبير من المرات؛ نغمة صوت أوجست وهو ينطق باسمي. تسمرت في مكاني؛ ما جعل من المستحيل عليَّ أن أتحرك.

قال: "أنا..."، لكن أغلق فمه مرة أخرى، وأصبح فكه مشدودًا الآن.

تسارعت دقات قلبي، وعقلي يفكر في كل شيء فظيع كنت أريد أن أقوله له، لكن بالنظر إليه الآن، لم تستطع كلمة حادة واحدة أن تخرج من فمي.

تمكنت من استجماع شجاعتي أخيرًا، وقلت بينما أحدق إلى المربعات الصغيرة المنقوشة على قميصه: "مرحبًا يا أوجست".

قلب هاتفه المحمول في يده بعصبية، وضغطه بين راحتيه وقال: "مرحبًا".

ألقيت نظرة على الطريق من خلفه، ففي أية لحظة، قد يمر شخص ما بالسيارة، وقلت له: "لا ينبغي أن تكون هنا".

قال: "أعلم، أنا فقط... لم أرغب في ترك كل شيء معلقًا... كما حدث بالأمس".

بصعوبة سمعته بسبب صوت أنفاسي غير المنتظمة. لم يكن صوته فقط، كان هناك هذا الشعور بوجوده الذي طال انتظاره، والذي كان أشبه بشبح ظل يطاردني فترة طويلة، ثم تجسد أخيرًا أمامي.

احمر وجهه وقد كان شيئًا اعتدت رؤيته، ثم قال: "اسمعيني يا إيم، إنني..."

إيم، لم أستطع تحمُّل سماع تلك الكلمة منه.

همست: "لا يمكنني فعل هذا".

تغيرت تعبيرات وجهه عند سماعه نبرة صوتي، وهدأ، لكن النظرة التي وجهها إليَّ جعلتني أشعر بحريق يشتعل خلف عيني، قبل أن تسقط دمعة على خدي، فدرت حوله، ونزلت على الدرج الحجري.

وسرعان ما اشتدت الرياح، وبدأت تعصف بالأشجار، فصعدت إلى الشاحنة في اللحظة نفسها التي هطلت فيها أولى قطرات المطر على الزجاج الأمامي، وتعطلت عجلة القيادة، ورفضت الدوران حتى بعد المحاولة الثالثة، فحولت التروس إلى وضع الرجوع للخلف، بينما كانت الأضواء تومض على الشرفة.

تمالكت نفسي حتى لا أنظر إلى الوراء وأنا أتنفس بعمق، لكن عينيَّ كانتا تتجهان إلى مرآة الرؤية الخلفية، وهناك، على ضوء الشرفة الخافت، وقف أوجست يراقبني وأنا أختفي.

الفصل الثامن عشر

نوح

لفترة طويلة كنت أفتقد ابنتي الصغيرة.

ما إن أغلقت المقهى ليلًا، حتى سلكت الطريق الوحيد الواصل بين المدينة والمنزل، كان هو الطريق نفسه الذي كنت أسلكه كل ليلة عندما كانت إيميري صغيرة، وكثيرًا ما كانت تجلس بجانبي، وقدماها العاريتان مرفوعتان على لوحة عدادات السيارة، لكن الليلة، كنت وحدي.

غمر ضوء المصابيح الأمامية الطريق المرصوف بالحصى، بينما كنت أقترب من المنزل، وكانت شاحنة إيميري قد اختفت، وبدا المنزل مظلمًا، فجلست وأطفأت المحرك، وأنا أشاهد ارتفاع القمر في السماء فوق سطح المنزل. وذات مرة، سمحت لإيميري بالصعود للجلوس على السقف؛ لأنها أرادت أن ترى شروق الشمس، فاستيقظت في الظلام، وجهزت آلة صنع القهوة قبل إيقاظها، وسحبت البطانية الكروشيه لأعلى السلم، قبل أن أصعد نحو سطح المنزل المكسو بالجليد. جلست هناك، وكان أنفها قد أصبح ورديًا من البرد، وعندما أشرقت الشمس لم أرها لأنني كنت أراقب ابنتي، والطريقة التي تغير بها لون عينيها في الضوء.

كانت ألبرتين لا تحبذ فكرة إنجاب الأطفال، ونحن لم نخطط قط لذلك، ولكن عندما أخبرتني هانا بأنها حامل، تفاجأ كل منا بالسعادة التي شعر بها، وسخرنا من ألبرتين وقلنا إنها دائمًا ما تحصل على ما تريده دائمًا، باستخدام وسائل

خارقة لقوانين الطبيعة، وما زلت أعتقد ذلك، فقد كانت النساء دائمًا هن من يحركن خيوط كل شيء على هذه الجزيرة.

ساعدت ليودا هانا في ولادة إيميري، في غرفة نوم مظلمة في منزلنا، وسط عاصفة أدت إلى انقطاع التيار الكهربائي، والمرة الأولى التي حملت فيها ابنتي بين ذراعي كانت على ضوء الشموع.

ونظرت إليَّ بعينين زرقاوين داكنتين، وكانت عينها اليسرى تلمع ببريق من اللون الأخضر الساطع، مثل نجمة سباعية غير كاملة، وأخبرتنا ليودا بأن هذا شيء يسمى تغاير لون القزحية، ومن ناحية أخرى، قالت ألبرتين إنها علامة على أن إيميري كانت مميزة.

آخر مرة أحسست فيها بأنها فتاتي الصغيرة، كانت بعد عام تقريبًا من الحريق، حيث استيقظت في منتصف الليل، وبدا المنزل هادئًا، فبعد شهور من استيقاظ إيميري المتكرر بسبب الكوابيس، اعتدت الاطمئنان عليها، لكن في تلك الليلة، عندما دفعت باب غرفتها، لم تكن هناك. سحبت البطانيات من سريرها، وفتشت عنها في المنزل، وبحثت عنها عبر الغابة لم أدرك ما حدث إلا عندما رأيت الضوء الخافت وسط الطريق.

دخلت كوخ عائلة سولت الخاوي، حيث كان الجو شديد البرودة، لكن المصباح الصغير فوق الحوض كان مضاءً. ثم سرت في الممر حتى وصلت إلى الغرفة الأخيرة وكانت هي هناك، متدثرة تحت اللحاف على سرير أوجست. دفعت شعرها للخلف بعيدًا عن وجهها، وسحبتها بين ذراعي، وعندما فتحت عينيها، كانتا حمراوين ومتورمتين. حملتها إلى المنزل وهي تبكي على صدري.

لم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي وجدتها فيها هناك.

أشعل الهواء البارد الألم في حلقي فرفعت ذراعي، وسعلت في كُم سترتي. تردد الصوت في صدري، وآلمتني ضلوعي. ثم نظرت إلى ساعتي مرة أخرى، حيث وجهتها نحو ضوء القمر. كانت الساعة تقترب من الثامنة، فقد مكثت في المنزل ساعة واحدة تقريبًا، لقد تأخرت بالفعل.

عدت أدراجي وأنا أتنهد بعمق، وبدأت السير على الطريق، ورفعت ياقة سترتي إلى ذقني. كانت التدفئة قد تعطلت في شاحنتي منذ سنوات، لكن هذا لم يزعجني كثيرًا إلا بحلول شهر يناير. كانت تلك الليلة الباردة قد أتت في غير موعدها،

فقد حلَّ الشتاء مبكرًا هذا العام، وحتى الأوراق تأخر سقوطها. لم تتبع الجزيرة إيقاعاتها المعتادة كما سمتها هانا؛ حيث جعل هذا الخريف المتأخر الأمور تخرج عن إطارها الصحيح، وبحلول الصباح سيغمر الصقيع المكان.

كان منزل هانز وليودا مورجان يقع في نهاية طريق أولد باين، ويحيط به بستان خاص به مكون من أشجار الخشب الأحمر التي جعلت المنزل يبدو صغيرًا وسطها. كنت قد سلكت هذا الطريق مرات عديدة، لكن لم تحمل كل تلك المرات ذكريات طيبة؛ فقد كانت تكتنفها لحظات لم أشعر بالفخر فيها، لكننا جميعًا فعلنا ما كان علينا فعله فيما يخص سيرشا. كان هذا صحيحًا دائمًا.

توقفت الشاحنة فجأة خلف سيارة زاكريا، فأطفأت المحرك، وجلست في الظلام برهة في ظل ذلك السكون. لم أحظَ بلحظة هادئة مثل تلك منذ مدة، فكان ضوء القمر يتسلل عبر الأغصان الشاهقة، ويرسم خطوطًا بيضاء في الظلام، وفكرت في إعادة تشغيل الشاحنة والمغادرة، لكن الأمور كان تخطت ذلك بكثير الآن، وكنت أعرف ذلك.

وزاد الألم في فخذي وأنا أهز نفسي من المقعد وأغلق الباب، فألقيت بالمفاتيح عبر النافذة المفتوحة على لوحة القيادة، ثم أصدرت درجات المدخل صوتًا عاليًا وأنا أصعد عليها، ثم طرقت الباب ثلاث مرات متتالية، فتحركت الستارة الدانتيل خلف النافذة قليلًا قبل أن تُفتح، وحدقت ليودا إليَّ وحاجباها مرفوعان.

همست وهي تفتح الباب على اتساعه: "حسنًا، لقد حان الوقت إذن!".

كانت النار تشتعل في الداخل، لكن الضوء الوحيد الموجود كان قادمًا من غرفة الطعام عبر الصالة.

ألقت نظرة من فوق كتفي، وسألتني: "هل رآك أحد؟".

قلت: "لا".

حكت ذقنها وقالت: "حسنًا"، وانتظرت دخولي قبل أن تغلق الباب.

استطعت تمييز أصواتهم قبل أن أراهم، فقد جلس هانز ونيكسي وجيك وزاكريا وبرنارد حول الطاولة التي وُضع في وسطها طبقٌ من المعجنات القادمة من المخبز الذي وُضع بينه شمعدانان، كأننا في حفل شاي.

رفعت ليودا إبريق الشاي، وملأت كوبًا في المقعد الفارغ بجانبها، والذي افترضت أنه يخصني.

نزعت القبعة عن رأسـي وطويتها، ثم وضعتها في جيب سـترتي قبل أن أجلس. وقفت ليودا بجانب الحائط، تراقبني، وقالت: "حسنًا؟".

تجولت بنظري عبر الطاولة من أخي جيك إلى زاكريا. كان القرار قد اتُّخذ منذ وقت طويل، لكنني كنت ما زلتُ لا أستسيغه.

قلت بصوت أجش عندما التقطت كوب الشاي وارتشفته: "قد تكون لدينا مشكلة".

قالت ليودا، وهي تعض شفتيها: "ما نوع المشكلة؟".

حدقت إلى الكأس فترة طويلة قبل أن أنظر إليها مرة أخرى وأقول: "إنها إيميري".

الفصل التاسع عشر

أوجست

لـم يكـن ينبغي لي أن أذهب، ليس فقط لأن نـوح طلب مني أن أبتعـد عنها، ولكن لأنني أيضًا كنت أعلم ما قد يفعله بي ذهابي هناك.

وقفت في الشارع المظلم، وأنا أتطلع إلى اللافتة المعلقة فوق الباب.

متجر بلاكوود للشاي

كنـت قـد اعتدت أن أقـف تحت تلك النافذة في وقت متأخـر من بعد الظهر، في انتظـار إيميـري لتخرج بعـد أن تنهي عملها، ثم كنا نذهب إلـى كوخ الصيد الخاص بوالدهـا، حيـث كنا نذهب للقفز في الماء البارد، ثم كنا نسـبح حتى نشـعر بالتعب، فنستلقي على المرسى، ونشاهد الشمس حتى تغرب.

كانـت الكابينة هي المكان الذي شـهد أهم أحداث حياتنـا تقريبًا، المرة الأولى التي بكت فيها أمامي، والمرة الأولى التي نشبت فيها مشاجرة حقيقية بيننا، وكانت أيضًا آخر مكان رأيتها فيه.

والآن، وأنـا أقف أمام محل الشـاي، شـعرت كأنني أنتظر مـرة أخرى، لماذا، لم تكن لديَّ أية فكرة.

صعدت الدرجات الحجرية شديدة الانحدار، حتى تمكنت من رؤيتها من خلال النافذة. جلست إيميري على طاولة العمل الخشبية، مع جهاز كمبيوتر محمول مفتوح ووجهها ينعكس عليه الضوء الأزرق، وكان جبينها مجعدًا وهي تقرأ شيئًا ما تراه على الشاشة، بينما كانت الضفيرة فوق كتفها تنحل مرة أخرى. بدت أشبه بأمها كثيرًا في تلك اللحظة، لدرجة أن الأمر كان مربكًا جدًّا.

لم أستطع أن أطرق الباب، وأقنعت نفسي بالتراجع عدة مرات، قبل أن أنقر بقبضتي على الزجاج برفق.

رفعت عينيها ثم ضيقتهما، وفي اللحظة التي تعرفت فيها على وجهي، جفلت. أسقطت يديها في حجرها وحدقت إليَّ لعدة ثوانٍ، وكأنها تنتظر لترى ماذا سأفعل، لم تكن لتدعوني للدخول، لكنها لن تطلب مني المغادرة أيضًا. اعتبرت ذلك علامة جيدة، فمعنى ذلك أنها لن تقذف الكمبيوتر المحمول نحوي إذا سمحت لنفسي بالدخول.

أدرت المقبض ورنَّ جرس الباب المعلق عندما فتحته، وفوق العتبة، كانت هناك حزمة من نبات إكليل الجبل تتدلى من حبل مربوط. فبعد سنوات من عدم عيشي مع أمي، كنت قد نسيت تلك الأشياء الصغيرة.

كانت الرفوف التي تحمل علب الشاي المنظمة تغطي جدار المتجر، وكان نصف الغرفة الصغيرة مضاءً بمصباح علوي واحد. شعرت بأنها تبدو أصغر من ذي قبل، فالجدران كانت مكدسة بكثير من الأشياء على كل جانب، والسقف بدا نوعًا ما أقل انخفاضًا منذ أن رأيته آخر مرة.

لم أكن أنا الشخص الوحيد التي تغير، فقد كانت إيميري تقول دائمًا إنها لن تدير هذا المتجر أبدًا، ومع ذلك، ها هي الآن.

كانت لا تزال تحدق إليَّ، وفكرت على الفور أنه كان يليق بها الجلوس هناك، منتظرة بصبر أن أجعل من نفسي أضحوكة، وكنا نعلم كلانا أنني سأفعل ذلك.

تنهدت وقلت: "مرحبًا".

رأيتها تحول ناظريها من وجهي إلى شعري، وأخيرًا إلى يدي، ثم قالت: "مرحبًا". ولاحظت أن الحدة التي كانت في صوتها في وقت سابق قد اختفت، فهي الآن تبدو متعبة فقط، أو حتى منهكة.

قلت لها: "أعلم أنكِ لا تريدين رؤيتي، أنا لكنني لم أكن متأكدًا من أنكِ ستظلين هنا فحسب، في سيرشا، و..."

سألتني إيميري: "ولماذا لا أكون هنا؟".

قلت: "لقد قصدت فقط..."

زاد الغضب من حدة كلماتها، وقالت: "ماذا، ماذا تقصد؟".

استسلمت، فقد كان من الغباء أن أقول ذلك، ثم قلت: "لا شيء".

عضت باطن خدها، وأطلقت زفرة عميقة، ثم قالت: "لقد كنت صادقة عندما قلت لك إنني لا أستطيع التحدث في ذلك يا أوجست".

قلت لها: "حسنًا، لا يمكنني المغادرة حتى نفعل ذلك"، فلم يكن من الممكن التهرب من الأمر؛ لأننا لن نحصل على فرصة أخرى.

ازدردت لعابها، وحدقت إلى شاشة الكمبيوتر المحمول قبل أن تديره نحوي، كانت صورة لي على موقع كلية إيفردين على الإنترنت تشغل نصف الشاشة.

قالت بصوت أجوف: "سومرفيلد".

تأملت وجهها بحثًا عن أي أثر يرشدني إلى ما كانت تفكر فيه. لم يكن سؤالًا، لكنني شعرت بأنه كان من المفترض أن أعطيها إجابة.

قلت: "لقد غيرنا الاسم بعد ذلك".

كان أحد أول الأشياء التي فعلتها والدتي عندما قدمنا إلى بروسبر هو تغيير أسمائنا؛ حيث كانت مرعوبة من أن يرى شخص ما الصحف من بورتلاند أو سياتل ويدرك من أنا.

قالت إيميري: "حسنًا، هذا يفسر سبب عدم تمكني من العثور عليك".

شعرت بالحرارة تسري في عنقي، ما جعلني أحرك قدمي، وقلت: "تعثرين عليَّ؟".

تنهدت وقالت: "لا تكن أحمق يا أوجست".

قلت: "أنا لست أحمق، ولكن بصراحة لم أكن متأكدًا مما إذا كنتِ..."

قالت ببساطة: "حسنًا، لقد كنت كذلك، ولفترة طويلة جدًّا".

كانت الحرارة على بشرتي أشبه بالنار الآن، ما جعل العرق البارد يتصبب على طول خط شعري، وكنت أعلم عندما غادرت أن ذلك سيؤذيها، لكنني كنت أعلم أيضًا أنني أقدم لها خدمة، سواء كانت تعلم ذلك أم لا. قلت لنفسي الشيء نفسه

الذي اعتدت قوله لنفسي لسنوات، إن الأمر حدث منذ فترة طويلة لدرجة أنه لم يعد مهمًّا الآن على أي حال، إذًا لماذا شعرت وكأنني سأنهار؟.

ثم استدارت وأغلقت الكمبيوتر المحمول، ما جعل المتجر يبدو أكثر ظلمة وقالت: "أنا آسفة بشأن والدتك، كان يجب أن أقول ذلك في وقت سابق".

تنحنحت وقلت: "شكرًا، لقد سمعت بشأن هانا، أنا آسف".

كان ردها الوحيد: "حسنًا، متى ستقام الجنازة؟".

قلت: "لا أعرف ما إذا كانت ستقام جنازة حقًّا، لكنني أنتظر زاك ليخبرني متى سيحفر القبر، ربما بعد يوم أو يومين".

سألتني: "هل ستخبرني؟".

قلت في هدوء: "بالتأكيد".

لا أعلم لماذا شعرت بغصة في حلقي، استدرت، وتجولت بنظري في المتجر حتى لا أضطر إلى النظر إليها، كنت قد نسيت كيف كان يمكنها أن تنظر دائمًا إلى عيني مباشرة، وكأنها تستطيع قراءة أفكاري.

غيرت الموضوع وقلت: "إذن، فقد استوليت على متجر والدتك، أليس كذلك؟".

وللحظة، بدت محرجة، ثم همست: "ربما تعتقد أن هذا أمر مثير للشفقة".

قلت: "لا، كانت هانا لتحب ذلك".

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها، ثم قالت: "نعم، أعتقد أنها كانت لتحب ذلك".

كان الشباب في سيرشا يرثون كل شيء من العجائز، في كل ما يخص الحياة والتجارة، وكان الخيار الوحيد الآخر هو المغادرة، كما فعل والدي، لو كانت الأمور قد سارت بشكل مختلف، لكنا أنا وإيميري قد فعلنا الشيء نفسه، حاولت ألا أفكر في المكان الذي يفترض أن نكون فيه لو أننا غادرنا.

سألتني: "هل تعمل معلمًا الآن؟".

قلت: "نعم".

سألتني: "هل يعجبك ذلك؟".

ابتسمت، وقد اندهشت من نفسي وأنا أقول: "أعتقد أنني أحب ذلك العمل نوعًا ما".

قالت: "جيد".

وعندما التقت عيناها أخيرًا بعينيَّ، شعرت بأنني لا أستطيع التنفس. كانت لا تزال جميلة جدًّا، وبذلك القدر نفسه من الجمال الذي كانت عليه دائمًا. كان النظر إليها يؤلمني.

تنهدت فقد كنت أشعر بأنه كلما طالت مدة وقوفي هناك، ازدادت شكوكي بشأن ما الذي يمكنني فعله، وكان عليَّ أن أنهي هذا الأمر.

قلت أخيرًا: "اسمعيني يا إيم..."

قاطعتني قائلة: "كان بإمكانك أن تقول وداعًا"، وكانت عيناها تلمعان بالدموع، فأجبرت نفسي على عدم النظر بعيدًا عنها.

كنت أعرف ما كانت تفكر فيه وأنني كنت جبانًا وأنانيًّا، وكانت محقة في كل ذلك.

قلت: "لا"، ثم صمتُّ قبل أن أقول: "لم أستطع"، لم أقل مزيدًا من الكلمات، لكنني أدركت من الطريقة التي نظرت بها نحوي أنها كانت تعرف ما أعنيه. لو كنت قد ودعتها، ما كنت لأتمكن أبدًا من المغادرة، ولم يكن هذا خيارًا مطروحًا.

حدقت إليَّ وهي تجاهد نفسها بشأن ما ستقوله بعد ذلك، ولقد عشت في خوف فترة طويلة تحسبًا لأي ما كان ستقوله الآن.

قالت: "أوجست..."

انفتح باب المتجر الخلفي، واستدرت بينما كان دوتش بودن يدخل، وهو يفتح سترته المبللة دون أن يرفع عينيه. عندما رآني أخيرًا، توقف فجأة، وقد اتسعت عيناه.

كان شعره الأشقر الطويل يصل إلى كتفيه تقريبًا، وقد انعكست عليه أشعة الشمس. كان طويل القامة الآن أطول مما كنت أتذكره.

تحولت عيناه الزرقاوان من النظر نحوي إلى النظر نحو إيميري، ثم قال: "أوجست!، مرحبًا يا رجل".

مسحت إيميري زاوية عينها، وتغيرت الأجواء في الغرفة بشكل لم أكن أستطيع استيعابه.

مددت يدي نحو دوتش لأنني لم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، وقلت: "مرحبًا"، لم نكن غريبين؛ لكننا لم نعد صديقين أيضًا.

أخذ يدي وهو يهزها بقوة، ثم قال: "سمعت أنك عُدْتِ"، ومع ذلك، كان دوتش ينظر إلى إيميري كأنه ينتظر منها أن تقول شيئًا.

قلت: "فقط لبضعة أيام".

ساد صمت غير مريح في المتجر بينما كنا نحن الثلاثة نحدق إلى بعضنا، ولم أستطع إلا أن أتساءل عما إذا كنا جميعًا نفكر في الشخص الوحيد منا الذي لم يكن موجودًا؛ ليلي، لقد كنا دائمًا أربعة أصدقاء.

كان دوتش هو من كسر الصمت أخيرًا، وقال: "آسف بشأن إيلويز".

أومأت برأسي وأنا أنظر إلى قطع القش الملتصقة بطرف قميصه المصنوع من الفلانيل وقلت: "شكرًا، هل ما زلت تعمل في البستان؟".

أجاب: "نعم".

سألته: "من يدير الأمور هناك الآن؟".

تبادل دوتش وإيميري النظرات قبل أن يجيب: "في الحقيقة، أنا من يديره".

لم أستطع إخفاء دهشتي، فقلت: "رائع!"، وكانت تلك هي الكلمة التي أمكنني التفكير في قولها.

كان جدي يتقبل دوتش، لكنه لم يكن يثير إعجابه كثيرًا.

قال دوتش: "يقول جيك إنك تحزم أمتعتك في الكوخ".

ردت إيميري، وقد عادت النبرة الدفاعية إلى صوتها: "تحزم أمتعتك؟".

قلت: "نعم، سأبيعها".

لم أستطع تمييز النظرة التي بدت على وجهها الآن، هل كانت تحمل الحنين إلى الماضي؟ أم تتهمني فيها بالخيانة؟ أو ربما كلاهما.

ثم سرعان ما اتجه دوتش نحو الطاولة، ليقف خلف المقعد الذي كانت إيميري تجلس عليه، ولاحظت أنه لمس ذراعها، ثم قال لي: "حسنًا، أخبرني إذا كنت بحاجة إلى أية مساعدة، ويمكنني المجيء إليك حينها".

خفضت إيميري عينيها مرة أخرى، واحمرت وجنتاها؛ فقد كان هناك شيء بينهما، وربما أكثر من مجرد علاقة صداقة. نظرت على الفور نحو إصبع يدها اليسرى، لكنها لم تكن ترتدي أي خاتم، وأطلقت زفرة عميقة وأنا أشعر بالارتياح. كان تصرفًا غبيًا، لكنني لم أستطع منع نفسي.

تراجعت للخلف، وتجولت بنظري بينهما، ثم قلت: "حسنًا، كنت على وشك المغادرة حالًا، أراكما لاحقًا يا رفاق".

فتحت الباب، وأخذت نفسًا عميقًا جعل رئتيَّ تؤلمانني، ثم نزلت على الدرج بسرعة أكبر من اللازم، وقبل أن أعبر الشارع، انفتح باب المتجر مرة أخرى.

سمعت صوت دوتش يقول: "مهلًا يا أوجست!".

توقفت مترددًا قبل أن أستدير؛ حيث لم نكن مضطرين لفعل ذلك، وفي الواقع، لم أكن أريد ذلك.

عبر دوتش الشارع بخطوات واثقة حتى وصل إليَّ. كان يبتسم ابتسامة خافتة، وكان بإمكاني أن أرى أن هناك شيئًا ما وراءها، ثم قال: "كان لقاؤنا هناك غريبًا نوعًا ما".

قلت له: "نعم، نوعًا ما".

مرر يده عبر شعره، وبدا لي كما اعتدت أن أراه عندما كنا مراهقين، كما لو كان هو من يسيطر على كل شيء، على الرغم من أننا نعلم أن الأمر ليس كذلك. ومثلما كانت الحال في ذلك الوقت، تركته كي يتولى زمام الأمر. تابع: " أنا وإيميري تربطنا الآن علاقة عاطفية، لم أرغب في أن تكتشف الأمر بهذه الطريقة".

هززت كتفي، وقلت: "لقد مر وقت طويل يا دوتش، فلا داعي للقلق".

رفع ذقنه، ونظر إليَّ في استخفاف، وكان هناك شيء لم يقله.

سألته: "ما الأمر؟".

صمت دوتش لحظات، ونظر إلى الشارع باتجاه الغابة قبل أن يجيب: "لا أعرف، يا رجل، لقد غادرت دون أن تقول كلمة، ثم ظهرت فجأة من العدم... أعتقد أنني لا أعرف حقًّا ماذا يجب أن أقول".

قلت: "ليس هناك ما يجب عليك قوله"، كنت أحاول أن أعطيه مخرجًا، لكنه لم يتقبل ذلك، فلم يكن يعرف مطلقًا متى يغلق فمه.

صمت ثم قال وهو يخفض صوته: "هل أنت متأكد من ذلك؟ أعني، كيف أمكنك أن ترحل هكذا بعد..."

قاطعته: "بعد ماذا؟".

انخفض صوت دوتش: "بعد ما فعلته من أجلك".

نظرت نحو واجهة المتجر المتشققة، حيث كان الضوء ينعكس على الشارع، وسألته: "هل هذا ما يدور حوله الأمر؟، هل تعرف إيميري ذلك؟".

أجابني: "لا".

زفرت زفرة طويلة فلم أكن أريد الاعتراف بذلك، لكن احتمالية معرفة إيميري بكل شيء جعلتني أشعر بالإعياء، وخمنت أن دوتش شعر بالشيء نفسه.

نظر نحوي وقال: "أعتقد أن الأمر يجب أن يظل على هذا النحو"،

قلت له: "فهمت، لا تريدني أن أفسد عليك أي شيء".

قال دوتش: "ما الأمر يا أوجست؟ أنا فقط لا أريد لإيميري أن..."

قاطعته: "أن تكتشف أنني لست الشخص الوحيد الذي كذب تلك الليلة، أليس كذلك؟".

نظر دوتش إليَّ في حذر، وقد تغيرت تعبيرات وجهه على الفور، واختفت كل أمارات الخجل التي بدت عليه في داخل المتجر قبل لحظة، وبادلني النظرات الباردة دون أن ينبس ببنت شفة.

قلت وأنا أبتعد بسرعة: "لقد أخبرتك بأنني سأغادر هذا المكان في غضون أيام قليلة"، ثم واصلت المشي في الشارع بسرعة، وتركته واقفًا في الظلام خلفي وقد انعكست من بعيد إنارة المتجر، وقلت "سيبدو الأمر كأنني لم أكن هنا مطلقًا".

الفصل العشرون

إيميري

أعتقد أنني ارتكبت خطأً فادحًا.

جلسـت على أرضية غرفة المعيشـة، وأنا أشد الغطاء بإحكام حولي. كانت النار قد انطفأت تقريبًا، لكنني لم أكن أشـعر بالبرودة، وظللت مسـتيقظة وأنا أجلس في الظلام لسـاعات، وتصلني الأصوات القادمـة من الغابة عبر نافذتي، خائفة من أن أنام لأنني كنت أعرف ما سيحدث.

علمتني ألبرتين عندما كنت صغيرة أنه لا يوجد شـيء اسـمه كوابيس، فالأحلام ما هي إلا رسائل، بعضها قد يكون غير سارٍّ، لكنها ستظل رسائل على كل حال.

بـدأت كوابيسـي فـي الليلـة التـي عـدت فيهـا إلـى الجزيـرة، بعـد أن مكثـت في المستشـفى فـي سـياتل مـع والدي، كنـت أتقلب في سـريري، وأتصبـب عرقًا، وكان صراخـي يوقـظ نيكسـي، وكنـت أفتـح عينـيَّ لأجدهـا واقفة فـوق سـريري، تهزني. اسـتغرق الأمـر شـهورًا حتى اختفت بمسـاعدة إحدى تعويذات ألبرتيـن التي تحتوي على عظام الغراب.

لكـن الذهـاب إلـى جدتـي مرة أخـرى كان مـلاذي الأخيـر؛ فقد كانت تسـتطيع النفاذ إلى أعماق الجرح المؤلم، ولم أستطع أنا تحمُّل ذلك.

لـم أخبـر أحـدًا قـط بما رأيتـه في تلـك الليالـي؛ خوفًا من أنـه إذا فعلـت ذلك، فقـد تتسـلل تلـك الظـلال التـي تسـكن عقلـي وتظهـر بطريقة ما فـي ضـوء النهار.

مرت سنوات منذ أن سمعت الصراخ، وأستيقظ وأطراف أصابعي مخدرة من البرد. لكن مرت ثلاث ليالٍ منذ أن طار الزرزور بالقرب من النافذة، ومع كل ليلة، كان الحلم يعود.

نهضت أخيرًا وأشعلت الشمعة، وسحبت الغطاء خلفي، وأنا أنزل إلى غرفة المعيشة عبر الردهة، كنت أسمع همسًا في الهواء عندما أرفع غطاء الصندوق، وللحظة، اعتقدت أنه كان نوعًا من التحذير، وكأن والدتي كانت ترفع حجب العالم الآخر، وهي تطلق نداءها الأخير لكي أترك الماضي خلفي.

لكنني لم أستطع ترك الماضى، فلم تكن والدتي أبدًا من النوع الذي يخفي عني الأسرار، ومع ذلك، فقد فعلت. أخفت ثمانية وخمسون سرًا. وطوال هذا الوقت، كانت موجودة في العلية، تنتظر فقط أن يُعثر عليها.

سحبت الأظرف من الصندوق، ورتبتها على الأرض أمامي، ورأيت أن التواريخ قد شملت ثماني سنوات، بدءًا من بعد مرور شهر على رحيل أوجست وايلويز عن سيرشا حتى قبل وفات والدتي بأربعة أشهر.

لم نكن نخفي الأسرار عن بعضنا البعض من قبل، ولم يبدأ والداي في الكذب عليَّ إلا بعد الحريق. كان بإمكاني تمييز ذلك في نبرات صوتيهما، وعندما يبتسمان بشكل مبالغ فيه أو عندما لا ينظران في عينيَّ مباشرة. كانت أشياء صغيرة في البداية؛ محاولات عقيمة منهما لتشتيت انتباهي، أو لتجميل شيء سمعاه في المدينة.

دار شريط الذكريات في ذهني على هيئة ألوان وأشكال ضبابية. كانت تلك الليالي باردة وموحشة بعد رحيل أوجست، كنت أبكي كل ليلة حتى يغلبني النعاس، وكنت أشاهد ظل والدي من تحت باب غرفتي، وتوقفت عن مغادرة المنزل. مرت أشهر قبل أن أسمح لدوتش بالمجيء، كان يظهر على الشرفة عدة مرات في الأسبوع، وكنت أرفض استقباله عند الباب؛ لذلك كان هو ووالدي يجلسان على الدرج ويتحدثان لفترة حتى يغادر.

وفي النهاية، توقفت عن البحث عن أوجست، لكنني لم أتوقف عن التفكير فيه.

في كل خريف، عندما كانت تملأ الحشود شارع ماين، كنت أتطلع من نافذة متجر والدتي، وأتخيل وجهه وهو يظهر من بين كل تلك الوجوه، وفي أكثر من مرة، ظننت أنني رأيته.

استغرق الأمر وقتًا أطول حتى اعترفت لنفسي بأنني لا أستطيع نسيانه، وأنه أصبح جزءًا من حياتي، وأن طيفه كان يتبعني أينما ذهبت، وفي كل يوم مع غروب الشمس، كنت أخشى تلك اللحظة التي سأشعر فيها بالألم مرة أخرى.

مرت ليالٍ سيئة وليالٍ أسوأ، ولكن في كل واحدة منها كنت وحدي.

كانت أشعة الشمس الخافتة قد بدأت تتسلل فوق الأشجار، عندما استجمعت شجاعتي لسحب الرسالة الأولى من مظروفها. حبست أنفاسي، وعضضت باطن خدي وأنا أبدأ القراءة. كان خط يد إيلويز المائل يملأ الصفحات في خطوط متساوية ومدروسة.

هانا...

لقد وصلنا إلى بروسبر، وهي جميلة تمامًا كما أتذكرها، جميلة، لكنها ليست وطننا، والمنزل الذي استأجرناه مفروش، والحي هادئ في أغلب الأوقات، لكن صوت حركة المرور على الطريق الرئيسي مزعج بعض الشيء، ولكن أظن أننا سوف نعتاد ذلك. أعتقد أننا سنعتاد كل شيء، كل ما نحتاج إليه هو بداية جديدة، صفحة جديدة.

من فضلك اكتبي لي، وأخبريني كيف تسير الأمور في البستان، فإنني أرغب بشدة في معرفة ذلك، ومن فضلك لا تخبري أحدًا بما كتبته، خاصة إيميري.

مع حبي.

إيلويز

ازدردت لعابي، وحدقت إلى اسمي المكتوب بخط يد إيلويز، حيث كنا دائمًا قريبين من بعضنا؛ كنا عائلة، لم يكن أوجست هو الوحيد الذي حطم قلبي عندما غادر.

إذا كانت هذه هي الرسالة الأولى التي كتبتها، فقد كان والداي على علم بخطتها وإلى أين كانت ذاهبة قبل أن تغادر هي وأوجست، وتساءلت الآن عما إذا كانا هما الوحيدين اللذين كانا يعلمان.

أعدت طي الرسالة ووضعتها في المظروف، ولاحظت أن الرسالة التالية أُرسِلَت بعد شهرين.

هانا...

بدأ أوجست الدراسة في الكلية المجتمعية الأسبوع الماضي. لم أكن أتخيل قط أنني سأقول تلك الكلمات، فهو لم يرغب قط في الذهاب إلى الكلية. أعتقد أن هذا هو الشيء الجيد الذي خرج به من وسط كل تلك الفوضى. إنه يبدو هادئًا في الآونة الأخيرة وهذا يقلقني. أحاول ألا أطرح عليه الكثير من الأسئلة أو أزعجه، لكنكِ تعرفين مدى قلقي.

وجدت متجرًا لبيع الشاي في المدينة، لكنه لا يقارن أبدًا بمتجرك. هل يمكنني أن أطلب منكِ شيئًا صغيرًا؟ سأكون ممتنة جدًّا إذا أرسلتِ لي بعض أكياس الشاي من المتجر. بدأت العمل في مقهى في الفترة التي يكون فيها أوجست في الجامعة، وحتى الآن، كل شيء يسير على ما يرام. كنت أفكر في بيع الكوخ الخاص بي على الجزيرة، وإعطاء المال لأوجست لاستكمال دراسته. لا أعرف، يبدو قرار بيع هذا المنزل أمرًا صعبًا جدًّا، خاصة أنه ظل مملوكًا للعائلة فترة طويلة، ولو كان هنري موجودًا ما استطاع أن يتمالك نفسه من الغضب.

أعتقد أن البحر مختلف هنا؛ رائحته وشكله مختلفان، وكذلك الأشجار.

مع حبي.

إيلويز

هانا...

كانت جدتي تقول دائمًا إنه إذا غادرت الجزيرة، فسوف تدعوكِ لتعودي إليها. أعتقد أن هذا صحيح، فأنا أحلم بها، وأحيانًا يبدو الأمر كأنني أستطيع أن أشعر بأصابع خفية في الهواء، تسحبني شمالًا إلى بوجيت ساوند. نحن لا ننتمي إلى هذا المكان.

آسفة على الرسالة الحزينة، سأرسل رسالة أكثر بهجة في المرة المقبلة.

مع حبي.
إيلويز

هانا...

أعتقد أنني ارتكبت خطأً فادحًا، فقد استيقظت قبل بضعة أيام وكان أوجست قد رحل. اعتقدت أنه غادر مبكرًا إلى الجامعة، ولكن عندما لم يعد إلى المنزل بعد الظهر، قضيت الليل كله وأنا أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. لم أرغب في الاتصال بالشرطة، فلم أكن أريد أن يعرفوا ما حدث، ولا أريد لأي شخص هنا أن يعرف أي شيء.

غاب تقريبًا، ثم ظهر في وقت متأخر من الليلة الماضية، كان قد عاد إلى الجزيرة. استطعت أن أشم رائحة الغابة عالقة في ملابسه، فأنا يا هانا أستطيع تمييز رائحتها، وبصراحة لا أعرف ما الذي كان يفكر فيه، لقد وعدني بألا يجعل إيميري تراه، وأعتقد أنه كان يقول الحقيقة، أعتقد أنه أراد فقط رؤيتها.

لا أعرف ما إذا كنت قد فعلت الشيء الصحيح بإحضاره إلى هنا. لا أعرف ما الشيء الصحيح الذي يجب عليَّ فعله بعد الآن، إنه غير سعيد. إنه يجلس على الكرسي بجوار النافذة الأمامية وسماعات الرأس على أذنيه، ويستمع إلى الموسيقى، ولا أعرف ما الذي ينتظره، أعتقد أنه ربما يأمل... لا أعلم. أتمنى ألا يفعل أي شيء غبي أثناء وجوده هناك.

مع حبي.
إيلويز

لقد عاد.

اختفت الكلمات أمام ناظري بعد أن امتلأت عيناي بالدموع الغاضبة فأغلقتهما وأنا أسترجع الذكريات الضبابية لتلك الأحداث المروعة، وعندما كنت أتحرق شوقًا لرؤيته وكان الألم يخنقني، كان هو هناك، في مكان ما.

ألقيت الرسالة جانبًا، وأمسكت بالرسالة التالية، ثم التالية.

هانا...

انتهيت توًّا من قراءة رسالتك، ولا أعرف ماذا أقول بشأن تلك الأخبار، ليست لدَّي كلمات لوصف شعوري. لا أستطيع أن أتخيل العالم من دونك.

لقد أنقذت حياتي مرة، وأتمنى لو كان بإمكاني إنقاذ حياتك.

مع حبي.

إيلويز

تنهدتُ وأعدت طيَّ الورقة بعناية. كنت أعرف أن أمي لم تكن على ما يرام، وعرفت ذلك حتى قبل أن نكتشف أنها كانت مريضة بالسرطان. لقد تغير شيء ما فيها.

عندما أخبرتني، كانت تعرف أنها لن تتحسن، كأنها كانت ترى ذلك وهي تتأمل أوراق الشاي.

هانا...

فكرت كثيرًا ولوقت طويل في كتابة هذه الرسالة بشكل خاص، ولكنني لم أكن أعرف كيف يمكنني فعل ذلك.

كل ما أمكنني التفكير فيه هو كيف كنت أتمنى لو لم تقع كل تلك الأحداث في تلك الليلة.

أعلم أن ما فعله أوجست لا يُغتفر، لقد فكرت مرات عديدة كيف أن المرء يظن أنه يعرف طفله، ثم يفعل هو شيئًا يرعبك، شيئًا يفتح أبواب الظلام.

تجمدت فجأة، وارتجفت الرسالة في يدي، وأصبحت راحتا يديَّ زلقتين من العرق.

أنا آسفة جدًّا، على كل شيء. لا أستطيع أن أخبرك بمدى أسفي، وكل يوم أتساءل عما إذا كنت قد فعلت الشيء الصحيح، ولكنني لا أعرف إجابة هذا السؤال. تتغير الإجابة في كل مرة أطرح فيها السؤال. وفي بعض الأحيان أتمنى أن أعود وأفعل كل شيء بشكل مختلف. لا توجد عودة إلى الوراء، أليس كذلك؟

هل تتذكرين عندما اعتدنا الذهاب إلى ويكلي بوينتي، ونحن نحمل عصير التفاح المسروق من المقهى، ونستلقي على الصخور، ونتحدث عن حياتنا عندما نصبح أكبر سنًّا؟

أنتِ أعز صديقة لي، صديقتي القديمة.

مع حبي.

إيلويز

قرأتها مرة أخرى، مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة كنت أشعر بالكلمات تؤلمني مثل لسعات الحروق.

ما فعله أوجست.

ما فعله أوجست.

ما فعله أوجست لا يُغتفر.

كنت أعرف أن عددًا قليلًا من الأشخاص في سيرشا قد اعتقدوا أن أوجست كان بريئًا في ذلك الوقت، ولكن عندما اختفى هو وإيلويز، تاركين وراءهما كل شيء، كان ذلك كافيًا لإقناع معظمهم بأنه ربما قتل ليلي، وأنهما ما كانا ليهربا لو لم يكن مذنبًا.

في الأسابيع التي تلت وفاة ليلي، حاولت أن أفهم الأمر، فطلبت منه أكثر من مرة أن يخبرني بما حدث في تلك الليلة، وفي كل مرة كان يخبرني بالقصة نفسها. ذهب للعمل في البستان ثم التقى بدوتش في المنارة. لكن عندما أفكر في الأمر

الآن، أظن أنني لم أستطع فهم كلماته تمامًا، ولم أستطع تكوين صورة واضحة أتذكر فيها ما قاله بالتحديد. كان في المنارة مع دوتش، هذا هو الشيء الوحيد الذي أعرفه.

لكن بدا لي في تلك الرسالة كأن إيلويز أيضًا تعرف شيئًا لا أعرفه أنا، بدت هذه الرسالة كأنها... اعتراف.

الفصل الحادي والعشرون

خمسة أشهر قبل الحريق

أوجست

شعرت بمذاق الدم الجاف على شفتيَّ المتشققتين.

مشيت على الطريق الترابي وأنا أتجنب النهر الذي كوَّنته مياه الأمطار، والذي كان يتدفق فوق الصخور. كان الكوخ مظلمًا عندما وصلت عند منعطف الطريق، وشكرت الله على عدم انتظار أمي لي.

رفعت مزلاج البوابة ببطء حتى لا يصدر صريرًا، وصعدت إلى الممر المؤدي إلى الشرفة قبل أن أفك سحَّاب سترتي. كانت عاصفة الشتاء قد هبت بقوة فور غروب الشمس، وكانت ملابسي مبللة من المشي. لم أكن أرغب في المخاطرة بأن تسمعني أمي؛ لذلك خطوت ببطء، وخلعت حذائي وتركته بجانب الباب الأمامي.

لم يكن لديَّ مفتاح لمنزلنا مطلقًا؛ لأنه لم تكن هناك حاجة إلى إغلاق الأبواب بإحكام في سيرشا، وكان هذا هو نوع الهراء الذي قاله الناس للتظاهر بأن المكان آمن هنا، وكنت أنا أكثر حكمة من أن أصدق ذلك.

تسللت إلى الداخل، وتوجهت إلى غرفتي بخطوات خفيفة. واسترخيت عندما رأيت أن باب غرفة أمي كان مغلقًا، وأن الأضواء كانت مطفأة، وكانت هي نائمة.

كانت غرفتي مظلمة باستثناء شعاع من ضوء القمر يتسلل من النافذة. خلعت قميصي وتركته يسقط على الأرض، وانحنيت أمام مرآة الخزانة، ورأيت ظلي في الظلام، وانحنيت نحو الضوء الذي سقط على جانب وجهي. كانت الدماء على ذقني قد جفت، لكنها لم تكن شيئًا لا أستطيع تنظيفه، أو أن أدَّعي أنه حدث أثناء عملي في البستان.

جفلت، وضغطت بطرف إصبعي على الجرح الموجود على شفتيَّ، لكن الدائرة الأرجوانية الداكنة الموجودة أسفل عيني كانت مسألة أخرى.

همست: "اللعنة"، سأجد صعوبة في شرح ذلك.

سمعت صوتًا واهنًا وناعسًا صادرًا من الزاوية المظلمة لغرفتي يقول: "أوجست؟"، فارتعشت، وضربت الخزانة بركبتي.

ركزت عيني مرة أخرى على المرآة حتى رأيت إيميري جالسة على سريري، وعيناها مغمضتان. قلت بصوت مرتفع للغاية: "مرحبًا".

كانت ترتدي أحد ثيابها الرياضية الضخمة، وكان شعرها منسدلًا على وجهها، وكان هناك كتاب مفتوح على السرير بجانبها، لقد نامت هنا.

سألتني: "أين كنت؟".

أدرت ظهري لها، والتقطت القميص المبلل من الأرض، ومسحت وجهي، وسحبته من جبهتي نحو رقبتي، ثم قلت لها: "كنت أعمل في البستان"، ثم ألقيته في سلة الغسيل قبل أن أُخرج بنطالًا رياضيًّا من الدرج.

صمتت إيميري للحظة، شعرت، وكأنها كانت تراقبني من كثب، وأن تلك المراقبة كانت تزداد كل يوم، ثم قالت: "أمتأخر حتى هذا الوقت؟".

لم تصدقني لأنها لم تكن غبية، فإيميري تعرفني.

انزلقت على حافة السرير، وفركت وجهها بيديها، وكانت لا تزال تحاول أن تستوعب أين كنت، ولكن بمجرد أن وقفت، سارت مباشرة نحوي، منتظرة أن أضع ذراعي حولها، وكان خدها الساخن مثل مكواة على بشرتي.

ثم قالت: "لماذا جسدك بارد هكذا؟".

وعندما نظرت إلى وجهي ابتعدت عن الضوء.

بدت مستيقظة الآن وهي تسألني: "ما الأمر؟".

تركتها وارتديت بنطالي الرياضي، ثم قلت: "لا شيء، أنا متعب فحسب".

وعندما مدت يديها نحوي حاولت أن أفلت منهما.

ثم استدارت لتواجهني، وقالت: "أوجست، ما الذي يحدث؟"، اتسعت عيناها عندما سقط الضوء على وجهي، وكررت: "ماذا حدث؟".

أجبتها: "لا شيء".

مدت يدها نحوي مرة أخرى، وأمسكت بفكي، وقالت بصوت أعلى: "أوجست، هل هو من فعل ذلك؟".

قلت هامسًا في صوتٍ أجش: " سوف توقظين أمي"، وكنت أخشى ذلك.

قالت: "لا يهمني".

حدقت إليها، ولم أتحرك، وقلت وقد أرهقني التعب: "ليس هذا بالأمر المهم".

قالت: "يجب أن نخبر والدي".

تجمدت في مكاني وقلت: "لا".

قالت: "إذن، نخبر جيك، فيمكنه أن يفعل شيئًا حيال هذا يا أوجست".

شعرت بغصة في حلقي، وكنت على وشك التقيؤ، ثم ذكّرتها: "لقد أقسمتِ إنكِ لن تفعلي ذلك".

راقبتني إيميري في الظلام، وعقلها يوازن بين عواقب كسر الوعد الذي قطعته لي وما تود فعله، وكان ذلك باديًا على وجهها، لكن إخبار جيك لن يؤدي إلا إلى تفاقم الأمور بالنسبة لي ولأمي فيما يخص علاقتنا بجدي، ولم أكن لأفعل ذلك بها قبل أن أغادر أنا وإيميري.

قلت: "لا يهم، ففي غضون بضعة أشهر سنرحل".

لقد كان سرًّا لم نكشفه لأي شخص، وكنا قد جمعنا المال من خلال العمل في البستان والمقهى وكان يمكن أن يكفينا لنقضي الأشهر الاثني عشر التالية في السفر حتى نجد مكانًا نستقر فيه. كانت معنا حقيبة صغيرة وسيارة جيب قديمة، ونحو مائة مكان نفكر في الذهاب إليه، كانت هذه هي الخطة الوحيدة.

همستْ: "برأيك ما الذي سيفعله جدك عندما يدرك أنك قد رحلت؟".

أجبتها: "لن أكون هنا لأكتشف ذلك".

تفحصت عيناها وجهي مرة أخرى.

قلت لها: "لا تقولي أي شيء لوالديك أو لجيك".

أجابتني: "لا أستطيع أن أعدك بذلك".

قلت لها: "من فضلك".

ظلت صامتة فترة طويلة قبل أن تستدير نحو الباب، فأسرعت وأغلقته.

ثم سألتها: "ماذا تفعلين؟".

قالت: "سأحضر شيئًا لتنظيف ذلك الجرح"، ثم فتحت الباب واختفت في الرواق، وسمعتها وهي تفتح خزانة المطبخ.

أطلقت زفرة طويلة وأنا أتألم، ثم نظرت إلى انعكاس صورتي في المرآة مرة أخرى.

كنت أشبه والدي. رأيت ذلك في كل صورة تملأ ألبوم صور أمي، وكلما تقدمت في العمر، ردد الناس ذلك، وكان ذلك دائمًا ما يقال مصحوبًا بهمسة تحمل في طياتها الخزي مما فعله، لكنني لم أستطع حتى أن أشعر بالغضب لأنه تركنا، لم أستطع إلقاء اللوم عليه؛ لأنه أراد مغادرة هذه الجزيرة.

الفصل الثاني والعشرون

إيميري

ظللت مضطربة بسبب تلك الرسالة طوال الساعات الطويلة البطيئة التي قضيتها في المتجر.

لم يتبق سوى بضعة أيام فقط على انتهاء موسم قطف الثمار، وكانت العبَّارة الثانية تعمل بشكل مستمر، ولم يتوقف جرس الباب عن الرنين. ضغطت على مفاتيح التسجيل، وأعدت ملء علب الأعشاب بالمخزون الجديد، وأبقيت نفسي مشغولة بالعمل الذي أقوم به، بينما كنت أنظر بين الحين والآخر نحو تلك النافذة المكسورة.

كان ذلك الزرزور أكثر من مجرد نذير، لقد أيقظ شيئًا ما من عالم الأموات.

ما فعله أوجست.

لم أسمح لنفسي قط بالتفكير في أن أوجست كان يمكنه أن يؤذي ليلي، وحتى بعد رحيله، وتركه إياي لأدافع عن نفسي هنا في سيرشا. وعلى الرغم من أن المدينة بأكملها كانت مقتنعة بأنه قاتل، فإنني دافعت عنه.

لكن الرسالة التي كانت في جيبي تحكي قصة مختلفة.

مع مرور الوقت طوال فترة ما بعد الظهر، فكرت في ألف سيناريو، ربما وقع حادث وكان أوجست هناك، أو ربما وجد ليلي قبل أي شخص آخر، وكذب حتى لا يبدو الأمر كأنه متورط في الحادث لكن لا شيء من هذا يفسر لماذا كذب عليَّ.

بمجرد خروج آخر عميل من الباب، خلعت مريلتي وأغلقت المتجر دون أن أشغل نفسي بإصدار الإيصالات. لم يكن هناك سوى شخص واحد على هذه الجزيرة يمكنني الذهاب إليه بهذه الرسالة، وهذا الشخص هو نيكسي، حتى إن كانت هي أيضًا قد كذبت عليَّ.

لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة قضيت فيها أكثر من يوم دون التحدث إلى والدي. لقد تجنبت المقهى وهو لم يعرج على المتجر؛ ما يعني أنه كان يتصرف بحذر. كان يستجمع شجاعته للقدوم وجس النبض، لكنني كنت لا أزال غاضبة، ولم أكن أعرف كم من الوقت سيمر قبل أن ينطفئ هذا الحريق الذي أشعر به في صدري. مرت سنوات عديدة مليئة بالأكاذيب، وليالٍ عديدة تعذبت فيها لأنني لم أكن أعرف الحقيقة، وفي تلك اللحظة، كان الذهاب إلى نيكسي هو أقل الشرَّين.

كنت قد وصلت إلى قمة التل، ونظرت إلى أسفل نحو المنزل الذي يقع على المنحدر. كان الدخان يتصاعد من المدخنة، ومرة أخرى، حاولت أن أقنع نفسي بالتخلي عن هذا الأمر. وفي اللحظة التي قرأت فيها كلمات إيلويز عرفت ما يجب عليَّ فعله، فلم تكن تلك الرسائل مجرد مراسلات بين صديقتين، بل كانت دليلًا، وخيطًا لحل اللغز الذي لم يكن متاحًا لجيك قبل أربعة عشر عامًا، ولكن ما لم أستطع فهمه، هو سبب إخفاء والدي ذلك عن أخيه.

سمعت صوت الموسيقى على الطريق، وقد تناغم بشدة مع إيقاع الليل في الغابة. وكانت نيكسي تشغل تسجيلًا لجوني ميتشل، وفكرت أن هذا شيء يبشر بالخير، فسنستمتع بمشروبنا معًا.

سمعت صوتًا حادًّا وأنا أسير في طريقي إلى أسفل التل، وتوقفت عندما رأيت دوتش يراقبني من خلف غطاء شاحنته المفتوح في الممر المجاور. كانت يداه ملطختين بالشحم.

ألقى بمفتاح الربط الذي كان يحمله في صندوق الأدوات عند قدميه، ثم قال: "إم؟".

انزلقت يدي على الفور في جيبي، ووجدت الرسالة. لم يكن يعود إلى المنزل عادة قبل حلول الليل، خاصة عندما يكون البستان مزدحمًا إلى هذا الحد. قلت: "مرحبًا، ماذا تفعل؟".

نظر إلى المحرك، وبدا مرتبكًا من السؤال، ثم قال: "أصلح الشاحنة"، ما الذي تفعلينه؟ كنت أعرف نبرة الصوت تلك جيدًا.

التف حول المحرك، ثم توجه إلى السياج الممتد بين أرضه وأرض نيكسي. ترددت قبل أن أتبعه، وقابلته في منتصف الطريق.

قلت: "لقد مررت هنا فقط لإحضار شيء ما".

تفحصت عيناه وجهي وهو يفكر فيما إذا كان عليه أن يصدقني، فقد كان دوتش يعرف دائمًا إذا كنت أكذب، قال: "اتصلت بك في وقت سابق".

نظرت من فوق كتفي نحو شرفة نيكسي المظلمة، وقلت: "آسفة، فلقد كان المتجر مزدحمًا طوال اليوم".

تفحصني دوتش لحظة أخرى قبل أن يطلق زفرة طويلةً، ويفرك جبينه بكُم قميصه الملطخ، ويقول: "ما الذي تفعلينه هنا يا إيميري؟".

قلت: "ماذا؟".

هز رأسه، ثم قال: "لقد كنتِ تتهربين مني لأيام، وأعتقد أنني أستحق تفسيرًا".

كان محقًّا في ذلك خاصة أنه كان صبورًا معي بشكل لا يصدق، فكان يتحمل مزاجي الكئيب على أمل أن أوافق على ما يريده. سلكنا هذا الطريق مرات عديدة، والآن، وبعد كل شيء فعله من أجلي كنت أخفي شيئًا عنه.

اعترفت: "لا أعرف ما الذي يحدث".

قال: "لماذا لا تتحدثين معي؟".

اتكأت على عمود السياج وأنا أفكر في كل طريقة ممكنة لإنهاء هذه المحادثة، فلم يكن لديَّ وقت لذلك الآن.

قلت: "أنا أتحدث معك الآن".

قال: "يبدو الأمر كما في السابق، أنتِ تبدين..."، تفحصت نظراته وجهي، وتابع: "هل كنتِ نائمة؟".

كان يتحدث عن الكوابيس.

أجبته: "قليلًا، أنا فقط... أشعر بأن وجود أوجست هنا يجعلني أستعيد كل الذكريات"، تنهدت ثم قلت: "وبالإضافة إلى ذلك، لقد تشاجرت مع والدي..."

تغيرت تعبيرات وجهه على الفور من الأسلوب الدفاعي إلى القلق، ثم قال: "والدك؟ ماذا حدث؟".

قلت: "لا شيء مهم".

قال دوتش: "إذن لماذا أنتِ منزعجة للغاية بشأن ذلك؟".

قلت في ضيق: "أنا لست منزعجة، أعني، أنا فقط..."

أنهى دوتش الحديث قائلًا: "أنتِ لا تريدين التحدث معي بشأن ذلك، ليس أمرًا جديدًا على ما أعتقد"، وقبل أن أتمكن من الإجابة، دفع السياج وأدار ظهره لي، ثم صاح من بعيد: "سيكون زجاج النافذة هنا في غضون أيام قليلة".

وعندما وصل دوتش إلى الشاحنة رفع غطاء المحرك وتركه ينغلق بقوة، ثم بدأ يمشي في غضب نحو الكوخ. شاهدته وهو يرحل، وشعرت بالخجل لأنني كنت ممتنة لذهابه. كان يجب أن أوقفه، وأطلب منه العودة، وأخبره بأنه يمكننا التحدث أثناء العشاء، لكنني لم أفعل، ولم أكن لأفعل ذلك.

لم يكن دوتش يتوقع مني أن أفعل ذلك، فقد تحمل تصرفاتي السيئة سنوات عديدة.

شاهدت المصباح يضاء خلف النوافذ، وكنت قد سألت نفسي مرات عدة عما إذا كان منزله يمكن أن يكون منزلي أنا أيضًا، وحتى في اللحظات النادرة التي تمكنت فيها من تخيل الفكرة، كانت الإجابة دائمًا لا.

وضعت وجهي بين يدي وأنا أحاول تهدئة الألم في رأسي.

كان الأمر أعمق من مجرد الرغبة في أشياء مختلفة، فبعد رحيل أوجست وليلي، أصبحنا نحن فقط من بقينا هنا. فجأة أصبحنا اثنين فقط، وعندما أخذت كل شيء آخر، لم يتبق سوى حقيقة أننا وحيدان. أصبحنا شريرَين في نظر سيرشا لأنه من دون أوجست، لم يكن هناك أحد آخر يمكن إلقاء اللوم عليه. تصورت أنه من الأفضل أن نتحمل كراهيتهم لنا معًا. لم تكن قصة رومانسية بأية حال من الأحوال، لكنها كانت قصتنا، ولم يكن هناك مجال لتغييرها.

سرت عبر الأرصفة نصف الغارقة في الماء حتى شرفة نيكسي، ونظرت مرة أخرى إلى كوخ دوتش. لم يكن أي مما يحدث عادلًا لأي منا.

كانت نيكسي واقفة في المطبخ عندما دخلت من الباب، لكنها لم ترفع نظرها عن لوح التقطيع، كأنها كانت تتوقع قدومي.

همست وهي تميل بذقنها نحو النافذة المطلة على منزل دوتش أسفل التل: "لم يبدُ هذا جيدًا".

قلت لها: "هل ستموتين إذا اهتممتِ فقط بشئونك الخاصة؟".

ابتسمت بسخرية، وهي تمرر السكين فوق حزمة سميكة من البقدونس، وقالت: "ربما". وسرعان ما امتلأ الهواء برائحته الخضراء الطازجة، لكن سرعان ما اختفت بهجتها وهي تشير إلى شراب التوت الأسود الموضوع على المنضدة والمفضل لديها، وقالت: "هل أنتِ هنا من أجل الاعتذار؟ أعلم أنني مدينة لكِ باعتذار".

قلت لها: "نعم، أنتِ مدينة لي باعتذار"، ثم أخذت كأسًا من الرف وملأتها بسخاء.

وضعت نيكسي السكين، وأخذت رشفة من كأسها، ثم قالت: "أعلم أنه كان يجب عليَّ أن أخبرك منذ فترة طويلة".

ثم جلست على المقعد وأنا أواجهها، لم أقل لها لا بأس؛ لأن الأمر لم يكن كذلك، لكن نيكسي كانت تفهمني أكثر من أي شخص آخر حقًّا، وعلى الرغم من أنني لم أحب ذلك فإنه لم يكن هناك مجال لأن أخفي أي شيء عنها، وكانت هي الشخص الوحيد الذي أثق به حقًّا. تعلمت طريقة والديَّ، ووجدت طرقًا للتغلب على ضجيجهما وقلقهما، لكن يبدو أن نيكسي تعلمت طريقتي.

أخرجت الرسالة من جيبي، ووضعتها على طاولة الجزارة الموضوعة بيننا دون أن أنبس ببنت شفة.

قرأت نيكسي العنوان قبل أن تدرك الأمر، ثم عبست وقالت: "أوه".

قلت، وأنا أشعر بالألم في معدتي: "أريدك أن تقرئيه".

بدت كأنها على وشك الجدال معي حتى رفعت كأسي، وأخذت رشفات قلقة عدة.

فسألتني: "هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟".

أطلقت زفرة عميقة وقلت: "ليس تمامًا".

راقبتها وهي تلتقط الرسالة وترفع المظروف بعناية، فبمجرد قراءتها إياها، لن تكون هناك عودة من هذا الأمر.

مـرت عيناهـا علـى الرسـالة ببطء، لكـن تعبيـر وجهها لـم يتغير. لم تقل شـيئًا عندما نظرت إليّ، ثم قرأتها مرة أخرى من البداية.

قلـت لهـا: "الكلمات هي نفسـها فـي المرتين الثانيـة والثالثة، لقـد قرأتها مائة مرة".

وضعتها على المنضدة دون إعادة طيها.

سألت بصوت منخفض: "ماذا تعني في رأيكِ؟".

قالت: "أعتقـد..."، ثم توقفت قبل أن تكمل: "أعتقد أنه لا توجد طريقة يمكننا بها معرفة ما تعنيه؛ لأن إيلويز ليست هنا لتخبرنا، فهذه على أية حال كلماتها".

قلت: "ولكن يا نيكسي، إنها تقول..."

قالت بغضب: "أعرف ما تقوله، ولكنك تسألينني عما *تعنيه* هذه الكلمة".

قلت: "أعتقد أن هذه الكلمة لا تعني سوى شيء واحد".

ضغطت شفتيها على بعضهما وقالت: "أنتِ لا تصدقين هذا".

قلت: "ربما كان ينبغي لي أن أصدق ذلك منذ البداية".

كان هذا هو لب الموضوع؛ حيث كانت نيكسي محقة تلك الليلة عندما كنت معها فـي الحظيـرة. لـم يكن ذلك الحـب الذي جمعني بأوجسـت حـب طفولـة عاديًّا، بل كان شـيئًا آخـر تمامًا. وحتى لو أردت ذلك، لـم أكن أعرف ما إذا كان بإمكاني رؤية الأشياء بوضوح. لا أعتقد أنني كنت سأصدق ذلك حتى لو قاله هو بنفسه.

همست: "أعتقد أنها كانت تقول إنه فعلها لذا يجب أن أعطي الرسالة لجيك".

تجمـدت نيكسـي فـي مكانهـا، وقالت: "إيـم، اسـتمعي إلي، أنتِ مسـتاءة بشـأن والديك ودوتش، وبشأن عودة أوجست، عليكِ أن تفكري جيدًا قبل أن تتخذي قرارك بشأن أي شيء".

هويـت بيـدي علـى الرسـالة، وقلـت: "هـذا الأمـر ليـس متعلقًـا فقط بأوجسـت يـا نيكسـي، إنه يخص ليلي، ولا يمكننـي إبقاؤه سـرًّا، والسـبب الوحيـد لعدم توجيه الاتهام إليه هو عدم وجود أدلة كافية، أليس كذلك؟ حسنًا، هذا دليل، ماذا لو أمكن لهذا الخطاب أن يثبت أنه فعل ذلك؟".

قالت: "ربما حدث ذلك، وربما لم يحدث".

قلـت: "إذن... إذا كان أوجسـت هـو مـن قتل ليلـي، فيجب أن نعـرف، ويجب أن تعرف عائلتها، ويجب أن أعرف".

ظلت نيكسي هادئة فترة طويلة، ثم حولت نظراتها بعيدًا عني، نحو النار، وكان بإمكاني أن أرى أنها كانت تفكر. وأخيرًا، التقطت زجاجة الشراب، وأعادت ملء كأسها حتى الحافة تقريبًا، وعندما انتهت ملأت كأسي.

قالت: " افعلي ما يجب عليكِ فعله يا إيميري، ولكن إذا كنتِ ستعيدين فتح هذا الموضوع، فمن الأفضل أن تكوني متأكدّة تمامًا من أنكِ على حق" .

الفصل الثالث والعشرون

أوجست

كنت قد نسيت كيف كان يبدو مشهد المطر على ساحل أوريجون وشوارع بورتلاند، لكن سيرشا كانت مختلفة. كان المطر في هذا الوقت من العام غزيرًا وكثيفًا، ورائحته حلوة تلتصق بك أينما ذهبت.

بعد يومين من البحث عن كل قصاصة ورق في المنزل، فقدت الأمل أخيرًا في أن أستخرج صك ملكية الكوخ.

كان أفضل تخمين اقترحه إيريكهو مكتب السجلات، ورغم أن سيرشا لم تكن تملك الكثير من تلك المكاتب، فإنها كانت تملك واحدًا منها. كان مكتب السجلات ومكتب النقيب ومقر صحيفة سيرشا في المكان نفسه، وكان عبارة عن مبنى صغير من الطوب الأحمر، يقع في نهاية شارع أوك على مسافة مبنى واحد فقط من شارع ماين، والمبنى الآخر الوحيد الذي كان موجودًا في تلك البقعة المفروشة بالحصى، كان عبارة عن محل مثلجات قديم كان يظل مغلقًا في الأشهر الباردة، ولكنه الآن، يبدو كأنه ظل مغلقًا منذ بضع سنوات على الأقل.

لم تكن شاحنة جيك في الموقف؛ لذلك شعرت بأن الأمر سيصبح أسهل، فكلما قل عدد المرات التي رأيته فيها، كان ذلك أفضل.

علق مزلاج الباب، فتذكرت كيف كان ينفتح، فاتكأت بثقلي عليه، ورفعت المقبض حتى أتمكن من فتحه. كنت آتي إلى هنا كثيرًا عندما كنت طفلًا، عندما

كان جيك بمثابة أب أو عم لي، لكن الأوقات التي تلت مصرع ليلي هي التي أتذكرها بشكل أكبر الآن فيما يخص ذلك المكان.

رفعت الباب من مفصلاته لإغلاقه مرة أخرى، ونظرت إلى الممر المؤدي إلى مكتبه، حيث كان اثنان من بين المصابيح الثلاثة محترقيْن، ولم يتبق سوى المصباح الذي كان معلقًا فوق بابه المغلق.

كانت رائحة الحبر ودخان السجائر تملأ الهواء الساكن، كأنها تهددني بنكء جراح تلك الأيام التي ظننت أنني كنت قد دفنت ذكرياتها أخيرًا على مدار الأسابيع التي أعقبت الحريق، ظل جيك يستدعيني إلى هنا مرة بعد أخرى لطرح المزيد من الأسئلة، باحثًا عن أدنى تناقض في إفادتي، أو ربما على أمل أن أرتكب خطأً في النهاية، لكنني لم أفعل. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، حتى أدركت أنه ليس لديه ما يعتمد عليه في اتهامه لي، وكل ما كان عليَّ فعله هو التشبث بأقوالي.

نظرت صوفي من فوق كومة الأوراق الموضوعة على مكتبها، وقالت: "هل يمكنني مساعدتك؟". كانت المرأة العجوز تعمل هنا منذ زمن طويل، ولا بد أنها كانت تقترب من المائة عام الآن.

أجبت وأنا أحافظ على وجود مسافة بيني وبين المكتب: "أحتاج إلى الوصول إلى سجلات المدينة للحصول على صك ملكية". لم يعجبني شعور العودة والعيش تحت ذلك السقف، بعد أن تعودت أن أبتعد عن سكان سيرشا.

في اللحظة التي تعرفتْ فيها عليَّ، ضاقت عيناها الفضيتان، ولم تتحركا.

قلت: "أحتاج فقط إلى نسخة من صك ملكية الكوخ، وسأنصرف فورًا يا صوفي، فأنا لم أتمكن من العثور عليها في المنزل".

نهضت من كرسيها ببطء، ونظرت إلى الرواق، كأنها كانت تأمل في أن يظهر جيك، فقد بدت خائفة مني، وقالت: "لا أريد أية مشكلة".

رفعت يدي في الهواء وقلت لها: "لن أسبب لكِ أية مشكلة".

قالت وهي تراقبني: "حسنًا"، ثم التقطت حلقة المفاتيح من مكتبها، وتحركت نحو الجدار الذي تستند إليه خزائن الملفات التي كان نصفها صدئًا من الهواء الرطب، وكانت عليها ملصقات مكتوبة بخط اليد المتآكل.

سألتني: "ملف فور بوبلار درايف، أليس كذلك؟".

أجبتها: "بلى".

بحثت عن الدرج المطلوب وفتحته، بينما كان المفتاح لا يزال معلقًا بالقفل، مررت يديها الصغيرتين فوق المجلدات الورقية بالداخل، لكنها توقفت كل بضع ثوانٍ لتلقي نظرة عليَّ، كان من المستحيل أن أعرف ما نوع القصص التي اختلقوها جميعًا على مر السنين. لقد مر وقت كافٍ ليسمح لهم برسم صورة في منتهى السوء، وفي هذه الحالة، كنت أنا قاتل ليلي.

خلفها، كانت آلة الطباعة الدوارة القديمة لا تزال تبدو كأنها قيد الاستخدام لطباعة مجلة الجزيرة. تولى أبوت ويتيش أعمال الصحيفة الأسبوعية الصغيرة من عمه، عندما كان في العشرين من عمره تقريبًا، وكان يديرها مع صوفي فقط كموظفة استقبال وصبي أو اثنين من البلدة لتسليم الصحف.

عمل دوتش هنا عامًا كاملًا قبل أن أحصل له على الوظيفة الخاصة به في البستان، وما زلت أتذكر رنين ونقر جميع الأسطوانات النحاسية الدوارة، وانزلاق الورق على الأسطوانات الكبيرة. كان أبوت يقف فوق الآلة الضخمة وسيجارة قرنفل مشتعلة في فمه وكمًّا قميصه الأبيض ملفوفان لأعلى حتى مرفقيه. كان من العجيب عدم احتراق كله المكان عامًا كاملًا.

همست صوفي، ويدها معلقة في الهواء قبل أن تسحب مجلدًا من الدرج: "هذا غريب".

سألتها: "ما الأمر؟".

وضعت المجلد فوق خزانة الملفات، وبحثت بين علامات التبويب مرة أخرى، ثم قالت: "إنه ليس هنا".

أملت فمها وهي تغلق الدرج، وعندما أكملت غلقه، أخذت المجلد من الأعلى، وعادت ووضعته أمامي على المكتب.

كان الملصق قد طُبِعَ على الملف بواسطة آلة كاتبة، وكتب عليه 4 بولار درايف - ملكية عائلة سولت، ولكن عندما رفعت الجزء العلوي من المجلد كان فارغًا.

قلت وأنا أفكر بصوت مرتفع: "ربما لم يُحفظ عندما تغير إلى اسم والدتي".

وضعت صوفي المجلد على الأرض، وأشارت إلى الملصق، ثم قالت بصوت مرتفع: "لا، لقد حُفِظَ، ولقد فعلت ذلك بنفسي، وفعلت الأمر نفسه مع البستان أيضًا، عندما تُرِك لإدارة المدينة بعد وفاة هنري، لكنني لم أره أيضًا".

سألتها: "ألا يمكنكِ إرساله لي عبر البريد الإلكتروني أو أي شيء من هذا القبيل؟".

حدقت صوفي إليَّ، وعقدت حاجبيها، بالطبع لم تستطع فعل ذلك.

تابعت: "حسنًا، أين يمكنه أن يكون إذن؟".

قالت صوفي: "ليست لديَّ أية فكرة، ولكن سيتعين عليك طلب نسخة من مكتب المقاطعة في البر الرئيسي".

تنهدت، وتركت المجلد المغلق يسقط، لم يكن لدي كل هذا الوقت. كانت مكاتب المقاطعة في سياتل، وكان الأمر سيستغرق يومًا كاملًا للقيام برحلة عبر العبَّارة، ومن ثم الوصول إلى مكتب السجلات، ثم العودة إلى الجزيرة، لكن لم يكن من الممكن بيع المنزل، إذا لم يكن لديَّ سند الملكية.

تمتمت: "اللعنة!".

انفتح الباب وتجمدت المرأة التي دخلت في مكانها، واتسعت عيناها عندما رأتني. كان شعرها الأحمر النحاسي دليلًا واضحًا على أنها كانت كلارا إحدى بنات عائلة هيرش. كانت أصغر مني ببضع سنوات في المدرسة، ومن النظرة التي ارتسمت على وجهها، بات من الواضح أنها كانت تعرف بالضبط من أنا.

قلت لها: "شكرًا"، ودفعت المجلد إلى الخلف عبر المكتب وأغلقت سترتي، ومررت بجانب كلارا. كان بإمكاني سماع أصواتهما قبل أن يغلق الباب خلفي.

مرت أربعة أيام منذ هبوطي من فوق متن العبَّارة لأول مرة، ولم أكن أقترب بأي شكل من إنجاز تلك المهمة، لكنني لن أترك سيرشا حتى أكشف كل تلك الخيوط المتشابكة، وحتى أتأكد من أنني لن أعود هنا مرة أخرى أبدًا.

لكن كان عليَّ أن أعرف أن الجزيرة اللعينة لن تجعل الأمر يتم بهذه السهولة.

الفصل الرابع والعشرون

جيكوب

نظرت نحو التقويم الموضوع على الحائط، قبل أن أظلل التاريخ المكتوب في أعلى التقرير. كان جيمس ماكاليستر ينتظر عند باب مكتبي، عندما نزلت من شاحنتي للإبلاغ عن سرقة قارب الصيد الخاص به. كان من المرجح أن قاربه الصدئ الذي كان على وشك الغرق، والذي لم يكن صالحًا للإبحار منذ سنوات، قد غرق في الخليج.

كانت الكلمات الموجودة على النموذج المنسوخ غير مقروءة تقريبًا في أماكن عدة، وهو ما ذكَّرني بضرورة تغيير الحبر، لكنني كنت الشخص الوحيد الذي سيرى التقرير على أية حال.

وقَّعت باسمي في الأسفل، وتناولت شرابي. كان الكوب لا يزال يحمل رائحة تشبه رائحة القهوة، فقد علت حافته حلقة بنية من البن منذ يوم الأمس تلطِّخ الشفاه، حيث إن الحوض في المطبخ الصغير الذي شاركته مع مكتب *المجلة* كان مسدودًا منذ أسابيع.

سمعت احتكاك الباب في نهاية الرواق، وتبعه بعد لحظة صوت صوفي الحاد، ثم تبعه صوت آخر.

حالما سمعت وقْع الأقدام، فتحت درج مكتبي، وأسقطت زجاجة الشراب بداخله، فلم يكن من المفترض أن أتناول الشراب أثناء العمل، لكن كلمة "أثناء العمل" في سايروس كانت عادة أشبه بعمل جليسة الأطفال.

ثم وقفت، وألقيت التقرير فوق التقارير الأخرى التي كانت تقبع في سلة بلاستيكية خلف المكتب، وفي تلك اللحظة دخلت إيميري من الباب.

قلت مبتسمًا: "إيم!".

لم أستطع إخفاء الاندهاش الذي بدا في صوتي. مر وقت طويل على تلك الأيام التي اعتادت أن تظهر فيها دون سابق إنذار في مكتبي ومعها شطيرة من المقهى أو فطيرة من منزل نيكسي.

لكنها لم تبتسم لي، فسألتها: "هل أنتِ بخير؟".

كان معظم شعرها مشعثًا ومتموجًا، وقد ظهرت أطرافه من أسفل القبعة المحبوكة التي كانت ترتديها، وكانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تتجولان في الغرفة. كانت تبدو صغيرة وهي تقف في هذا المكتب.

أدخلت يديها في كُمَّيْ سترة خضراء سميكة تعرفت عليها على الفور، في الواقع. كنت متأكدًا تمامًا من أنها كانت سترة هانا في وقت ما، قالت: "نعم، أنا بخير".

قلت: "لم أرك في المقهى اليومين الماضيين".

هزت كتفيها، والتقطت ثقل الورق الموضوع على المكتب، وقلبته في راحة يدها، كان حجرًا مسطحًا مستديرًا من أحجار الشاطئ، وكان مغطى بطلاء أزرق باهت، وقد زينّ برسم شجرة عليه، كانت قد صنعته لي عندما كنا في روضة الأطفال.

قالت: "كنت مشغولة بأعمال نهاية الموسم، فأنت تعرف كيف يكون العمل في هذا الوقت من العام".

اتكأت إلى الخلف على الكرسي، وأنا أراقبها وقلت: "نعم، أعلم". كان هناك شيء غير طبيعي فيها، فسألتها: "ما الأمر؟".

قالت: "جئت لأرى كيف حالك" – ثم توقفت – ثم أكملت: "خاصة، مؤخرًا فيما يتعلق بموضوع إيلويز".

شعرت بعبوس وجهي على أحد جانبي فمي. كانت المدينة بأكملها تعرف ما كنت أشعر به تجاه إيلويز سولت، حتى قبل وقت طويل من زواجها من كالفن، وربما كانت إيميري الشخص الوحيد في هذه الجزيرة الذي سيفهم أنه حتى لو مر وقت

طويل، فإن الألم الذي شعرت به كان عميقًا، خاصة عندما أخرج أوجست الجرة من حقيبته.

قلت لها: "أنا بخير".

قلبت إيميري الحجر في راحة يدها مرة أخرى قبل أن تعيده إلى مكانه وهي تحدق إليه.

سألتها: "هل أنتِ متأكدة من أن هذا هو السبب الوحيد لمجيئك؟".

سحبت القبعة من رأسها، ومررت يدها خلال خصلات شعرها، ثم قالت: "أردت التحدث إليك"، ثم دارت عيناها في الغرفة، وقالت دون أن تنظر إليَّ: "أعني بسرية".

قلت: "حسنًا".

أكملت: "إنه سؤال في الواقع".

انتظرت وقلت: "حسنًا، أنا أسمعكِ".

زمَّت شفتيها؛ ما جعلني أتذكرها وهي فتاة صغيرة تركض لتختبئ في مؤخرة شاحنتي، قالت إيميري: "في ذلك الوقت... بعد ليلي" - ترددت - ثم تابعت: "كنت متأكدًا جدًّا من أن أوجست هو من قتلها، أريد أن أعرف السبب".

كان هذا هو آخر شيء توقعت أنها تريد التحدث عنه، فوضعت مرفقي على المكتب، وقلت لها: "ما مناسبة هذا السؤال الآن؟".

قالت إيميري: "كنت أفكر في أننا لم نتحدث عن الأمر حقًّا، أعني والديَّ وأنت ونيكسي..."

قال جيكوب: "حسنًا، كنتِ مجرد طفلة".

قالت: "لكنني لم أعد كذلك، وأريد أن أعرف".

سألتها: "هل عودته هي السبب؟" لم أحب أن أقول اسمه، إلا إذا اضطُررت لذلك حقًّا.

اعترفت: "ربما، لكنني أردت أن أسألك عن ذلك منذ فترة طويلة".

تنفست بعمق وأنا أفكر، فلم يكن من المفترض أن أشاركها تفاصيل التحقيق، لكنها لن تكون المرة الأولى التي لا أتبع فيها البروتوكول، خاصة عندما يتعلق الأمر بإيميري.

سألتها: "هل أنتِ متأكدة؟".

بدا أنها كانت تفكر في الأمر حقًّا، وتأملت وجهي قبل أن تهز رأسها.

تابعت: "حسنًا، سأبدأ بالحقائق، على ما أظن، فأنا أعرف التفاصيل من البداية إلى النهاية، فلقد راجعتها ألف مرة. كان أوجست الشخص الوحيد الذي لم يُعثر عليه في تلك الليلة عندما اندلع الحريق، ولم يكن أحد يعرف مكانه. وكانت إيلويز في حالة من الهياج، فقد اعتقدت أنه ربما فُقِد في الحريق، ويتذكر العديد من الأشخاص أنها كانت تبحث عنه وتقول إنها لم تره قبل الحفل. كان من المفترض أن يكون هناك مبكرًا لمساعدتها على ترتيب الأشياء، على ما أظن، لكنه لم يظهر مطلقًا".

قالت إيميري: "لكنه كان في المنارة مع دوتش".

اعترفت: "كان هناك، وكان ذلك في وقت ما قبل الحفل، وقد زعما أنهما كانا يدخنان السجائر في المنارة، وقد وجدنا دليلًا على ذلك، لكن التوقيت لم يكن دقيقًا، فقد وصل دوتش إلى البستان قبل الحريق مباشرة، ولكن أين كان أوجست؟".

لم تكن لدى إيميري إجابة عن ذلك السؤال.

قلت: "كانت المسألة تتعلق بمكان وجود أوجست، وكان ذلك غريبًا، ولم تكن هناك أية أدلة في مسرح الجريمة، كل ما كان بحوزة ليلي هو علبة صغيرة من أعواد الثقاب، لكن عندما حصلنا على تقرير تشريح الجثة، لم تكن الأمور منطقية بالمرة"، ثم أدرت رأسي نحوها، محاولًا أن أعرف ما كانت تفكر فيه حقًّا، ثم سألتها: "هل أنتِ متأكدة من أنكِ تريدين سماع كل هذا؟".

قالت مرة أخرى في تصميم: "أنا متأكدة".

تنهدت ثم قلت: "حسنًا، لم يكن أي من ذلك منطقيًا، فلقد غرقت ليلي، كانت رئتاها مملوءتين بمياه البحيرة، لكن لم يكن أي منها موجودًا على شعرها أو بشرتها، فعندما اكتشفتها نيكسي في وسط الغابة، كان جسدها جافًّا تمامًا، حتى شعرها، ومساحيق التجميل كانت لا تزال على وجهها. وعند فحص الفستان الذي كانت ترتديه، لم يجدوا أي أثر لمياه البحر عليه باستثناء القليل منه في مقدمته. وبخلاف ذلك، لم يكن هناك سوى بضع قطرات من الشمع وبعض الأوساخ وآثار الأقدام التي كانت موجودة بالقرب من جسدها كانت تخصها. والشيء الغريب الآخر هو وجود أعشاب بحرية في معدتها".

قالت في اندهاش: "أعشاب بحرية؟".

أومأت برأسي، كانت غرابة هذا التقرير هي التي لفتت انتباه وسائل الإعلام، فلم يكن هناك تفسير معقول لكيفية وصولها إلى هناك بالإضافة إلى الكثير من التفاصيل غير العادية.

تابعت: "وعندما اكتشفنا أن ليلي كانت على علاقة..."

سألتني: "علاقة؟ ما الذي تتحدث عنه؟".

توقفت، فقد تذكرت أنه عندما سألنا إيميري عن ذلك أصرت على أنه ليس صحيحًا، ثم قلت: "خلص التقرير إلى أن ليلي كانت حبلى يا إيميري".

بهتت إيميري، ثم قالت وقد بدت مصدومة: "ماذا؟ لا بد أن يكون هناك خطأ ما"،

قلت لها: "لم يكن هناك أي خطأ".

قالت إيميري: "كانت أفضل صديقاتي يا جيك، كنت سأعرف إذا كانت متزوجة من شخص ما، وكنا ستتحدث عن ذلك".

قلت لها: "إذن فقد كذبت عليكِ، فقد وجدنا وسيلة لمنع الحمل في غرفة نومها وأكد والداها أنهما اشتبها أيضًا في أنها تزوجت شخصًا ما قبل وفاتها".

شحب وجه إيميري.

خفضت صوتي، وقلت لها: "أنا لا أرى أهمية لهذا الحديث الآن".

استطعت أن أرى اللحظة التي بدأت فيها في تجميع الخيوط بعضها ببعض، صفت عيناها، وأصبحت أكثر تركيزًا ثم سألتني: "هل تعتقد أنها كانت متزوجة من أوجست؟".

ترددت، وقاومت رغبتي في أن أمد يدي نحو الكوب مرة أخرى، وقلت لها: "نعم".

سألتني في نبرة دفاعية: "كيف عرفت أنه لم يكن شخصًا آخر؟ شخصًا من خارج الجزيرة؟" لم نخض تلك المعركة منذ فترة طويلة، وكان هذا بالضبط ما أردت تجنُّبه.

تابعت: "بصراحة، هذا ما اعتقدناه في البداية، ففي وقت سابق من ذلك اليوم، اتصلت ألبرتين وقالت إنها تعتقد أن شخصًا ما كان في المنزل، اقتحام، ربما، ولقد صعدت وفحصت كل شيء بنفسي، لكنني لم أجد شيئًا غريبًا؛ لذا افترضنا أن ذلك كان بسبب بعض الرياح، لكن عندما وجدنا ليلي، تساءلت عما إذا كنا قد

أغفلنا شيئًا ما، لكن لم يُسرق أي شيء، ولا شيء هناك كان موضوعًا في غير مكانه المألوف، ولم توجد تقارير تفيد بوجود أشياء أخرى من هذا النوع".

لم يبد على إيميري أنها اقتنعت بكلامي.

أكملت: "بدأنا فحص تذاكر العبَّارة على مدار الأشهر التي سبقت وفاتها، لكننا لم نجد أي أثر لركاب متكررين، وإذا كان هناك شخص ما قد قدِم لزيارتها، فلم يكن هناك أي أثر ورقي لذلك".

قالت إيميري: "ربما كانت ذاهبة إلى المدينة حينها، واستقلت العبَّارة لرؤية رجل أو شيئًا من هذا القبيل".

قلت لها: "لا يوجد أثر لذلك في التذاكر أيضًا، فكما تعلمين يُحتفظ بالبيانات لسنوات".

كانت تتنفس بصعوبة الآن، ويداها ممسكتان بذراعيّ الكرسي. اتفقنا جميعًا على عدم إخبارها بأي شيء من هذا، لكن ها نا رحلت الآن، ولم أر أي ضرر في إخبارها بالحقيقة، ما دام ذلك سيساعدها على رؤية كل شيء بوضوح، فقد كانت دائمًا تتعامى عن أي شيء يتعلق بأوجست، وأنا أفهم السبب، وكنت مثلها تمامًا قبل كل تلك الأحداث.

تابعت: "لم تكن هناك علامات تدل على حدوث مقاومة في مكان الحادث أو على الجثة؛ لأن من كان هناك، كان شخصًا تعرفه؛ لذا لم تكن خائفة، ولم تقاتل".

قالت إيميري: "الجميع يعرف بعضهم بعضًا في هذه الجزيرة".

لم أدرك إلا في تلك اللحظة أنها كانت تحاول إقناع نفسها، وليس إقناعي أنا، سألتها: "إذن من قتلها؟ أعطيني اسم شخص واحد تعتقدين أنه ربما يكون قد قتلها". انتظرت قبل أن أقول: "أوجست هو الشخص الوحيد الذي لم يكن في البستان في الوقت الذي ماتت فيه ليلي".

ضغطت بيدها على فمها، ثم قالت: "أنت مخطئ، يجب أن تكون مخطئًا".

قلت لإيميري: "أعتقد أن ليلي وأوجست كانت تربطهما علاقة ما، وهذا يحدث، لكن ربما كانت ليلي ستعترف، أو ربما كان من الصعب جدًّا إخفاء الأمر، أو ربما لم تسمح له بإنهاء الأمر، وربما لأي سبب آخر، ولكن السبب الوحيد لعدم توجيه

تهمة القتل له، هو عدم وجود دليل مادي يربطه بمسرح الجريمة حيث وجدنا ليلي، وكانت لديه حجة غياب، حتى لو كانت واهية".

أغمضت إيميري عينيها، وأخذت نفَسًا عميقًا.

سألتها: "إذا لم يفعل ذلك، فلماذا هرب هو وإيلويز؟".

قالت إيميري: "لم يهربا، لقد اضطُرا للرحيل، فلم يمنحه أحد فرصة يا جيك، واعتقد الجميع أنه قتل ليلي، كيف كان يمكنهما البقاء؟".

خفضتُ صوتي وقلت: "وهناك أيضًا مسألة التاريخ العائلي".

سألتني: "أي تاريخ عائلي؟".

أجبتها: "هنري وكالفن".

سألتني: "ما علاقة هذا بوالد أوجست وجده؟".

انتظرت، محاولًا التفكير في كيفية قول ذلك قبل أن أجيبها: "كانا رجلين عنيفين يا إيميري، كلاهما".

تجمدت في مكانها، والتقت عيناها بعينيَّ، بالطبع كانت تعلم، كنا نعلم جميعًا.

تابعتُ: "أظن أن تلك الأشياء تجري في الدم، لم يكن سرًّا أن هنري كان عنيفًا معه، لكنكِ كنتِ صغيرة جدًّا لتتذكري كالفن".

كان هذا خيطًا لم أرغب في سحبه، فخلفه كان يقبع قطار الظلام.

تهاوت إيميري على الكرسي، وملأ صمت ثقيل المكتب الصغير، قالت أخيرًا: "أنت لم تعرف أوجست".

لكنني كنت أعرفه، فلقد أحببت ذلك الصبي كما لو كان ابني.

عبست وأنا أشاهدها، فلم يكن هذا الأمر هو مجرد طي لصفحة الماضي، كان هناك شيء آخر، سألتها: "ما الذي يحدث يا إيميري؟".

هزت رأسها وقالت: "لا شيء، أنا فقط ... أعتقد أن عودته تثير شجوني".

لم تكن إيميري تتقن الكذب مطلقًا، لكنها أصبحت أكثر إتقانًا. ففي المرة الأولى التي رأيتها فيها هي وصديقاتها على الشاطئ، يشربن مشروبات مسروقة من المقهى، لم يستغرق الأمر منها سوى ثلاث دقائق حتى انفجرت في البكاء، لكن الآن، نظرت إلى عيني، بلا تردد.

كانت تخفي شيئًا ما، لكنها لن تشارك هذا السر معي، ليس الآن.

قلت لها: "أنتِ تعلمين أنكِ تستطيعين أن تخبريني بأي شيء، أليس كذلك؟".

قالت: "بلى، أعلم يا عمي".

أومأت برأسي مستسلمًا، لم يكن الضغط عليها ليجدي نفعًا، تابعت: "سيغادر في غضون يوم أو يومين، يجب أن تتماسكي يا إيم".

حاولت أن تبتسم، لكن هذا لم يكن مطمئنًا، بل على العكس، كان يقلقني، ثم وقفت إيميري، وهي تعدل ثِقَل الورق على مكتبي قبل أن تغادر، وقالت: "شكرًا".

حدقت إلى لوحة المفاتيح الصفراء أمامي، بينما كانت صوفي تناديني لتقول لي وداعًا، وبمجرد أن سمعت صوت احتكاك الباب، رفعت سماعة الهاتف، كنت أسمع النغمات الصغيرة المزعجة للأرقام في السماعة، بينما كنت أطلب الرقم، وعندما بدأ الهاتف يرن، ضغطت السماعة على أذني.

كان الصوت على الطرف الآخر من الخط متقطعًا، وسمعت كلمة: "مرحبًا؟".

فركت جبيني وقلت: "مرحبًا، أنا جيك، كانت هنا للتو".

كانت هناك فترة من الصمت قبل أن أسمع: "وماذا حدث؟".

قلت: "سألت عن ليلي، وعن أشياء تتعلق بالتحقيق".

سمعت زفرة طويلة، تبعها صمت ثم قال المتكلم عبر الهاتف: "حسنًا، سأتعامل مع الأمر".

الفصل الخامس والعشرون

قبل الحريق بثلاث سنوات

أوجست

غمر ضوء المصباح اليدوي شرفة المنارة، فدمدمت، وأدرت وجهي بعيدًا عنه.

ارتفع صوت ضحكات ليلي فوق صوت الأمواج بالأسفل وهي تقول: "آسفة!".

نظرت إلى الشاطئ، لكنني لم أستطع رؤيتها أو رؤية إيميري على الصخور، إلا عندما كان ضوء المصباح اليدوي ينعكس على وجهيهما من حين لآخر، فقد كانت ليلة غائمة، غاب فيها القمر، وكنا نتناول عصير التفاح منذ غروب الشمس. كنا قد قررنا أن نقفز فوق السياج الخاص بمنزل نيكسي لنسرق العربة المحملة باليقطين، وكان نقلها إلى الشاطئ أمرًا صعبًا، لكن جرها إلى أعلى درجات المنارة كان أصعب كثيرًا.

صاح دوتش بجانبي، وهو يلتقط يقطينة أخرى: "هل أنتم مستعدون؟".

ردت إيميري: "نعم، مستعدون!".

أرجح دوتش اليقطينة بين ذراعيه، وألقى بها من فوق الدرابزين، وراقبناها وهي تندفع نحو الظلام، وتبعها شعاع المصباح طوال رحلتها حتى اصطدمت بالصخور وتحطمت.

ابتهجت الفتاتان، وصاحت إيميري: "تستحق ثماني!".

تبعتها ليلي: "بل تسعًا!، فأنا متأكدة تمامًا من وجود بقايا يقطين على شعري!".

وضع دوتش مرفقيه على الدرابزين، وأرجع شعره خلف أذنيه، وكانت تلك النظرة الناعمة، لا تزال بادية على وجهه، ولكن حماسي كان قد تلاشى؛ ما جعلني أشعر بالتعب.

مددت يدي للخلف، وضغطت بإبهامي على العضلة التي كانت تؤلمني في زاوية كتفي، وقلت: "كم بقي منها؟ فيجب أن أعود إلى المنزل".

قال وهو ينظر نحوي في انزعاج: "لم يتبق سوى واحدة فقط يا سندريلا".

قلت: "يجب أن أكون في البستان بحلول الساعة الخامسة"، وقد كانت الساعة تقترب من الثانية صباحًا، وكنت أخشى بالفعل الصداع الذي سأصاب به في اليوم التالي.

تمتم دوتش: "أوجست سولت المسكين، مع كل هذا العمل العائلي الذي ورثه عن أجداده ووظيفته التي لن يفقدها أبدًا، كان لا يزال يبتسم، لكنني كنت أعرفه جيدًا، وميزت كل تلك التلميحات والمرارة في كلماته".

قلت له: "إنها ليست صفقة جيدة كما تعتقد"، كنت أحاول أن أصوغ الأمر بطريقة تجعله أقل سوءًا.

قال دوتش: "أوه نعم، ما الذي يمكنه أن يكون رائعًا في كل هذا؟، وأنا بالتأكيد لا أريد أن أكون مكانك ولديَّ المشكلة نفسها".

لا أستطيع أن ألومه على شعوره بالاستياء، فقد كان والده أكثر مخلوق مثير للشفقة على الجزيرة، فلم يحتفظ بوظيفة واحدة أكثر من ستة أشهر، وكان يتنقل من قارب صيد إلى آخر، وكان الحظ يتخلى عنه في كل مرة، وفي النهاية، كان الأمر يتكرر كل مرة.

قلت وأنا أنحني لأسحب آخر يقطينة: "آسف يا رجل، لم أقصد ذلك".

قال دوتش: "أنت حقًّا لا تقصد ذلك أبدًا".

أعدتها إلى مكانها، ونظرت إليه ثم سألته: "ماذا؟".

قال: "لا شيء".

آثرت الصمت؛ حتى تهدأ الأمور بيننا، فقد بدا دوتش غاضبًا، وكانت ليالي مثل تلك هي ما تجعله يقول أشياء لم يكن ليقولها عادة، ولكن كل شيء كان يمر دائمًا.

والحقيقة أن مستقبلي كان مخططًا له وغير قابل للتغيير، بينما لم يكن مستقبل دوتش محددًا مطلقًا، ولن يكون كذلك حتى يخرج من تحت عباءة والده، ويشق طريقه في العالم بعيدًا عن أخطائه، كان سيسعده تبادل مكانه معي، والعكس كان صحيحًا أيضًا.

سألته: "هل تريد مني أن أسأل جدي عما إذا كان لديه أية وظائف شاغرة في المزرعة في الربيع؟".

لمعت عينا دوتش، ودفع السور بيده، ثم استدار نحوي وسألني: "هل يمكنك أن تفعل ذلك حقًّا؟".

خطر ببالي حينها أنه كان ينبغي لي أن أعرض عليه ذلك منذ فترة طويلة، لكنه لم يطلب ذلك قط، فقلت: "نعم، إنه ليس بالأمر الكبير".

سألني: "هل تعتقد أنه سيقْبلني؟".

هززت كتفي وقلت: "ربما، إذا طلبت منه ذلك".

ابتسم دوتش وقال: "نعم، يا رجل، سيكون ذلك رائعًا".

تابعت: "ربما نتمكن من إقناعه بإعادة والدك أيضًا".

قال في سعادة: "حقًّا؟"، ولقد أحزنتني رؤية مدى حماسه.

ابتسمت وقلت: "ربما يمكننا نحن الاثنان مراقبته حتى لا يتسبب في أن يُطرد مرة أخرى".

ضحك دوتش وقال: "يمكننا المحاولة، فكما تعلم لديه موهبة في إفساد كل شيء".

قلت مؤكدا: "نعم، إنه كذلك".

توقف دوتش ثم سألني: "كيف حال جدك؟".

مرة أخرى، غمر ضوء المصباح اليدوي واجهة الشرفة الخاصة بالمنارة وأجبته: "كما هو".

بدأت مشكلته الصحية بالسعال، فحاولت أمي إقناعه بالذهاب إلى الطبيب في المدينة، عندما اتضح أن علاجات ليودا لم تكن مفيدة، لكنه رفض، ولم أكن أعرف لماذا تضيع أي وقت في القلق بشأن ذلك الوغد القاسي، وببطء، كان جلده يصبح شاحبًا وعلى مدى الأسابيع القليلة الماضية، رأيته يمسح الدم من شفتيه بمنديله.

قلت وأنا أشعر بالرياح وهي تعوي بجانبي: "إذا كان سيموت فأتمنى أن يحدث ذلك قريبًا".

وعندما لم يقل دوتش شيئًا أغمضت عيني، ثم استدرت لألقي نظرة عليه.

نظر نحوي في توتر، وقال: "يجب ألا تقول هذا يا رجل".

قلت له: "بالفعل، أعتقد أنك على حق"، لكنها كانت الحقيقة، فأفضل شيء يمكن أن يحدث لي هو موت هذا الرجل العجوز.

صاحت إيميري: "ماذا تفعلان هناك؟".

أرخى دوتش رأسه للخلف، وصاح بصوت مرتفع: "ماذا تريدين؟".

أجابت: "أسرعا! فنحن نشعر بالبرد!".

انحنى دوتش، والتقط اليقطينة وأمسكها بين ذراعيه، وكنا قد احتفظنا باليقطينة الكبرى للنهاية، ثم قال: "حسنًا! سألقي تلك القنبلة"!

استدار في دائرة، وألقى بها من فوق الدرابزين، فطارت فوق رءوسنا قبل أن تبدأ السقوط، وانحنينا جانبًا، وشاهدناها وهي تختفي.

الفصل السادس والعشرون

إيميري

سحبت سيقان نبات القراص على طول السياج، وانتزعته من الأرض اللينة.

كان الجزء الشمالي الشرقي من الأرض زاخرًا بالأعشاب البرية في هذا الوقت من العام، وكنا دائمًا ما نحصدها في الأيام التي تسبق اكتمال القمر من شهر أكتوبر، وكانت دائمًا ما تذوي وتذبل في الشتاء، ثم تعود لتزدهر في الصيف، لكن كان هناك الكثير من نبات القراص، الذي كان يمكنه أن يكفي عامًا، والذي عادة ما كنت أجففه وأستخدمه في متجر الشاي، وما تبقى منه كنت أعطي ليودا إياه، لتستخدمه ضمن أدويتها في الصيدلية.

كانت تلك المهمة تلهيني قليلًا، وكان العرق يسيل على ظهري، بينما كنت أنتزع سيقان النبات من جذورها بقسوة كبيرة وأكثر مما يجب. شعرت بأن معصميَّ يحترقان بعد أن خدشت الأشواك بشرتي، رغم أنني كنت أرتدي قفازين وقميصًا ذا أكمام طويلة، وتجاهلت تلك الوخزات، وحاولت أن ألتقط مجموعة أخرى من الأوراق وأسحبها بشدة. وعندما لم تتحرك تراجعت إلى الخلف، وأنا أتأوه وأسحبها، ثم رفعت الأوراق عن الأرض دفعة واحدة.

سقطت على الأرض، فصرخت: "يا إلهي!"، ثم رميتها على الكومة، وجلست على الأرض.

خلعت قفازي وفككت أزرار كمي، ورفعته حتى أتمكن من رؤية مرفقي، كان الجلد هناك مخدوشًا ومكشوطًا.

رن هاتفي من مكان ما خلفي، والتفتُّ لأرى اسم دوتش على الشاشة. لم يتصل بي منذ رأيته في الطريق إلى منزل نيكسي، لكنه كسر دائرة الصمت أخيرًا. مددت يدي إلى الهاتف غريزيًّا، لكن يدي ارتجفت فوق الهاتف في انتظار أن تتحول المكالمة إلى خاصية الرسائل المسجلة. كنت أعرف أنني لن أستطيع تجنُّبه إلى الأبد، لكن آخر شيء أحتاج إليه الآن هو شجار آخر حول خاتم الزواج.

أعدت ارتداء القفاز، والتقطت المجرفة، ورفعتها لأعلى ثم غرستها في الأرض. عاودني ألم فكي مرة أخرى، واضطُررت إلى إجبار نفسي على فتح فمي، وأنا أتنفس وسط إيقاع ضربات قلبي غير المنتظم.

كانت الرسالة الآن مخبأة تحت السترات الصوفية، في الدرج السفلي مع تذاكر العبَّارة والمجلد البني، لكنها كانت تسيطر على تفكيري وأنا في طريقي إلى المنزل كان خط يد إيلويز لا ينفك يظهر أمامي كشريط من الصور التي يتكرر ظهورها بشكل مستمر في أفكاري، والتي كانت تتبعها كلمات عمي جيك.

غيَّر حمْل ليلي كل شيء، ولكن مع ذلك، لم يكن أي من ذلك منطقيًّا، فقد أخبرنا بعضنا بكل شيء، كل سر، وكل فكرة محرجة، وكانت أول شخص ذهبت إليه لأخبره عندما أعلن أوجست لأول مرة حبه لي، ولم تخف عني قط إعجابها بأي شخص كان، ولا حتي قصص الرجال الذين كانوا يتوددون إليها في الجامعة، لم يكن هناك سوى سبب واحد مقنع لإخفائها عني تلك الحقيقة؛ لذا ربما كان جيك على حق، ربما كانت على علاقة بأوجست.

ارتخت يداي على نبات القراص، وجلست على عقبيَّ، أحدق إلى الأشجار. كنت قد ذهبت لرؤية جيك لإعطائه الرسالة، ولكن بينما كنت جالسة هناك في مكتبه، لم أستطع إجبار نفسي على فعل ذلك، لم يكن بإمكاني تصديق أن أوجست كان قادرًا على إيذاء ليلي، فلم يمكنني تصديق ذلك خاصة في هذا الوقت، ولكن كان عليَّ أن أعترف لنفسي، للمرة الأولى، بأن ذلك ممكن.

لم تكن ليلي هي الوحيدة التي احتفظت بالأسرار، بل كنت أنا أيضًا.

لقد أخفى أوجست الندوب جيدًا، أو تجنب الحديث عن الأمر فترة طويلة، قبل أن أبدأ فهم الأمر بشكل أوضح، ولكن كلما تقدمنا في العمر وكلما قضينا ليالي أكثر معًا، أصبح من الصعب تجاهلها.

في البداية، كذب أوجست عليَّ بشأنها، ولكن بمرور الوقت، أصبحت ردوده أقل إلحاحًا، وفي النهاية، تحولت الكذبة إلى صمت غير مريح عندما كنت أسأله. عندما اعترف لي أخيرًا، لم يُجب عن أسئلتي، ولم يعطني أية تفاصيل، ومع ذلك جعلني أعِده بعدم إخبار أي شخص.

لم يكن من الصعب تصديق أن جيك كان محقًّا بشأن كالفن أيضًا؛ فقد ترك عائلته عندما كنا أطفالًا، ولم أشعر قط بأن أي شخص قد حزن بسبب ذلك. ومن ناحية أخرى، كانت قصة هنري مختلفة، وكان الجميع في المدينة يعرفون أنه كان شخصًا صعب المراس، وأنه كان يقسو على أوجست دائمًا، لكنه كان أيضًا الرجل الأكثر قوة في الجزيرة ولم يجرؤ أحد على التصدي له.

وعدت أوجست بعدم إخبار أي شخص، وقد أوفيت بهذا الوعد فقط لأنني كنت أعلم أننا سنغادر. وبالنظر إلى الوراء، أرى أن ذلك القرار كان خطأً، لكننا كنا طفلين. كثيرًا ما نسيت بطريقة ما أننا كنا مجرد أطفال.

قال نوح: "هأنتِ ذي".

ارتجفت عند سماع صوت والدي، وكدت أقفز من الفزع، ونظرت لأعلى نحوه فرأيته يخلع قبعته، ويمسك بها أمامه. كانت سترته الجينز مفتحة الأزرار، وكانت وجنتاه ورديتين، ربما كان قد خرج حالًا من الماء.

قال والدي: "كنت ذاهبًا إلى المقهى، وفكرت في التوقف هنا".

كانت عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة من الموسم السياحي، وكانت العبَّارات غير مكتظة للمرة الأولى، وكانت نصف المحلات التجارية في المدينة قد أغلقت بالفعل، لكن كان هناك دائمًا طلب على المشروبات.

ألقيت المجرفة على الأرض، ووقفت وأنا أمسح جبهتي بظهر ذراعي، ثم قلت في برود: "مرحبًا"، كان صوتي أكثر برودة مما كنت أقصد، وبدا كما لو أن ذلك يؤلمه حقًّا، تابعت: "هل ما زلت تشرب ذلك الشاي الذي أعدته لك ليودا؟".

قال وهو يحاول تخفيف حدة التوتر بيننا: "ثلاث مرات في اليوم، كما أمرتني".

أومأت برأسي، فلم أكن أعرف ماذا أقول، لم تكن هناك خصومة مطلقًا لم تنتهِ بيننا، ولا أستطيع حتى أن أتذكر آخر مرة غضبت فيها من والدي.

دفع كومة نبات القراص الموجودة عند قدميه بجانب حذائه، وقال أخيرًا: "أعتقد أنه يجب علينا أن نتحدث".

قلت له: "حسنًا، تحدث إذن".

تتبعت عيناه قمم الأشجار خلف السياج، ولم ترُقني رؤيته على هذا النحو - مترددًا، قال: "أعلم أنه لم يكن من الصواب إخفاء كل هذا عنكِ، ولقد عرفت ذلك منذ فترة طويلة".

حدقتُ إليه.

تابع: "ولم أقصد إلقاء اللوم على والدتك أيضًا، لقد وافقت على عدم إخبارك بشأن الرسائل. اعتقدنا أننا نفعل ما هو أفضل لكِ، لكننا كنا مخطئين".

في صباح يوم رحيل أوجست، كنت أنتظره في شاطئ هالو. كان اليوم هو يوم السبت، وأخبرت والدتي بأنني لا أشعر بأنني على ما يرام، حتى لا تطلب مني أن آتي لمساعدتها في المتجر. وبمجرد ذهابها، انسللت للخارج، وركضت عبر طريق الغابة.

كان قد مر أسبوعان منذ أن أعلن جيك أن أوجست لن توجَّه له تهمة قتل ليلي، وفي تلك الليلة ألقى أحدهم حجرًا عبر نافذة غرفة نوم أوجست. كان الجميع في المدينة لا يزالون غاضبين، وكان أوجست في قلب كل تلك الأحداث.

بدأنا نلتقي عند شاطئ هالو لأن إيلويز لم تكن تريد منه أن يأتي إلى المدينة، إلا بعد أن تهدأ الأمور. ولم يعد أوجست يريدني أن آتي إليه، فلقد كان يدفعني بعيدًا عنه ببطء. بدأ الأمر بأشياء صغيرة، بأن يترك يدي أولًا، ولا ينظر في عيني عندما كنا معًا، وشعرت بالفجوة بيننا تتزايد يومًا بعد يوم، لكنني كنت مقتنعة بأنه سيعود إليَّ، وأنه سيعود إلى نفسه.

انتظرت على المنحدر الصخري ساعتين، والريح تعصف بقدمي، وعندما تيقنت أخيرًا أنه لن يأتي اعتقدت أن هنري قد دعاه إلى البستان.

كان والداي ينتظرانني عندما عدت إلى المنزل، وتوقفت عند البوابة عندما رأيتهما جالسين على الشرفة. كانت النظرات التي ارتسمت على وجهيهما جديدة بالنسبة لي، وأصابني المشهد بالغثيان. كانت الندوب على وجه والدي لا تزال

حمـراء، لكنهـا أصبحـت أقـل لمعانًـا، وبعد مـرور عام تقريبًـا، اختفت نظـرة الألم المستمر من عينيه، لكنني استطعت أن أراها في تلك اللحظة.

لقد رحلا يا عزيزتي.

تموجت الكلمات في الهواء حتى فقدت معناها. ركضت عبر الطريق، حيث كانت شاحنة إيلويز متوقفة. دفعت الباب، وكان المنزل فارغًا.

لقد رحل. رحل أوجست وإيلويز.

وعندمـا نظـرت إلـى والـدي الآن، لم أشـعر بأنه قد مـر على تلـك الذكرى فترة طويلة، وكانت تلك النظرة على وجهه مألوفة للغاية.

خلعت القفازين، ونفضت الأوساخ عن الجلد المدبوغ، وقلت: "لقد ذهبت لرؤية جيك بالأمس، وهو لا يزال يعتقد أن أوجست قد قتل ليلي".

أومأ برأسه وقال: "أعرف".

قلت له: "لكنك وأمي لم تصدقا ذلك مطلقًا، لماذا؟".

أمـال فمـه، وقال: "لا أعرف، ربمـا لأننا كنا نعتني كثيرًا بأوجسـت كما تعلمين، وكنا نحب ليلي أيضًا، وبدا من الصعب جدًّا التفكير في أنه قد يفعل شيئًا كهذا".

ولكـن لـم يكـن يبدو مقتنعًا كمـا كان يبدو من قبل، في الواقع، بـدا والدي خائفًا بعض الشيء، وهذا جعلني أكثر قلقًا. ربما لم نتمكن من تصديق الأمر ليس لأنه لم يكن حقيقيًّا، ولكن لأن تصديقه كان مؤلمًا جدًّا.

قلت له: "تمنيت لو كنتَ صادقًا معي".

قال لي: "وأنا أيضًا تمنيتَ ذلك".

كان هذا هو أسوأ جزء في الأمر كله، فلقد أحببت والدي، وكنت أعرف أنه مهما فعـل فلـن يغير ذلك مـن حبي إياه. ما فعـلاه كان خطأً، وهذا شـيء لا يمكن إنكاره، لكن لا يمكن تغيير الماضي الآن، حتى لو أخبراني، فلن يغير ذلك حقيقة أن أوجست رحل.

حدقت إلى الأسفل، وقلت: "هناك شيء آخر نحتاج إلى التحدث بشأنه يا أبي".

قال: "حسنًا".

لـم نكـن قد تحدثنا مطلقًـا عن حافظة الأوراق الموجودة في الدرج السـفلي من خزانتـي، ولـم يكن يعـرف أيضًـا أنها موجـودة هنـاك، تابعت: "هل السـبب في عدم

إخبـارك لـي قـط بالأمـر هو أنك كنـت تحـاول حمايتـي، أم أن لديك أسـبابًا أخرى تجعلك لم ترغب في عودة أوجست إلى سيرشا؟".

قال لي: "ما الذي ترمين إليه؟".

قلت وأنا أنظر في عينيه: "هذا الأمر لا يتعلق بأوجسـت فقط، وأعرف ما فعلته أنت ومجلس المدينة".

التـوت قسـمات وجهه من جانب واحـد، وظلت الندوب ثابتة علـى الجانب الآخر وقال: "إيم..."

تابعت: "لقد رأيته، أعني صك البستان".

تجمد في مكانه.

ازدردت لعابـي، وقلت: "أعلـم أنـك تحبنـي يـا أبي، لكننـي لم أعُد أثـق بك، ولا أعرف إلى متى يمكنني أن أحتفظ بأسرارك".

مررت بجانبه وأنا أشعر بغصة في حلقي، ولم يوقفني هو.

كان والدي رجلًا هادئًا، وكان دائمًا يبدو على هذا النحو، ولكن منذ وفاة والدتي، أصبـح شـخصًا تائهًا، يعيش هناك في كوخ الصيد وحده فقدهـا كلانا، وتغيرنا مع مـرور السـنين، لكـن لأول مرة في حياتي، لم أكن متأكـدة إذا ما كنت أعرف مَن هو حقًا.

الفصل السابع والعشرون

أوجست

كنت أشعر بأنني لا أستطيع التنفس في تلك المدينة.

لم تكن سياتل مثل بورتلاند، لكنني أطلقت زفرة طويلة بمجرد أن هبطت من العبارة وصعدت إلى رصيف الشحن. كان الأفق محتجبًا وسط ضباب الصباح الباكر، وكانت المباني تبرز من خلال كتل الضباب الأبيض الكثيف، لكن رائحة العطن المألوفة الخاصة بالجزيرة كانت قد اختفت، واختفى معها ذلك الشعور بالغثيان الذي لازمني أيامًا عدة.

عندما كنت طفلًا، كنت أرى الجزيرة دائمًا سجنًا. لم نتحدث كثيرًا عن والدي، ولم يذكره أي شخص آخر، وأمي أيضًا، ولم أسأل جدي عنه قط لأنه عندما كنت أفعل ذلك، كان يصب جام غضبه من ابنه الذي تركني، عليَّ وحدي. كانت والدة إيميري، هانا، هي التي أخبرتني في النهاية بأن والدي قد استيقظ في إحدى الليالي، وغادر الجزيرة بقاربه عبر المضيق نحو سياتل ولم يعد مطلقًا.

على الفور بدأت تخيُّل نفسي أفعل الشيء نفسه، وأتذكر المرة الأولى التي أدركت فيها أنه يمكنني في يوم من الأيام، إذا أردت، أن أغادر. كنت أقف بالقرب من أكثر صفوف الأشجار بعدًا عن البستان، وأقوم بتنظيف الأرض من شجر البلوط السام وحدي، وكان جدي يعطيني دائمًا أسوأ المهام، ولم أكن أحصل على مساعدة قط، إلا عندما يشفق عليَّ عامل المزرعة المسن زاكريا.

في يوم ما، كنت أعمل وتوجهت بالمقص نحو كرمة أخرى، وعندما سمعت صوت الرعد، نظرت نحو الماء. وفي المسافة البعيدة، كانت كتلة سوداء من السحب تنجرف فوق البحر، لكنها لم تكن تتحرك نحو سيرشا، بل كانت تبتعد عنها، وخَطَرَ ببالي فجأة وأنا أنظر إلى ذراعيَّ المخدوشتين سبب قيام والدي بترك الجزيرة. كان هنري سولت يعتقد أن حب البستان يجري في عروقنا، وكان هذا صحيحًا، فقد استنزفني العمل فيه، لكن كان هناك شيء واحد يجعل قصتي مختلفة عن قصته، فهو لم يكن يعبأ بتركي أنا وأمي خلفه.

لكن كان لديَّ إيميري، وكانت هي الشخص الوحيد الذي افتقدته بعد رحيلي.

كنت أسير في شارع فورث أفينيو، وكنت أمشي بين الحشود على الرصيف على غير هدى. وأحببت ذلك الأمر في المدن، وهو أنه باستطاعتك أن تختفي.

لم أشعر بتلك الميزة حقًّا إلى أن انتقلت إلى بورتلاند للدراسة، فقبل ذلك، لم أتخلص قط من ذلك الشعور بأنني مراقب، وكذلك وأنا أسلك الطريق عبر مضيق بوجيت، كنت أشعر بأن أعين الجزيرة لا تزال تراقبني.

كان مكتب سجلات مقاطعة كينج واحدًا من العديد من المباني في المدينة التي تصطف على طول الشارع، فدلفت، وأزلت بقايا المطر من سترتي، وتتبعت اللافتات حتى قادني الممر إلى غرفة الانتظار. وعلى الحائط البعيد، جلست امرأتان خلف نافذة زجاجية.

طلبت مني المرأة الجالسة على اليمين أن أسير نحوها، وكانت عيناها لا تزالان ملتصقتين بشاشة الكمبيوتر الخاص بها، ثم قالت: "كيف يمكنني مساعدتك يا عزيزي؟".

أخرجت الورقة من جيبي، ووضعتها أمامها، وقلت لها: "أريد نسخة من سند الملكية هذا".

حركت الورقة نحوها، ثم وقفت وقالت: "حسنًا، دقيقة واحدة فقط".

توقفت المرأة الجالسة على اليسار عن الكتابة، ورغم أنني لم أنظر نحوها، فقد شعرت بنظراتها المركِّزة عليَّ، وأحسست بوخز حاد بطول عمودي الفقري؛ ما جعلني أتعرق، فقد كانت صورتي قد تصدرت كل الأخبار، عندما أعلنت شرطة سياتل أنني أنا الشخص المتهم بقتل ليلي. قلت لنفسي إن ذلك حدث منذ سنوات، ولن يتعرف علي أحد، ولكن مع ذلك، كنت أشعر دائمًا بالغثيان عندما أرى شخصًا

ما يحدق إليَّ، وكان هذا يحدث طوال الوقت في القطار المتجه إلى وسط المدينة، وفي أثناء الفصول الدراسية، وكذلك عندما كنت أسير عبر الحرم الجامعي، كأن جسدي لم يكن قادرًا على نسيان ذلك الشعور الذي عشت معه فترة طويلة.

نظرت إليها أخيرًا، فعادت تنظر إلى لوحة المفاتيح، ربما تعرفت عليَّ، أو ربما كان وجهي مألوفًا بما يكفي من عناوين الأخبار، لدرجة أنها اعتقدت أنها تعرفني من مكان ما. لم أكن لأسألها، لكن عندما ظهرت ابتسامة صغيرة على شفتيها واحمر وجهها، أدركت أن نوعًا مختلفًا من الانبهار هو الذي جذب انتباهها إليَّ، ولم أكن جيدًا في ذلك الأمر أيضًا.

رجعت المرأة الأولى مرة أخرى، ودار كرسيها وهي تجلس عليه، ثم قالت: "يبدو أن عليك الرجوع إلى مكتب السجلات في جزيرة سيرشا".

نظرت المرأة الأصغر سنًّا مرة أخرى، بفضول، ولم يكن الأمر يتعلق بما حدث ليلة الحريق فقط، كانت هناك شائعات كثيرة في البر الرئيسي حول الأشخاص الذين يعيشون في سيرشا.

قلت لها: "لقد كنت هناك بالفعل، ولم أجده".

عبست وهي تمد يدها إلى أحد صناديق الورق المفتوحة على الجانب الأيسر من مكتبها، وقالت: "حسنًا، املأ هذا الطلب حتى يمكننا إرسال نسخة إليك".

حدقت إلى الورقة وهي تدفعها نحوي، ثم قلت: "ألا يمكنني الحصول على نسخة مطبوعة أو شيء من هذا القبيل؟".

قالت لي: "نحن لا نحتفظ بالأرشيف هنا".

قلت لها: "ولا نسخة رقمية؟ لا بد أن تكون هناك طريقة للحصول عليه الآن".

قالت لي: "نحن لا نطبع نسخًا ورقية إلا عند الطلب، فقط اكتب عنوانك وسأهتم بالأمر".

انحنيت على المنضدة، وأنا أفكر، ثم سألتها: "كم سيستغرق ذلك الأمر؟".

أجابتني: "بضعة أيام، وربما أكثر".

أغمضت عيني ثم قلت: "ليس لديَّ كل هذا الوقت، وأحتاج إليه في أسرع وقت".

أبعدت عينيها أخيرًا عن شاشة الكمبيوتر، ثم قالت: "حسنًا، لا أعرف كيف أجيبك، لكن هذا هو النظام المتبَع هنا لطلب النسخ"، ثم أخرجت أحد الأقلام من الكوب الموضوع بجانبها، وأعطتني إياه.

أخذته على مضض، ووجدت مقعدًا في أحد الكراسي، وأخرجت نظارتي من جيبي.

نظرت إلى الصفحات الفارغة في الأعلى. لن أستطيع إرسال الصك إلى الكوخ لأنه بحلول وقت إصداره، لن أكون أنا هناك، ولم أكن أريد المجازفة بإرساله إلى شقتي في بورتلاند، ففي كثير من الأحيان كان ساعي البريد يضع المظاريف في الصناديق الخطأ.

أخرجت الهاتف من جيبي ووجدت رقم إيريك. جعل رنين الهاتف ألم رأسي يزداد، وبدأت أكتب اسمي في السطر الأول من الاستمارة.

سمعت صوته وسط الضوضاء في الخلفية ويقول عبر الهاتف: "هل ما زلت على قيد الحياة؟".

قلت له: "نعم ما زلت على قيد الحياة، أين أنت؟".

قال في انزعاج: "أنتظر عميلًا، وأقابل هذا الرجل في المقاهي لأنه لا يحب الجلوس في المكاتب، ويهتم بالإجراءات الشكلية بشكل مفرط جدًّا".

ضحكت وقلت له: "أتحدى أنك تتمنى لو كنت قد استمعت إليَّ، عندما أخبرتك بأن تستعين بالمختصين في قانون الحقوق المدنية".

قال ساخرًا: "لو استمعت إليك، لعشتُ في سيارتي الآن، ما الأمر؟".

قلت له: "أواجه مشكلة في الحصول على سند ملكية الكوخ، فأنا لا أجده في المنزل وهو مفقود من مكتب السجلات".

قال في اندهاش: "مفقود؟".

قلت له: "ستفهم إذا رأيت المكان".

قال: " فهمت".

تابعت: "أنا في مكتب المقاطعة في سياتل، وأحاول الحصول على نسخة، لكن عليهم إرسالها بالبريد، هل لديك مانع إذا طلبت منهم إرسالها إليك؟".

قال وسط الضجيج: "لا مانع بالتأكيد، وسألقي نظرة عليه عندما يصل، ثم سأتصل بك".

سألته: "يمكنني التعامل مع كل هذا من هناك، أليس كذلك؟".

قال: " إذا كنت تقصد أن أقوم أنا بذلك فالأمر ليس بهذه البساطة؛ فالمنزل إذا كان باسم والدتك فسيتعين عليك إثبات صحة الوصية وإثبات وفاتها، وغير ذلك من الأمور المشابقة".

قلت له: "لقد وجدت شخصًا يتولى عملية البيع".

قال: "حسنًا، يمكننا القيام بكل شيء عن بُعد ما دمتَ تمتلك المستندات اللازمة، وسأخرج ما تريد أن تحتفظ به من المنزل الآن، حتى نتمكن من إيجاد شخص ما لتنظيفه، ما لم تكن ترغب في بيعه مفروشًا".

عندما تخيلت المنزل وهو فارغ، وقد اختفى منه جميع الأثاث وأشياء أمي، شعرت بالجفاف في حلقي. نحن لم نعش هناك فترة طويلة، لكنني ما زلت أشعر بالحنين؛ لأنه كان المكان الذي عاشت هي فيه، قلت له: "حسنًا، هذه فكرة جيدة".

قال لي: "سأرسل لك رسالة نصية أخبرك فيها أين ترسل المستندات".

قلت له: "شكرًا".

أسقطت الهاتف في حِجْري، وانتهيت من ملء نموذج الطلب. وعندما وصلني إشعار من الهاتف مرة أخرى، قمت بنسخ العنوان الذي أرسله إيريك ووقَّعت باسمي.

لكن يدي انزلقت عندما كنت أهمُّ برفع القلم، وتجمع الحبر الأسود على الورقة وأنا أحدق إلى الاسم، فلقد ظللت أوجست سومرفيلد فترة طويلة، لدرجة أنني لم أفكر في الأمر سنوات.

لكن هذا ليس الاسم الذي كتبته؛ لقد كتبت أوجست *سولت*.

الفصل الثامن والعشرون

إيميري

جلست أمام المدفأة ممسكة بالرسالة في إحدى يديَّ وبكأس المشروب في اليد الأخرى، وحدقت إلى كلمات إيلويز كأنها لغز لن أجد له حلًّا أبدًا.

لم أكن أعرف ما حدث في تلك الليلة في الغابة، لكن ما كنت متأكدة منه هو أهمية تلك الرسالة، فأنا أدرك ما قد يفعله جيك إذا أعطيته إياها، ففي غضون بضع دقائق، سيتصل هاتفيًّا بإدارة شرطة سياتل، وسيكون ذلك بمثابة الفتيل الذي يشعل الأحداث فتكون عودته فرصة لتصحيح أخطائه، وإصلاح ما *أفسده*، لكن ذلك سيدمر أوجست والحياة التي أوجدها خارج الجزيرة.

ازدردت لعابي بصعوبة، بينما كنت أتخيل كل ذلك.

عندما كنا صغارًا، لم أكن أتوق إلى الحرية بالدرجة نفسها التي كان أوجست يتوق بها إليها، لكنني كنت أفكر دائمًا في كل الإمكانات المتاحة، ووجود رحب أوسع في مكان آخر، لكن لم أجرؤ على أن أحلم بكل هذا حتى ذلك اليوم الذي طلب مني فيه أوجست لأول مرة أن أرحل معه، ثم استحوذت تلك الفكرة عليَّ، فلأول مرة في حياتي لم أكن أعرف ما ينتظرني، ووجدت ذلك الشعور مثل المخدِّر، وبعد ثمانية عشر عامًا من معرفة ما يحمله المستقبل بالضبط، أردت بشدة أن أسلك طريقًا بلا وجهة واضحة، وأردت أن أسلكه مع أوجست.

وفي النهاية، كان هو الشخص الوحيد الذي حصل على ما تمناه.

تأملت خط يد إيلويز على الورقة، وكنت أستطيع أن أجزم بأن الألم الذي شعرت به بسبب ما كتبته كان واضحًا من خط يدها. مر إبهامي على العنوان في الزاوية اليسرى العليا، فقرأته مرة أخرى، ولسنوات، كنت سأتخلى عن أي شيء للحصول على هذا العنوان، أو على رقم هاتف أو بريد إلكتروني، أو أي شيء من هذا القبيل، وطوال ذلك الوقت، كان العنوان هنا.

كانت نيكسي على حق؛ حيث إننا لن نعرف أبدًا معنى الرسالة.

حملتها تحت الضوء، وشعرت بالدفء يسري في جسدي، وتأملت حركة الظلال في الغرفة من حولي، وقبل أن أدرك حتى ما كنت أفعله، كانت الرسالة قد طارت نحو اللهب، كأن الهواء كان يسحبها إلى الأمام، ويدي تتبعها، تنفست ببطء، وأنا أشاهد النار تلتهم زاوية الورقة، وظهر خيط من الدخان الأسود بينما اشتعلت جذوة النار، لكن قبل أن تشتعل الورقة بأكملها، تردد صدى صوت خافت لطرقة ثقيلة في أرجاء المنزل؛ ما جعلني أتجمد في مكاني.

أغمضت عيني، وحدقت إلى الرسالة، وتحولت الحرارة على بشرتي على الفور إلى قشعريرة حادة.

ماذا كنت أفعل؟

نظرت حولي مرتبكة، وتراقص ضوء النار على الجدران بينما كنت أضع كأس المشروب، كانت الرسالة على وشك الاحتراق، لكنني لم أتذكر مجرد أنني فكرت في القيام بذلك.

سمعت طرقة أخرى فوقفت، وسحبت الورقة داخل البطانية، وزحفت على الأرض وأنا أحبس أنفاسي حتى وصلت عند زاوية الرواق، وعرفت من الطارق بمجرد أن رأيت ظله المنعكس على الزجاج، وشكل فكه، وأطراف شعره المتجعدة.

وقف أوجست تحت ضوء الشرفة المتأرجح ينظر نحو الطريق المظلم، وعندما رآني من خلال النافذة حوَّل نظراته من وجهي إلى قدمي بطريقة جعلتني أشعر بالتوتر.

كان طعم الدخان لا يزال عالقًا بلساني وأنا أدس الرسالة في قميص نومي، وقلبي ينبض بسرعة، وتذكرت وأنا أشاهده من الجانب الآخر من النافذة علاقته بليلي.

أغمضت عيني محاولةً محو تلك الفكرة من ذهني، ثم عبرت غرفة المعيشة، وفتحت الباب، فرأيت أوجست ينظر إليَّ بينما كانت إحدى قدميه على الدرجة السفلية من السلم، وكانت كتفا سترته تلمعان بقطرات المطر.

ازدرد لعابه، وقال: "مرحبًا، جئت لأخبرك بأن زاك قد جاء أخيرًا، وأن موعد الدفن هو غدًا في الساعة الثانية".

عندما حاول الاقتراب مني ضغطت بيدي حول حافة الباب. لم أكن أعرف ما إذا كان ذلك بسبب خوفي منه، أو ما إذا كنت خائفة فقط مما قد يحدث، إذا اقتربت منه بما يكفي لألمسه.

قال أوجست: "لقد طلبت مني أن أخبرك، لذا..."

قلت له: "شكرًا".

حولت نظري نحو الطريق، وحاولت أن أتبين شكل منزل أوجست الواقع في الغابة، لكنه كان مظلمًا وغير مرئي. وكان صوت الرياح وهي تعصف بالأغصان وخرير المياه في الجداول الصغيرة على طول الطريق، هو الذي كسر الصمت الذي كان يلف الجزيرة، لكنني استطعت أن أشعر بأنه كان هناك شخص ما يراقبنا، ولو رآه أحد هنا، لأصبحتُ أنا حديث المدينة.

نظر نحو داخل المنزل، وقال: "أخبرني والدك بأنه يعيش في كوخ الصيد".

قلت: "نعم، انتقل إلى هناك بعد وفاة أمي، وأنا أعيش وحدي هنا الآن".

أومأ برأسه، وقال: "اعتقدت أن دوتش ربما يعيش هنا أيضًا".

أثار هذا التعليق دهشتي لدرجة أن وجنتيَّ احمرتا على الفور، ثم قلت: "لا، لديه مكانه الخاص بالقرب من نيكسي".

ثم أخذ يتأملني مفكرًا فيما إذا كان يمكنه أن يطرح عليَّ المزيد من الأسئلة. كان بإمكاني أن أرى ذلك في عينيه، حيث لم يتغير كثيرًا، لكنه لم يرقني كيف كان من السهل عليَّ قراءة وجهه بكل بساطة، فأنا لم أنسه قط.

قال: " آسف، هذا ليس من شأني".

بالطبع لم يكن هذا من شأنه، لكن لماذا شعرت كأنني قد قُبِضَ عليَّ متلبسة؟

ثم سألته على أمل أن يبدو الأمر كأنه مجرد فضول بريء: "متى ستغادر؟".

كان جزء مني يعرف أنه كلما رحل أوجست مبكرًا كان ذلك أفضل، وستعود الأمور إلى طبيعتها مع دوتش، حتى لو لم يكن الوضع الطبيعي هو ما نريده نحن الاثنان حقًّا، وستعود المدينة في النهاية إلى نسيان الماضي. لكن لا تزال هناك الرسالة. كانت لا تزال هناك كلمات إيلويز، ولم أكن أعرف ماذا أفعل بها.

ثم برق ضوء ساطع خلف الأشجار من بعيد، فتجمدت في مكاني، وحاولت تفحُّص الظلام من بعيد. وعندما رأيته مرة أخرى تنفست الصعداء، ثم انزلقت يدي من مقبض الباب.

على الجانب الآخر من الطريق، برق وميض كهرماني، وبدا كأنه يتحرك مع حركة الريح. كان هو الضوء نفسه الذي رأيته تلك الليلة في البستان، حيث لم يكن ضوءًا بل كان نارًا.

قلت بصوت منخفض: "أوجست".

واستدار وهو ينظر عبر الظلام، وظهر الضوء مرة أخرى، كان للهب مرتفع ملتوٍ، وخرج صوت من شفتيه لم أستطع تمييزه، وانطلق مسرعًا، وارتطمت قدماه بالحصى أثناء ركضه.

تركت اللحاف ينزلق من كتفي ويسقط على الأرض قبل أن ألتقط الهاتف من على الطاولة بجوار الأريكة، وبعد لحظة، اختفى أوجست على الجانب الآخر من الطريق.

صرخت: "أوجست!"، وركضت بقدميَّ الحافيتين إلى أسفل الدرج خلفه، ثم تجاوزت البوابة واتجهت نحو الأشجار.

تبعت صوت خطواته على طول الطريق المؤدي إلى الكوخ. لم أكن أراه أمامي وأنا أمرُّ عبر السياج، لكنني توقفت عندما رأيته.

لم يكن المنزل يحترق، بل الشاحنة.

خطوت الخطوات القليلة الأخيرة، وظهر أوجست على الجانب الآخر من الأشجار عند مدخل الطريق، حيث وقف هناك متجمدًا في مكانه، بينما كان الضوء ينعكس على وجهه الممتقع. كانت النيران قد اشتعلت في الشاحنة بأكملها، وامتلأ الهواء بدخان كثيف.

" تلعثمت وأنا أقول: "ماذا... كيف؟"، كنت أتنفس بصعوبة شديدة، وشعرت بالدوار.

صرخ: "أوغاد"، ثم اندفع نحو الشجيرات التي تصطف على جانبي المنزل، وسحب خرطوم المياه، وانفتح الصنبور الصدئ وهو يصدر صريرًا حادًّا، ثم عاد ليركض وهو ممسكٌ بخرطوم المياه.

حاولت الإمساك به من ذراعه وهو يسير نحو الشاحنة، لكنه تحرر من يدي. حجب وجهه، ورش الماء نحو غطاء المحرك، لكن ألسنة اللهب لم تتوقف عن التزايد، ووصلت إلى ما فوق رءوسنا، ولمست فروع أشجار الصنوبر القصيرة بقربه، وبدا من هناك كظل أسود يتحرك قبالة الضوء، لكن لم تكن هناك جدوى من محاولة إخمادها، فقد كانت الشاحنة بأكملها تحترق.

صرخت: "ارجع!".

ازداد الحريق على الجزء الخاص بمقعد الراكب، وتحطمت النافذة، لكنه اقترب منها أكثر.

فصرخت مرة أخرى: "أوجست!"، ثم تعثرت إلى الأمام، ولففت ذراعي حوله، مستخدمة كل وزني لسحبه للخلف.

وعندما دفعته إلى العشب وضعت نفسي بينه وبين الشاحنة، وأمسكت قميصه بإحكام بقبضتي، ثم قلت: "هل جُننت؟".

نظر أوجست نحوي كأنه كان يتذكر حالًا أنني كنت هناك. كان يتنفس بسرعة ووضعت يدي على صدره فشعرت بقلبه ينبض تحت أصابعي، ثم رفع بصره نحوي ببطء لتلتقي نظراته بنظراتي.

دفعته بقوة، وقلت: "هل تحاول أن تقتل نفسك؟".

أسقط الخرطوم فتجمع الماء البارد حول قدمي، بينما كانت حرارة النار تلفح بشرتي، وشعرت بالقشعريرة تسري في جسدي أسفل قميص نومي. كان الوقوف هناك أمامه بتلك النظرة المرتسمة على وجهه أمرًا مزعجًا حقًّا؛ فقد شعرت بأنني رجعت تلك الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعًا مرة أخرى.

ارتجف الهاتف في يدي، وعندما وجدت اسم جيك أدركت أنه لم تكن هناك تغطية، فدفعت أوجست بعيدًا، وأنا أراقب إشارة التغطية وأرى أنفاسي الباردة أمامي، وعندما رجعت تغطية الهاتف أخيرًا، ضغطت على زر الاتصال.

راقبني أوجست ثم سألني: "ماذا تفعلين؟".

وضعت الهاتف على أذني.

ثم قلت: "سأتصل بجيك".

هز رأسه، وكان التعبير المرتسم على وجهه مثيرًا للشفقة حيث قال: "لن يأتوا يا إيم".

وقفت هناك متصلبة في مكاني، بينما استمر رنين الهاتف. لم يرد أحد. مسحت بقايا الدخان من عيني، وأعدت الاتصال، واستمر عدم الرد.

ودوى الرعد في السماء فوقي، ثم تلاه تساقط المطر على الصخور، وشعرت بخدر في يدي عندما أغلقت الهاتف الذي كان يتدلى من أصابعي الزلقة.

قال: "لن يشعلوا النار ثم يأتوا لإطفائها".

قلت: "ماذا؟".

قال وهو يكاد يضحك: "هل تعتقدين أن هذه الشاحنة اشتعلت فيها النيران من تلقاء نفسها".

حدقت إلى النار حتى آلمتني عيناي، ثم شعرت بالغثيان. لقد كان محقًّا، أشعل أحدهم النيران في الشاحنة.

قال: "إيم".

قلت بحدة: "لا تنادني بهذا الاسم".

لمع البرق مرة أخرى في السماء، وبدأ المطر يهطل؛ ما جعلني أرتجف.

قال: "هم من فعلوا ذلك، وأنتِ تعلمين أنهم فعلوا ذلك".

كان يقول هم، لم يكن يتحدث عن جيك فقط، لقد كان يتحدث عن سيرشا بأكملها، عنا جميعًا.

قلت: "لا، هذا ليس صحيحًا". لم أنظر إليه؛ لأنني لم أستطع. لم أرغب في تصديق ما كان يقوله، وما يعنيه ذلك.

قال: "لا يمكنكِ حقًّا أن تصدقي أن هؤلاء الناس..."

قلت له وقد ارتفع صوتي الآن: "لماذا؟ لأنني ما زلت هنا؟ لا يمكنك أن تختفي وتبدأ حياة جديدة ثم تعود وتتظاهر بأنك تعرف كل شيء عنا. ليس كل شخص على هذه الجزيرة عدوك، وبعضنا ظل يدفع ثمن ولائه لك فترة طويلة يا أوجست".

سكت، وتغيرت النظرة التي بدت على وجهه.

قلت بصوت واهن: "لماذا عدت إلى هنا؟".

كزَّ على أسنانه، وقال: " أنا هنا لدفن أمي".

قلت له: "هل هذا كل شيء؟".

ومرة أخرى، لم يقل شيئًا، فماذا كان بوسعه أن يقول حقًّا؟ ما حدث قد حدث.

قال فجأة بصوت أكثر رقة: "أنا آسف، على كل شيء".

أسقطت يديَّ بقوة على جانبي، وقلت: "هل أنت جاد؟ ألم يخطر ببالك أن تعتذر إلا الآن؟".

أطلق أوجست زفرة عميقة: "أردت الاعتذار الليلة الماضية، لكنني لم أعرف ماذا أقول عندما ظهر دوتش، وأعلم أن الأمور لم تكن سهلة بالنسبة لكِ بعد ما حدث، وأنا..."

حدقت إليه بغضب، وقلت له: "كيف يمكنك أن تعرف؟ أنت لم تكن هنا".

قال: "أعرف".

قلت له: "لقد غادرت".

قال مرة أخرى: "أعرف".

قلت له: "لقد تركتني"، وكنت مندهشة وأنا أسمع نبرة صوتي، ثم تابعت: "ولا يهمني إذا كنت آسفًا".

ثم دفعته بعيدًا، وشعرت بالألم الحاد في حلقي وأنا أسير عبر الطريق، وأتتبع ضوء الشرفة الأمامية. كان الباب لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، وصعدت الدرج بقدمي الحافيتين المتجمدتين، وأغلقته خلفي.

تراقصت فراشة حول الضوء المعلق فوق طاولة الطعام، وخلفها، كانت النار في مدفأة غرفة المعيشة قد خمدت وتحول الحطب إلى جمر، وأصبح المنزل أكثر برودة، وبددت الريح دفء المكان.

نظرت إلى يدي الخدرة. كان السخام الأسود يعلو ثناياها، ومددت يدي لسحب ورقة شجر كانت عالقة في ضفيرتي، إذن أشعل أحدهم النار... بالطبع أشعلها أحدهم، لكن إذا كانت النيران قد أمسكت بالمنزل، أو إذا كانت الرياح قد دفعتها قليلًا قبل أن أراها بين الأشجار... فإنني لم أكن أرغب في التفكير فيما كان يمكن أن يحدث.

لقد رأت هذه المدينة ما يمكن أن تفعله النار.

أدرت مفتاح الإضاءة في الحمام، ورأيت عيني في المرآة، حيث كان الغضب يشتعل خلفهما، وهو غضب لم أر مثله منذ سنوات، فقد كان مألوفًا وغريبًا في الوقت نفسه. والفكرة التي ظلت تلاحقني هي أنني أشعر بشيء، وكانت هذه الحقيقة وحدها تمثل تناقضًا صارخًا مع الفراغ الخالي من الإحساس الذي ميز حياتي فترة طويلة، وكاد هذا الشعور يخيفني.

أدرت مقبض حوض الاستحمام، وجلست على جانبه، وسحبت قدميَّ إلى حضني. كان هناك شق يقطر دمًا على أخمص قدمي، ولا بد أنني قد خطوت على شيء ما، ربما حجر، أو ربما زجاج.

خلعت قميص النوم الخاص بي عندما امتلأ الحوض بالماء، وأسقطته على الأرض. كان لا بد من تقطيعه إلى قطع صغيرة أو إلقائه في القمامة، لم تكن هناك طريقة للتخلص من هذه الرائحة، وكنت أعرف ذلك من التجربة أيضًا.

وببطء، أنزلت نفسي في الحمام الساخن، وتركت نفسي أغوص تحت السطح. كان هدير الماء الذي يملأ الحوض يطغى على تدفق الأفكار التي كانت تتسلل عبر رأسي، لكن عندما نهضت مرة أخرى، كنت ما زلت أشعر كأنني لا أستطيع التنفس.

سحبت ركبتي إلى صدري، وعانقتهما، وكنت أظن أنه لا يوجد هناك شيء أسوأ من رحيل أوجست، لكن اتضح لي أن عودته كانت أكثر ألمًا، لو لم أره، ولو لم تذكر نيكسي بروسبر، ولو لم أجد الرسالة.

راقبت تموجات سطح الماء، فتوقف قلبي، *الرسالة*.

انسكب الماء على حافة الحوض عندما وقفت، وانتزعت رداء الحمام من الخطاف، ولففته حولي، ونزلت إلى الرواق بينما كان الماء يتقاطر من جسدي، وراحت عيناي تتجولان عبر غرفة المعيشة. كانت البطانية التي لففتها حول كتفي سابقًا لا تزال على الأرض حيث أسقطتها أمام الباب.

التقطتها، وهززتها بشكل محموم.

لا شيء.

رن صوت أنفاسي في أذني بينما استدرت في دائرة وأنا أتفحص الغرفة. سحبت الوسائد من الأريكة، ومسحت الأرضية قبل أن أتحقق من وجود الأوراق على طاولة المطبخ. وعندما لم أجدها ذهبت إلى غرفتي، وجلست القرفصاء بجوار السرير، وأخرجت صندوق الرسائل من تحته، وتصفحت الأظرف بحذر، لكنني لم أجدها.

ضغطت بيدي على فمي، ونبضي يتسـارع بشكل غير منتظم وأنا أنظر إلى أسفل الممـر، وإلـى البـاب الأمامي. كنت واقفة هنـاك وأنا أحملها في يـدي، عندما رأيت وهج اللهب عبر الطريق. أسقطت البطانية وركضت و...

وبسـرعة نهضت، ووجدت المصباح اليدوي في درج المطبخ قبل أن أفتح الباب مـرة أخـرى. اصطدم المصباح بالحائـط بقوة، بينما كانت الريـاح تضرب المنزل بعنف، وخرجت إلى الشـرفة، وأنا أواصل البحث. تحرك شـعاع الضوء الأبيض فوق الألـواح الخشـبية في حركـة متقطعة قبل أن أجد الدرج، ثم الفنـاء، واتبعت المسـار الحجـري عبـر الطريـق نحـو البوابة، وعندمـا وصلت إليهـا، اسـتدرت، ونظرت إلى المنزل.

كانـت النوافـذ مضـاءة، وكان ضـوء الشـرفة يتأرجـح فـي الريـح، وكان البـاب مفتوحًا، تمامًا كما كان عندما عدت بعد دقائق من لقائي بأوجست.

ولكن في وقت ما، بين اللحظة التي رأيت فيها النار واللحظة التي عدت فيها عبر البوابة، اختفت الرسالة، ولم يبق لها أي أثر.

الفصل التاسع والعشرون

أوجست

لم أكن أرغب في أن أسلك هذا الزقاق هذه المرة.

كان الشارع الرئيسي مكتظًّا، وكان سائحو آخر الموسم يملأون الممرات، وهم متدثرون بمعاطفهم، ويرتدون قبعاتهم، وأكياس التفاح تتدلى من أيديهم. كانوا قد ركبوا العبَّارة الأولى، ووجهتم كانت الذهاب إلى الجزيرة من أجل رؤية البستان والمخبز، والتمتع بالمناظر الجميلة للخليج.

لقد أمضيت ثمانية عشر عامًا في سيرشا، وكانت هذه المدة كافية لأدرك أن كل هذا كان محض هراء.

كانت رائحة الدخان لا تزال تلتصق بملابسي، ويداي قد اسودتا بفعل بقايا الحريق، لكن الشيء الذي أرعبني حقًّا وأنا أقف هناك في الظلام لم يكن رؤيتي للشاحنة المحترقة، بل كان إيميري.

كان لديها كل الحق في أن تكرهني، ومن شأن ذلك أن يجعل الأمور تبدو أسهل، لكن نبرة صوتها وهي تلومني لأنني تركتها، كانت أشبه بطعنات السكين بين ضلوعي، كان كل ما قالته صحيحًا، كل شيء.

مررت بجانب القوارب الراسية على الرصيف وهي تهتز في مهب الريح، وصواريها تميل مثل البندول، وخلف الميناء مباشرة، كان هناك صف من الناس يتدفقون خارج المقهى، فتبعتهم ودفعت الباب. كان نوح مستغرقًا في الاهتمام

بوجبات الإفطار الخاصة بنهاية الأسبوع، لكنني كنت أعرف من الذي كنت أبحث عنه في الداخل.

جيكوب بلاكوود.

قال الرجل الواقف في مقدمة الصف وهو يرفع يديه في الهواء: "مهلًا!"، لكنني تجاهلته، وتوجهت مباشرة إلى المشرب.

جلس جيك منحنيًا على كرسيه المعتاد وهو يمسك كوبًا من القهوة يتصاعد منه البخار، وفكرت لحظة في أن جلوس المرء على الكرسي نفسه سنوات عديدة، لهو أمر مثير للشفقة، حيث إن كل يوم على تلك الجزيرة كان مطابقًا تمامًا لليوم السابق.

رآني نوح أولًا، فترك الكوب والصحن اللذين كانا في يديه ودار حول المنضدة، ثم سار نحوي مباشرة، وفتح فمه كأنه كان على وشك أن يحذرني، لكنني لم أرفع عيني عن جيك.

سحبت مقبض الباب الصدئ من جيب سترتي وأسقطته أمامه، أفحدث صريرًا حادًّا، ما جعل جيك يقفز، واستدار على مقعده وقد اتسعت عيناه.

انسكب بعض من قهوته من الكوب، وقال: "ماذا تفعل؟".

من حولنا، توقف زبائن نوح عن تناول وجباتهم ليشاهدوا ما الذي كان يحدث.

حركت ذقني، وأشرت إلى مقبض الباب، وقلت: "كنت أنت من فعل ذلك، أليس كذلك؟".

عقد حاجبيه قبل أن يلتقطه ويفحصه ثم قال: "ما هذا؟".

سرعان ما خطا نوح أمامنا، فحجب رؤية الطاولات على طول المشرب.

قلت وأنا أراقبه بعناية: " لقد أشعل أحدهم النار في الشاحنة الليلة الماضية".

رفع بصره مرة أخرى، والتقت عيناه بعيني، ثم قال: "ماذا؟".

تحدثت ببطء وقلت: "الليلة الماضية، أشعل أحدهم النار في الشاحنة التي كنت أقودها".

نظر نوح نحونا بحذر وقال بصوت أجش: "حسنًا، ربما يجب أن نذهب ونكمل هذا الحديث في الخلف".

ثبتُّ ناظريَّ على جيك وقلت: "لا، أريد أن أسمعه وهو يقول ذلك".

بصق، ودفع المقبض نحو صدري، وقال: "هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بذلك الأمر".

خطوت نحوه، وقلت: "هل تعتقد أنني لا أعرف كيف تسير الأمور هنا؟ فعندما لا يمتثل شخص ما للقواعد، فإنه يجبر على ذلك".

قال بغضب: "أنت لا تعرف ما تتحدث عنه".

قلت له: "لقد أخبرتك بأنني لن أغادر حتى أدفن رماد أمي، وكنت جادًّا في ذلك، يمكنك حرق المنزل بأكمله إذا أردت".

قام جيك من فوق الكرسي، ووقف أمامي وهو ينظر إليَّ وجهًا لوجه، ثم قال: "إذا كنت تتهمني بشيء، فمن الأفضل أن تقوله".

قلت ساخرًا: "لا داعي لذلك، فالجميع في هذه المدينة يعرفون من أنت، وأنا أعرف من أنت حقًّا"، وقبل أن يتمكن من قول كلمة أخرى، أمسكت بسترته، وقلت: "أنت الرجل الذي ضرب طفلًا لأنك لم تستطع مواجهة حقيقة أنك فشلت في القيام بعملك السيئ"، ثم اقتربت منه وقلت: "لكنني لم أعد طفلًا الآن يا جيك"، ثم أفلته.

تفحص نوح أخاه ومن النظرة التي بدت على وجهه، أدرك أن ذلك كان أحد تجاوزات جيك التي لم يكن يعرف عنها شيئًا.

وبالنسبة لي، كان نوح والد إيميري، دائما شخصًا شعرت بأنه يتعين عليَّ إقناعه بأنني إنسان جيد، ولكن مع جيك كان الأمر مختلفًا تمامًا، لم أعده أبًا ولا صديقًا، فقد كان يوسعني ضربًا تماما كما كان يفعل جدي.

وعندما لم ينكر جيك ذلك، نظر إليَّ نوح وقال: "حسنًا، أعتقد أن الوقت قد حان لتعود إلى المنزل يا أوجست".

كان جيك شقيق نوح، وحتى لو كان الاثنان يمتلكان طبيعة مختلفة، فقد كان لنوح الكثير من الخبرة في التعامل مع أي فوضى أحدثها جيك، وعند رؤيتهما هناك، جنبًا إلى جنب، لم أستطع إلا أن أفكر في والدتي، وكيف تعاملا معها بعداوة هي أيضًا.

قلت قبل أن أفكر في كلماتي: "لقد كانت تكرهك".

سكت جيك، وضيق عينيه البنيتين ونظر نحوي.

فتابعـت: "لقد كرهت كل منكما، لقد أدرتما ظهريكما لنا وهي كرهتكما بسـبب ذلك".

كنـت أعلـم أن كل كلمة أقولها لها وقْع قاسٍ عليهما، ولكنني أردت ذلك، لم يكن نوح يكذب عندما قال إن إيلويز كانت من العائلة، فلقد أحبها كلاهما.

حدق إليَّ الأخوان، في صمت، واسـتدرت على عقبي، وتسـللت عبر المقهى حتى خرجت إلى الشارع، استنشقت الهواء البارد في رئتيَّ، آملًا أن يطفئ النار في داخل صدري.

كان مـا قلتـه صحيحًـا، فقـد كانـت والدتي مثـل أخـت للأخوين بلاكـوود، ولكن عندما ثار جميع من في المدينة علينا، تركوها وحيدة.

الفصل الثلاثون

عامان قبل الحريق

أوجست

كنت أنا وإيميري في السادسة عشرة من العمر.

كان كوخ الصيد الذي يملكه والدها يقع على الجانب الشرقي من الجزيرة، وفي الليالي الصافية كان بوسع المرء أن يرى أضواء المدينة من نهاية المرسى، وكنا نستلقي هناك على بطانية، وظهورنا على الخشب، وعندما كان المد يرتفع، كنا ندلّي أرجلنا كي تلمس أقدامنا الماء البارد.

كنت قد وقعت في حبها قبل ذلك بوقت طويل، ولا أتذكر وقتًا لم أحبها فيه، لكن ذلك الصيف كان مختلفًا.

لقد تحولت إيميري من تلك الفتاة التي كنت أعرفها دائمًا إلى فتاة أخرى. كانت أكثر هدوءًا وأكثر جمالًا بشكل لا يصدق. كانت ابتسامتها أكثر خجلًا، وتغيرت الأشياء التي أرادت التحدث عنها. وعندما كانت يدها تلامس يدي، كانت تتركها قليلًا ولا تسحبها في الحال، وهو ما لم أعهده من قبل.

كان القمر مكتملًا، أتذكر ذلك؛ لأنها رفعت أصبعها في الهواء، وتتبعت محيط القمر على صفحة السماء السوداء، وكانت النجوم ساطعة، وحوافها بدت مضاءة

بنور أصفر، فبدت مثل الورق القديم، وتلونت السماء باللون النحاسي الدافئ، وشق نور القمر الدموي قلب الظلام.

نزلنا معًا إلى المياه. كانت هناك أوقات عديدة اعتقدت فيها أن وجودها كان مجرد امتداد لوجودي، كأنها كانت جزءًا مني عاش خارج جسدي، وراقبت بنوع من الانبهار الصامت كيف تغير شكل جسدها في تلك السنوات، وأردت أن أراها بجانبي طوال الوقت، لكنني لم أمتلكها تمامًا على الإطلاق.

مررت يدي على جبهتها بينما كانت تنظر إلى القمر الذي كان يلقي بضوئه الفضي على وجهها فيزداد بياضًا، فهمستُ حينها: "أتقسم أنك ستحبني إلى الأبد؟".

كدت أضحك، لأنها كانت تعلم أنني أحبها، لكنها نظرت إلى وجهي، ولم تكن تبتسم، لقد بدت كأنها على وشك البكاء.

سألتها: "ما الأمر؟".

قالت مرة أخرى: "أقسم على ذلك".

كانت الأمواج ترتطم بنا بهدوء، بينما كنت أتأملها ثم قلت: "سأحبك إلى الأبد، أقسم على ذلك".

سقطت دمعتان على وجنتيها، لكنها سرعان ما ابتسمت أخيرًا، فلففت ذراعي حولها بإحكام، حتى إنني للحظات لم أستطع أن أشعر بأنفاسها بقربي.

ثم همستُ: "سأحبك إلى الأبد، أقسم على ذلك".

لم أكن أعلم لماذا بدا الأمر غريبًا، فأنا وإيميري كنا دائمًا... لا أعرف حقيقة، لكن كنت أعتقد أن المراهقين لا يقعون عادةً في مثل هذا النوع من الحب، ولم أكن أرى أي شيء مميز فينا على الإطلاق، كنت أعلم فقط أنها كانت مثل الهواء بالنسبة لي.

وفي تلك الليلة، جلسنا أمام النار، وشعرُنا لا يزال مبللًا، وكانت إيميري تحاول تدفئة أقدامها الباردة، لم يوافق والدانا على أن نقضي الليل في الكوخ، لكنني كنت أعلم أن إيميري قد غلبها النعاس، فرفعت الغطاء لأعلى حتى غطى كتفها، فأغمضت عينيها كأنها نسيت أين كانت، ثم نظرت إليَّ أخيرًا، بينما كان شعرها منسدلًا على ظهرها.

شعرت حينها بأنه لم يكن هناك جزء من الثانية، لم أكن أرغب في أن أكون معها، فلقد كانت تلك هي أفضل لحظات حياتي. تأملت لون بشرتها تحت ضوء النار، وأسعدني أن أشعر بوجودها بجانبي، وفي بعض الأحيان شعرت بأن تلك الذكرى هي الشيء الوحيد الذي يبقيني أتنفس، ولمرات عديدة، بعد أن تركت سيرشا تمنيت لو أنني لم أغادر على الإطلاق.

الفصل الحادي والثلاثون

أوجست

اعتاد زاكريا بير أن يدفن الناس في سيرشا طوال حياته، والآن حان دور والدتي.

كانت المقبرة تقع وسط الغابة محاطة ببوابة حديدية صدئة مربعة الشكل، وفي الداخل، كانت شواهد القبور الحجرية مغطاة بالطحالب، وبصعوبة يمكن قراءة ما هو مكتوب على بعض منها.

دُفن كل فرد من أفراد عائلة سولت في تلك الأرض باستثناء والدي، وكان أحدث شاهد قبر هو الخاص بهنري سولت، وكان الجرانيت لا يزال يلمع في أماكن عدة، وحتى بعد مضي ثماني أو تسع سنوات على كتابته، يقف صامدًا في مواجهة رياح البحر.

لم أتوقع أن يأتي أحد من سيرشا في مراسم دفن والدتي، لكنني تساءلت عمن حضر أثناء دفن جدي. أعتقد أن الجميع قد حضروا، فقد كان آخر من عاش من عائلة سولت هنا، وعلى الرغم من أن الرجل لم يُعرف عنه الكرم أو الطيبة فإنه تمكن بطريقة ما من حمل نفسه على ترك البستان إلى سكان الجزيرة، وأعتقد أن تلك كانت مفاجأة غير عادية للجميع.

حدقت إلى اسمه المنقوش على شاهد القبر.

هنري فيتز سولت

كان عبارة عن حجر مستطيل أسود مصقول بشكل متقن، لدرجة أنني كنت أستطيع أن أرى انعكاس صورتي عليه. كنت قد اشتريت السترة التي أرتديها، من أجل محاضرة تم اختياري لإلقائها على رؤساء الأقسام في الكلية، وفي ذلك الوقت كنت فخورًا بنفسي وأنا أرتديها، لكن عندما نظرت إليها الآن، عرفت أنني لن أرتديها مرة أخرى.

سمعت صرير بوابة المقبرة وهي تنفتح، واقترب زاك نحوي، وكان شعره ممشطًا وقد حلق ذقنه ليكشف عن فكه الحاد وغمازة ذقنه التي كانت أكثر شيء أتذكره عن وجهه. أما عن العرج الذي كان لديه دائمًا، فقد أصبح أكثر وضوحًا الآن، ما جعله متراخيًا في حركته جهة اليمين.

أومأ برأسه ثم وقف أمامي.

قلت له: "شكرًا لك على قيامك بذلك".

لم يكن زاك من الأشخاص الذين يهتمون كثيرًا بما يعتقده الآخرون، لكنه أيضًا لم يكن يحب التعقيدات، وكان يعرف أن لا أحد في البلدة سيكون سعيدًا بمساعدته لي.

تنحنح ثم قال: "كانت ستفعل الشيء نفسه من أجلي، أليس كذلك".

بلى كانت ستفعل ذلك، وكان ذلك صحيحًا.

سألني: "هل أنت مستعد إذن؟".

نظرت إلى البوابة المغلقة على الجانب الآخر من المقبرة، وأنا آمل أن أرى إيميري واقفة هناك، وكانت البوابة مغطاة بطبقة سميكة من نبات فيرجينيا الزاحف الذي بدأ لونه في التحول إلى اللون الذهبي، وفي غضون أسبوع آخر، سوف يتحول إلى اللون البرتقالي، ثم الأحمر.

لن تأتي.

فأنا لم أرها منذ أن تركتني وأنا أرى النار تتوهج خلفها، وخمنت أنني لن أراها مرة أخرى. كنت أعلم عندما اعتذرتُ أنها لن تسامحني، لكنني فعلت ذلك لأنني مدين لها به، ومع ذلك، فبينما كنت أغلق أزرار قميصي وأشد رابطة عنقي، اجتاحتني رغبة قوية في أن تأتي. لم يكن مهمًّا مدى نضجي أو كيف أصقلتني تجارب الحياة، لكنني كنت لا أريد أن أقف وحيدًا بجانب قبر والدتي.

أجبته: "أنا مستعد".

فجأة، شعرت بأن الجرة التي تحمل رفات والدتي أصبحت أثقل بين يدي. سمعت حفيف الأشجار وهي تنحني لضربات الريح، وصوت المياه من بعيد وهي ترتطم بالصخور، وتشق طريقها عبر الغابة لتجدني. نظرت إلى الجرة للمرة الأخيرة قبل أن أسلمها إلى زاكريا.

لمس بلطف النقش الموجود على جانبها، والذي كان يحمل اسم أمي.

رفع زاك حاجبيه الأبيضان الكثان، وقال: "كلما زاد عمري كان من الصعب عليَّ أنا أرى نفسي وأنا أعمر أكثر من أولئك الذين هم أصغر مني سنًّا".

كان كبيرًا بما يكفي ليتذكر والدتي عندما كانت طفلة، ولقد ظل يراها دائمًا هكذا.

راقبته وهو يضع الجرة في الأرض، والتي كان سطحها الأخضر الزمردي يحمل لون عيني أمي نفسه، وكان هذا هو سبب اختياري إياها. لم يخب بريق عينيها قط، ولا حتى عندما أصبحت أكبر سنًّا، وكثيرًا ما اعتقدت أن هذا كان أمرًا غريبًا، لكن والدتي كانت هي أيضًا غريبة، مثل الجزيرة، ولم تنتمِ حقًّا إلى العالم الخارجي.

كنت أعرف ثِقَل ما فعلته، حتى في ذلك الوقت، كانت هذه الجزيرة جزءًا منها واضطُرت أن تتركها بسببي. لا أعتقد أن هذا الجرح الذي سببته لها توقف عن النزيف مطلقًا. وفي أكثر من مرة، اعتقدت أنه ربما كان ذلك السبب في مرضها، فقد كان هذا الحنين ينمو بداخلها على مر السنين.

نظر زاك ورائي فجأة في انتباه، فاستدرت.

رأيت إيميري عند الجانب الآخر من البوابة الصدئة مرتدية فستانًا أسود بسيطًا بأزرار في الأمام، مدت يدها لأعلى، ووضعت شعرها خلف أذنها في توتر وهي تراقبني بتعبير ارتسم على وجهها لم أستطع فهمه. ربما كانت تفكر في التراجع والابتعاد.

تسمرت في مكاني، ولم أقوَ على إخفاء مشاعري، وأنني شعرت بالارتياح الكبير لرؤيتها هناك.

انتظرت لحظة أخرى قبل أن تقرر أخيرًا فتح البوابة، ثم مشيت نحو المسار المتعرج الذي يمر عبر المقبرة، وكان شعرها البني الطويل منسدلًا على كتفها، فلم تربطه أو تصففه للخلف على شكل ضفيرة.

عندما اقتربت مني حاولت في استماتة أن أظهر ضبطًا كبيرًا للنفس وألا ألمسها. لم أكن أتوقع عندما عدت أن أشعر برد الفعل العزيزي الذي كثيرًا ما شعرت به في كل مرة أقترب منها.

نظرت إلى وجهها متتبعًا النقاط السبع للنجمة الخضراء التي كانت تتلألأ في قزحية عينها اليسرى، ففي آخر مرة وقفت فيها بالقرب منها، كنت أحاول أن أحفظ شكلها، وأن أنسجه في خيالي كذكرى جميلة ستظل معي عندما أغادر. كانت تلك هي آخر مرة أراها فيها، لكنني أنا فقط من عرف حينها أن لقاءنا هذا كان وداعًا.

قلت لها": لم يكن لزامًا عليكِ أن تأتي".

قالت: "لا، كان يجب عليَّ أن آتي".

رفعت بصرها فوق رءوسنا نحو الأغصان المنخفضة لأشجار الصنوبر، حيث كان هناك ما لا يقل عن اثني عشر زرزورًا تقف في صمت. كانت هذه الطيور قد نفشت ريشها لتحميها من الرياح الباردة، بينما كانت أقدامها الصفراء تتشبث بأغصان الخشب النحيلة وهي تراقبنا.

اِفترَّ ثغر إيميري عن ابتسامة عريضة.

تنحنح زاك، فاستدرنا نحن الاثنان، ثم وقف على حافة الحفرة وهو يمسك بكتاب صغير مهترئ في يديه الكبيرتين، ثم قال: "هل يمكنني أن أبدأ؟".

أومأت برأسي ووقفت إيميري بجانبي دون أن تنبس ببنت شفة.

فتح زاكريا الكتاب، وقرأ بصوت مرتفع ومتهدج: "ولدت إيلويز أميليا سولت في آخر شهر قمري في العاشر من يوليو عام 1951، وكانت ابنة والت كارتر وسيرينا هابارد، وهي طفلة وحيدة".

لقد سمعت زاكريا وهو يؤبن الموتى الآخرين في سيرشا، لكن الكلمات بدت مختلفة، عندما سمعتها تُقرأ بخصوص شخص أحبه.

تابع زاكريا: "نحن الآن ندفنها في الأرض نفسها التي وُلدت على ظهرها".

شعرت بالألم في حلقي، بينما كان زاك ينزل بعناية على ركبة واحدة ويأخذ حفنة من التراب، وينثرها على الجرة، وتبعته، وفعلت الشيء نفسه، ثم تبعتنا إيميري، وأخذت حفنة من التراب في راحة يدها، وأغلقت أصابعها عليها للحظة، وتحركت شفتاها بكلمات لم أستطع سماعها قبل أن تفتحها مرة أخرى، ثم هبت

ريح لطيفة عبر الأشجار، فتركت إيميري حينها التراب ليتساقط من يدها فوق القبر.

انسابت دمعة من عيني وأنا أحدق إلى الأرض، وظهرت قدماها الصغيرتان بجوار حذائي، بينما كان صوت زاك يتردد ببطء، وقد ضاع وسط أصوات الجزيرة، ثم رأيت يد إيميري تمتد نحوي، وبصعوبة شعرت بها عندما مررتها على أصابعي، وسحبت يدي التي كنت أشبكها مع يدي الأخرى، فتشابكت أصابعنا، وتسللت وخزة خفيفة من الدفء عبر جسدي، وأعادت إحساسي به.

نظرت إليها من ذراعها إلى كتفها، ثم إلى رقبتها، ووجهها، حيث سحبت الرياح الباردة بعض خصلات شعرها نحو جبهتها مرة أخرى، ما جعل خديها يتوردان.

لقد نظرت إليَّ بالكراهية نفسها التي بدت عليها عندما وقفنا أمام الشاحنة المحترقة، لكن كان هناك أيضًا شيء مريح في الأمر، حيث شعرت كأنها كانت مثلما كانت من قبل، عندما كنا نتبادل كلماتنا الغاضبة التي بدت مثل الأمواج الهائجة التي تتلاطم على شاطئ الجزيرة. لم يكن يهم ما قيل؛ لأننا كنا دائمًا نعود إلى بعضنا، مثل قوى الجاذبية التي كانت تجذبنا لبعضنا.

وفي لحظة، نسيت السنوات الأربع عشرة الماضية، والحريق، والأشهر التي تلت ذلك، ونصف العمر الذي مضى عندما غادرنا، وللحظة، لم يكن هناك غد في انتظاري.

الفصل الثاني والثلاثون

نيكسي

تداخلت أصوات أسراب الزرزور مع صوت أمواج البحر، فبدا لي كأنه كان صوتًا واحدًا.

وقفت على الشاطئ الصخري وأنا أراقب المشهد، بينما كنت أمسك بصنارة الصيد في يدٍ ودلو الصيد في اليد الأخرى. كان اليوم هو يوم الاثنين، وللمرة الأولى، كانت العبَّارات شاغرة، وكان البستان قد أُغلق بشكل رسمي، ما جعل الجزيرة تدخل في حالة من السكون تميز فصل الشتاء، قبل أن يأتي الربيع ليوقظها مرة أخرى، لكن الجزيرة لم تكن نائمة.

بدت أسراب الطيور من بعيد مثل سحابة كثيفة من الدخان، وكانت تطير في السماء، في تشكيلات وأنماط فنية مختلفة، وكانت تتراقص وسط السحب القريبة من سطح البحر، قبل أن تهبط بسرعة فجأة محدثة صوتًا يبهر الأنفاس تردد صداه في أذني، ثم كادت حافة تلك الكتلة من الطيور الطائرة أن تلامس الماء، قبل أن ترتفع إلى الأعلى مرة أخرى، وتتماوج في تشكيلة أخرى رائعة.

لقد عشت حياتي كلها على الجزيرة، ولم أر قط أسراب الزرزور تتأخر في هجرتها إلى هذا الحد، فمن المفترض أن تختفي قبل موجة الصقيع الأولى، لكن كان هناك الآلاف منها، وكان السرب يزداد عددًا يومًا بعد يوم.

أرجعت رأسي إلى الخلف عندما سمعت هديلها فوقي، وكادت تحجب الضوء أثناء طيرانها، لكن سرعان ما اختفت تمامًا وراء الأشجار.

عندما عدت إلى المنزل رأيت مجلة سيرشا ملقاة على الدرجة الثانية السفلية لسلم المدخل، وعلى الرغم من أنها كانت مطوية، فإن كلمة واحدة كانت مرئية من موضوع الغلاف، وقد كُتبت بخط عريض: سولت.

وضعت الدلو المملوء بسمك القد أرضًا وجلست القرفصاء، وفككت تغليف المجلة، ونشرتها أمامي.

حريق في كوخ عائلة سولت

كانت هناك صورة لبقايا شاحنة محترقة في أسفل العنوان، شاحنة إيلويز، وكانت مملوكة لكالفن قبل ذلك، لكن لم يعد أحد يفكر في كالفن، والقليل منا تمنوا لو لم يفعلوا ذلك.

خلعت حذائي المطاطي، وشربت فنجانين كاملين من القهوة، قبل أن أسير أخيرًا على الطريق وأحمل *المجلة* تحت ذراعي. ومع رحيل هانا، كانت هناك أشياء معينة تُركت لي لأتعامل معها، على سبيل المثال كل ما يخص إيميري، وبالطبع ما حدث مؤخرًا.

لقد أقسمت أنا وهانا وإيلويز على أن نكون أخوات، عندما كنا في العاشرة من العمر، وكان كل من أقاربي وأقارب هانا من السكان المحترمين في سيرشا، لكن إيلويز لم تكن سعيدة الحظ مثلنا، فقد ابتليت بوالد يعمل صيادًا لكنه كان مخمورًا دائمًا.

لقد كنا بجانب بعضنا أثناء نشأتنا، ولم يتغير هذا عندما تزوجت هانا وإيلويز. كان علينا أن نفي بوعدنا أيضًا، وكنا نحزن لأحزان بعضنا، ولقد ضحينا من أجل بعضنا البعض، وفعلنا بعض الأشياء السيئة حقًّا ولكن كان وقت طويل قد مر، منذ أن اضطُررت إلى مواجهة تلك الشياطين.

وعندما وصلت لمنعطف الطريق، رأيت ليودا مورجان جالسة في الشرفة على كرسيها الهزاز.

كانت نوافذ المنزل القديم مفتوحة لتستقبل نسيم الخريف، وهو شيء يمارسه معظم سكان الجزيرة. كانت هذه هي الفرصة الأخيرة لتهوية المنزل، قبل أن يحل البرد، ولم يكن الهواء الراكد هو ما نتخلص منه فحسب، فكانت ألبرتين بلاكوود تقول دائمًا، إنها كانت أيضًا وسيلة لإخراج تأثير السياح من عظامنا، وتطهير الجزيرة من أي ظلال جلبوها معهم عبر المضيق.

استقبلتني ليودا بابتسامة هادئة، وكان هذا شيء نادر الحدوث، وقالت: "نيكسي!"، وكان من المفترض أن تكون هذه أول إشارة لي.

رفعت يدي لتحيتها، وسلكت الطريق المتعرج عبر العشب الطويل. كان عليَّ أن أخطو بحذر في حديثي معها إذا كنت أود تهدئة الأمور، فقد كان معروفًا عن ليودا أن غضبها يستمر فترة طويلة، وكانت تشغل منصبًا مهمًّا في مجلس المدينة؛ لذا حرصت على أتجنب عداوتها.

قالت من بعيد: "هل ترغبين في تناول الشاي؟".

فككت وشاحي، ثم قلت: "نعم يسعدني ذلك، شكرًا لك".

نهضت ليودا من الكرسي بينما جلست أنا واختفت هي في المنزل، وعندما عادت كانت قد أحضرت فنجانًا آخر من الشاي، ووضعته على الطاولة الصغيرة بجانبي وملأته، وكانت حافية القدمين على الرغم من برودة الجو.

رفعت حاجبها، وقالت: "هل أنتِ سعيدة مثلي برؤية السائحين يرحلون؟".

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي اتفقنا عليه أنا وليودا، ولم يكن لدينا أي شك في ذلك، فقد كان السائحون يهبطون على الجزيرة كالجراد، ويقضون على كل ما فيها، ولكن لم يكن هناك أي جدال حول حقيقة أننا كنا بحاجة إليهم، فمن دون تلك العبَّارات الممتلئة، كانت الجزيرة ستفنى، ولقد كادت تفنى ذات يوم.

قلت لها: "لقد تكيفت مع وجودهم كل تلك السنوات، وأعتقد أنني أستطيع أن أتحمل المزيد منهم".

ضحكت ليودا، وقالت: "سوف نرى ما إذا كنتِ ستقولين هذا الكلام نفسه عندما تصبحين في مثل سني".

تأملتها مليًّا. كانت جدة ليلي دائمًا أشبه بالدجاجة الأم لجميع من عاش على هذه الجزيرة، ولم أفهم إلا عندما كبرت أنها كانت أقرب إلى طائر جارح منها إلى فريسة.

قلت دون تفكير: "سنرى ما إذا كنت سأعيش حتى أصل لهذا العمر".

توقفت ليودا، ونظرت إليَّ بفضول.

لم أفكر في الكلمات قبل أن أنطق بها، فقلت لها: "آسفة، لا أقصد أن تبدو كلماتي كئيبة".

والحقيقة هي أن وفاة إيلويز جعلتني أرى أن الموت ليس بعيدًا عني، وتوقيت حدوث ذلك زاد من إحساسي هذا. ومع اقتراب احتفال الهالوين، كان بإمكاني أن أشم رائحة تعفُّن الأوراق المتساقطة والفواكه المخمرة في الهواء. كان هذا هو موسم الموت.

رحلت الأختان اللتان أقسمت معهما بالدم على أن نكون أخوات، في إحدى ليالي الشاطئ الصيفية العاصفة. كنت أشعر بأنني أستطيع سماع صوتيهما وهما تهمسان لي من العالم الآخر.

أخذت المجلة من تحت ذراعي، ووضعتها على الطاولة الموجودة بيننا.

حدقت إليها ليودا، لكنها لم تقل شيئًا.

قلت لها: "آمل ألا أُضطر إلى طرح هذا السؤال".

ضمت شفتيها، ثم قالت: "وأنا آمل أيضًا ألا تفعلي ذلك".

تنهدت، وأنا أحرك الشاي في فنجاني. ليودا هي الشخص الذي تلجأ إليه إذا كنت تريد إنجاز شيء ما في سيرشا، لكنها كانت مثل القطار الذي بمجرد أن يتحرك، يصبح من المستحيل إيقافه، تابعت: "اتركيه وشأنه يا ليودا، فهو سيرحل في غضون أيام قليلة".

قالت: "هذا ما قاله جيك عندما وصل، ولكنه قد مكث هنا أكثر من أسبوع يا نيكسي، وصوفي تقول إنه ذهب إلى مكتب السجلات، ولست أنا الوحيدة التي تعتقد أنه قد مكث وقتًا أكثر من المطلوب".

إذن، لم تكن تتصرف وحدها، وهي لم تفعل ذلك قط، ولكن إذا كان أوجست يسعى وراء وصية هنري سولت، فلن أستطيع أن أقنعها بتغيير رأيها.

نظرت إليها أخيرًا، وأنا أتأمل الخطوط حول عينيها. وبالنسبة لها، كنا جميعًا ما زلنا أطفالًا، أنا، ونوح، وجيك، وهانا، وإيلويز، ولكننا كنا قد كبرنا، وعرفنا الكثير من الأشياء.

قلت بصوت أكثر حزنًا: "هل هذا ما نحن عليه الآن؟"، كنت أسأل حقًّا، فقد كان من الصعب تذكُّر نوع الأشخاص الذين كنا عليهم من قبل.

رفعت ليودا الكوب إلى شفتيها مرة أخرى، ثم قالت: "دعينا لا نتظاهر بأنك أكثر براءة من الآخرين، فعندما أتيت إليَّ للقيام بما كان يجب القيام به، فعلت ذلك دون جدال".

حدقت إليها، وأنا أشعر بالدم يتجمد في عروقي؛ فقد أقسمنا أننا لن نتحدث عن تلك الليلة أبدًا، وكان هناك تحذير في صوتها، بل كان بالأحرى تهديدًا، فقلت لها: "أعرف".

عندما ذهبت إليها منذ سنوات مضت، لم أكن أعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك، ولا أستطيع أن أقول إنني ندمت على أي من ذلك أيضًا، لكنني لم أكن أعرف ما إذا كانت ليودا تعلم أنني كنت أرى أن كل ذلك كان جزءًا من تلك الشبكة المعقدة، وتساءلت عما إذا كان أي من ذلك سيحدث، لو لم أطرق بابها تلك الليلة.

تابعت: "أنا آخر فرد من أفراد عائلة مورجان يعيش على هذه الجزيرة، وأنا أتعامل مع تلك المسئولية بجدية أعلم أنك تحبين ذلك الصبي بسبب إيلويز، لكن عليكِ أن تتذكري أن دم عائلة سولت يجري في عروقه".

كان هذا ما يشكل الأهمية الحقيقية بالنسبة لها: البستان، فقد كان الأمر دائمًا متعلقًا بالبستان، فبعد وفاة ليلي وترك ابنها وزوجة ابنها لسيرشا، تساءل الناس عما إذا كان ليودا وهانز سيتبعانهما، لكن ليودا كانت جزءًا من هذه الجزيرة، مثل المنحدرات والغابات والخلجان.

أكملت: "لقد فعلنا جميعًا أشياء لصالح هذه المدينة، بمن في ذلك أنتِ"، ثم أخذت وقتها حتى انتهت من احتساء آخر كوب من الشاي، ثم تابعت: "لم يكن ينبغي له أن يعود إلى هنا أبدًا، يا نيكسي لذا، علينا أن نتأكد من عدم حدوث ذلك مرة أخرى".

الفصل الثالث والثلاثون

إيميري

لقد أخفت الأشجار الآثار جيدًا.

صعدت إلى أعلى السلم وأنا أحمل كيسًا من القماش على كتفي، وتحركت بسرعة وأنا أخفي رأسي بين الأغصان، ومن هذا الارتفاع، كان يمكنني بصعوبة معرفة المكان الذي اشتعلت فيه النيران في البستان، لكنني ما زلت أتذكر المكان الذي اسودت فيه الأرض، بعد أن التهمتها النيران، ثم الرائحة التي علقت في الهواء بعد ذلك.

لقد كان يومًا جميلًا على الجزيرة، وأنا أتذكر ذلك جيدًا، فأثناء حفل التخرج لاحظت كيف كان الضوء ينعكس على العشب الأخضر الموجود أمام بوابة المدرسة، ولكن بعد ساعات، هبت ريح قوية على البحر وهي تنبئ بالعاصفة المقبلة، وضربت الجرف قبل أن تعصف بالبستان، ويتحطم الفانوس الزجاجي المعلق على الفرع الضعيف لإحدى أقدم الأشجار.

وفقًا لجميع الروايات، لم يكن من المفترض أن تنجو البلدة من ذلك، فقد طغت التغطية الإخبارية لوفاة فتاة على التقليد السنوي، المتمثل في استقلال العبَّارة إلى الجزيرة كل خريف، ولم يكن هناك سبب وجيه لزيارتها عندما أُغلق البستان. لقد استغرق الأمر سنوات، لكن الأشجار الجديدة نمت، وعادت العبَّارات، وصمدت الجزيرة.

قمت بحشر كعب حذائي في الشق بين الأغصان حتى أتمكن من الوصول إلى أعلى، وكان السياح يتركون التفاح على الأغصان العلوية دائمًا، لكننا كنا نستخدمه في صنع المربى والخل اللذين كانا يباعان خلال فصلي الربيع والصيف في المتاجر.

في كل عام، كان البستان يحتاج إلى متطوعين للمساعدة على إنهاء آخر أعمال الموسم، وكنا نستجيب دائمًا لتلك الدعوات بالمساعدة. كانت مسئولية إغلاق المزرعة تمتد إلى ما هو أبعد من رواتب الموظفين، وكان هذا شيئًا قمنا به جميعًا معًا.

انتزعت تفاحة أخرى من الغصن، وألقيتها في الكيس. كانت أصابعي قد أصابها الخدر فقد تركت قفازاتي في الشاحنة، لكن اليوم كان أبرد مما كنت أتوقع. وبحلول الليل، وعندما تنتهي كل أعمال التنظيف والتشذيب، سيكون هناك عشاء ومشروبات في بيت البستان، وكنت أخشى تلك اللحظة.

لقد أتيت لأنه كان من المفترض بي أن آتي، ولأنني لم أكن أود أن أعطي أي شخص سببًا آخر للتحدث عني، لكن الأمر كان قد بدأ بالفعل؛ فالمراقبة والتساؤل كانا البداية، ثم قام شخص ما بأخذ الأمور على عاتقه، وأشعل النار في شاحنة إيلويز.

كان أوجست محقًّا، لم يأت أحد، ولم يرد أحد على هاتف مكتب النقيب، في كل مرة اتصلت به، وتخيلت عمي جالسًا على مكتبه، وهو يراقب رنين الهاتف بينما كان يحتسيْ فنجان قهوته. جعلتني تلك الفكرة أرتجف.

ولم أكن أرغب في التفكير في إمكانية أن يكون جيك هو من أشعل النار بنفسه، لكنني كنت أعلم أن عمي ليس النقيب المحترم الذي ينخدع فيه الغرباء، وكان من الصعب عليَّ أن أصدق أن والدي يمكنه أن يشعل النار، بينما كان يحمل ندوبًا من تلك الحرائق، لكن دوتش...

كانت الصفحة الأولى من صحيفة سيرشا زاخرة بصور للشاحنة المحترقة التي كانت واقفة أمام كوخ عائلة سولت، وبحلول ذلك الوقت كان الجميع في الجزيرة قد سمعوا بالأمر. لكن هذا الحريق لم يكن نتيجة شرارة عشوائية قادمة من نار المخيم، أو بسبب عُقب سيجارة مُلقى. لقد أشعل شخص ما تلك النار، وربما سرق الرسالة أيضًا.

خرجت حينها مرتدية حذائي المطاطي وقميص النوم، مع بزوغ ضوء الفجر حتى أرى جيدًا، وبحثت في الفناء والحديقة وعبر المصرف الذي كان يمتد بطول جانب الطريق. لم أستطع أن أتذكر أنني وضعت الرسالة على الأرض، لقد كانت في يدي ثم لم أعد أحملها. قلت لنفسي إن الرياح ربما كانت قد دفعتها خارج الباب الأمامي، أو ربما كانت قد طارت نحو الطريق تحت المطر الغزير، ولو حدث ذلك، ما نجت من العاصفة التي هبت على الجزيرة طوال الليل، ولو وجدها أي شخص، فلن تكون أكثر من مجرد رقاقة بيضاء ملطخة بالوحل.

لكنني شعرت بوخز في جسدي، وأنا أتطلع من خلال أغصان شجرة التفاح، وأتأمل الوجوه التي عرفتها طوال حياتي، كان الأمر الأكثر إزعاجًا ليس لأن أحدهم كان مسئولًا عن إشعال الحريق، ولكن لأنني كنت أصدق ذلك.

سمعت أحدهم ينادي: "إيم".

ارتجفت، وتمسكت بالغصن الذي كان فوق رأسي، ونظرت إلى الأسفل. وهناك رأيت دوتش واقفًا في أسفل السلم، وهو يمسك قفازي بيده.

أحسست بأنفاسي وهي تتصاعد أمامي عبر الهواء، وحاولت استعادة توازني وإبطاء نبضي المتسارع، وقلت: "مرحبًا".

ثم أمسك دوتش بالسلم، ولكني ترددت قبل أن أنزل وأنا أحمل كل هذا التفاح. وعندما وصلت إلى الأرض، رفع الحقيبة عن كتفي، وناولني القفاز، ثم قال: "رأيته على مقعد الشاحنة"، فأخذت القفاز وارتديته بينما كان يراقبني، وقلت له: "شكرًا".

بدا دوتش في حالة معنوية عالية، وأفضل مما كان عليه في الأيام الماضية، وتساءلت عما إذا كان وجوده في البستان هو السبب في ذلك، فهنا، كان هو المسئول عن كل شيء، وكان يتحكم في الأمور.

قال: "لقد تلقيت أخيرًا مكالمة من المدينة، وسيكون زجاج النافذة هنا يوم الجمعة".

أومأت برأسي، وتأملت وجهه وأنا أبحث عن آثار الغضب الذي كان في عينيه، في الليلة التي ذهبت فيها لرؤية نيكسي، لكنه لم يكن هناك الآن أي أثر له.

خطا بجانبي، وأعاد وضع القبعة على رأسه، وهو يسير نحو نهاية الصف. ازدردت لعابي بصعوبة، وترددت مرات عدة قبل أن أقول أخيرًا: "دوتش؟".

توقف، واستدار وقال: "نعم؟".

كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما، وتحدوهما نظرة أمل. كان ينتظر أن أقرب المسافة بيننا.

سألته: "هل كنت في المنزل الليلة الماضية؟".

قال: "ماذا؟".

تابعت: "هل مررت عليَّ قبل يومين؟".

ضاقت عينا دوتش، وسألني: "هل أنتِ جادة؟".

حدقت إليه، وكززت على أسناني بقوة، حتى شعرت بألم في فكيَّ.

أردت بشدة أن ينكر الأمر.

قال لي: "لقد رأيت الصحيفة يا إيم، وأنا لست شخصًا أحمق".

قلت: "هذه ليست إجابة".

سخر مني، ونظر نحوي بطريقة لم أره ينظر مثلها من قبل. استغرق الأمر مني لحظة لأدرك أنها ذكرتني بوالده.

أطلقت زفرة طويلة.

قال لي: "عليكِ أن تبقي بعيدة عن أي شيء ربما يكون أوجست متورطًا فيه".

قلت له: "هناك شخص ما على هذه الجزيرة قد أشعل تلك النار يا دوتش، ألا يزعجك هذا؟".

قال: "نحن لا نعرف ما إذا كان ذلك قد حدث أم لا".

قلت له: "أنا كنت هناك، ورأيت كل شيء".

تغيرت تعبيرات وجهه مرة أخرى، وأصبحت أكثر قتامة، ثم سألني: "ماذا تعنين بأنكِ كنتِ هناك؟".

قلت له: "كان بإمكاني رؤية أعمدة النار من المنزل"، فلم أكن لأخبره بأنني كنت مع أوجست عندما رأيتها، فكلما قلت الأدلة التي كانت لديه كان ذلك أفضل.

هز دوتش رأسه، وحدق إلى الأرض، وانقبضت عضلات ذراعيه، وبرزت أوردة يديه، ثم قال: "وما الذي كنتِ تودين فعله؟ تركضين إلى هناك وتنقذينه؟".

قلت له: "معنى ذلك أنك لو رأيت حريقًا في منزل نيكسي من خلال نافذتك، فلن تذهب إلى هناك؟".

قال لي: "إنه ليس مثل نيكسي، وأنا أعلم أنكِ ذهبت إلى مراسم دفن والدته".

قلت له: "وماذا في ذلك؟ إنه ليس سرًّا".

قال: "إذن لماذا لم تخبريني؟".

قلت له: "نحن لم نتحدث منذ أيام".

ارتفع صوته وقال: "ومن السبب في ذلك؟".

سكتُّ ونظرتُ حولنا، وكان زوج مولي تاليس يقف في الصف التالي، وهو يراقبنا. وبحلول الغد، سيكون لديها المزيد من الثرثرة لتنشرها في السوق.

قلت له: "كانت تلك مراسم دفن إيلويز، وكان يجب عليك أن تكون هناك أنت أيضًا، ولا تتظاهر بأن غضبك هذا يتعلق بالجنازة. أنت لست غاضبًا حتى من أوجست، أنت غاضب مني".

قال: "وهل هناك فرق؟".

قلت: "ماذا؟".

قال لي: "الأمر سيان، أليس كذلك؟ كل شيء يدور حول أوجست، كما هي الحال دائمًا".

شعرت بألم في صدري عندما تذكرت كيف أنني أمسكت يد أوجست، ونحن نقف فوق قبر إيلويز. لم أفكر مرتين، ولم أندم على ذلك أو أفكر في عواقب تلك اللحظة، بل فعلت ذلك وحسب، وما زلت أشعر بلمسته على راحة يدي مثل ضوء الشمس الذي يتخلل أصابعي.

كان ما قالته نيكسي صحيحًا، فأنا لم أنس أوجست قط، وبدا الأمر سخيفًا وطفوليًّا للغاية، لدرجة أنني لم أستطع أن أواجه نفسي بذلك. كنت في الثامنة عشرة من عمري، ولم أكن أعرف شيئًا عن المعاناة أو المسئولية أو الخسارة، ولكن بطريقة ما، عرفت هذا الحب العميق الذي أشعر به الآن، وتساءلت عن عدد البشر الذين وجدوا مثل ذلك الحب، ولم يتوقف هذا الجرح الداخلي عن النزف مطلقًا.

قلت له وأنا أحاول أن أتجنب الاصطدام به: "دعنا لا نَخُضْ في هذا الأمر الآن"، لكنه خطا أمامي.

قال لي: "لو كان الأمر متروكًا لكِ، لما خضنا مثل هذا الجدال مطلقًا".

قلت له: "لقد كنا نخوض ذلك الجدال سنوات يا دوتش".

قال ذلك بصوت مرتفع، ما جعلني أرتجف: "أخبريني إذن لماذا لا تريدين الزواج بي؟".

قلت له: "لأنني لا أريد الزواج، ولا أريد أن تكون لديَّ عائلة، وأن أعيش الحياة التي يعيشها كل شخص آخر على هذه الجزيرة!"، ولم أهتم بمن يكون قد سمعني الآن.

قال لي: "لا أصدقك".

قلت له: "بالطبع لا تصدقني".

قال لي: "أنتِ تتصرفين كأنكِ لا تريدين هذه الحياة، لكنكِ لا تزالين هنا يا إيميري، وكان بإمكانك المغادرة في أي وقت، ولكنكِ لم تفعلي".

قلت له: "لا، لم أستطع، وأنت تعرف أنني لم أستطع، أصيب والدي، ثم مرضت أمي، وكان على شخص ما أن يتولى إدارة المتجر".

كان دوتش يعرفني جيدًا، لكنني ما زلت لا أعرف كيف أكون صادقة معه. لقد ظل بجانبي بعد رحيل أوجست، وكان يتفهمني جيدًا، لكن هذا لم يكن كافيًا على الإطلاق. بدا اهتمامه بي مثل حبات الرمل التي تنساب من بين أصابعي عندما أحاول الإمساك بها، خاصة وأنا أقارنها بتجربتي السابقة المؤلمة.

كان دوتش من نوع الرجال الذي يخبرني بما أريد سماعه. كان يلعب وفقًا لقواعدي، فعندما تتعقد الأمور كان هو من يسعى لحلها، لكن هذا الأمر كان مختلفًا. هززت رأسي، وأنا أشعر بأنني منهكة، ولا أقوى على الشجار معه.

قلت بصوت واهن: "يجب أن تتوقف عن طرح السؤال من فضلك، فلن أقول نعم أبدًا".

وجَّه دوتش بصره نحو عينيَّ، كأنما كان يبحث عن شيء ما بهما، أي شيء، ثم قال: "أنتِ لا تعرفين كل شيء..."، ازدرد لعابه ثم قال: "عن تلك الليلة".

تجمدت في مكاني، وأنا أحاول استيعاب كلماته، وأنا أقول لنفسي إن ما سمعته كان خطأً، ثم قلت له: "عن أي شيء تتحدث؟".

فرك يديه على وجهه، وتنفس بعمق ثم قال: "يا إلهي، لقد أخبرتك مائة مرة تقريبًا".

شعرت بالفزع، فكل ما كان على وشك قوله الآن كان مثل القطرات القليلة الأولى لمحيط كامل.

حدق إلى وجهي، وقد احمر وجهه.

قلت بصوت أعلى: "ماذا؟".

رفع عينيه ببطء، ونظر نحوي ببرود لم يرُقني ثم قال: "لقد كذبتُ يا إيميري".

بدأت أفكاري ونبضي يتسارعان، لكنني لم أستطع أن أفهم.

تابع: "كذبتُ بخصوص أوجست، وبشأن وجودي معه تلك الليلة".

شعرت بلسعة حادة تحت جلدي، ما جعل معدتي تؤلمني، لم تكن هذه محاولة أخيرة من رجل يائس لاستعادة حبيبته، بل كان يقول الحقيقة. كان بإمكاني سماعها في صوته.

همست: "لماذا؟ لماذا فعلتَ ذلك؟".

زم شفتيه ثم قال: "لأنه كان صديقي، وكنتُ خائفًا عليه".

خطوتُ خطوة إلى الوراء، وأنا أشعر بأنني لا أقوى على التنفس.

قال لي: "لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك، لقد فعلت ذلك وحسب. وبعد أن كذبتُ لم أستطع التراجع عن ذلك".

انحنيتُ على الشجرة، حتى لا أسقط أرضًا، وشعرتُ بالغثيان يزحف إلى حلقي عندما تذكرتُ كلمات إيلويز في الرسالة.

ما فعله أوجست...

قلت له: "السبب الوحيد لعدم اتهامه بقتل ليلي هو أنك قلتَ إنك كنت معه يا دوتش، هل تفهم ذلك؟"، لكن الأمر لم يكن هذا فحسب. كانت كذبة دوتش هي الشيء الذي تمسكت به أيضًا عندما اقتنع الجميع بأن أوجست هو القاتل.

أومأ برأسه وقال: "أعلم ذلك، لكنني أخبرك الآن لأنني قلق عليكِ يا إيميري، لا أريده أن يكون بالقرب منكِ".

ارتجف صوتي وقلت: "هل تعني أنك تعتقد أنه قتل ليلي؟".

ظل صامتًا طويلًا جدًّا، ثم قال: "أعني أنني لم أعد أعرف حتى من أصدق".

حدقت إليه بصمت قبل أن أدفعه، ثم أتجه نحو الطريق الذي اصطفت فيه الأشجار على الجانبين، وشعرت كأنها تقترب مني لتطبق عليّ، وسرت بشكل أسرع،

وأخرجت المفاتيح من جيب سترتي. وعندما وصلت إلى الشاحنة، كان كل من في بيت البستان يراقبني من خلال الأبواب المفتوحة.

حاولت إبطاء أنفاسي، بينما كنت أرمش بسرعة بسبب الدموع الساخنة التي انهمرت على وجنتيَّ، بينما استدرت لمواجهتهم، وقلت: "إذا كان لديكم شيء لتقولوه، فقولوه!".

حدقوا إليَّ في صمت، أبوت ويتيش، وإيتزيل أدلمان، ونيكسي، وجيك، وأبي، وعشرة أشخاص آخرين لم أستطع تحمُّل النظر إلى وجوههم.

ثم فتحت باب الشاحنة ودخلت، وابتلعت الصرخة التي كانت تعتمل في أعماقي، وعبثت بالمفاتيح حتى هدر المحرك، وخرجت إلى الطريق دون النظر إلى الوراء.

اتهم كل من في هذه الجزيرة تقريبًا دوتش بالكذب تلك الليلة، ولقد كلفه ذلك خسارة كل فرصة كانت لديه لكسب ثقة أي شخص مرة أخرى، حتى عيَّنه مجلس المدينة مسئولًا عن البستان، لكنه لم يتراجع عن قصته قط، ولو مرة واحدة، إلى أن قام بذلك الآن.

لكن إذا لم يكن أوجست مع دوتش تلك الليلة، فأين كان إذن؟

الفصل الرابع والثلاثون

قبل ثلاثة أشهر من الحريق

إيميري

تناثرت خصلات شعر ليلي الذهبية من حافة السرير، وكادت تلمس الأرضية الخشبية. كانت مستلقية على ظهرها، وقدماها مستندتان إلى الحائط، وذراعاها ممدودتان فوق الدثار، بينما كانت تراقب أظافر قدميها وهي تجف، وقالت: "ما زلت أعتقد أنها تستحق ذلك".

قلت لها: "ما الذي يهم في الأمر؟ أنا لا أبالي"، ثم غمست الفرشاة في زجاجة طلاء الأظافر وأغلقتها، كانت ليلي قد اختارت لونًا قرمزيًّا غامقًا يسمى *المغوية*، وهو آخر لون كنت سأختاره لنفسي.

قالت لي: "حسنًا، لكنني أبالي".

كانت قد أتت بعد انتهاء اليوم الدراسي، عندما سمعت بما حدث من دوتش، وعرفت بمجرد أن رأيتها أنها لن تدع هذا الأمر يمر بسهولة.

لقد وصفتني كلارا موردوك بـ"الوقحة" أمام نصف طلاب فصل التاريخ، ولم أكن لأهتم بذلك على الإطلاق، لكن ليلي كانت غاضبة جدًّا.

قالت في تضرُّع وقد أرجعت رأسها للوراء، وهي تنظر إليَّ بعينيها الزرقاوين اللامعتين: "شمعة سوداء صغيرة ستكون كافية، ما رأيك؟ فكما تعلمين، جدتي لديها درج كامل مخصص للعن هنري سولت".

ضحكت ثم قلت: "لماذا تكره جدتك عائلة سولت لهذا الحد؟".

قالت لي: "إنها تكره الجميع".

قلت لها مازحة: " لن نفعل أيًا من تلك الأشياء، لا شموع سوداء ولا تعويذات، ولا لعنات". كان الجانب السلبي لوجود صديقة حريصة دائمًا على حمايتي، هو اضطراري إلى كبح جماحها. والحقيقة هي أن الأمر كان مرهقًا، وكلما اقتربت من ترك سيرشا، أدركت أن هناك جزءًا مني يتوق إلى الابتعاد عن ليلي. لقد أحببتها، لكنها كانت شخصًا لا يمكن توقع تصرفاته، وقد ازداد هذا الأمر الآن أكثر من أي وقت مضى، وكان اهتمامي بالانغماس في الأحداث الدرامية الخاصة بها يقل يومًا بعد يوم.

قلت وأنا أتكئ على يديَّ وأترك قدميَّ تتأرجحان ذهابًا وإيابًا: "يبدو هذا الطلاء كأنه دم".

انقلبت ليلي على جانبها، وتأملت الطلاء ثم قالت: "هذا ما يجعله جذابًا. ما خططهما لقضاء هذه الليلة؟".

قلت لها: " لا أعرف، ربما يكون لدى أوجست بعض العمل".

تأوهت وقالت: "إنه يعمل دائمًا".

أدرت عينيَّ، فلقد امتثل أوجست لكل ما كان مطلوبًا منه من أجل والدته، وحتى تظل الأمور هادئة، لكن ليلي لم تكن لديها أية فكرة عما يعنيه القيام بشيء، يجب عليها فعله ولا تريد القيام به. وبالنظر إلى الطريقة التي رأى بها أوجست الأمر، سنكون قد رحلنا في غضون بضعة أشهر، على أية حال.

قلت لها: "دعينا نمر على دوتش، ويمكننا حينها الذهاب إلى ويكليز بوينتي".

بدا على ليلي الانزعاج.

فسألتها: "ما الأمر؟".

وضعت ذقنها بين يديها وقالت: "لا شيء، دعينا نخرج معًا، نحن الاثنتان ".

قلت لها: "حسنًا، ما رأيك في تناول بعض المثلجات؟".

أنزلت ساقيها عن السرير ووقفت، وسحبتني من الأرض ثم قالت: "موافقة ولكن إذا سمحتِ لي باختيار النكهة".

قلت لها: "إنه دورك".

قالت لي: "أنتِ على حق، إنه دوري"، ثم نظرت نحوي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة، ثم توجهت نحو المرآة الموضوعة فوق خزانة الأدراج، وشاهدتها وهي تخلل أصابعها بين خصلات شعرها.

شعرت بالذنب فجأة لأنني اعتقدت أنني لن أفتقدها. كانت شخصية صعبة المراس، وأنانية، وأكثر عنادًا من أي شخص عرفته على الإطلاق، لكننا كنا دائمًا نكمل بعضنا.

وعندما وضعت أنا وأوجست الخطة لأول مرة كان هناك جزء كبير مني يعتقد أنها لن تتحقق بنجاح أبدًا، لكن كلما اقترب الموعد أصبحت أرى الأمر بطريقة أكثر جدية، وفي النهاية كان عليَّ أن أعترف لنفسي بمدى رغبتي في ذلك.

كانت هناك أشياء كنت *سأفتقدها*، مثل تلك الطقوس الصغيرة التي جعلت هذا المكان غريبًا، والنيران المشتعلة في إيمبولك، والحصاد تحت ضوء القمر، وصوت والدتي وهي تهمس فوق أوراق الشاي في المتجر. كنت قد بلغت السن الكافية لأدرك أن سيرشا كانت مكانًا لا يشبه أي مكان آخر، وكان هناك عالم جديد تمامًا على الضفة الأخرى.

كانت والدتي ستغضب بشدة عندما تستيقظ وتجد رسالة الوداع، لكن الجوانب الجامحة في شخصيتها - والتي جعلتها تحلم ذات يوم بترك سيرشا - كانت ستجعلها فخورًا بي. وكان والدي ليحزن، لكن ما دامت والدتي بجانبه، فلم أكن لأقلق عليه.

ولكن ليلي... سوف تغضب بالتأكيد.

وضعت ذقني على كتفها، ونظرت إليها في المرآة، وقلت لها: "أنتِ جميلة جدًّا".

كان هذا صحيحًا، فقد كانت ليلي دائمًا تجسيدًا للجمال المثالي، لكنها لم تبتسم عندما قلت ذلك، كما كانت تفعل عادةً.

قالت: "ولكن اتضح لي أنها صفة عديمة الفائدة تمامًا".

اندهشت وقلت لها: "هاه؟".

قالت لي: "لا شيء".

ضحكت لكن ليلي نظرت لعينيها في المرآة، وقد أمالت فمها كما لو كانت تحاول ألا تبكي.

سألتها: "ما الأمر؟".

هزت كتفيها قائلة: "كنت أفضل أن أكون محبوبة على أن أكون جميلة".

قلت لها: "لكن الجميع يحبونك يا ليلي".

قالـت بجدية شـديدة: "ولكن ليس بالطريقة التي يحبونك أنتِ بها"، لم تكن تمزح، لكن عندما كنت على وشك الجدال، قبَّلتني على خدي، ومرت بجانبي بسرعة وهي تتجه نحو إلى الباب، وقالت: "لنذهب".

الفصل الخامس والثلاثون

إيميري

سحبت السكين إلى أسفل الطاولة، وقطعت ورق تغليف اللحم بضربة واحدة لقطع متساوية ذات حواف ناعمة. كان شارع ماين خاليًا، وكان المتجر مظلمًا، لكنني لم أستطع العودة إلى المنزل، حيث الكثير من الأشباح التي تنتظرني.

تسلل نسيم البحر إلى المتجر من خلال الباب المفتوح، ولمس كل زاوية من الغرفة الصغيرة، فقمت بربط سيقان نبات الصفصاف معًا. ربطت أطرافها، قبل أن أطوي الورق فوقها وألصقها. كانت قد تركت بضعة أيام في انتظار تعليقها بشكل صحيح، وعندما انتهيت كان المكان قد عبق برائحته الحلوة التي ذكَّرتني بأمي. كانت هذه هي وظيفتي عندما كنت أعمل معها وأنا طفلة، فكنت أقلم الأعشاب المكدسة في السلة وأجففها للشاي.

لم أخبر أحدًا بما قاله دوتش، ولا حتى نيكسي، والآن بعد أن أضعت رسالة إيلويز، لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أفعل. هل أذهب إلى جيك، كما كان ينبغي لي أن أفعل سابقًا؟ أم أخبر مجلس المدينة؟ ولكن كلما فكرت في الأمر زاد شعوري بالغثيان.

الأسوأ من ذلك أن تلك الكذبة كانت قد انطلت على الكثيرين سنوات عديدة. أردت أن أصدقها، وهكذا فعلت. لم ألح على دوتش قط للحصول على تفاصيل، ولم أحثه على الحديث عن تلك الليلة. وقلت لنفسي إن السبب هو أنني لا أريد أن

أتذكرها، أردت أن أمضي قدمًا، لكن في أعماقي، كنت خائفة من أنني إذا فعلت ذلك فلن يعجبني ما سأعرفه.

ليلي، وأوجست، ودوتش، ووالداي، وإيلويز، ونيكسي... بدأت أعتقد أنه لا يوجد أحد على هذه الجزيرة لم يكذب بشأن شيء ما، ولم أكن أنا مختلفة عنهم، فقد كنت أحتفظ بهذا المجلد في الدرج السفلي سنوات.

كان الكرسي يحتك بالأرضية وأنا أحركه نحو النافذة، فصعدت، وعلقت الصفصاف على الخيط المشدود الذي كان يمتد بطول حافة السقف. تأرجحت الحزمة، وألقت بظلها على ألواح الأرضية، وعندما سمعت الصوت الخافت لصلصلة الخزف، اتجهت نظراتي نحو الخزانة.

كانت أكواب الشاي ترتطم بأطباقها بهدوء؛ ما جعلني أتجمد في مكاني. وكان صدى شعوري هذا يتردد في الهواء وعبر جسدي، بلمسة سحرية. أو ربما كانت تلك هي الهمسات التي تسكن أعماق الجزيرة.

نزلت وترددت قبل أن أخطو نحو الخزانة. كنت أسمع صوت أنفاسي وخفقات قلبي، ثم رفعت يدي نحو فنجان الشاي الأخضر الذي أقسمت أنني لن ألمسه مرة أخرى. شعرت بحرقة في أطراف أصابعي عندما اهتز الضوء على الحائط بجانبي وارتجفت.

وقفت ليودا عند المدخل وعيناها متسعتان وقالت: "يا إلهي!".

ضغطت يدي على صدري، وازدردت لعابي وقلت: "لقد أفزعتني".

خطت إلى الداخل، وهي تراقبني في حيرة ثم قالت: "كلتانا متوترة بعض الشيء، أليس كذلك؟".

قلت لها: "لم أسمعك وأنتِ تصعدين الدرج".

كان وشاحها ملفوفًا حول كتفيها مخفيًا نصف فمها، لكنني استطعت أن أرى السؤال في عينيها قبل أن تنطق به، قالت: "هل كل شيء على ما يرام يا عزيزتي؟ تبدين مرتجفة بعض الشيء".

تنحنحت ثم قلت: "إنني بخير"، ثم لففت الورقة مرة أخرى، وأسقطت السكين في العلبة على المنضدة.

قالت وعيناها تنظران نحو الخزانة: "لقد مرت سنوات منذ أن رأيتك تهتمين بأوراق الشاي".

لم توافق ليودا على توليتي إدارة المتجر، وتوقفت عن تقديم تنبؤاتها عن طريق قراءة أوراق الشاي كما كانت تفعل والدتي، ولم تسمح لي قط بنسيان ذلك أيضًا.

مدّت يدها إلى الجيب العميق لسترتها، وأخرجت قطارة زجاجية صغيرة باللون الكهرماني، ثم قالت: "أخبرني هانز بأنكِ مررت عليه للبحث عن تلك".

حدقت إليها وهي تمسكها أمامي.

سألتني، وهي ترفعها إلى أعلى: "هل عادت الكوابيس؟".

أخذتها، وقلبت الزجاجة الصغيرة في يدي حتى أتمكن من قراءة الملصق. جربت كل الأعشاب التي كانت لديَّ في المتجر للنوم، لكن لا شيء كان فعالًا. كنت بحاجة إلى شيء أقوى، وكانت وصفة ليودا المستخلصة من جذور الفاليريان قوية في علاج الأرق، وكانت تستغرق منها شهورًا لصنعها، وإذا لم تساعدني تلك الوصفة، فقد أصاب بانهيار عصبي وأذهب أخيرًا إلى جدتي.

قالت لي: "سمعت أنه حدث شجار كبير في البستان في وقت سابق".

بالطبع سمعت بالأمر، فقلت لها: "نعم تشاجرت أنا ودوتش".

جلستْ على أحد المقاعد، ووضعت مرفقها على سطح الطاولة، ثم قالت: "هممم، هل كل شيء على ما يرام؟".

قلت لها: "ليس تمامًا".

ابتسمت لي في تعاطف، ثم قالت: "لم يكن الأمر سهلًا على أي شخص، خاصة مع كل تلك الفوضى التي سبَّبها أوجست".

تجمدت في مكاني، وكززت على أسناني، فلم أكن أرغب في التحدث عن أوجست.

قالت، بطريقة أكثر هدوءًا: "أنتِ تعرفين أنني سأظل بجانبك إذا كنتِ بحاجة إليَّ".

أومأت برأسي: "أعرف".

قالت: "هل ستفعلين ذلك حقًّا؟ لأنني أرى أنك تحملين عبئًا كبيرًا".

طوال كل تلك السنين لم نتحدث كثيرًا عن ليلي، لكن ليودا كانت واحدة من الأشخاص القلائل المتبقين على الجزيرة الذين فهموا كيف كانت علاقتنا متوطدة بحلوها ومرها.

قلت لها: "حسنًا، لقد تشاجرنا أنا وليلي في آخر مرة تحدثنا فيها، هل أخبرتُك بذلك من قبل؟".

قالت لي: "لا، لم تخبريني بذلك".

قلت لها: "كنا قد تناولنا الغداء في المقهى بعد حفل التخرج، ثم تشاجرنا بشأن شيء ما. كان أمرًا تافهًا، لكنها كانت غاضبة مني"، ازدردت لعابي وأنا أشعر بالألم في حلقي، ثم تابعت: "كانت هذه هي آخر مرة أراها فيها".

قالت لي: "حسنًا، لقد كنتما مثل أختين يا إيم، والأخوات يتشاجرن".

قلت لنفسي الشيء نفسه مرات عديدة. كانت ليلي غاضبة عندما علمت بأمر تذاكر العبَّارة وخطتنا لمغادرة الجزيرة، وكنت أعلم أنها لن تكون سعيدة، لكن النظرة التي رأيتها في عينيها...

التقطت ليودا إحدى سيقان الصفصاف المقصوصة من فوق الطاولة، ولفتها بين أصابعها، ثم قالت: "من الطبيعي، كما تعلمين أن تعيدي تذكر كل تلك اللحظات في ذهنك، وتحاولي فهمها".

سألتها: "هل تتذكرين آخر مرة رأيتها فيها؟"، ثم جلست ووضعت الزجاجة بيننا.

أغمضت عينيها، وضمت شفتيها، كأنها تستعيد تلك الذكرى، ثم أجابتني: "بالطبع، كان ذلك في حفل التخرج، في حديقة المدرسة، كنا نلتقط الصور، وكانت ليلي غير صبور، لكنها وقفت لالتقاط الصور على أية حال". ابتسمت فجأة لنفسها ثم قالت: "آخر مرة رأيتها فيها، كانت تركض بعيدًا، وكان رداء التخرج يرفرف خلفها".

كنت قد رأيت ذلك أيضًا. كان شعرها الأشقر الناعم يتوهج تحت أشعة الشمس الذهبية، وبشرتها الفاتحة يغطيها النمش. كنا نتصرف مثل الأخوات، لكن عند النظر إلى الأمر الآن، يمكنني أن أرى كيف كنا مختلفتين تمامًا. لم يكن مزاجانا متشابهين أيضًا، حيث كانت ليلي تملك قلبًا ينبض بالشغف وعينين تتقدان بعواطفها الجياشة، بينما كنت أنا الطرف الأكثر هدوءًا الذي كان يتبعها دائمًا.

تمتمت ليودا": لم تكن فتاة بسيطة، وكانت تنتابها نوبات القلق مثل أي شخص آخر".

نظرت نحوها وأنا أتأملها، وتساءلت لأول مرة عما إذا كانت ليلي قد أخبرت شخصًا ما بسرها. لو كانت قد ذهبت إلى أي شخص بعد أن اكتشفت أنها حبلى،

لكان هذا الشخص هو ليودا. انتظرت على أمل أن تقول شيئًا لتأكيد ذلك، لكن بدا أن رغبتي تلك لن تتحقق، وأن الحقائق غير المعلنة قد ارتدت عباءة الصمت.

قالت ليودا: "كما تعلمين، وبعد مرور سنوات على الحريق، كنت أعتقد أن هذه المدينة لن تصمد. كانت هناك بعض الأيام المظلمة، وكنت أتساءل ماذا ستقول جيريتا مورجان، إذا تمكنت من رؤية ما الذي تعلمناه من مهارتها السحرية، لكن اتضح لي أن الموت هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يصحح الأمور في بعض الأحيان".

سألتها: "يصحح الأمور؟".

قالت ليودا، وهي تضع يدها الناعمة الدافئة فوق يدي: "لا يهم، ولكنكِ ستخبرينني إذا كنت بحاجة إلى أي شيء، أليس كذلك؟"، انتظرت مني أن أجيب فأومأت برأسي قبل أن تتجه نحو الباب، وهي تلف الوشاح حولها بإحكام.

راقبتها وهي تلتقط الفانوس وتدير المفتاح، وسمعت صوت غاز البروبان عندما اشتعل الضوء داخل الزجاج، ثم تلاشى بريقه وهي تشق طريقها عبر الشارع.

لم أخبر أحدًا قط من قبل بتلك المشاجرة مع ليلي، حتى والديَّ، ربما لأنني كنت خائفة من تذكرها. لقد تشاجرنا ألف مرة حول ألف شيء، لكن تلك المشاجرة كانت مختلفة، وللحظة، بينما كنت جالسة أمامها إلى الطاولة، شعرت كأنني أراها بوضوح لأول مرة، لجزء من الثانية، وظننت حتى أنني كرهتها.

بدأت أسمع صوت الخشخشة مرة أخرى، وبهدوء، رفعت عيني مرة أخرى نحو الخزانة، حيث كان فنجان الشاي الأخضر يلمع في ضوء الشموع. كانت آخر مرة أمسكت به بين يدي، هي المرة الأولى التي شعرت فيها بثقل الظلام الذي طوق الجزيرة وهو يندفع في عروقي، ويتسلل عبر جسدي مثل السم.

صلصل غطاء إبريق الشاي والصحون عندما وضعت يدي على الطاولة، وانحنيت للأمام فوق الشمعة. شعرت بحرارتها وهي تلامس بشرتي، وحاولت أن أركز انتباهي بينما كنت أراقب اللهب وهو يرقص فوق الفتيل. سقطت قطرة من الشمع الشفاف تحتها، وكان بإمكاني أن أشعر بالنار على لساني، وبغليان يفور في معدتي. كانت عيناي تحترقان من وهج النار، وتخيلت الفتيل وهو منطفئ، وبمجرد أن فكرت في ذلك، انطفأت الشمعة، تاركة المكان مغمورًا بالظلام.

الفصل السادس والثلاثون

إيميري

استيقظت من النوم وأنا ألهث، وكانت يداي ممسكتين بثوب نومي المبلل بالعرق.

كنت في المنزل، محاطة بالجدران الأربعة لغرفة نومي، لكن البحر المظلم كان ما زال يلمع أمام عيني، وشعرت بألم الأظافر التي كانت تخدش بشرتي، وكان بإمكاني أن أشعر باللسعة المؤلمة لها منذ بضع ثوانٍ فقط.

بحثت بطول ذراعي عن العلامات التي رأيتها في الكابوس، وبينما كنت أتحسس عظامي بأصابعي المرتجفة، كان بإمكاني أن أشعر بالألم، لكن العلامات كانت قد اختفت.

أولاً، عادت الكوابيس في شكل مشاهد متفرقة، مثل خيط مهترئ، لكنها الآن أصبحت مثل لوحة مكتملة رُسمت في ذهني. كانت قبضتي مليئة بالشعر المبلل المتشابك، والماء البارد كان يتلألأ من حولي، والصراخ... ما زلت أستطيع سماع الصراخ.

حاولت أن أبطئ تنفسي، ففتحت الجزء العلوي من قميص نومي، حتى أتمكن من الشعور بهواء الليل البارد على بشرتي الساخنة. لم أخبر أحدًا قط بما رأيته في الظلام ما بين الاستيقاظ والنوم، ولم أجرؤ قط على التلفظ به بصوت مرتفع.

كنت أقف في الماء الذي وصل حتى خصري، وكانت قدماي العاريتان مخدرتين تقريبًا على القاع الصخري، ورأيت يدي تمسكها تحت الماء. كان شعرها يطفو

حولها وهي تركل، محاولةً أن تثبت قدميها، وعندما خرجت إلى السطح كان صراخها يمزق الصمت. دفعت بها إلى الأسفل مرة أخرى وبقوة أكبر بذراعي المشدودتين، فتسابقت فقاعات الماء على أصابعي بقوة، ثم فجأة اختفت.

لم أتركها إلا عندما انزلقت يداها بجانبها بلا أي أثر للحياة فيهما، لكن عندما طفت على السطح وانعكس ضوء القمر على وجهها، لم تكن ليلي.

بل كنت أنا.

مددت يدي إلى المصباح الموجود على طاولة السرير، فغمر الضوء الغرفة، وبدا لي أن ضوءه قد بدد آثار الحلم الذي كان يحوم حولي في الظلام. كانت الزجاجة التي جلبتها لي ليودا موضوعة بجانبي، لكن هذا لم يكن مرضًا في جسمي يحتاج إلى علاجه بالأعشاب، بل كان شيئًا آخر.

في أعماقي، كنت أعلم أن أوجست كان يخفي شيئًا، فبعد أن ذهب والدي إلى المدينة وجاء عمي جيك إلى المنزل ليطرح عليَّ أسئلة، كان أوجست ينتظر في الميناء، وكنت أنا ونيكسي نستقل أول عبَّارة، لنكون مع والدتي في المستشفى، وقد انفجر في البكاء عندما رآني.

لكنه لم يلمسني ونحن واقفان على الرصيف. أتذكر أنني لففت ذراعي حوله، لكن أوجست وقف هناك متجمدًا، وكل عضلة في جسده كانت متصلبة مثل الحجر.

لم أصدق ذلك قط، ولا حتى عندما بدأت الهمسات الأولى حول عدم حضوره الحفل، ولا حتى عندما بدأ الجميع في سيرشا يتساءلون، الواحد تلو الآخر، واقتنع كل من عرفناه بذلك لكنني لم أصدق قط أنه قتل ليلي.

كيف لي أن أصدق؟ كان حبي لأوجست حبًّا أعمى، وكان رباط الحب يربطني به بقوة، عرفت ذلك لأنني كنت الشخص الذي أشعل شعلة الحب تلك.

سمعت لأول مرة قصة القمر الدموي من جدتي. وعندما أغمضت عيني، وتمَّكنت من رؤية الصفحة في كتاب الظلال الخاص بها، حيث الكتابة الدقيقة المكتوبة على الورق السميك على شكل صفوف. لكن في تلك الليلة التي قضيتها في الماء، وبينما كنت أتحسس صدر أوجست حتى أتمكن من الشعور بنبضات قلبه، كنت أرغب في الارتباط به. كانت تلك رغبة يائسة ومؤلمة، ولُدت من خوفي من أن أفقده، وكان هذا القرار بمثابة لعنة طاردتني طيلة حياتي.

كان ينبغـي لـي أن أفعل ذلك منذ سـنوات، لكن لم تكن لديَّ الشـجاعة قط. كان هذا الألم الذي بداخلي أشـبه بزجاج مكسـور أمسـك به بقبضة يدي. كنت أعلم أنه يسـتجلب الدم، ويسـتنزف دمي طوال اليوم، وكل يوم، لكن مع ذلك، لم أسـتطع أن أفتح أصابعي وألقي به أرضًا؛ لأن هذا الحب لم يكن حبًّا عاديًّا.

نهضـت مـن فـوق السـرير، وتجولت في المنـزل بقدمـي الثقيلتيـن، وبحثت عن حذائي وسـترتي. كانت المفاتيح تتدلى من أصابعي، بينما كنت أسـير نحو الشاحنة وأفتح الباب. كان القمر ساطعًا والسماء صافية لأول مرة منذ أيام.

كان هذا جيدًا؛ لأنني اعتقدت أننا سنحتاج إلى القمر.

الفصل السابع والثلاثون

ألبرتين

وفقًا لحساباتي، كان القمر مكتملًا تقريبًا، واستطعت أن أشعر بتأثيره في الجزيرة، وفي خشخشة أوراق الخريف المتساقطة ورائحة الأزهار الذابلة، وحتى في الطريقة التي كانت الأمواج تضرب بها الشاطئ. لم أتمكن قط من رؤية ضوئه، لكنه كان موجودًا على أية حال. وفي هذه الليلة، كنت أشعر به وهو يغني في الظلام.

كنت قد استيقظت على صوت البومة.

كان ذهني مشوشًا من أثر النوم، واستنشقت رائحة المطر الكثيفة، وشعرت بالدوار، وأنا ما زلت أستفيق من أحلامي المتقطعة. استنشقت الهواء بينما كان الصوت يدوي عبر النافذة المفتوحة مرة أخرى. ثلاثة نداءات حادة قادمة من أعلى فروع الصنوبر الأبيض.

نهضت ببطء حتى لا أوقظ آلام عظامي، فلقد كانت آلامي تزداد مع الأيام، وكلما حل الشتاء على الجزيرة كانت آلامي تبدو أكثر عنادًا من المعتاد، لكن لم يكن بإمكاني منع نداء الجزيرة.

شيئًا فشيئًا، امتلأت الغرفة بالحياة من حولي، وأنا أسمع الأصوات المألوفة وأشعربالاهتزازات التي أعرفها. حركت أصابع قدميَّ على الأرض حتى وجدت نعلي،

ونهضت من الفراش وأنا أضم ردائي إليَّ، كان المنزل صامتًا، لكنني استطعت سماع حركة الهواء أسفل الرواق، وتحوُّله مع تغير اتجاه الرياح في الخارج.

تلمست بأطراف أصابعي الجدار الأملس، وأنا أخطو نحو غرفة المعيشة. وعندما وصلت إلى المدفأة جلست أبحث في دلو الحطب، حتى وجدت ما كنت أحتاج إليه لإشعال النار. أخبرني حدسي بأن تلك الليلة ستكون طويلة.

كدستُ حفنة من إبر الصنوبر وبعض أوراق الشجر بعناية على الشبكة داخل المدفأة، وفتحت صندوق الصابون لأحضر عود ثقاب. اشتعل اللهب مصدرًا هسهسة خفيفة فشعرت بدفء النار على وجنتيَّ، بينما كنت أقترب لأشعل الحطب.

سمعت صوت الإطارات وهي تحتكُّ بالأرض الناعمة، قبل أن أتمكن من مد يدي نحو آخر قطعة من الخشب. كانت تلك هي شاحنة إيميري.

كنت أستطيع أن أميز بين أصوات الإطارات المختلفة، بالإضافة إلى كل محرك على هذه الجزيرة، ولكنها في هذه الليلة، دخلت المنزل بسرعة كبيرة، وأصدرت الفرامل صريرًا عاليًا، عندما توقفت بسرعة. حاولت تخمين بضعة أسباب لوجودها هنا في هذا الوقت، ولم يكن أي منها جيدًا.

استدرت نحو الباب والنار خلف ظهري، منتظرة، سمعت وقع خطواتها صاعدة الدرج، ثم ترددت. كانت تفعل ذلك دائمًا عندما يكون هناك خطب ما.

تبع نقر المقبض صرير مفصلات الباب الزجاجي، وشعرت بهواء الليل وهو يدخل المنزل. استطعت أن أشعر بها أيضًا، إنها روح ثقيلة، مثل حجر ألقي في الماء الذي كان يسحبه إلى أسفل، وأسفل وأسفل.

قالت في رقة وفي قلق أيضًا: "هل ما زلتِ مستيقظة؟".

وضعت يدي بالقرب من النار، كي يتدفق الدم إلى أصابعي، ثم قلت لها: "بالطبع أنا كذلك"، ثم قربت أذني منها، لأسمع وقْع أنفاسها، ورنين المفاتيح التي كانت تعبث بها، ووقفتها القلقة، وهي تميل نحو الباب.

رسمت صورة في ذهني، صورة لا يستطيع أحد سواي رؤيتها. لم يسبق لي أن رأيت حفيدتي، لكنني كنت منتبهة للأشياء التي كان يغفل عنها الناس عادة، لم أكن بحاجة إلى رؤيتها لأعرف أنها منزعجة، وأنها كانت على وشك أن تجهش بالبكاء.

سألتها بهدوء: "ما الأمر يا حبيبتي؟".

مـرت لحظـات من الصمـت قبل أن تبـدأ التحرك نحـوي، وفي اللحظة نفسـها، كانت تدس نفسـها بين ذراعـي، فضممتها نحوي وأنا أعانقها بقـوة. كانت رائحتها مثل رائحة الغابة، لكن جلدها كان ساخنًا، كأنها كانت تبكي.

وسـمعت صوتها المكتوم عند كتفي، وأنا أضع خدي على خدها. كنت أفعل ذلك منذ أن كانت صغيرة، لكنها لم تعد طفلة.

قالت لي أخيرًا: "أنا بحاجة لمساعدتك".

انتظرت قليلًا ثم قلت لها: "حسنًا".

انفلتـت مـن بين ذراعـي ببطء. كانـت النار تتوهـج الآن، وملأ الـدفء كل زوايا الغرفة من حولنا. أطلقت زفرة طويلة قبل أن تبدأ الكلام.

قالت إيميري: "ذات مرة، أخبرتنى بأن القسم الذي يؤدَّى في ظل القمر الدموي هو قسم ملزم، هل هذا صحيح؟".

أملت رأسي، وقلت: "إذا كان قد أُدي بجدية، فسيصبح ملزمًا بالتأكيد".

سكتت للحظة ثم قالت: "هل تعرفين كيفية الحنث بذلك القسم؟"

تسـارعت الأسـئلة في ذهني، لكنني بالطبع لم أسألها، لقد شعرت كأن كل شيء كان كما في السـابق، عندما كانت إيميري مثل طائر صغير مسـتعد لتعلُّم الطيران، وأنني لو قمت بخطوة خطأ واحدة، فسوف أفقدها؛ لذا قلت لها: "نعم، أعرف".

أطلقت زفرة طويلة وثقيلة من بين شـفتيها، وقد بدا عليها الارتياح، ثم سـألتني: "هل ستساعدينني؟".

تـرددت وأنـا أفكر في الأمر، فلم أسـتطع أن أتذكر سـوى مرتيـن جاءتني فيهما إيميري من أجل كتاب التعويذات، مرة، بسـبب الكوابيس، والأخرى عندما علمنـا أن مرض والدتها لن يتحسن. لقد فتحت الكتاب فقط لنجد حلًّا لأحد هذين الطلبين.

مـددت يـدي في الهـواء أمامـي حتى وجـدت يدها، ولففـت أصابعـي برفق حول معصمها، وشعرت بنبضها وهو يتسارع، سألتها: "أوجست؟".

كانت أنفاسها متقطعة، ثم أمسكت بيدي ووضعتها على وجهها وأومأت برأسها، وهي غير قادرة على الكلام.

احتضنتهـا مـرة أخرى، وأجبرت نفسـي على عـدم الكلام، حتـى لا أقول كلمات لـم تكن تريد سـماعها فذات يوم. سـيكون كتـاب التعويذات ملكًا لها، وستسـتخدمه بالطريقة التي ستراها مناسبة. لكن اليوم، كانت تطلب مني ذلك.

حذرتها قائلة: "هناك تعويذات لإنهاء الأمور وتعويذات لإصلاحها، لكن لا توجد تعويذات للنسيان".

ظلت صامتة فترة طويلة، ثم قالت: "أفهم ذلك".

نهضت من مكاني، وتركتها جالسة بالقرب من النار، وأمسكت بالحائط وأنا في طريقي نحو المطبخ كانت الأبواب والأدراج الصغيرة للخزانة القديمة المصنوعة من خشب الصنوبر تحتوي على كل شيء من أجنحة الفراشات إلى الأحجار السحرية ورماد الأخشاب، لكننا كنا نحتاج فقط إلى ثلاثة حبال وشفرة من أجل إلقاء تلك التعويذة.

بحثت يداي عن تلك الأشياء. شممتُ حزم الأعشاب حتى وجدت عشبة النار، ثم الملح بعد ذلك، ثم شمعة جديدة ووعاءً صغيرًا وعندما حصلت على كل ما نحتاج إليه، عدت إلى غرفة المعيشة، حيث كانت إيميري تنتظرني.

قلت وأنا أمسك بالوعاء: "نحتاج للقليل من مياه الأمطار يا حبيبتي"، فأخذته مني بسرعة.

تحسست بيدي على طول رف الموقد بحثًا عن كتاب التعويذات، بينما كانت هي تتجه نحو الباب، لكن أصابعي وجدت حجر الحماية أولًا، فتجمدت في مكاني، ثم التقطته وشعرت بثقله في راحة يدي. كان الخيط ملفوفًا بإحكام حول الحجر الأملس البيضاوي، بلا تغيير منذ أعددته قبل سنوات.

كانت هناك أيضًا تعويذات للحماية، لكنني لم أستخدمها إلا مرة واحدة.

تمكَّنت من شم رائحة المرض الذي أصاب هنري سولت، قبل أن يتمكن أي شخص آخر من رؤيته. لم يكن ذلك المرض مرضًا طبيعيًّا يخيم على الأجساد الذابلة، بل كانت له رائحة مميزة تشبه رائحة أسحار المرض، وعرفت على الفور تقريبًا مصدره.

لم أكن أهتم قط بهنري، أو ابنه كالفن، لكنني أنقذت حياة ذلك الوغد، فسواء شئت أم أبيت لم يكن بإمكاني ترك شخص يعاني السحر الأسود، وكان واجبي أن أكبِّل يد أية ساحرة على هذه الجزيرة تستخدمه، وهذا ما فعلته.

لففت الخيط حول الحجر سبع مرات، وفي كل مرة كنت أنطق بالكلمات المطلوبة، وبعد بضعة أيام خف سعال هنري، واختفت الغرغرة في صوته، لكنني

احتفظت بالحجر فترة طويلة بعد أن شُفي، وحتى بعد وفاته. علمتنا الجزيرة فنون السحر، لكن كان هناك أشخاص لا يمكن الوثوق بهم في هذا المجال.

ظهرت إيميري مرة أخرى عند المدخل المفتوح، ورفعت يدي لإيقافها، وقلت: "اتركيه مفتوحًا".

سيفيدنا الهواء البارد، وسيحتاج هذا السحر إلى مكان آخر يذهب إليه بمجرد أن ننتهي.

وضعت الحجر مكانه، ورفعت كتاب التعويذات، وانفتح الغطاء الثقيل على حضني وأنا جالسة، وتحسست الصفحات لأجد الزاوية السادسة المطوية في الأسفل ناحية اليمين، حيث وُضع غصن من عشبة النار المجففة هناك.

عادت إيميري واقتربت من النار، ووجهت يدي نحو الوعاء حتى أتمكن من أخذه.

أمرتها وأنا أضع الماء على حافة الوعاء أمام النار: "اجلسي".

جلست أمامي، وأعطيتها الشمعة لتشعلها، بينما كنت أسكب الملح من الوعاء، فسمعت أصوات الحبيبات الصغيرة وهي تتساقط على جوانب الوعاء، ثم وضعت إيميري الشمعة أمامها، وانتظرت حتى عُبق الهواء برائحة عشبة النار القوية، وذلك بعد أن قربت الحزمة من لهب الشمعة، وتجمَّع الدخان حولي كأنه كان يهمس في أذني.

الوعاء، والماء والملح، والأرض والدخان، والهواء والشمعة، والنار، كنا مستعدتين للبدء.

قلت لها بلطف: "خذي الحبل، واقطعي منه ثلاثة مقاسات متماثلة".

فأخذت تقيس كل واحد منها بعناية، وعندما انتهت، وضعت السكين أرضًا، وقالت: "حسنًا، لقد انتهيت".

قلت لها: "اربطيها معًا هكذا"، وتلمست الخيط، وجمعت الأطراف الثلاثة وأريتها كيف عليها أن تربطها.

قالت لي: "لقد ربطتها".

مددت يدي إلى حيث كانت الخيوط الثلاثة تتدلى من يديها، ووجدت العقدة، وأمسكت بها بإحكام بين أصابعي، وقلت لها: "هنا يكمن القسم الذي قطعته، فتلك العقدة تمثل النقطة الزمنية أو اللحظة. والآن خذي الخيوط الثلاثة، وضفّريها بالطريقة العكسية". أمسكت بالعقدة بينما كانت تنسج الخيوط معًا بإيقاع بطيء،

تمتمتُ وقلت: "الماضي، والحاضر، والمستقبل"، كان هناك خيط واحد لكل واحد من الأزمنة. سحبت العقدة برفق ذهابًا وإيابًا، وشعرت بيديها ترتعشان بينما كانت تضفر أحدهم فوق الآخر، قلت لها: "الآن، اعقدي الطرف الآخر، فهذه تمثل اللحظة الحالية".

أطبق الصمت على الغرفة مرة أخرى، على الرغم من فرقعة النار وصوت تساقط الأمطار. شعرت بالهواء حولنا ينبض بالحياة، لكن الهدوء كان نابعًا من إيميري.

كانت الضفيرة مشدودة بيننا، وهي تمسك بطرف وأنا أمسك بالطرف الآخر. وجدت السكين على الحافة الحجرية، فأمسكت بها.

سألتها في جدية وأنا آمل أن تتراجع عن قرارها: "هل ما زلت تودين فعل ذلك؟".

عندما كانا صغيرين كنت أشعر بأن الهواء بينهما مشحون. كان ذلك شيئًا نادرًا، لكنها لم تكن مسألة حساسة، كنت أعرف أنها إذا قطعت الحبل فلن تفقد أوجست فحسب، بل ستفقد جزءًا من نفسها.

ظلت إيميري هادئة فترة طويلة، لدرجة أنني ظننت أنها لم تعد موجودة في الغرفة للحظة.

ثم أجابتني، وهي تمسك بالسكين: "بكل تأكيد".

تنهدت وأغلقت عيني، ثم قلت لها: "رددي الكلمات".

انزلقت أصابع إيميري على الصفحة السميكة لكتاب التعويذات وخفضت صوتها، وقالت: أنا أقطع الرابط بين الماضي والحاضر والمستقبل".

وشعرت بالحبل المضفر يشد بعيدًا عن أصابعي، بينما كانت تضع السكين عليه.

أمرتها: "رددي ذلك مرة أخرى".

قالت: "أنا أقطع الرابط بين الماضي والحاضر والمستقبل".

قلت لها: "رددى ذلك مرة ثالثة".

ارتفع صوتها، وتغيرت نبرة صوتها مع ترديد الكلمات، واستطعت تمييز ذلك، فقد بدأ السحر. لم تكن إيميري منجذبة إلى ممارسة السحر مثل النساء الأخريات في عائلتنا، لكنني شعرت بأن الوقت قد اقترب وأنها ستتغير. انتابتني قشعريرة.

وفجأة انفتح الباب مرتطمًا بالحائط، وعوت الرياح في الخارج، وومض البرق أمام المنزل وأضاء الجدران والباب المفتوح.

عندما صمتت، أومأت برأسي، ولمست يدها التي كانت تمسك بالسكين فوق الحبل المضفر.

تسارعت أنفاسها، وتعاقبت مثل أمواج البحر، وضربت موجة أخرى من البرق السماء، وشعرت بالشد يزداد فوق السكين الموضوعة على الحبل. حبست أنفاسي، في ترقُّب، ولكن في اللحظة التالية، سمعت الصوت الحاد للسكين وهو يضرب الحجر بعنف، ويكسر حاجز الصمت.

تجمدت في مكاني وأنا أنصت لكل حركة، لكن لم يكن هناك سوى صوت المطر، وصوت صفحات كتاب التعويذات وهي ترفرف بفعل الريح. عندما نطقت بهذه الكلمات، كان وقع ذلك أشبه بطبقة رقيقة من الصقيع وهي تضرب الزجاج.

همست: "لا أستطيع، لا أستطيع فعل ذلك".

الفصل الثامن والثلاثون

أوجست

كان هالـو بيتـش مكانـنـا المفضل؛ فقد قضينـا نحن الأربعة معظـم عطلات نهاية الأسـبوع علـى شـواطئه الصخريـة في سـنتنا الأخيرة مـن المدرسـة الثانوية، وكان ذلك عندما اكتشفنا أنه المكان الوحيد الذي لن يبحث آباؤنا فيه عنا مطلقًا. كانت الجزيـرة ممتلئة بالشـواطئ، لكن هذا الشـاطيء كان صخريًّا وذا سـواحل متعرجة ممتلئـة بأكـوام من الحجارة، كمـا أنه كان يشـهد دائمًا ارتفاعًا فـي حركة الأمواج، بسبب رياحه الشديدة حتى في أهدأ الأيام.

عندما وقفت هنـاك الآن، أدركت أن المكان قد فقد كل جماله.

كان بزوغ الفجر قد اقترب، وكان هذا هو آخر شـيء سـأراه في سيرشـا. عندما تغادر العبَّارة سأكون على متنها.

جعلتني هذه الفكرة أشـعر بغصة في حلقي، إلا أنني لم أسـتطع أن أفهم السـبب في ذلك الشـعور، فاليوم الذي كنت سـأغادر فيه الجزيرة، هو اليوم الذي سـأصبح فيه حرًّا، ليس فقط من الشكوك والاتهامات حول مقتل ليلي، لكنه كذلك اليوم الذي ستُقطع فيه صلتي بالبستان، وبإرث عائلة سولت الذي كان بمثابة سيف مُصْلَت على رقبتي طوال حياتي.

قالـت والدتـي إن الجزيرة سـتظل تناديننا دائمًا، وأن أي شـخص يغادر سيشـعر بهذا الحنين بقية حياته، وكان هذا صحيحًا. لم أستطع إلا أن أتساءل عما إذا كانت

أمنياتها الأخيرة لتُدفن هناك، لم تكن بدافع فقط من رغبتها في العودة، بل كانت وسيلة للتأكد من عودتي أنا أيضًا، وربما كلا الأمرين.

كان هناك صف من الأشجار الكثيفة يطل على الشاطئ بالأسفل، وتأملت زبد البحر وهو يصدر فورانًا، بينما كان يبتعد عن الصخور. وعلى مسافة بعيدة، كنت بصعوبة أرى القفزات العالية لحيتان الأوركا والسحب المائية التي كانت تتركها خلفها وسط الأمواج كنت قد اعتدت أن أشاهدها من فوق المنارة في فصل الخريف في الأيام النادرة التي كنت أحظي فيها ببعض الإجازات من عملي في البستان، بينما كان على إيميري أن تعمل في المتجر. في غضون أيام قليلة ستختفي هذه الحيتان.

كنت قد استيقظت ليلًا وبدأت السير في الطريق على غير هدى، ولم أكن أرغب عند شروق الشمس، في رؤية البقعة السوداء على الأرض التي كانت تحيط ببقايا هيكل شاحنة فورد القديمة، ولا في رؤية انهيار الشرفة أو الصورة الموضوعة على رف الموقد. كان التذكُّر أسوأ من أي شيء آخر.

كنا جميعاً، إيميري ودوتش وليلي وأنا، نستلقي على الصخور كي ننعم بأشعة الشمس الدافئة، ونتشارك المشروبات، ونضحك على أي شيء تافه حتى تؤلمنا بطوننا.

كانت لدى ليلي ضحكة مميزة عالية النبرة، لكن ليلي تلك التي كانت تضحك بجوار الشاطئ، كانت بعيدة كل البعد عن ليلي التي رأيتها آخر مرة. كنت لا أزال أسمع بكاءها يتردد في أذني، وأشعر بيديها وهي تتشبث بقميصي، وبأصابعها البيضاء. كانت تلك الذكريات تلاحقني في كل مكان أذهب إليه، وحتى هنا لم يتمكن صوت الماء الهادر من محوها.

حدقت إلى الماء المنحسر على الشاطئ عند قدمي، وتأملت صورتي المنعكسة وهي تتبدد على صفحة الماء ثم وهي تتكون من جديد مع حركة المد، لتنتج نسخًا لا حصر لها من صورتي.

يمكنني إلقاء اللوم على الجزيرة، لكنني كنت أنا الشخص الذي أفسد كل شيء، وكان ذلك من أجل أمي، ومن أجل إيميري. لن يتمكن البحر بأكمله من غسل وصمة عار ما فعلته، ولقد عشت مع تلك الحقيقة سنوات.

كانت الغابة صامتة أثناء عودتي إلى الكوخ، وعندما وصلت إلى منعطف الطريق، تمكنت من رؤية إيميري وهي تقود شاحنتها عبر الأشجار، ولم أر الشاحنة منذ أن استيقظت، وحاولت أن أطرد تلك الفكرة من ذهني، ومع ذلك، فقد سيطرت تلك الفكرة على كل شيء آخر، ما جعل قلبي مثقلًا بالحزن، هل كانت في منزل دوتش؟ كم من الوقت مر بعد مغادرتي قبل أن يعودا لرؤية بعضهما؟ هل أحبته؟

كانت هذه هي الأسئلة التي تدور في ذهني، منذ أن رأيتهما معًا في المتجر، كان أمرًا محزنًا.

أردت أن أصدق أن طوال كل ذلك الوقت كانت إيميري قد رحلت، وأنها قد غادرت الجزيرة كما اتفقنا، وأنها قد بدأت حياتها في مكان آخر، لكنها كانت هنا في سيرشا، ومن بين كل الناس كانت مع دوتش، ربما كان هذا خطئي أنا أيضًا.

قررت أن أبقي عيني على الطريق؛ حتى أصل إلى بوابة الكوخ، لكن عندما فتحتها، توقفت فجأة.

في نهاية الطريق، رأيت إيميري تجلس على درجات الشرفة بين شجرتين تظللان الرصيف، حيث كانت تراقبني.

كانت الجدران الحجرية للمنزل خلفها مغطاة بالكامل تقريبًا بالنباتات المعترشة التي تسلقت لتغطي السطح، وكان بإمكاني رؤية وميض من الضوء في النوافذ حيث تُرك مصباح المطبخ مضاءً.

حاولت منع نفسي عن عبور الطريق، وطرّق بابها أكثر من مرة منذ أن رأيتها في مراسم الدفن. كنت لا أزال أشعر بدفء خفيف على أصابعي، حيث كانت يدها تمسك يدي، وكرهت أن تكون تلك هي الذكرى الوحيدة التي كنت سأحملها معي عندما أغادر.

لم تتحرك بينما كنت أسير في الطريق، وما إن وصلت إلى الشرفة حتى تمكنت من رؤية مدى التعب الذي بدا عليها. كانت عيناها وطرف أنفها قد احمرت، وشعرها كان مشعثًا، وبدا لي أنها لم تنم.

وبدأت أشعر بتسارع نبضات قلبي، على الرغم من أنها لم تقل أي شيء.

قلت لأكسر حاجز الصمت: "هل كل شيء على ما يرام؟".

قالت: "لا".

انتظرت، ونبضات قلبي ما زالت تتسارع في كل ثانية.

عضت شفتها السفلية، ودسّت شعرها خلف أذنيها في توتر. وفي تلك اللحظة، شعرت كأننا عدنا أطفالًا مرة أخرى، فها نحن نقف معًا ونُجري محادثة كان ينبغي أن نجريها منذ فترة طويلة.

سألتني: "لماذا لم تكوني في البستان قبل الحفلة أين كنت؟".

استنشقتُ نفسًا عميقًا وحبسته. كانت هناك أوقات أردت فيها إخبار إيميري بما حدث في تلك الليلة، لكن الشيء الوحيد الأسوأ من إخبارها بالحقيقة، هو تخيُّلي فكرة معرفة إيميري بذلك أيضًا.

قلت لها: "كنت عند المنارة".

نظرتْ في عيني، وتوسلت عيناها نحوي في صمت ألا أفعل ذلك، ولكن ما فائدة ذلك الآن بعد كل شيء؟

تابعت: "مع دوتش".

كان الألم يعتصرني، وشعرت بغصة في حلقي، لكن كانت تلك هي الإجابة التي تدربت عليها جيدًا، ولكن كان من المؤلم جدًّا قولها الآن.

قالت وقد ارتسمت على وجهها نظرة غامضة: "أعلم يا أوجست"، كانت نظراتها مثبتة عليَّ، وجعلني صمتها ذلك أشعر كأن الأرض ستنشق وتبتلعني، تابعت: "أعلم أن دوتش كذب من أجلك".

للحظات شعرت بأنني لم أكن أستطيع التنفس.

تهدج صوتها وهي تقول: "لقد دافعت عنك"، وسقطت دمعة على خدها، ثم استطردت: "لقد دافعت عنك عندما لم يقم أحد بذلك".

همست: "أعرف".

قالت إيميري في صوت مرتفع: "تحملت سنوات من العقاب بدلًا منك، ولم يكن أحد في هذه المدينة ينظر إليَّ!".

قلت في غضب: "أعرف! هل تظنين أنني لا أعرف ذلك؟".

قالت لي: "إذن لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟".

كانت هذه على الأرجح آخر مرة سأراها فيها، سأترك سيرشا وأنا أحمل هذا الألم الذي ظللت أتجرعه منذ أربعة عشر عامًا، ولم تقل شدته مطلقًا، فأينما ذهبت كان يتبعني.

كنت قد تقبلت منذ فترة طويلة حقيقة أنه لا يوجد شفاء لجرح كهذا، ومن نواحٍ عديدة اعتقدت أنني أستحق ذلك، لكنني لم أر هذا الألم في أي شخص آخر سواي، حتى جلست إيميري هناك والدموع في عينيها تطلب مني معرفة الحقيقة، ليس فقط لأنها أرادت أن تعرف ما حدث، لكن في تلك اللحظة، كانت تعرف أن تلك الحقيقة ستحررها.

لقد عشت فترة طويلة مع هذا العبء، لكن رؤيتي لتأثيره على إيميري ...

قالت إيميري: "لن أطلب منك مرة أخرى أبدًا أن تخبرني، هذه هي فرصتك الأخيرة لتخبرني بما حدث بالفعل في تلك الليلة".

على الرغم من كل شيء، أدركت أنها لا تزال تعتني بي، ولا تزال تحاول حمايتي حتى من نفسها.

قالت لي: "يجب أن أسألك؛ لأنه يجب أن أعرف".

صمتُّ وأنا أتأمل وجهها.

إنها لم تسألني قط، ولا في أي وقت مضى.

عندما أرادت البلدة بأكملها معرفة ما إذا كنت قد قتلت ليلي، لم تقل إيميري تلك الكلمات مطلقًا. ربما تكون خطرت في بالها. قد تكون تساءلت. ولقد رأيت ذلك في عينيها مرات عدة، وكان قلبي ينبض حينها بقوة لدرجة أنني لم أكن أستطيع التنفس. كنت أنتظر في عذاب، وأدعو الله ألا تسألني؛ لأنني لم أكن أعرف ما إذا كان بإمكاني فعل ذلك. لم أكن أعرف إذا كنت قويًا بما يكفي للنظر في عينيها والكذب بشأن تلك الليلة.

كانت إيميري تعرفني جيدًا، وربما لهذا السبب لم تسأل، ربما كان يمكنها أن تعرف بمجرد النظر، أن الإجابة سوف ترهبها، وسوف تحطم كلًّا منا؛ لذا فهي لم تسألني قط ولم أخبرها قط، ولكن في النهاية، سيحطمنا ذلك على أية حال.

قلت بصوت خفيض: "أعتقد أن الوقت قد حان".

عندما رأيت النظرة التي نظرت بها نحوي، شعرت كأن روحي ستفارق جسدي، فكنت أعرف كيف تبدو حسرة القلب على وجهها، لكن لم يكن هناك مفر من ذلك، لقد تحطمت قلوبنا مرات عدة من قبل.

نهضت، ووقفت بحيث كنت أنا وهي نواجه بعضنا، ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تقول: "هل قتلتها؟".

وفي تلك اللحظة من الصمت، شعرت كأن حياتي بأكملها قد تحطمت فجأة.

قلت لها وأنا أنظر إليها: "لا... لم أقتلها".

حدقت نحوي فترة طويلة قبل أن تنزل خطوة أخرى، وكلما كانت تقترب مني شعرت بأنني لا أقوى على التنفس. تأملت النجمة التي كنت أراها دائمًا تتشكل من لمعان عينها اليسرى، مثل حجر زمرد متعدد الأوجه ألقي في البحر، بينما كان قلبي مثل شهاب غريب ساقط.

سألتني: "إذن ما الذي تخفيه يا أوجست؟".

كانت تلك هي المرة الأولى منذ وصولي إلى الجزيرة التي بدت فيها على طبيعتها؛ لذا وددت أن أحتفظ بذلك الشعور في أعماقي، لأحمله معي عندما أغادر الجزيرة،

قالت: "أوجست؟".

قلت: "إيميري".. كنت قد قلت تلك الكلمات لنفسي ألف مرة على مر السنين، ومع ذلك، كان وقْعها مثل السكاكين في حلقي وأنا أقولها الآن: "أنا من أشعل النار يا إيم".

الفصل التاسع والثلاثون

ثماني عشرة دقيقة قبل الحريق

أوجست

كان المصباح المعلق في السقف قد احترق منذ سنوات، لكن لم يكلف أحد نفسه عناء استبداله.

كانت الغرفة الصغيرة في علية الحظيرة بالكاد مضاءة بما يكفي لأرى نفسي في المرآة، وكانت تلك هي غرفة والدي، قبل أن يتزوج أمي وينتقلا إلى الكوخ، لكن الآن، لم يكن أحد يأتي إلى هنا سواي أنا ودوتش.

ارتديت السترة التي اشترتها لي أمي، ثم عدلت من وضعيتها على كتفي كان جدي قد استدعاني للعودة إلى البستان للعمل عند سفح التل، حيث يقع الصف البعيد من الأشجار وذلك بعد سقوط السياج، وبدلًا من المساعدة على إعداد الحفل كما وعدت الجميع، كان عليَّ أن أقطع الأسلاك.

لم أجادل، فكنت أعرف أنه حتى لو فعلت، فلن يكون ذلك مفيدًا، فلم يكن جدي يؤمن بأن هناك شيئًا يسمى أيام الإجازات، ولم يرَ العمل في البستان كوظيفة، بل كان يراه مثل الحياة نفسها، وكانت تلك هي كلماته، وليست بالطبع كلماتي أنا. كان بإمكاني إما أن أخلف وعدي لأمي بإرضاء هنري، أو أن أفسد هذه الليلة على أمي

بإغضاب هنري، فاخترت تجنب غضب جدي، معتقدًا أن هذا سيكون الحل الآمن، الذي يحمل أقل قدر من العواقب.

كانت أمي ماهرة إلى حد ما في التعامل مع جدي، لكنني لم أكن كذلك.

سحبت كُم قميصي لأسفل لتغطية الخدوش على معصمي، فسواء كنت أرتدي قفازًا أم لا، كنتُ دائمًا ما أجرح نفسي بسبب ذلك السياج اللعين. مررت يدي بين خصلات شعري، وشددته للخلف قدر استطاعتي حيث جعلت الحرارة والرطوبة أطرافه تتجعد، لكنني كنت أبدو كأنني كنت قد أخذت حمامًا حالًا.

كانت الموسيقى تُعزف في الخارج، وكانت الأصوات تتزايد، فقد كان سكان الجزيرة يقيمون هذا الحفل كل عام بعد تخرج الطلاب في المدرسة الثانوية، حيث كان هذا أحد طقوس العبور من مرحلة الطفولة إلى الشباب في البر الرئيسي لهذه الجزيرة.

كان من المفترض أن يكون الحفل لجميع الخريجين، وفي هذا العام تقررت إقامته في البستان، وتولت أمي مسئولية تنظيمه؛ ما جعل الأضواء كلها تتسلط على عائلتنا. ازداد هذا الاهتمام حدة في الأشهر الستة الماضية مع الخلاف الذي حدث بين سكان البلدة وجدِّي بشأن مستقبل البستان. كنت أعتقد أن هذا الحفل كان هو الطريقة التي لجأت إليها أمي لتسوية الأمور، والسبب الوحيد الذي جعلني أفعل أي شيء من هذا، كان من أجل إرضائها.

إلا أن هذا كان مجرد يوم، ومن ثم سنرحل أنا وإيميري ولن تصبح سيرشا والبستان وجدي سوى مجرد ذكريات.

كل ما كان عليَّ فعله هو قضاء المساء دون أن ألفت انتباه جدي. كنت سأقضي ثلاث عشرة ساعة أخرى خاضعًا لسيطرته، ثم بعدها سنكون نحن الاثنان على متن العبَّارة.

سمعت صرير الجدران الخشبية عندما هبت رياح قوية عبر البستان، فأثارت التربة والقش، وحملت إليَّ رائحتهما عبر النافذة. لم أكن أعتقد أنني سأفتقد الجزيرة. لم يفتقدها والدي بالتأكيد، لو كان قد شعر بذلك لعاد، لكن ذلك الوغد لم يتصل بأمي منذ أن غادر.

لقد كانت ذكرياتي دائمًا لا تحمل سوانا نحن الاثنين، وكان والدي هو أول شخص في عائلة سولت يترك سيرشا والبستان خلفه، ورغم أن أحدًا لم يكن يعلم بذلك بعد، فإنني سأكون الثاني.

أطلقت نَفَسًا عميقًا، وأنا أمسح يدي على السترة. أظن أن أمي ستتفهم. كنت أقول لنفسي في كل مرة أفكر فيها كيف سيكون وقع الأمر عليها، عندما تستيقظ في اليوم التالي وتجد المنزل فارغًا.

لكنها كانت تعرفني على الأغلب بشكل أفضل مما أعرف أنا نفسي، وهذا ما كنت أعتمد عليه.

التقطت ملابس العمل من حيث كنت قد أسقطتها على السرير، وارتجفت عندما لمحت شخصًا في الزاوية المظلمة من الغرفة.

أطلقت نفسًا عميقًا وقلت: "اللعنة، لم أرك وأنت تدخل".

كان جدي يستند إلى الحائط وعيناه تلمعان بينما كان يراقبني. كان يرتدي قميصًا نظيفًا، وهو أمر غير معتاد، وكان شعره الذي تتخلله خصلات فضية، والذي كان يُغطيه عادةً بقبعة، ممشطًا، لكن كانت هناك تلك النظرة المرتسمة على وجهه، كأنه كان يستعد للقتال. أعرف تلك النظرة جيدًا.

ألقيت الملابس في السلة الموضوعة بجوار الحائط، ثم قلت: "ستقتلني أمي إذا لم أنزل إلى هناك، لقد تأخرت بالفعل".

قال لي: "لن تذهب إلى أي مكان".

تنهدت، وأعددت نفسي لخوض الجدال أيًّا كان. لم يكن يبدو عليه أنه كان منتشيًا من أثر الشراب؛ لذا فقد خمنت أنه لا يمر بإحدى نوباته العنيفة، ولم أكن أعتقد أنه سيخاطر بافتعال مشكلة، بينما جميع من في المدينة بأكملها موجودون في الطابق السفلي. أفلت جدي من كثير من الأشياء بسبب مكانته، لكن كانت هناك بعض الخطوط التي لم يتجاوزها أحد حتى هو نفسه، ولو حتى من أجل المظهر العام فقط.

وضعت يدي في جيبي سترتي منتظرًا.

نظر إليَّ من أعلى إلى أسفل، وتقلصت شفتاه، ثم قال: "كما تعلم يا أوجست أنت لست أذكى شخص في عائلة سولت، لكنني كنت أعتقد أنك أذكى من هذا".

ارتسمت ملامح ابتسامة علي وجهي إذ كنت منزعجًا بالفعل وقلت له: "شكرًا".

لكنه لم يكن يبتسم، بل نظر إليَّ مباشرة والبرود يملأ عينيه، بطريقة لم أرها إلا بضع مرات من قبل. لقد جعلني ذلك أرغب غريزيًّا في التراجع، لكنني أبقيت قدمي ثابتة.

سألني، وقد بدا فجأة كأنه قد ازداد طولًا: "هل كنت تعتقد حقًّا أنني لن أعرف ذلك؟".

لكنني كنت ما زلت لا أفهم ما كان يرمي إليه. الأفكار تتسارع في ذهني، وأنا أحاول تخمين الشيء الذي أغضبه مني. كانت هناك قائمة لا تنتهي، ربما هناك خطأ في السياج، أو أنني تركت الجرار تحت المطر، أو مشكلة في ترتيب البذور.

قال أخيرًا: "رأيت كارل في المقهى".

أدركت أخيرًا ما الأمر، فكارل كان يعمل في كشك تذاكر العبَّارات في الميناء،

ازدردت لعابي وقلت وأنا أحاول المراوغة لاكتساب بعض الوقت: "ماذا؟".

ثم اندفع من الحائط، وعبر الغرفة وتابع: "أخبرني كارل بأنك اشتريت تذكرتي ذهابٍ فقط في أول عبَّارة تغادر الميناء غدًا".

خفق قلبي بقوة، ولكني هززت كتفي، واختلقت كذبة وقلت له: "أنا وإيميري سنذهب إلى المدينة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع".

كرر كلماتي: "ستذهبان إلى المدينة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، أليس كذلك؟".

أجبته: "أرادت إيميري أن نقوم بشيء ممتع بعد حفلة التخرج، ولقد حصلت أنا على التذاكر هذا الصباح".

سألني: "إذن، لماذا ليست هناك تذاكرعودة؟".

أجبته: "لأننا لم نقرر بعد اليوم الذي سنعود فيه".

حدق إلى وجهي، ووجهه خالٍ من أي تعبير، ويبدو أنه لم يصدق ذلك، ثم قال لي: "هل تعتقد أنني أحمق؟".

كززت على أسناني، وأنا أحاول عدم القيام بأي شيء من شأنه أن يثير غضبه أكثر، لكننا كنا قد تجاوزنا بالفعل نقطة اللاعودة.

قال وهو يقترب مني، وعيناه تنظران أرضًا: "لم أكن أرغب في قول ذلك، لكن والدك كان جبانًا يا أوجست، وكان بإمكاني أن أرى ذلك منذ أن كان صغيرًا، لكنني لن أرتكب معك الأخطاء نفسها التي ارتكبتها معه".

قبل أن أستطيع فهم ما حدث، ارتفعت يداه لأعلى، وأمسك سترتي فجأة، ودفعني للخلف، وصدمني بالحائط، كانت عيناه مشتعلتين غضبًا، واتسعت فتحتا منخاره وهو يحدق إلى وجهي، لم يكن يهذي كعادته عندما يعاقر الشراب، بل كان رصينًا تمامًا، وكان ذلك يبدو لي أكثر رعبًا.

عندما حاولت الإفلات من قبضته وضع إحدى يديه حول حلقي، وثبَّتني هناك.

ثم دمدم غاضبًا: "استمع إليَّ، أنت لن تذهب إلى أي مكان - ستبقى في سيرشا، حيث تنتمي، وسترث البستان، كما يفترض بك".

قلت بصوت أجش: "لا أريد البستان اللعين"، وكانت هذه هي المرة الأولى، التي أقول فيها ذلك بصوت مرتفع لأي شخص سوى إيميري.

ضغطت أصابعه بقوة عليَّ، ما جعلني أتجمد في مكاني، ثم تابع: "لا يهمني ما تريد، فسكان هذه المدينة يظنون أنهم سيضعون يدهم أخيرًا على البستان، وأنا لن أسمح بحدوث ذلك".

دفعته بعيدًا عني وقلت: "لا يمكنك إبقائي هنا".

قال لي: "بلى... أستطيع"، ثم رفع إصبعه في الهواء وقال: "إذا حاولت استخدام هذه التذاكر غدًا، فتأكد أنك ستندم على ذلك، فإذا غادرت هذه الجزيرة، فستفقد والدتك وظيفتها في البستان، والكوخ أيضًا، هل فهمت؟".

نظرت في عينيه، وعرفت أنه كان جادًّا، كانت والدتي قد عاشت في ذلك الكوخ عشرين عامًا تقريبًا.

قلت له: "لا يمكنك فعل ذلك، فالكوخ مسجَّل باسمها الآن".

قال لي: "يمكنني أن أفعل أي شيء أريده على هذه الجزيرة".

أدركت أنه كان على حق، فإذا أراد، يمكنه أن يأخذه منها ولن يوقفه أحد، فما دام حيًّا، فإن كل شيء على سيرشا كان ملكًا لهنري سولت.

تمتمتُ وأنا أزدرد لعابي بصعوبة: "يا لك من وغد!".

كانت أمي الشخص الوحيد على هذه الجزيرة الذي أحب البستان كما أحبه هو، لكنه لم ير ذلك قط. بعد أن غادر والدي، رفض هنري تغيير وصيته ليتركه لها، فالبستان لن يذهب إلا إلى أحد أفراد عائلة سولت. لم يكن حملها للاسم كافيًا، فلم تكن أمي تحمل دمه. كان يعلم أنني لن أتخذ خطوة واحدة يمكن أن تؤذيها.

لم ينبس ببنت شفة وهو يراقبني وأنا أفكر في الأمر، وقد رأيت اللحظة التي أدرك فيها أنه انتصر. خيم صمت ثقيل على المكان قبل أن يستدير أخيرًا، ويخرج من الباب استمعت إلى خطواته وهو ينزل درجات العلية، وعضضت خدي بقوة حتى شعرت بمذاق الدم. وبمجرد أن اختفى وقع أقدامه، مررت يدي على وجهي، وأغلقت عيني. غلف الظلام الغرفة من حولي، ما جعلني أشعر كأنني سأفقد الوعي في أية لحظة.

أخذت نَفسًا عميقًا، ثم أخرجته محاولًا إبطاء نبضي. كانت قد مرت ثلاث عشرة ساعة، وهو مقدار قربي من تحقيق هدفي، لكن جدي كان يعرفني جيدًا، كما كنت أعرفه أنا أيضًا، فلم أكن لأغادر إذا كنت أعرف أنه سيأخذ كل شيء من أمي، وسوف يفعل ذلك.

شعرت بالخدر والبرودة يتسللان إلى جسدي من مجرد التفكير في ذلك، وحدقت إلى المرآة. كنت أحمق لأنني لم أدرك ذلك من قبل، ففي اللحظة التي سأغادر فيها، كان سيعاقبها على ذلك.

هبطت الدرج لأغادر العلية، وأنا أراقب الظلال وهي تتحرك فوق الأرض في الأسفل، كانت تدور حول ضوء المصباح، بينما امتلأ الهواء برائحة الطعام، ورأيت السماء الصافية المرصعة بالنجوم والممتدة فوق الجزيرة. كانت مثل أية ليلة أخرى، وليس الليلة التي انقلبت فيها حياتي كلها للتو رأسًا على عقب، بعد ما حدث في الطابق العلوي.

تأرجح الباب الجانبي للحظيرة خلفي، وأنا أندفع من خلاله، ثم مررت عبر الصف الأول لأشجار التفاح، وتوقفت لأراقب المشهد في الظلام. كانت المدينة بأكملها متجمعة في الحقل الذي أحاطت به مصابيح متلألئة تدلت من الأغصان.

توقفت عن التنفس عندما رأيتها.

كانت إيميري ووالدها يرقصان، وكانت تبتسم بطريقة جعلت عينيها تبدو من بعيد كهلالين صغيرين. لقد وثقت بي، في كل شيء، وكانت على استعداد لترك كل شيء خلفها، لكن ذلك التوهج في عينيها سيتلاشى في اللحظة التي سأخبرها فيها بأننا لن نغادر، وأننا لسنا مميزين أو مختلفين، وأن حياتنا ستسير بالضبط مثل الجميع على الجزيرة. لم أكن أعتقد أنني شعرت بالخجل من أي شيء على الإطلاق أكثر من شعوري بذلك الآن.

خلفهما كان بإمكاني أن أرى جدي وهو يتجول بين الحشد بابتسامة عريضة، بدا متعجرفًا، وكرهته بسبب ذلك. لقد أمضى الجزء الأعظم من ذلك العام مريضًا، وكانت الحياة تتسرب ببطء من جسده، كنت أظن أننا سنتخلص منه أخيرًا، لكن بمجرد أن ظننت أنه كان في الرمق الأخير، عاد للحياة مجددًا، والله وحده يعلم كم من الوقت سيظل على قيد الحياة.

لم أكرهه هو فقط، بل كرهت البستان، وكثيرًا ما كنت أكرهه. كان مثل حجر ثقيل يضغط على صدري، أو كظل أسود يلوح إلى الأفق ويتبعني دائمًا.

أسندت ظهري إلى جدار الحظيرة، وأنا أحدق إلى تلك الأشجار المهجورة. كانت تبدو لي كنباتات سامة تمتص كل قطرة دم في عروقي، وأردت أن أقتلعها من الأرض.

خطوت خطوة إلى الأمام، وشاهدت المصباح وهو يتأرجح على الفرع القريب، وحدقت إلى اللهب البرتقالي خلف الزجاج الذي طغى سطوعه على كل شيء آخر، بما في ذلك الليل والبستان وجدِّي، وتأملت ضوءَه الساطع الغامر، وقبل أن أقرر أو أفكر في الأمر، رفعت يدي، وأخذت المصباح من الفرع، وأطلقت زفرة عميقة ثم أسقطته.

الفصل الأربعون

إيميري

لم أكن أعرف كم من الوقت مر منذ أن سمعت تلك الكلمات تخرج من فمه، لكنني شعرت كأنني تحررت من جسدي، وكما لو أنني أحلق في الهواء بالأعلى خارج حدود المكان.

أظلمت السماء فنظرت نحوها، حيث كانت السحب السوداء تتجمع مثل موجة كبيرة وتتجه نحو الجزيرة. كان بإمكاني أن أشعر بالعاصفة وهي تتجمع فوق رأسي، وسمعت طنينها في الهواء، وشعرت بموجة البرد التي كانت تندفع من البحر.

بدا الأمر كأن الجزيرة سمعته وهو يقول ذلك، كنت متأكدة من أنها سمعته.

نظر أوجست إلى الأرض، واحمر وجهه وبدا عليه التوتر، كأنه رجع إلى الثامنة عشرة مرة أخرى، وكأن كل السنوات التي قضاها بعيدًا عن الجزيرة وبعيدًا عني لم تغيره. لم أشعر بذلك عندما واجهت أوجست الذي جاء على متن العبَّارة، لكنني كنت أعرف الشخص الذي وقف بجانبي في تلك المقبرة، كان هو الشخص نفسه الذي يقف أمامي الآن.

بدأت القطع المفقودة من هذا اللغز تتشكل أمامي. لماذا لم يذهب أوجست إلى البستان قبل الحفل؟ التلميح في رسالة إيلويز.

إنه لم يقتل ليلي، لكنه أشعل النار التي كادت تودي بحياة والدي، وتقتل الجميع في هذه البلدة.

سألني: "هل ستدخلين؟".

رمشت بعيني، وأنا أحاول أن أتذكر أين كنا، كان أوجست لا يزال واقفًا في أسفل الدرج، وكتفاه مشدودتان، وبدا خائفًا، بل بدا مذعورًا.

وعندما لم أجبه صعد الدرج، وفتح الباب من خلفي، فانفتح الباب بعد ثانية، وتراجعت خطوة إلى الوراء عندما تسرب الهواء الدافئ نحوي. دار حولي، وملأ رئتيَّ برائحة كنت أعرفها، فشعرت بمذاقها على لساني وأنا أحدق إلى عتبة الباب.

اختفى أوجست في الداخل، وشعرت فجأة بأن الكوخ أصبح أكبر، وهو يقف شامخًا أمامي. كان هذا المكان ذات يوم بمثابة بيتي، لكن مرت سنوات منذ تلك الليالي التي كنت أتسلل فيها إلى المنزل الفارغ، وأنام في سرير أوجست. إن صدى تلك الذكرى لأمر مؤلم.

بمجرد أن خطوت إلى الداخل ندمت على ذلك.

أُغلق الباب بينما كان الرعد يزمجر في السماء المظلمة، وكانت شفتَاي ترتعشان بينما كانت عيناي تتجولان عبر غرفة المعيشة، كان الغطاء ملقى على الأريكة، والكرسي الهزاز الخشبي كان موضوعًا بجوار النافذة الأمامية، وكان هناك وعاء فخاري صغير على حافة النافذة فوق الحوض. وقف أوجست أمام الموقد، حيث كانت كومة من الحطب الطازج مكدسة، وظل يراقبني وأنا أسترجع تلك الذكرى.

كان كل شيء متطابقًا تمامًا، كل شيء، باستثناء أننا الآن بعيدان كل البعد عن الشخصين اللذين وقفا ذات يوم في هذه الغرفة معًا.

كانت رؤية أوجست في الشارع أو في المتجر، تختلف تمامًا عن رؤيته هنا، في هذا المنزل... وشعرت بألم في صدري مع كل ذلك الفيض من الذكريات التي كانت تتوالى في ذهني ولم أستطع إيقافها، كأن جسدي كان لا يزال يتذكر تلك الأيام، حتى عندما كان كل ما أردته هو نسيانها.

لم يكن هناك شخص واحد في سيرشا لم يكذب عليَّ، لكن بطريقة أو بأخرى، بعد كل شيء، كان الشخص الذي جرحني بعمق هو أوجست.

همست بصوت أجش: "كيف تمكنت من فعل ذلك؟".

قال لي: "لا أعلم".

قلت له: "كيف أمكنك..."

قال لي: "كنت طفلاً غبيًّا يا إيم، وكنت غاضبًا بشدة، وشعرت بأنني محاصر، أعلم أن هذا ليس مبررًا، لكنها الحقيقة، ففي تلك اللحظة، لم تكن لديَّ أية فكرة عما كنت أفعله".

شعرت بالتعب والثقل، لدرجة أنني أردت أن أغمض عيني وأذهب بعيدًا، كان هذا هو السبب وراء كذبه وإخفائه الحقيقة عني بشأن تلك الليلة. لقد كان يهرب من شيء ما عندما غادر الجزيرة، لكن ليس من تهمة جريمة قتل.

بدأ المطر يهطل، ويضرب النافذة المعدنية بالخارج، وفي غضون دقائق فقط، سيزداد غزارة.

قال لي: "لم يعرف أحد سوى أمي بالأمر".

رفعت عيني، هذا إذن ما كانت إيلويز تتحدث عنه في الرسالة، ليس مقتل ليلي، بل إشعال النار، ولكن إذا كان هذا الخطاب لدى شخص ما الآن، فلن يبدو الأمر له كذلك، أي شخص يقرأ كلمات إيلويز سيفكر تمامًا كما كنت أفكر.

قال لي: "أردت أن أخبرك، لكن والدك... كان الأمر صعبًا للغاي، ثم أصبح الكذب أصعب. اعتقدت أنك ستكرهينني على أية حال؛ لذا بدا ترك سيرشا هو الحل الأسهل"، ثم توقف قبل أن يقول: "كانت والدتي قلقة بشأن حدوث مكروه لي".

سألته: "أي مكروه قد يحدث؟".

تابع: "لقد أدركت أنه سيتعين علينا المغادرة، وإلا فإن شخصًا ما سيؤذيني، وأنني لن أعود إلى المنزل في إحدى الليالي".

كان الشيء الواضح دائمًا بشأن أوجست وإيلويز هو أنهما كانا يعتنيان ببعضهما، وكان هذا مقصدها عندما أخذته بعيدًا.

سألته: "هل طلبت من دوتش أن يكذب من أجلك؟".

حدق إلى يديه وقال في تردُّد: "لا، لم أكن أعرف ما حدث لليلي أو لوالدك، حتى عدت إلى المنزل في وقت متأخر من تلك الليلة، وعندما ظهر جيك، كان دوتش قد كذب بالفعل. لقد وافقت على ذلك لأنني لم أكن أعرف ماذا أفعل غير ذلك".

هززت رأسي محاولة أن أفهم، ثم قلت: "ولماذا كذب دوتش قبل أن يعرف أنك كنت بحاجة إلى تلك الكذبة".

أبقى أوجست بصره مثبتًا على النافذة، وتسببت ضربة البرق في خفوت الأضواء، قبل أن تسطع مرة أخرى.

ألححت عليه: "أوجست".

استنشق نفسًا عميقًا ثم قال: "لم يكن يكذب لحمايتي يا إيميري، بل كان يحمي نفسه".

سألته: "كيف ذلك؟".

لم تلتق عيناه بعينيَّ، ثم قال: "يجب أن تسأليه هو عن ذلك".

قلت له: "أنا أسألك".

أخيرًا التقت عيناه بعيني، ورأيته يتردد في الإجابة.

قلت له: "يا إلهي، ماذا عليَّ أن أفعل حتى تخبرني بالحقيقة؟".

مد أوجست يده ليفرك وجهه، ثم قال: "كانا يتواعدان".

سألته: "من؟".

أجابني: "دوتش وليلي".

سقطت يداي على جانبيَّ وأنا أحدق إليه، كان هذا آخر شيء توقعت أن يقوله، قلت له: "لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا"، ثم تهاويت على الكرسي الهزاز.

قال لي: "لقد كانت تربطهما ببعض علاقة لشهور، أو ربما لعام، لا أعتقد أن الأمر عدَّه كل منهما أمرًا خطيرًا".

تأملت ألواح الأرضية أمام قدمي، بينما كانت الأفكار تتسابق بسرعة في ذهني، لدرجة أنني لم أستطع التركيز في أي منا. كان أمرًا جنونيًّا، ولم يكن أي من ذلك منطقيًّا.

قلت ولم يبدُ عليَّ الاقتناع بما قاله: "كانت ليلي ستخبرني بذلك"، وكانت تلك هي الكلمات نفسها التي تحدثت بها مع عمي".

ظل أوجست صامتًا، لقد قال بالفعل أكثر مما أراد أن يقوله.

سألته: "لماذا كادت ليلي أن تكذب عليَّ"؟.

أجاب: "لا أعلم، لكن ليلي كانت تفعل أي شيء تريده"، ثم توقف قبل أن يقول: "طلب مني دوتش ألا أقول أي شيء عن هذا الأمر؛ لذلك لم أخبر أحدًا. كانت ليلي تخاف بشدة من كشف أمرها. ولم تكن تريد حتى أن يخبرني دوتش بالأمر".

قلت له وأنا أرجع شعري للخلف، متفكرة: "لقد كانت حبلى".

نظر لي في ارتباك وقال: "ماذا؟".

قلت له: "أخبرني جيك بأنها كانت حبلى".

تجمد أوجست في مكانه ثم قال: "وقال لكِ بالطبع إننا كنا على علاقة ببعضنا، أليس كذلك؟".

أومأت برأسي.

فقال بصوت منخفض: "اللعنة".

قلت له: "أنا لم أصدقه، لكن دوتش..."، صمت قبل أن أقول: "لماذا يبقي هذا الأمر سرًّا بعد كل هذا الوقت؟".

قال لي: "لا أعلم، لقد كذبنا جميعًا بشأن شيء ما".

تجمدت في مكاني بينما كنت أتأمل وجهه، وكان ذلك صحيحًا، حتى أنا كذبت بشأن صك البستان، لكن إذا كان لدى أوجست أي شكوك حول ذلك، فلماذا لم أستطع استشفاف أية علامة على ذلك في كلماته.

همست، وأنا أشعر بقشعريرة تسري في جسدي من مجرد تفكيري في الأمر: "أو كما قلت، كان يحمي نفسه".

لم تتغير تعبيرات وجه أوجست، وبدا من الواضح أنه فكر في ذلك بالفعل.

ثم قمت من مكاني، ورفعت كتفيَّ إلى النافذة وأنا أشاهد العاصفة وهي تزداد عنفًا، وخلف الأشجار، كان منزلي محجوبًا عن ناظريَّ بستارة سميكة من المطر. قبل ليلتين فقط، سار شخص ما على هذا الطريق، وأشعل النار أمام هذا الكوخ. أصبحت أكثر اقتناعًا من أي وقت مضى بأنهم أخذوا الرسالة أيضًا.

أراد دوتش أن أبتعد عن أوجست، ولكن ليس لأنه يعتقد أن أوجست قد قتل ليلي، بل لأن أوجست هو الوحيد الذي يعرف الحقيقة. لم أكن أريد أن أصدق ذلك، لكنني صدَّقته. كذب دوتش على جيك لتبرئة نفسه، وسيستغل معظم سكان المدينة أية فرصة، للعثور على أي أدلة تدين أوجست، ولكن إذا سمع الجميع بعلاقة دوتش بليلي، وإذا تمت تبرئة أوجست، فلن يكون هناك سوى شخص واحد يشتبه به في قتل ليلي.

حينها فقط أدركت أنه عندما رأيت دوتش في البستان في تلك الليلة، وسألته أين كان في تلك الليلة، لم يجبني إطلاقًا.

قلت وأنا أتحرك نحو الباب: "يجب أن أذهب".

توقفت في منتصف طريقي عندما رأيت أنه قد حزم حقيبته ووضعها على الأرض، ثم نظرت إلى أوجست، والسؤال على طرف لساني.

نظر نحوي ثم إلى الحقيبة، وتجمد في مكانه ثم قال: "سأستقل العبَّارة الأخيرة هذه الليلة، وستغادر طائرتي من المدينة غدًا".

قلت: "أوه".

قال لي: "كنت سأتوقف لأودعك وأنا في الطريق".

قلت في تشكك: "حقًّا؟"، وكرهت كيف بدا صوتي أجوف فجأة، وحزنت لأن ذلك آلمني.

قال لي: "بلى، كنت أنوي ذلك حقًّا".

ثم ضغطت يدي على المقبض، وانحنيت نحو الباب. لم يكن لي الحق في أن أسأله، لكن كان عليَّ أن أفعل فسألته: "هل يمكنك أن تستقل إحدى العبَّارات في الصباح؟".

أطبق أوجست شفتيه معًا، وأيًّا كان ما كان يفكر فيه، لم أستطع أن أميزه من النظرة التي بدت في عينيه.

قلت له: "هناك شيء أريد أن أريك إياه".

تردد ثم قال: "حسنًا".

ارتخت قبضتي على المقبض على الفور، وزالت الغصة التي كنت أشعر بها في حلقي، وقلت له: "هل يمكنك أن تقابلني في المقهى في الساعة السادسة؟".

انتظرت أن يجيبني فأومأ لي موافقًا ففتحت الباب وخرجت لتستقبلني الرياح القوية. لقد أخبرني أوجست بالحقيقة، والآن جاء دوري، لكن كان هناك شيء يجب أن أفعله أولًا.

الفصل الحادي والأربعون

إيميري

كان الكوخ يقع في أسفل التل، وكان يحتوي على نافذة واحدة فقط مضاءة، كنت قد وقفت خلف صف الأشجار التابعة لحديقة نيكسي، وأنا أراقب انعكاسات الضوء خلفها.

لم نكن قد قلنا أي شيء بعد، لكنني كنت أعلم في أعماقي أن علاقتنا قد انتهت في ذلك اليوم في البستان عندما أخبرته بأنني لن أتزوجه أبدًا. لم أشعر إلا الآن كيف بدا ذلك واضحًا. كانت علاقتنا هشة دائمًا، وكنت أعلم ذلك، وكان هو أيضًا يعرف ذلك، لكن دوتش كان يحبني، ولم يكن لديَّ أي شك في ذلك. لقد انتظر سنوات حتى بعد رحيل أوجست ليتأكد من أنني ربما أتقبل وجوده في حياتي، ثم انتظر فترة أطول حتى يبدي رغبته في تكوين أسرة معي، وكان مقتنعًا أن بإمكانه تغيير رأيي. سأكون كاذبة إذا قلت إنه لم تكن هناك أيام كنت أعتقد فيها، بل ربما حتى رغبت، في أن ينجح في مسعاه.

لكن الشيء الذي أبقاني معه هو الخوف من المستقبل، فبعد سنوات، عندما يرحل والدي ونيكسي وألبرتين، من الذي سيتبقى لي؟ ومن الذي سأتركه ورائي؟

لقد كذب دوتش، لكننا جميعًا كذبنا، كما قال أوجست، والأسوأ من ذلك أنني لم أشعر بأي حزن، عندما أدركت أنني خسرته، فكثيرًا ما اعتقدت أنه كان مثل الكتاب المفتوح، وأنه يكشف كل أوراقه على الطاولة. ولكن إذا كان حقًّا قد ارتبط بليلي،

فهناك كمٌّ كبير من الأسرار التي أخفاها عني. بطريقة ما بعد أن عرفته طوال حياتي، وقضينا ست سنوات في علاقة تربط كلًّا منا بالآخر؛ أصبح لديَّ الآن أسئلة أكثر حول من هو دوتش بودن.

إذا كان يحتفظ بالرسالة فعليه إعادتها لي، ولم أكن أريد أن أعرف ما الذي كان يخطط للقيام به بواسطة تلك الرسالة.

ظهر فجأة عند الباب وانغلق الباب خلفه وهو ينزل الدرج. كان قد تأخر عن ميعاده، ورغم أن تلك كانت إحدى سمات دوتش التي عرفتها عندما كنت طفلة، فإنه كان قد تغير، فلقد أخذ منصبه في البستان على محمل الجد، ربما لأنه كان المكان الوحيد الذي كان الناس يتعاملون معه فيه بجدية. بدا على وجهه أنه لم ينم كثيراً، إن كان قد نام على الإطلاق. كانت لحيته الشقراء أكثر كثافة مما اعتاده، وذلك على عكس المعتاد، وكان نصف أزرار قميصه مفتوحة، كأنه جاء مسرعًا.

أضاءت مصابيح شاحنته بينما بدأ المحرك في العمل، وبدأ العادم يتصاعد من أنبوب الفرغ أثناء تسخينه. انتظر بضع لحظات قبل أن تضيء مصابيح الفرامل وتخرج الشاحنة من الممر.

لم تعجبني فكرة الإيقاع به ومحاولة الإمساك به متلبسًا بالكذب، لكنني أعطيته الفرصة لإخباري بالحقيقة، لقد استكفيت من طرح الأسئلة.

انتظرت حتى اختفت الشاحنة عند المنعطف في الطريق، ونزلت التل بخطوات سريعة، وبقيت بالقرب من السياج، وعندما وصلت إلى الباب نظرت مرة أخرى من فوق كتفي، نحو الغابة. كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الرياح التي تخترق الأشجار.

كانت الجزيرة مضطربة طوال اليوم، وكان الهواء يزداد برودة منذ أن تبدلت الأوراق، ولم أشعر بأن أي شيء كان على ما يرام، وشعرت بأن هناك أشياء خفية تحدث. كانت سيرشا تنبش أخيرًا الأشياء التي دفناها.

في الداخل، كان الضوء الوحيد المضاء هو ضوء المصباح بجانب الأريكة. تركت الباب يغلق خلفي، واستدرت وعيناي تتجولان في جميع أنحاء الكوخ، ثم استقرتا أخيرًا على المكتب.

جلست على الكرسي المتهالك، وفتحت الدرج الذي كان مليئًا بأقلام رصاص وقصاصات الورق التي كانت ملقاة بداخله بفوضوية بالإضافة إلى علبة دبابيس

وأشياء يبدو أن دوتش لم يستخدمها منذ سنوات، وكان الدرج التالي يحتوي على أوراق البستان وملفات وسجلات زراعية ومجلدات فارغة ونماذج طلبات.

في السنوات العشر التي عاشها في الكوخ لم يبد المكان كأن هناك أحدًا يعيش فيه، فقد كانت الجدران والرفوف فارغة، بينما وُضع كرسيان مختلفان أمام الطاولة الصغيرة في ركن المطبخ. كان رجلًا بسيطًا يعيش حياة بسيطة ويبدو دائمًا كأنه ينتظر شيئًا ما، ولقد فكرت دومًا في أن هذا الشيء كان أنا.

كانت تلك الفكرة في وقت ما مصدرًا للراحة؛ لأن دوتش لم يعتد إخفاء أي شيء عني، ولكن الآن، لم أكن متأكدة تمامًا من صحة اعتقادي هذا.

ذهبت إلى غرفة النوم، وفتحت درج طاولة السرير الجانبية ثم الخزانة، حيث كانت الأرفف مليئة بسراويل الجينز وأحذية العمل التي كانت رائحتها تشبه رائحته؛ رائحة القش والتربة. فحصت جيوب معاطفه وستراته، قبل أن أتحسس الرف العلوي المترب بأصابعي، لا شيء.

إذا كان قد أخذ الرسالة، فلم تكن لديَّ أية فكرة عما سيفعله بها، هل سيعطيها لجيك، كما كنت على وشك أن أفعل؟ أم هل سيسلمها إلى شرطة سياتل؟ خفق قلبي بسرعة بمجرد تفكيري في ذلك. لم يكن أوجست بريئًا، هذا صحيح، لكنه لم يكن قاتلًا، وهذا الإحساس بداخلي الذي كان يحميه دائمًا كان لا يزال موجودًا ولم يخفت مطلقًا.

سمعت دوتش يقول: "إيم؟".

تجمدت في مكاني، وانقطعت أنفاسي حين سمعت صوته، نظرت إلى المرآة المثبتة على الحائط، لأرى دوتش واقفًا في مدخل غرفة النوم خلفي. نظر نحوي ثم إلى الخزانة المفتوحة ثم نحوي مرة أخرى.

ضاقت عيناه وتحول ارتباكه إلى شك، استطعت تمييز ذلك في صوته وهو يسألني: "ماذا تفعلين؟".

ازدردت لعابي واستدرت وقلت: "إنني... أبحث عن شيء ما".

قال لي: "أستطيع أن أرى ذلك"، وأسقط مفاتيحه على طاولة السرير الجانبية.

كززت على أسناني حين خطا نحوي، ونظرت إلى يديه، بدا لي فجأة مختلفًا. ذات يوم، كان هو ملجئي، أنسى في صحبته أحزاني، ولو ساعة أو ساعتين، لكن الآن

لـم يسـعني إلا أن أتسـاءل عما إذا كانت تلك الأيدي قد لمسـت ليلـي، وما إذا كانت قد آذتها.

سألني: "ما الذي يحدث؟".

أجبته في تردد: "لا شيء".

عندما خطا خطوة أخرى، تراجعت للخلف، وضغطت نفسي على الحائط، فتوقف وهـو يتأملنـي، ثم قال: "لقد تجاهلتني أكثر من أسبوع، ولم تـردي على مكالماتي، ولـم تنظـري إليَّ حتى، والآن جئت إلى منزلي تتفحصين أشيائي، هل تدركين كيف يبدو ذلك أمرًا جنونيًّا؟".

لقد بدا كل شيء جنونيًّا حقًّا، أنا وأوجست، وهو وليلي.

راقبت وجهه بعناية وأنا أسأله: "لماذا لم تخبرني؟".

تنهد دوتش وقال: "إيم... لقد تحدثنا عن هذا، كنت أظن أنني أحمي أوجست، لم أكن أريد أن..."

قاطعته: " أنا لا أعني أوجست أو المنارة، أنا أقصد ليلي".

تجمد دوتش في مكانه، واتسعت عيناه، ثم سقطت يداه على جانبيه فجأة، وبهت وجهـه. لـم أكن معتـادة أن أفاجئـه، وكان بإمكانه أن يرى هذا التحـول في أفكاري، وتلك النظرة التي بدت في عينيه الآن كانت خوفًا، قال: "لا بد أنكِ تمزحين معي"، ثم تمتم: "لقد أخبرك".

قلت له: "لا يهم من أخبرني، المهم هو أنك كذبت عليَّ سنوات".

أومأ دوتش بذقنه ثم قال: "لا، لم أكذب، لم أخبرك، لكنني لم أكذب".

صرخت: "إنه الشيء نفسه!".

قـال لـي: "لم تكن تريد أن يعرف أحد أي شـيء، واعتقدت أنه من غير المقبول أن أخبر الجميع لمجرد أنها ماتت". جعلني نطقُه تلك الكلمة الأخيرة أرتجف.

قلت له: "أنت لم تخفِ السر من أجل ليلي".

نظـر نحـوي بعينيـه الزرقاويـن الخاويتين، لكنه لـم ينكر ذلك، ثم قـال: "أنتِ تعتقدين أنكِ تعرفينها، لكنك لم تعرفيها".

قلت له: "كنت أعرفها، فكنت أفضل صديقة لها، يا دوتش"، لكننـي شعرت كيف تغيـر معنـى تلـك الكلمات منـذ أن قلتها آخر مرة، فلم يكن دوتش هـو الوحيد الذي أخفى الحقيقة عني، لقد فعلت ليلي ذلك أيضًا.

قال لي: "لم تخبرك عن علاقتنا لأنها كانت تعلم أنكِ ستخبرين أوجست، ولم تكن تريده أن يعرف".

سألته: "لماذا؟".

قال لي: "يا إلهي يا إيميري، أحيانًا تكوني..."، ثم صمت ليفكر كيف سيقول ما كان على وشك قوله، ثم تابع: "كانت في علاقة معي، لكنها كانت تحب أوجست".

قلت له: "لا، غير صحيح، لو كان ذلك صحيحًا للاحظته".

قال لي: "هذا ما أحاول أن أخبرك به، لم تكن مثلما كنتِ تعتقدين، ولا كما كان يعتقد أي شخص على هذه الجزيرة".

حدقت إليه بدهشة، فقد كان سيفعل أي شيء حتى لا يلقى عليه أي لوم، حتى إنه كان يمكنه أن يكذب بشأن ليلي. سألته: "ما الذي كذبتَ عليَّ بشأنه غير ذلك؟".

قال لي: "لا شيء".

قلت له: "لا أصدقك".

لاحظت تشنُّج فكه وهو يقول لي: "لو أخبرت أي شخص يخصني أنا وليلي، فمن الذي سيصبح موقع الشبهة؟".

قلت له: "لذا تركت أوجست يتحمل اللوم بدلًا عنك".

قال لي: "بفضلي أنا، لم يتحمل اللوم على أي شيء، ولقد حميت كل منا عندما أخبرت جيك بأننا كنا في المنارة".

ارتجف صوتي وأنا أقول: "هل كنت تعرف أنها كانت حبلى؟".

سكت دوتش، وصمت طويلًا قبل أن يسألني: "أين سمعتِ ذلك؟".

قلت له: "جيك قال ذلك، فهذا مذكور في تقرير التشريح".

استدار نحو النافذة، وراح يتأمل الأشجار على الجانب الآخر من الزجاج، وبدا أنه لم يكن يعرف.

ثم سألته: "أين الرسالة؟".

لم يُجب، وكان انتباهه لا يزال منصبًّا على الغابة. كانت عضلات رقبته متوترة وهو يزدرد لعابه، وبدا كأنه على وشك أن يتقيأ.

قلت له: "دوتش".

رمش بعينيه وقال: "ماذا؟".

سألته مجددًا: "أين الرسالة؟".

استدار أخيرًا ليواجهني، وعندما فعل، احمر جلده، وقال: "أي رسالة؟".

إذا كان دوتش يكذب الآن، فقد بدا ذلك مقنعًا. كان بإمكاني أن أرى أنه سيطرح مزيدًا من الأسئلة، لكن لم أستطع المجازفة بإعطائه أية معلومات أخرى، ليس قبل أن أعرف ما الذي يحدث.

قلت، وأنا أخطو بجانبه: "انس الأمر".

أمسك بمرفقي، وأوقفني، ثم قال: "هل أنتِ جادة؟ هل هذا كل شيء؟"، انغرست أصابعه في ذراعي، ما جعلني أرتجف، تابع: "هل يمكنكِ أن تأتي إلى هنا وتقولي كل ذلك، ثم تتصرفي بكل بساطة؟".

بسرعة تحررت من قبضته، وقلت له وأنا أكز على أسناني: "لا تلمسني".

لقد أصبح مصيرنا واحدًا بعد كل ما حدث، ولم يكن هناك أحد يمكنه أن يفهم ما مررت به مثله، لم يكن هناك من يعرف مدى ظلام تلك الأيام والليالي، لكن هذا جعل الحقيقة تؤلمني أكثر.

عندما لم أقل شيئًا نظر إليَّ في صدمة شديدة، وتغيرت تعبيرات وجهه ببطء مرة أخرى، ثم قال: "أداء موفق! أعتقد أنك وجدتِ ذريعتك أخيرًا".

قلت بحدة: "ماذا يعني هذا؟".

ارتفع صوته وهو يقول: "أنتِ لم تمري بمثل ما مررت به، ليس مثلي على أية حال، لقد كنتِ تبحثين عن مبرر للهروب لسنوات، ولم يكن لديك مبرر".

شعرت بمرارة تلك الكلمات، والتذكير الدائم لي بأنني لم أحبه قط، لكن هذا لم يمنعني مطلقًا من محاولة تخفيف الألم الذي ظل بداخلي بعد رحيل أوجست، وأنا الذي كنت أدفع ثمن ذلك.

الفصل الثاني والأربعون

أوجست

كانت تذكرة العبَّارة موضوعة على طاولة المطبخ، وكانت واضحة جلية أمامي، لقد فاجأتني إيميري على غير المعتاد، عندما طلبت مني البقاء حتى لو لليلة واحدة، وشعرت حينها بأن قلبي ينبض بقوة.

أنا مدين لها بالحقائق التي تخص الحريق، وتخص والدها، وتخص ليلي. كنت أعتقد بينما كانت تلك الكلمات تخرج من فمي أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراها فيها على الإطلاق أو أتحدث إليها، كنت آمل سرًّا أن كشفي الحقيقة قد يقطع كل صلة تربطني بهذه الجزيرة وبإيميري إلى الأبد.

كان برنارد كيلر قد وافق على الاهتمام بالأوراق الخاصة بالمنزل بمجرد أن أنهي مسألة سند الملكية، وكانت حقيبتي جاهزة. حجزت رحلتي للعودة إلى بورتلاند، وكانت لديَّ تذكرة لعبَّارة الساعة السادسة، وإذا ذهبت إلى المقهى فلن تكون إيميري فقط من ينتظرني هناك، ولكن سيتعين عليَّ أن أفعل الشيء الوحيد الذي كان يجب أن أفعله قبل أربعة عشر عامًا... أن أقول وداعًا. لا أقصد بالوداع طرق بابها وأنا في طريقي إلى العبَّارة؛ بل وداعًا حقيقيًّا.

أمسكت هاتفي، وأسقطته في جيبي.

شعرت بألم في معدتي بمجرد أن ألقيت التذكرة في سلة المهملات. كان من الأسهل أن أغادر وأختفي، قبل أن يستيقظ سكان الجزيرة، لكنني أردت رؤيتها مرة أخرى، وكثيرًا ما أردت ذلك.

التقطت المفاتيح من فوق المنضدة، وتوجهت نحو الباب. لقد أصبحت إقامتي في هذا المنزل أمرًا مألوفًا للغاية، ولم أعد أشعر بالغربة فيه، ولم يعجبني هذا الشعور.

كانت الغابة تعج بأصوات الليل، وكان الطريق مظلمًا والقمر مخفيًا خلف السحب الكثيفة، لكن المطر كان قد توقف أخيرًا. كان بإمكاني تمييز أسماء قاطني كل منزل مررت به، وكنت أعرف أن بداخل تلك المنازل، سواء كانت مضاءة بالمدافئ أو بأضواء المصابيح، شخصًا واحدًا على الأقل كان من الممكن أن يتسبب الحريق - الذي أشعلته حينها - في قتله. كنت أفكر في ذلك كثيرًا منذ عودتي، ولم تكن هناك فكرة تطاردني أكثر من معرفتي تكلفة ذلك الفعل المتسرع الوحيد الذي قمت به.

لم يكن السبب الحقيقي لرحيلي هو تحقيق رغبة أمي أو الهروب من إيميري، ولكن إذا بقيت فسيتعين عليَّ مواجهة ما فعلته. فعلى سبيل المثال لم يمت نوح بلاكوود، لكن يديَّ لا تزالان ملطختين بدمائه، وقد شعرت بالذنب كل يوم لتذكري ذلك.

في تلك الليلة، استطعت أن أشم رائحة الدخان على طول الطريق المؤدي إلى المنزل، وعندها فقط بدأت أدرك حقًّا هول ما فعلته. كانت السماء تتوهج باللون البرتقالي المنعكس من ألسنة النار، على الرغم من أننا كنا في وقت متأخر من الليل، وألقى هذا الضوء بظلاله المخيفة على الطريق، وعلى كل شيء آخر في المكان، لكن ما أذهلني أكثر كان الصمت؛ حيث كان كل شيء هادئًا للغاية، هادئًا بشكل غريب.

كنت قد قضيت بضع ساعات في المنارة، وأنا أراقب تكسُّر أمواج البحر على الصخور في الأسفل، لدرجة أنني لم أسمع صوت طائرات الهليكوبتر. تخيلت في ذهني صورة البستان وهو يختفي أخيرًا، يتلاشى من الوجود كأنه لم يكن سوى بقعة ظلت تعلو النافذة. ظللت أتأمل الزَّبد الأبيض في الظلام بعض الوقت، ثم قررت

العودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام، مدركًا أنني سأجد والدتي محطمة بسبب ما فعلته، لكن القوة التي كان يتمتع بها جدي كانت تتمثل في ذلك البستان، ومن دونه لم يكن شيئًا.

إذا لم أحصل على ما أريده فلن يحصل هو أيضًا على ما يريد.

كنت صغيرًا جدًّا وغبيًّا جدًّا، بحيث لم أفكر في الجميع وأنا واقف هناك في أعلى المنارة. ماذا سيحدث للأشخاص الذين يعملون في البستان؟ ماذا سيحدث للمدينة؟ لم أدرك حقيقة ما فعلته حقًّا إلا عندما شممت رائحة الدخان وأنا في طريق العودة إلى الكوخ، وبدأت تلك الأفكار تلمع في ذهني مثل حبات الجمر المتوهجة.

عندما رأيت المصابيح الأمامية المثبتة على الأشجار وهي تظهر أمامي، توارت كل تلك الذكريات، وانتقلت إلى جانب الطريق، وارتفع صوت المحرك كلما اقتربت من المنحنى، وكلما كنت أقترب تعالى صوت المكابح. توقفت، ورفعت يدي لأحمي عيني من وهج الأضواء، لكن بعد لحظة، كانت لا تزال قابعة في مكانها. وعندما توقفت الشاحنة نظرت حولي نحو الأشجار لم تكن هناك أية بوابة أو طريق، وكنت أرى الغابة فقط أمامي.

أدرت ظهري، ووجدت هاتفي في جيبي وأمسكته بجانبي. في آخر مرة عبرت فيها تلك الدروب مع شخص ما في منتصف الليل، ضربني ضربًا مبرحًا. وعندما أدرت الهاتف في يدي تسللت فكرة مخيفة إلى ذهني، وهي أنني حتى لو كنت محظوظًا بما يكفي للحصول على تغطية لشبكة الهاتف، فلم يكن هناك أحد يمكنني أن أتصل به.

فُتِحَ باب السائق، وسمعت صوت ارتطام أحذية بالأرض قبل أن يغلق بقوة، ثم مشيت نحو الصوت وأنا أحاول تمييز وجهه. كان الشعر الأشقر هو الذي كشف هويته.

قلت في اندهاش: "دوتش؟". لم أستطع رؤيته حتى وصل أمام الشاحنة.

قال لي: "لقد أخبرتَها؟".

طغى صوته على سكون الظلام من حولنا، وأطلقت نفسًا عميقًا، وأدخلت الهاتف مرة أخرى في سترتي.

قلت له: "نعم، لقد فعلت ذلك".

ضحك في عدم اتزان، وحينها فقط أدركت أنه كان منتشيًا من أثر الشراب. انحنى رأسه للخلف قليلًا، وهو يجر نعل حذائه بطريقة مبالَغ فيها، ثم تمتم: "بالطبع فعلت ذلك".

قلت له: "سألتني، وأخبرتها".

لوح بيده نحوي وقال: "أنت ما زلتَ الوغد الأناني نفسه الذي كنت عليه دائمًا".

قلت له: "أنت لست في وعيك يا دوتش، ومن الأفضل أن تذهب إلى المنزل".

استند بيده إلى جانب الشاحنة بشكل أخرق، وهز رأسه وقال: "كنت أعلم في اللحظة التي عدت فيها أن هذا سيحدث، وأنك ستجد طريقة ما لإفساد كل شيء"، ثم ضحك وقال: "لا شيء تغير، حتى بعد كل ما فعلته من أجلك".

قلت له: "لم أطلب منك أن تكذب من أجلي، وفي الواقع أنت لم تمنحني خيارًا آخر، كلانا يعرف أنك لم تفعل ذلك من أجلي".

تقدم نحوي ثلاث خطوات، وأمسك سترتي وسحبني نحوه وقال: "اللعنة عليك يا أوجست!".

دفعته بعيدًا.

سألني: "أين كنت عندما اضطُرت هي إلى الاعتناء بنوح؟ أين؟".

ازدردت لعابي وأنا أشعر بالغثيان.

تابع دوتش: "أين كنت عندما دفنت إيميري هانا؟ لم تكن هنا، ولكنني كنت هنا"، ثم استطرد في غضب عارم: "لكن مع ذلك الجميع يريدونك، أليس كذلك؟ وهكذا كان الأمر دائمًا".

قلت له: "ما الذي تتحدث عنه؟".

قال لي: "هل تعتقد أنني أحمق؟ كانت ليلي تحبك أيها الغبي".

قلت له: "أنت لست أحمق، ولهذا السبب لم أصدق ولو لحظة أنك لم تذهب إلى ولاية واشنطن، ولكنك للمصادفة الغريبة بدأت تواعد إيميري، وكنت قد بدأت ملاحقتها في اللحظة التي غادرت فيها. لقد نسيت أنني أعرفك يا دوتش، كانت ليلي تريدني، حسنًا، لكنني لم أكن أريدها، وأنت دائمًا ما كنت تريد إيميري، وكنت تستخدم ليلي بالطريقة نفسها التي كانت تستخدمك هي بها؛ لذا لا تتصرف كأن ذلك قد حطم قلبك اللعين".

ثبَّت نظراته نحوي، وأصبح صوته واهنًا ثم قال: "لا يهم الأمر الآن، أليس كذلك؟ كانت إيميري حمقاء يائسة تمامًا مثل ليلي التي كانت تبحث عن أي شخص ترتبط به".

كززت على أسناني، وأنا أشاهد بريق عينيه، وقبل أن أتمكن من تغيير رأيي، مشيت بجانبه، متوجهًا بعيدًا عن الشاحنة. لم أبتعد أكثر من بضع خطوات عندما بدأ يضحك مرة أخرى.

ثم قال: "أنت على حق، لقد رحلت يا أوجست، ولم يكن لديَّ حتى الوقت لأغضب منك بسبب ذلك، لأن كل ما كنت أفكر فيه هو أنني يمكنني أخيرًا الارتباط بإيميري بلا كوود".

توقفت في منتصف طريقي، وأنا أشاهد أنفاسي وهي تتصاعد في الظلام أمامي.

تابع: "لقد فعلت ذلك بكل تأكيد".

كنت أسير بالفعل عائدًا نحو الشاحنة، ولم أسمع صوت خطواتي؛ لأن دقات قلبي المتسارعة قد طغت عليها. لم أشعر بنفسي إلا عندما أمسكت بقميصه ودفعته للخلف. لم أستطع أن أشعر بأي شيء وأنا أشاهده يتعثر ويصطدم بالأرض بقوة، ثم رفعت قبضتي في الهواء، وهويت بها على وجهه، فشعرت على الفور بالحرارة تسري عبر عروقي. وعندما ضربته مرة أخرى ميزت ذلك الغضب المستمر الذي اجتاحني قبل أن أسقط المصباح يوم الحريق.

ضربته مرة أخرى، ومرة أخرى، ولم أتمكن من النهوض إلا بعد أن غطى الدم وجهه وانزلقت قبضتي فوق وجهه، وعادت الأصوات إلى أذنيَّ. رمشت بعيني، وعاد وعيي بالعالم من حولي إلى ذهني؛ محرك الشاحنة، الغابة، الألم الذي أصاب يدي.

تراجعت إلى الوراء حتى تجاوزت الشاحنة، وأنا أراقب دوتش المسجى على الطريق. انعكست أضواء المصابيح الأمامية على جسده، ولونت الطريق باللون الأبيض، حيث لم يكن مرئيًّا سوى حذائه. لم أشعر بأي مشاعر نحوه، وأنا أستدير وأتركه هناك.

الفصل الثالث والأربعون

إيميري

أشعلت الأضواء، فسمعت طنين المصابيح عبر المقابس القديمة، والذي أثارها الهواء الساكن، وعندما دخلت المقهى استقبلتني رائحة الخشب المدهون حديثًا والخبز الطازج. لقد قضيت نصف طفولتي في مساعدة والدي على تقديم المشروبات للسياح في النهار، ثم لسكان سيرشا في الليل.

بعد إغلاق البستان ومغادرة آخر عبَّارة، أصبح هذا المكان يعج بالحياة مرة أخرى، فتسلل الضوء الكهرماني للمصابيح، وصدحت أصوات الموسيقى والضحك. لأسباب كثيرة كان هذا المكان لا يزال ملاذي، وقد مرت أيام منذ آخر مرة رأيت فيها والدي، ولم أجرؤ على المجيء إلى المقهى وأنا أعلم أنه سيكون هنا، وبعد هذه الليلة، شككت في أنه سيرغب في رؤيتي.

دوى صوت بوق العبارة في الميناء، وتبعه نداء الطيور البحرية التي كانت غالبًا ما تقوم بالصيد تزامنًا مع تيارات المد العالي. أجبرت نفسي على عدم النظر نحو الباب. لم يقل أوجست ما إذا كان سيأتي كنت آمل فقط أن يأتي، وإذا لم يأتِ فهذا يعني أنه كان على متن تلك العبَّارة المتجهة إلى سياتل، وأنه قد رحل.

لم تكن الرسالة معي الآن، لكن كل ما أعرفه هو أنها طارت عبر الباب المفتوح، مع المطر في تلك الليلة، ولكن كان معي المجلد الذي احتفظت به في الدرج السفلي من خزانتي، وقررت أن أترك الأمر للقدر ليقرر ما إذا كنت سأعطيه إياه أم لا. إذا

ظهر أوجست فسأخبره بما أعرفه، وإذا لم يظهر فسأتركه يموت مع بقية الأسرار التي أحكمت قبضتها على هذا المكان.

فُتح الباب وشعرت بهبة من الرياح، وظهر أوجست، ووراءه كنت أرى الشارع المظلم. كان شعره متطايرًا بفعل الرياح، وحذاؤه موحلًا، ولم أستطع أن أتظاهر بأن الأمر لم يكن يهمني؛ لأنني كنت سعيدة جدًّا لرؤيته.

قلت وأنا أشعر بالتوتر بينما كنت ذاهبة لإحضار كأسين نظيفتين من الرف: "مرحبًا".

قال لي: "مرحبًا".

رفعت ذقني إلى إحدى الكئوس الفارغة وبابتسامة ساخرة مددت يدي إلى الصنبور النحاسي. كنت أحاول أن أجعل هذه اللحظة أقل توترًا، وبدا أوجست مرتاحًا لذلك، فقد كنا متعبيْن من المحادثات الصعبة، ثم سألته: "ماذا تحب أن تتناول؟".

أجابني: "كأسًا من الشراب، ثم شق طريقه عبر الطاولات، واتجه إلى أحد الكراسي المرتفعة، لكن منظره وهو جالس هناك لم يكن يشبه صورة المراهق الأخرق التي كانت محفورة في ذاكرتي، لقد أصبح رجلًا الآن، يشعر بالثقة بنفسه.

تناولت الكأس، وأملت الصنبور لأسفل، وراقبت السائل الأبيض الذهبي وهو يتدفق على جانب الكأس، وعندما امتلأت، وضعتها أمامه، ثم قلت له من دون تفكير: "هل تتذكر عندما كنا نتسلل إلى هنا ونسرق كئوس الشراب؟"، وبمجرد أن خرجت الكلمات من فمي، وددت لو كان بإمكاني أن أسحبها مرة أخرى.

ابتسم أوجست ابتسامة مبتورة، كأن تلك الذكرى بالذات آلمته عندما تذكرها. كنت أعرف هذا الشعور، فتابعت: "أتذكر أنك تقيأت فوق حافة الرصيف في منتصف الليل، واضطُررت إلى الإمساك بك حتى لا تسقط"، ضحك فجأة، وجعلني صوته أشعر كأن حضوره قد طغى على كل شيء في الغرفة. أحببت سماع صوته.

قلت وأنا أملأ كأسي: "لقد كنا غبيين".

أومأ برأسه، وأخذ كأس الشراب بيده اليسرى وتجرعها، ثم قال: "نعم، لقد كنا غبيين".

ثم خيم الهدوء على المقهى.

قلت له: "لم أكن أعلم إن كنت ستأتي أم لا".

قال لي: "وأنا أيضًا لم أكن أعلم".

رفعت عينيَّ، والتقتا بعينيه. لقد بدا حقًّا كما كان في ذلك الوقت، كان فكه أكثر بروزًا ومغطى بشعر كثيف، لكن عينيه كانتا مثل السابق تمامًا. لم أكن أعرف لماذا لم أتمكن حقًّا من رؤيتهما حينها. ذلك الألم الذي بدا كأنه يسكن عينيه، بدا كأنه قد فعل شيئًا فظيعًا، لكنني شعرت بأن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أوجست سولت بوضوح.

بحثت عن شيء أقوله. كان بإمكاني أن أشعر بالوقت وهو يمضي، فعندما سيغادر أوجست سيرشا لن يعود مرة أخرى.

قلت له: "أعتقد أنه يجب عليك العودة إلى فصولك الدراسية، أليس كذلك؟".

قال لي: "ليس قبل الفصل الدراسي المقبل، فلقد أخذت إجازة عندما ازداد مرض والدتي".

مررت بإصبعي على طول الشقوق فوق السطح الخشبي. كانت الشقوق لا تزال تعتني ببعضها حتى النهاية، سألته: "ما الذي تدرسه بالضبط؟".

ابتسم كأنه كان مسرورًا بذلك الاستجواب، ثم قال: "لديَّ فصلان دراسيان الآن؛ تاريخ العصور الوسطى المبكرة وعلم الآثار وصعود الرأسمالية".

كررت: "علم الآثار"، لم يكن هذا ما توقعت أنه سيفعله في النهاية، لكن بطريقة ما، كان ذلك مناسبًا.

سألني: "ما الأمر؟".

قلت له: "أظن أنه أمر مضحك فقط، فكنت أنا من أراد الذهاب إلى الجامعة".

قال لي: "نعم، أعتقد أن هذا ربما يكون هو سبب ذهابي".

انزلقت يدي من حافة الزجاج، لم أكن أريد أن أعرف ماذا يعني بذلك، ثم قلت: "هل أنت..."، لم أكن متأكدة من كيفية طرح السؤال.

قال لي: "متزوج؟".

أومأت برأسي.

"ليست لدي أية علاقة جادة في بورتلاند".

أردت معرفة تفاصيل أكثر من ذلك، لكن لم تكن لديَّ الجرأة لأتطفل عليه، لقد لاحظت في اليوم الأول الذي رأيته فيه أنه لم يكن يرتدي خاتمًا.

سألني: "ما الذي دفعك للبقاء؟".

هززت كتفي: "لا أعرف".

كانت إجابة حزينة، لكنها كانت واقعية، لم يكن هناك شيء يمكنني أن أخبره به عن حياتي لا يستطيع هو تخمينه، وكانت الفكرة محرجة، ولم يكن لديَّ قط أسباب المغادرة التي كانت لديه، لكنني أردت حياة خاصة بي، أردتها أن تكون مع أوجست.

تابعت: "أعتقد أنه عندما مرضت والدتي توقفت عن التفكير في المغادرة. شعرت بأن والدي بحاجة إليَّ، لكن ربما كان ذلك مجرد عذر قلته لنفسي؛ لأنني كنت أخشى جدًّا المغادرة".

كانت الكلمات أكثر صدقًا مما كنت أنوي، وعندما لم يضغط عليَّ للتحدث في هذا الموضوع شعرت بالامتنان له.

مد يده إلى الكوب مرة أخرى، وركزت عيني على يده اليمنى التي كانت لا تزال مدسوسة في جيبه، وعندما رآني أحدق إليه انقبض فكه.

سألته: "ما الأمر؟".

قال لي: "لا شيء".

نظرت إليه نظرة متفهمة فاستسلم، وسحبها على مضض من جيبه. انفتح فمي عندما رأيته، حيث كان ظهر يده محطمًا، وأصابعه ملطخة بالدماء.

مددت يدي إليه، وسحبت يده نحوي، وباعدت بين أصابعه على راحة يدي، ثم سألته: "ماذا حدث؟".

لكن عندما رفعت نظري، لم يكن أوجست يستمع إليَّ، حيث كان يراقب وجهي من دون أي انتباه، وعيناه تتجهان إلى حيث كانت يداي ملفوفتين حول يديه.

قلت مرة أخرى، هذه المرة بغضب: "ماذا حدث؟".

قال لي: "دوتش".

وجَّهت نظري إليه، وأملت رأسي، وقلت له: "لا بد أنك تمزح معي".

عندما لم يرد أوجست أسقطت يده على المنضدة فتألم، واستدرت ودفعت الباب المتأرجح المؤدي إلى المطبخ. ثم سحبت منشفة نظيفة من الرف، وفتحت الصنبور على الماء الساخن، ثم غمرتها فيه.

صرخت: "أعتقد أنك سمعت إذن".

بقي أوجست صامتًا.

عصرت المنشفة، وعدت إلى حيث كان أوجست يفرغ كأسه.

قلت له: "إنه ليس رجلاً سيئًا كما تعلم".

قال لي: "أعرف".

لم أكن أعرف لماذا قلت ذلك، ربما لأنني كنت أعرف ما الذي مررت به مع دوتش، لكنني كنت دائمًا واضحة بشأن علاقتنا، ولم يكن يريد هو أن يصدق ذلك.

قلت وأنا ألوح له بيدي: هات يدك".

تردد أوجست لحظة قبل أن يضع يده في يدي مرة أخرى، وراقبني وأنا أمسح الدم منها وأفحص كل إصبع، وأتحسس العظام الواحدة تلو الأخرى، لأتأكد من أنها لم تكن مكسورة.

قال أخيرًا، كأنه نوع من أنواع التبرير: "لم يكن في وعيه، ولم تكن الأمور تسير على ما يرام".

قلت له: "بالطبع فقد كان غاضبًا؛ لأنك أخبرتني بعلاقته بليلي. أعتقد أنه كان يجب عليَّ أن أحذرك"، ثم أسقطت الخرقة على المنضدة.

حدقنا إلى بعضنا، وقد اختفى الآن الشعور بالارتياح الذي شعرت به بيننا منذ لحظة، ورفع أوجست كأسه الفارغة بيننا.

قال وهو يبتسم ابتسامة جامدة: "هل يمكنني الحصول على كأس أخرى أم كانت تلك هي الكأس الأخيرة؟".

كدت أضحك، الآن كان هو من يحاول تلطيف الأجواء فقلت له: "بالتأكيد".

أعدت ملء كأسه، وتوجهت حول المنضدة لأجلس على المقعد المجاور له. لم أستطع إلا أن ألاحظ أنه للمرة الأولى، لم أشعر كأننا كنا غرباء.

قال لي: "لقد قلت لي إن هناك شيئًا ستريني إياه، ما هذا الشيء؟".

أملتُ فمي، وحدقت إلى كأسي، وسألت نفسي للمرة الأخيرة عما إذا كنت متأكدة من أنني أريد أن أفعل ذلك. استغرق الأمر ثواني عدة، حتى مددت يدي إلى داخل حقيبتي، وأخرجت المجلد أخيرًا. أسقطته بيننا في صوت مرتفع والتقطت كأسي، وشربت حتى دمعت عيناي. لم تكن هناك عودة من ذلك الآن.

سألني: "ما هذا؟".

قلت له: "شيء يجب أن تراه قبل أن تذهب".

تغيرت تعبيرات وجهه، ووقعت عيناه على المجلد للحظة قبل أن يلتقطه، وشاهدته وهو يفتحه، ويقرأ الكلمات.

كان صك ملكية بساتين عائلة سولت.

نظر إليَّ مرة أخرى، ثم سألني: "من أين حصلت على هذا؟".

أجبته: "من مكتب السجلات".

انحنى أوجست نحوي وهو ينتظر أن أكمل حديثي.

تابعت: "ذهبت بعد وفاة جدك لإلقاء نظرة على الوصية. اعتقدت أنه ربما يكون هناك عنوان لك ولإيلويز أو شيء من هذا القبيل".

أمال فمه وهو يحاول استيعاب ما كنت أقوله. لقد ذهبت للبحث عنه، لا بد أنه كان يعرف ذلك بالفعل، لكن هذا جعلني أشعر بالحرج أمامه.

قال لي: "إذن لقد سُجِلَ صك ملكية البستان رغم كل شيء".

أخذت الأوراق من يده، وأمسكت بالورقة الأخيرة ووضعتها أمامه. لم أقل شيئًا بينما كان يقرأها ببطء. عندما وصل إلى أسفل الصفحة تقلصت عضلات فكه مرة أخرى.

وضعت إصبعي على التوقيع الموجود في السطر الأخير. كان توقيعه، وقلت له: "أنت لم توقع على هذا، أليس كذلك؟".

راقبته وهو يستجمع الأمر ببطء، ثم يقول: "بلى".

قلت له: "عرفت أنه ليس خط يدك عندما رأيته".

قال كأنه يوجه الكلام لنفسه: "هذا أمر غريب، كيف يمكن لجدي أن يترك البستان للمدينة عندما يموت؟".

هذا ما قيل للجميع. عضضت باطن خدي، وأنا أفكر في مقدار ما يجب عليَّ أن أخبره به، وإلى أي مدى كنت مستعدة للتمادي في ذلك.

قلت له: "إذا كان قد فعل ذلك حقًّا، فلماذا كانوا يحتاجون إلى توقيعك عليه؟".

كان يحاول فهم الأمر كما حاولت أنا، عندما رأيت توقيع نيكسي أسفل توقيعه.

ثم ضغط بقبضته على فمه، بينما كان يقرأ الوثيقة مرة أخرى، وسألني: "ما الذي ترمين إليه بالضبط؟".

أخذت نفَسًا عميقًا ثم قلت: "أود أن أقول إن هناك سببًا آخر وراء استيائهم من عودتك، والأمر ليس متعلقًا فقط بموت ليلي".

الفصل الرابع والأربعون

أوجست

كانـت العبّـارة الصباحية قـد وصلت الجزيرة ثم رحلت، وفي غضون سـاعة سـتقلع طائرتي المتجهة إلى سياتل.

لن أكون على متنها.

كسـرت بيضـة، ووضعتهـا في المقـلاة، وقرأت الصـك مرة أخـرى، بينما بدأت الغلايـة تهتـز كانت الأخبـار التي وصلتنا أنـا وأمي بأن هنري قد ترك البسـتان إلى سكان المدينة قد فاجأتنا، فطوال حياته لم يكن يريد قط أن تمتلكه المدينة، ولكن في النهاية، تصورت أنه أُجبر على تقبل حقيقة أنني لن أعود إلى سيرشا أبدًا، وأنه لـن يكـون هنـاك أحد آخر يمكن أن يئول إليه البسـتان، والآن يبدو لي أن ذلك الوغد العنيد لم يكن كريمًا على الإطلاق.

أبعـدت البخـار المتصـاعـد من الغلايـة بيدي، عندما بـدأ الضبـاب يتكون على نظارتي، ودفعتها نحو أنفي، وقرأت اسمي مرة أخرى.

كان تاريـخ التوقيـع الموجود علـى الورقة يعود إلـى أربعة أشـهر تقريبًا بعد وفاة جدي، ووفقًا لإيريك، كان ذلك وقتًا كافيًا لإثبات صحة الوصية وتسجيلها، وبمجرد الانتهـاء مـن ذلـك لـن يحتاجـوا إلا إلـى محـامٍ لنقـل الصك وموثـق عقـود بوصفه شاهدًا... برنارد كيلر ونيكسي توماس.

إذا كانت إيميري على حق، فربما لم يكونوا هم فقط المتورطين، ومن الممكن أن يتطلب الأمر مشاركة مجلس المدينة بالكامل.

قبل الحريق، كان جدي مقتنعًا بأن المدينة كانت تسعى لوضع يدها على البستان، وبمجرد رحيله وعدم وجود أحد ليوقفهم استولوا عليه. من المؤكد أنهم اعتقدوا أنني لن أعود، ومن بين كل الأشخاص الذين كان يمكنهم تعيينهم لتولّي تلك المسئولية، لم يجدوا سوى دوتش بودن لتولّي تلك الوظيفة، كان هناك شيء مريب في كل ذلك.

بدأت الغلاية تصدر صفيرًا حادًّا فأخذتها، وسكبت الماء بينما كنت أنهي قراءة السطر الأخير. انسكب الماء على حافة الكوب، وانزلقت الغلاية من بين أصابعي، وتناثرت المياه عندما ارتطمت بالمنضدة.

قلت بصوت مرتفع: "اللعنة!". مسحت الماء من فوق يدي، وفتحت الصنبور، وتركت الماء البارد يسيل فوق أصابعي. كانت وردية اللون ومتورمة هذا الصباح، فبشرتي كانت مجروحة وتؤلمني.

وضعت الغلاية في المغسلة، وتركت الكوب. لقد مضت أكثر من عشرة أيام دون أن أتناول فنجانًا جيدًا من القهوة، يُمكنني تحمُّل يوم آخر من دونها.

فجأة سمعت طَرقًا على الباب، فنظرت نحو الخزائن، وعبر النافذة، فرأيت الجزء العلوي من رأس إيميري من خلال الزجاج، فحركت المقلاة من الموقد، وأنا ألعن حقيقة أنني ما زلت أستطيع التعرف عليها بتلك السهولة. يمكنني التعرف عليها في أي مكان، من يديها، ومن شكل جسدها، حتى إنه يمكنني تمييز صوتها، من وسط أصوات جمع من الناس إذا اضطُررت إلى ذلك.

مشيت حول المنضدة، وعبرت غرفة المعيشة، وألقيت نظرة على حقيبتي المعبأة التي كانت لا تزال موضوعة بجانب الباب، عندما فتحت الباب نظرت إليَّ إيميري بعينين متعبتين. كانت تلف جسدها بسترة رمادية سميكة، وشعرها كان مضفرًا بشكل عشوائي على إحدى كتفيها، وتحمل وعاءً حافظًا للحرارة بين ذراعيها.

سألتها: "هل معكِ قهوة؟".

أعطتني الوعاء، وهي تحدق إلى وجهي وشبح ابتسامة يرتسم على وجهها، ثم قالت: "لقد شممت رائحة القهوة المحروقة عندما كنت هنا بالأمس".

قلت لها: "ماذا؟".

ابتسمت ابتسامة كبيرة أخيرًا، وقالت: "نظارتك، لم أرك ترتدي نظارة من قبل".

خلعتها وأنا أشعر بالإحراج، ولم أعرف لِم شعرت بذلك. لماذا شعرت بأن وقوفها عند الباب، وهي تحمل معها القهوة وتعلق على نظارتي بدا شيئًا مألوفًا؟ ومجرد النظر نحوها جعلني أشعر بالاستقرار بطريقة لم أشعر بها من قبل.

لم تنتظر حتى أدعوها للدخول، وخطت بجانبي وسألتني: "هل تحدثت معه؟".

قلت لها: "نعم"، وعدت إلى المطبخ، وسحبت كوبًا آخر من الخزانة. كان عليَّ أن أسير ذهابًا وإيابًا على الطريق؛ لأجد مكانًا توجد به تغطية للهاتف كي أتمكن من الاتصال بإيريك، لكنني في النهاية تمكنت من التحدث معه فترة كافية، للحصول على الإجابة التي كنت أحتاج إليها.

سألتني: "ماذا قال؟".

قلت لها: "لن يفهم حقًّا ما يجري حتى يرى جميع الأوراق. لقد طلب مني إحضار الوصية الأصلية التي قُدِمَت إلى المقاطعة، وعندما يحصل عليها سيتصل بي".

أومأت برأسها، لكن نظرتها كانت مثبتة نحو المنضدة، كأنها كانت غارقة في التفكير. كانت الهالات السوداء تظهر تحت عينيها على بشرتها الفاتحة، وكانت زوايا وجهها تبدو أكثر حدة.

قلت وأنا أملأ الأكواب: "يبدو أنكِ لم تنامي منذ أيام".

تمتمت: "لم أنم!".

شاهدتها وهي تلتقط خيطًا من سترتها، وكانت تفعل ذلك دائمًا، ثم قلت لها: "ما الأمر؟".

قالت لي: "كنت أتمنى فقط ألا يكون والدي جزءًا من كل هذا"، ثم وضعت فنجان القهوة أمامها والتقطته بكلتا يديها، كأنها كانت تدفئ نفسها به، تابعت: "لكن لا بد أنه كان يعرف بالفعل، فهم جميعًا عرفوا بالأمر".

سألتها وأنا أتأملها: "لماذا أخبرتني بذلك إذا كنتِ تعتقدين أنه قد يكون متورطًا؟"، لم يكن هذا التصرف من سمات إيميري، فقد كانت عائلة بلاكوود دائمًا متماسكة ومخلصة لبعضها. لقد تم استُبعدت من هذه المعادلة منذ فترة

طويلة، وبالتأكيد كلفها إعطائي صك ملكية البستان الكثير. لم تكن مدينة لي بذلك، لكنها فعلت ذلك على أية حال.

قالت لي: "لقد سئمت من كل هذا الكذب".

جعلنا صوت طقطقة الخشب الصادر من الشرفة ننظر إلى الباب الأمامي، ونظرت إيميري نحوي قبل أن تنهض، وتتجه إلى النافذة. كانت تمسك بقبضتها الستارة عندما وقع نظرها على شيء.

قلت، وأنا أتبعها: "ما الأمر؟".

وقفت خلفها، ونظرت فوق رأسها. في الخارج، كان هناك مظروف أبيض على ممسحة الأقدام، فمددت يدي حول إيميري، وفتحت الباب، ونزلت على الدرج. في كل اتجاه، كانت الغابة ساكنة باستثناء أصوات طيور الزرزور التي بدت كأنها لا تغادر أغصان الأشجار أبدًا، لكن لم يكن هناك أحد.

عندما استدرت، كانت إيميري تقف عند المدخل، وهي تحمل المظروف بين يديها، ثم نظرت إليَّ، وعقدت حاجبها، قبل أن تقلب المظروف وتفتحه.

شاهدت عينيها وهي تنظر إلى الورقة بينما كانت تفتحها، وكسر صوت أنفاسها الصمت، وقالت: "اللعنة!"، ثم أغلقت عينيها.

صعدت الدرج، وأخذتها منها، وعدت إلى الداخل وقلت لها: "ما الأمر؟".

كانت الورقة نسخة مصورة من رسالة، وبمجرد أن رأيت خط اليد، ارتجفت، كانت تلك رسالة لوالدتي.

هانا...

لقد كنت أفكر في أنني بحاجة إلى كتابة هذه الرسالة، لكنني لم أكن متأكدة من كيفية قيامي بذلك.

كل ما يمكنني التفكير فيه هو أنني أتمنى لو لم تحدث كل أحداث تلك الليلة.

أعلم أن ما فعله أوجست لا يغتفر.

ازدردت لعابي، محاولًا تهدئة ارتعاش يدي.

لقد فكرت مرات عديدة في كيفية اعتقادك أنكِ تعرفين طفلك، ثم يفعل هو شيئًا يرعبك؛ شيئًا يفتح أبواب الظلام.

أخذت نَفسًا عميقًا ثم قلت: "ما هذا؟".

صمتُّ عندما وصلت إلى أسفل الصفحة، حيث كتب شخص ما بأحرف كبيرة.

يجب عليك الرحيل وإلا فسأتصل بشرطة سياتل غدًا بخصوص هذه الرسالة وما حدث في البستان مع ليلي.

وضعت إيميري يدها على فمها، وهي تحدق إليَّ، ثم قالت: "إنها رسالة كتبتها والدتك إلى والدتي".

سألتها: "هل رأيتِ تلك الرسالة من قبل؟".

قالت لي: "لقد وجدتها في العلية الأسبوع الماضي بعد وصولك إلى هنا، كان هناك صندوق كامل من الرسائل المتبادلة بينهما".

ارتخت يداي وسقطت بجانبي، وشعرت كأن ثقل تلك الورقة يزن مائة رطل.

تابعتْ: "وأحدهم أخذها من منزلي في تلك الليلة التي اشتعلت فيها النيران في الشاحنة".

وسرعان ما ألقيت بالمظروف على المنضدة، وشرعت أتجول في المطبخ.

راقبتني إيميري من غرفة المعيشة، وسألتني: "ماذا يعني هذا؟ ماذا حدث في البستان مع ليلي؟".

حدقت إلى الكلمات المكتوبة أسفل الورقة، وعضضت شفتي السفلى. كان هذا جزءًا من القصة التي كنت أتمنى ألا أُضطر إلى إخبار إيميري بها، قلت لها: "في ذلك اليوم، بعد حفل التخرج، جاءت ليلي إلى البستان، بعد أن تقابلتما في المقهى، وكانت مستاءة وأخذت تبكي".

سألتني: "بسبب شجارنا؟".

تنهدت وقلت لها: "نعم، أعني، ليس بالضبط، كانت مستاءة لأننا سنترك سيرشا، وطلبت مني أن أتراجع عن ذلك القرار".

سألتني: "قرار المغادرة؟".

حدقت إليها، وأنا أتساءل عن مقدار ما يجب أن أقوله لها. لم تكن هناك جدوى من الكذب، لكن لم تكن هناك فائدة كبيرة من معرفة إيميري بكل التفاصيل أيضًا.

قالت وبدا أنها كانت تقرأ أفكاري: "أخبرني".

شبكت ذراعي فوق صدري وقلت: "كنت أعمل في البستان، وعندما عدت إلى علية الحظيرة كانت هناك".

سألتني: "وماذا حدث؟".

قلت لها: "كانت غاضبة حقًّا من مغادرتنا، وتوسلت إليَّ ألا أغادر. كانت تتصرف بجنون، تبكي وتصرخ، واعتقدت أننا وحدنا في الحظيرة".

ما لم أخبرها به هو أن ليلي حاولت معانقتي، وانهمرت الدموع على وجهها، ولم أرها تتصرف بهذه الطريقة من قبل، حتى التفكير في الأمر الآن جعل معدتي تؤلمني.

سألتني إيميري: "ماذا قلت لها؟".

أجبتها: "لم أعرف ماذا أقول، لقد كان تصرفًا غريبًا، واعتقدت أنها ربما كانت ثملة"، ثم هززت رأسي، وقلت لها: "أخبرتها بأنها يجب أن تغادر، وعندما لم تغادر، غادرت أنا، ولم أعد إلا بعد ساعة وحينها كانت قد رحلت".

ضحكت في مرارة وقالت: "إذن، كان دوتش يقول الحقيقة عندما قال إن ليلي كانت تحبك".

كنت أشك في ذلك بالطبع، لكنني لم أخبر إيميري قط لأنهما كانتا صديقتين، كنت أعلم أن هذا من شأنه أن يؤذي مشاعرها، فتابعتُ: "لا بد أن شخصًا ما قد رآنا أو سمعنا، لا أعرف بالضبط".

قالت لي: "حسنًا، أيًّا كان هؤلاء الأشخاص، فإنهم يقولون إنهم سيستخدمونها ضدك"، ثم ثبتت إيميري نظراتها على الرسالة، وبدا أن الظلال على وجهها تزداد قتامة مع مرور كل دقيقة.

سألتها: "من برأيكِ أخذ تلك الرسالة؟ هل من الممكن أن يكون دوتش؟".

هزت إيميري رأسها، وقالت: "اعتقدت سابقًا أنه ربما يكون هو من فعل ذلك، لكنني لا أعتقد ذلك الآن".

سألتها: "إذن، مَن؟".

قالـت لـي: "لا أعرف، فأنت لسـت الشـخص الوحيد الذي لديه أسـرار عن تلك الليلة، وأنا أعتقد أن الجميع لديهم أسرار، لكنـي لا أظن أن هذا الأمر يتعلق بليلي، أعتقـد أنـه يتعلق بالبسـتان والوصية"، ثم توقفت قبل أن تكمل: "أوجسـت، لم يكن لدى الشـرطة ما يكفي لاتهامك، ولكن الآن يمكنهم البدء في التحقيق في وفاة ليلي مرة أخرى".

سـألتها وأنـا أحـاول أن أتابـع تسلسُـل أفكارهـا: "هـل تعتقديـن أننـي يجـب أن أغادر؟".

رفعـت عينيه، لتلتقي بعينـيَّ، وللمرة الأولى منذ دخلت من الباب كانتا مركزتين عليَّ، ثم قالت: "لكن رحيلك لن يمنع أي شخص من استغلال هذه الرسالة ضدك".

حدقت إلى الرسالة المفتوحة ثم سألتها: "إذن، ماذا سنفعل؟".

أجابتني: "أعتقد أنه يجب علينا معرفة ما حدث حقًّا لليلي".

الفصل الخامس والأربعون

قبل يوم واحد من الحريق

إيميري

كان نبات البيلسان الأسود هو المفضل لدى والدتي لقراءة أوراق الشاي.

كانت ليلي تراقب الكوب الأخضر ذا الحواف الذهبية، وتنظر إلى آخر رشفات الشاي قبل أن ترفعه إلى شفتيها. جلسنا على أرضية المتجر بينما كانت الريح تعوي في الخارج، لكن ألسنة لهب الشموع التي أشعلناها كانت ساكنة.

ظلت تتوسل إليَّ شهورًا لقراءة أوراق الشاي الخاصة بها؛ لأن والدتي رفضت. قائلة إنها لا تحب قراءة مستقبل الشباب، وإن ذلك لا يجلب الخير أبدًا، لكنني وافقت أخيرًا على القيام بذلك بوصفه نوعًا من هدية الوداع لها، سواء كانت تعلم بذلك أم لا.

كان ذلك هو آخر يوم في المدرسة والليلة السابقة للتخرج، وكانت ليلتي الأخيرة معها في العالم الذي نشأنا فيه معًا. جعلتني تلك الفكرة أشعر بالغثيان قليلًا.

كانت والدتي قد علمتني قراءة أوراق الشاي منذ أن كنت طفلة صغيرة، وقد حفظت طقوسها عن ظهر قلب، بدءًا من الطريقة التي كنت ألفُّ بها المنشفة حول مقبض الغلاية وأنا أرفعها من فوق النار، إلى وضع يدي وأنا أقلب الكوب، لكنها لم

تسمح لي بالبدء في قراءة أوراق الشاي للزبائن الذين كانوا يرتادون المتجر إلا في الخريف الماضي.

وضعت منديل الكتان المطوي أمام ليلي، وقلت لها: "حسنًا، اقلبيه بحذر".

فعلت ليلي ما قلته لها، وأمالت الكوب بسرعة حتى انقلب رأسًا على عقب.

رششت حفنة أخرى من خشب الأرز المطحون والمجفف على الفحم، والذي كان موضوعًا في الوعاء النحاسي بجانبنا، فارتفع الدخان في الهواء، وملأ رئتيَّ.

قلت لها: "الآن أديريه في اتجاه عقارب الساعة ثلاث مرات".

وضعت أطراف أصابعها على أسفل الكأس، وأدارته وقد بدا على عينيها بريق يشي بمدى حماسها. وفي تلك اللحظة، ذكّرتني بليلي التي ركضت معها حافية القدمين عبر الغابة، تلك التي كانت تضحك طوال الوقت، ففي بعض الأحيان كنت أنسى تلك الشخصية التي لم تكن تُظهرها كثيرًا.

عندما انتهت، ضمت يديها فوق صدرها، ونظرت إليَّ.

سألتها: "هل أنتِ مستعدة؟".

أومأت برأسها، وضمت شفتيها بينما كنت أقلب الكأس مرة أخرى.

كانت العشبة ممتدة على طول الجدار الداخلي من الكأس، وتبدو غارقة في ركة من السائل المتجمع في القاع. أملتها نحو الضوء، وبدأت تتبلور في أشكال محددة، وتلمع على الخزف الأخضر الباهت.

لكن يدي تشبثت بالكأس عندما رأيت الرمز الواضح والوحيد وسط الخيوط السوداء، ورمشت كي أرى بوضوح، وأنا أظن أنها كانت بلا شك خدعة من فعل الدخان، أو بسبب وميض ضوء الشموع.

كانت هناك، على طول الحافة، دائرة مثالية، وقد برز من أحد جوانبها خط مستقيم. لم أرَ قط ذلك الرمز في أية قراءة قمت بها، ولم أتعرف عليها إلا من كتيب الأعشاب الخاص بأمي، والذي كان يحتوي على الرموز التي رُسمت يدويًا ومدّرج بجانبها معانيها، وكان ذلك الرمز مرادفًا للموت.

ومضت عيناي، ونظرت نحو ليلي، والتي كانت لا تزال تنتظر سماع القراءة بابتسامة عريضة.

مدت يدها إلى الكأس، وهي تقول: "حسنًا؟"، لكنني تراجعت، وأبعدته عن متناول يدها.

ضحكت، وقفزت فوق خشب الأرز المدخن والشموع لتأخذه مني، لكن الكوب انزلق من بين أصابعي، واصطدم بالأرض الخشبية وارتد قبل أن يتدحرج تحت الطاولة.

كادت ليلي تستلقي فوقي وهي تخطفه مني لتنظر إلى الداخل، وكان نصف أوراق الشاي قد اختفى، وتناثر على الأرض، فسألتني: "ماذا تقول أوراق الشاي؟".

شعرت بالبرودة تسري في وجهي بينما كانت النافذة تهتز فوق رءوسنا، ومن بعيد، كان دوي الرعد يزحف نحو الجزيرة.

لم يكن الأمر مجرد رمز، بل كان يتعلق بوضعيته على طول حافة الكأس بعيدًا عن المقبض. كان يتنبأ بالموت القريب.

كانت لا تزال تعتقد أن هذا كله مجرد لعبة، فقالت لي: "ما بك؟".

جلست وقد عقدت لساني. لم أكن قارئة ماهرة مثل أمي، فلم أره إلا للحظة، وقد يكون الأمر أنني لم أره بشكل دقيق على الإطلاق.

سألتني: "إيم؟".

كذبت، وأجبرت نفسي على الابتسام، وقلت لها: "الحب... يقول الطالع إنكِ ستجدين الحب".

أشرقت عيناها على الفور، وابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: "حقًّا؟".

قلت لها: "نعم".

استقرت ليلي مرة أخرى في جلستها مربعة الساقين على الأرض، وكان شعرها المبلل مضفرًا فوق قمة رأسها حتى يبدو متموجًا في حفل التخرج غدًا، وكان هناك توهج دافئ على وجنتيها. كانت لا تزال تبتسم.

أغمضت عينيَّ، وهززت رأسي قبل أن أنظر إلى الكوب مرة أخرى. كان السائل الأسود لنبات البيلسان متجمعًا الآن على أحد جوانب الكأس الخزفية.

لكن عينيَّ تتبعتا أوراق الشاي المتناثرة على الأرض أسفل الطاولة، وشعرت بالغثيان.

أخذت ليلي الكوب الثاني من الأرض، ووضعته أمامي، وقالت: "حسنًا، الآن دعينا نقرأ طالعك".

الفصل السادس والأربعون

إيميري

إذا كان هناك شيء واحد ثابت فيما يخص سيرشا، فهو أن لا شيء فيها يتغير تقريبًا. كانت هذه الحقيقة البسيطة مصدر فخر للعديد من الأشخاص الذين عاشوا على هذه الجزيرة، فبينما كان سكان البر الرئيسي يسيرون في الحياة بسرعة مع وتيرة العالم الفوضوية، كانت سيرشا ملاذًا لأولئك الذين عاشوا وفقًا للطرق القديمة.

ساعدني ذلك على أن أعرف بالضبط، أين سيكون جيك في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا اليوم.

كان يذهب إلى المقهى ثلاث مرات في اليوم، لتناول القهوة في الصباح، والجعة في الظهيرة، والكحول في المساء، وبمجرد أن تدق الساعة العاشرة، كان يغادر مكتبه الصغير، ويمكنني حتى أن أخمن ما سيطلبه؛ شطيرة من اللحم البقري مع الخردل والمشروب الذي يشربه في أول يومه.

ظهر في الموعد المحدد، فرأيته يدفع الباب المعدني القديم ويخرج تحت المطر. كانت أماكن وقوف السيارات القليلة الموجودة أمام المبنى خاوية؛ لذا ربما كان أبوت ويتيش الذي كان يدير صحيفة سيرشا قد غادر أيضًا، لكن صوفي كانت تذهب إلى العمل كل يوم مشيًا على الأقدام، سواء كان الجو ممطرًا أو مشمسًا، وكانت تتناول غداءها في مكتبها.

سار جيك مباشرة عبر ساحة انتظار السيارات دون أن يرفع عينيه عن مجموعة المفاتيح التي في يده، وبمجرد أن انحرفت شاحنته إلى شارع ماين انطلقت من مكاني عند زاوية المبنى. سيغيب على الأرجح ساعة على الأقل، وربما فترة أطول إذا انغمس في محادثة في المقهى، وكان ذلك وقتًا كافيًا.

لقد عرض أوجست أن يأتي معي، لكن في اللحظة التي وقعت فيها عينا صوفي عليه في المرة السابقة، رفعت سماعة الهاتف، واتصلت بشخص ما، هو ابنة أخت جيك، ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك الكثير للتحدث عنه.

رأيت صوتي منعكسة بوضوح على النوافذ الزجاجية الكبيرة، قبل أن أفتح الباب العنيد، ونظرت صوفي من خلف نظارتها نحوي من مكانها أمام المكتب، وقالت: "إم؟ هل هذا أنتِ؟".

ابتسمت وقلت لها: "مرحبًا يا صوفي، هل جيك هنا؟".

نظرت نحو موقف السيارات الخاوي ثم قالت: "لقد خرج حالًا يا عزيزتي، وذهب لتناول الغداء".

نظرت نحو الرواق المؤدي إلى مكتبه وقلت: "أوه لا بد أنه نسي أنني قادمة"، ثم نظرت إلى ساعتي، وتابعت: "كان من المفترض أن يقابلني الآن".

قالت لي: "حسنًا، هل هناك أي شيء يمكنني أن أساعدكِ فيه؟".

تنهدت وقلت لها: "لا، بعض الأعمال الكتابية فقط، فأنا بحاجة لتجديد تصريح المقاطعة. إنني أعرف مكانه".

فتحت صوفي فمها للاعتراض، لكنني كنت قد بدأت بالفعل السير نحو المكتب، وتواريت عن نظرها وأنا أتجه نحو الجانب الآخر من الجدار. وبحلول الوقت الذي قررت فيه ما إذا كان من المفترض، أن تسمح لي بالدخول دون إذن جيك، كنت قد حصلت على ما أحتاج إليه.

دخلت وأغلقت الباب خلفي، ونظرت إلى الوعاء الزجاجي البني أسفل المصباح عند الزاوية. كانت هناك مجموعة مفاتيحه الأخرى، وكان هذا شيئًا آخر لم يتغير قط في سيرشا، فلم يكن أحد سوى أصحاب المتاجر يغلقون أبوابهم، وحتى رئيس شرطة المدينة كان يضع مفاتيح خزانة الملفات الخاصة به. على الرف الذي يقع على مسافة أربع أقدام منه. وذلك لأنه قد أضاعها مرات عديدة؛ لذا لم يعد يكلف نفسه عناء إخفائها.

سرعان ما أخرجت المفاتيح من الوعاء، ووضعت المفتاح ذا الرأس البلاستيكي الأحمر في قفل الخزانة الثالثة. وعندما فتح الدرج الثقيل، أمسكت به براحة يدي، وتصفحت علامات التبويب بسرعة قدر استطاعتي. كانت الملفات زاخرة بتقارير عن السرقة التي ألقي اللوم فيها على السياح، أو أعمال التخريب، أو النزاعات بين الجيران حول حدود الملكية، لكنني كنت أبحث عن ملف يحمل اسم مورجان.

وجدته في الدرج الثاني، في أقصى مكان في الخلف، كان أكثر الملفات ثقلًا على الإطلاق، واضطُررت إلى استخدام كلتا يدي لتخليصه من بين الملفات الأخرى. وعندما أخرجته أخيرًا ازدردت لعابي بصعوبة، فقد كان وزنه ثقيلًا بين يدي.

دفعت الدرج بفخذي لإغلاقه، ثم أسقطت المفتاح في الوعاء، وبصعوبة كان حجم الملف يناسب وضعه تحت سترتي، لكنني شككت في أن صوفي لم تقم بتحديث قياسات نظارتها منذ سنوات. التقطت ورقة فارغة من زاوية الرف.

كانت متكئة على مكتبها عندما عدت إلى الممر، وكان ضوء الشمس ينعكس على عدسات نظارتها، التي كانت على شكل عين القط، عبست وسألتني: "هل كل شيء على ما يرام؟".

أبقيت ذراعيَّ مثبتتين على جانبي لأمسك بالمجلد في مكانه ثم ابتسمت، وأنا ألوح بالورقة في الهواء: "أعتقد أنه لم ينس. لقد ترك الورقة بعد كل شيء".

ابتسمت وهي تفك الورق الذي كان يغلف شطيرتها، ثم قالت: "أوه، هذا جيد، فأنتِ تعرفين كيف ينسى كل شيء".

قلت لها: "بالفعل، شكرًا يا صوفي".

قالت لي: "وداعًا يا عزيزتي".

دفعت الباب خلفي، وأنا أطلق العنان لأنفاسي المكبوتة كي تخرج من صدري عبر شفتيَّ. كان وجهي ساخنًا، ويداي زلقتين بينما كنت أبحث في جيبي عن مفاتيح الشاحنة المتوقفة عند تقاطع الشارع. وعندما دخلت أخرجت المجلد من داخل سترتي، ووضعته على المقعد بجانبي.

حدقت إليه وأنا أدير المفتاح. كان ورق المانيلا السميك ملطخًا ومهترئًا عند الحواف، كما لو كان قد استُخدم ألف مرة، ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك، فحتى عندما أوقفت نشرات الأخبار تناول الحادث، وتوقفت شرطة سياتل عن

المجيء على متن العبَّارة، استمر جيك في التدقيق في تفاصيل مقتل ليلي، لكن الإجابة الوحيدة التي توصل إليها كانت الإجابة الخطأ.

لم ألمه قط، كما فعل الجميع، والآن، بالنظر إلى الوراء، أصبح من الواضح أكثر من أي وقت مضى أنه لا أحد لديه كل الحقائق عن تلك الليلة سوى ليلي.

أحكمت يدي على ناقل الحركة قبل أن أدفعه إلى الخلف، لكن بمجرد أن بدأت الشاحنة تتراجع إلى الخلف، نظرت مرة أخرى إلى المجلد.

ربما لم أكن أعرف ليلي أيضًا، كما قال دوتش؛ لكنني سئمت من اعتقاد هذه المدينة أنهم يعرفونني.

غيرت رأيي، وضغطت على المكابح، ووضعت الشاحنة في وضع الانتظار. انزلقت الأوراق عندما سحبت المجلد إلى حضني وفتحته. وبالنسبة لكونه أحد ملفات جيك، فقد بدا منظمًا جدًّا، مع وجود أقسام مبوبة تفصل كل شيء، من نسخ مطبوعة للمقابلات وبيانات العبَّارة، إلى ما يبدو أنه جدول ليلي الدراسي الخاص بالمدرسة.

لكنني ضيقت عيني عندما ظهرت كلمة بلاكوود أمامي على ورقة كنت أقلبها، فقلبت الصفحات حتى عدت إليها، وسحبت القصاصات المثبتة. خفق قلبي بشدة حين رأيت صورتي، كانت تلك صورة مدرسية من عامي الأخير. كنت شابة صغيرة حينها، وكنت أرتدي فستانًا أزرق بسيطًا مبتسمة بخجل نحو الكاميرا. كانت تلك هي الصورة نفسها التي احتفظت بها والدتي في المتجر.

كانت بياناتي مطبوعة بجوارها: العنوان، وأسماء الوالدين، وعلاقتي بليلي. كانت الصفحة التالية تشبه الجدول الزمني، بدءًا من الساعة الثامنة والنصف صباحًا يوم 6 يونيو، حيث تحتوي على بيانات تفصيلية عن كيفية قضائي ساعات ذلك اليوم، منذ أن خرجت من المنزل حتى ذهبت إلى حفل التخرج ثم إلى المقهى، ثم عودتي إلى المنزل، ثم إلى ذهابي للشاطئ، ثم إلى الحفل وانتهت في المنزل مرة أخرى، عندما استجوبني جيك لأول مرة، وبجانب الوقت المكتوب في خانة المقهى، كانت هناك ملاحظة مكتوبة بخط اليد.

جدال مع ليلي - انظر إفادة أبوت ويتيتش

وكان هنـاك المزيـد؛ قائمـة مفصلـة بالأشـياء التـي وجدوهـا في غرفـة نومي، وإشـارات مرجعيـة لمقابـلات سـتؤكد تصريحاتـي. قلبـت الصفحة التاليـة؛ نتائج الاختبارات للملابس التي كنت أرتديها تلك الليلة، لم أكن أعلم أيضًا أنهم أخذوها أو أن الشـرطة جـاءت إلـى المنزل على الإطلاق، لكن نيكسـي وأنا قضينـا أيامًا في سياتل، وكان من الممكن أن أعود إلى المنزل، وألا ألاحظ حتى أنهم كانوا هنـاك.

شـعرت بألم في معدتي، وبدأت أشعر بالحرارة تسري في عروقي، فلم يكن هذا يبدو كأنه ملف تعريفي لصديقة الضحية، بدا الأمر كأنني شخص مشتبه به.

الفصل السابع والأربعون

أوجست

جلست إيميري وسط غرفة نومها وهي تشعر بأنها كانت في موقف صعب، وكانت محتويات الملف متناثرة حولها. قلبت الصفحات ووجدت صفحة من مقابلة أخرى، ومرت بإصبعها على الكلمات أثناء قراءتها.

وقفت عند المدخل أراقبها وفنجان قهوة طازج في يدي. كنا نعمل على ذلك ساعات، نفحص كل ورقة في سجلات جيك الخاصة بالقضية، لكن إيميري كانت تعود إلى كومة محددة باستمرار، تلك التي تحتوي على صورتها.

قالت مرة أخرى: "لا أفهم الأمر، فجيك لم يخفِ حقيقة أنه يعتقد أنك أنت من قتل ليلي، وإذا كان يعتقد أنه ربما كنت أنا من قتل ليلي، فلماذا إذن لم يخبرني؟".

استطعت أن أرى أن الأمر قد أثار غضبها، فقلت لها: "إنه عملك يا إيم".

قالت لي: "لا أتذكر حتى أنه سألني، ولا أعتقد أن أحدًا فعل ذلك من قبل".

قال لي: "ربما لهذا السبب أراد بشدة أن أكون أنا من قتل ليلي".

رفعت بصرها أخيرًا، وسألتني: "ماذا تقصد؟".

حدقت إلى الصورة، فتذكرتها؛ لأن إيميري كانت تكره تلك الصورة، وكنت أكرهها أنا أيضًا، حيث بدت فيها خجولة ومتوترة، ولم تكن تلك إيميري التي أعرفها.

قلت لها: "إذا كنت أنا من قتل ليلي، فلا يمكنك أن تكوني أنتِ القاتلة".

وضعت شعرها خلف أذنها، ثم قالت لنفسها تقريبًا: "أتساءل عما إذا كان والداي يعرفان، أو ما إذا كان هذا هو الشيء الوحيد الذي أخفياه عني".

كانت الرسائل مسألة أخرى، حيث كانت موضوعة على طاولة المطبخ وغطاء العلبة كان مفتوحًا، لكن لم تكن لدي أية نية لقراءتها. لم أكن أريد أن أعرف ما قالته أمي عني أو ما فعلته، لم أكن أريد أن أعرف كيف جعلتها تعاني.

تساءلت الآن عما إذا كان هناك صندوق رسائل في العلية في منزل أمي، فهي لم تخبرني قط أنها ظلت على اتصال بأي شخص في سيرشا.

عندما رأتني إيميري أحدق إلى الرسائل أغلقت علبة الرسائل التي في يديها، ثم قالت: "يقول أحدهم إنك عدت إلى هنا بعد أن غادرت"، وكانت تنظر إليَّ في قلق، كأنها تخشى أن تعرف الإجابة، تابعت: "هل هذا صحيح؟".

حدقت إلى كوب القهوة، وشاهدت البخار يتصاعد لأعلى، ثم قلت لها: "نعم، لقد فعلت ذلك".

شاهدتها وهي تلتقط الدباسة الموضوعة بجانب زاوية العلبة، وفي أعماقي، كنت آمل أن أقابل إيميري، وأن تظهر ذات يوم في منزلنا في بروسبر وتتخذ القرار نيابة عني، لكنها لم تفعل ذلك قط. كان الابتعاد عنها عذابًا، وعندما وصلت إلى النقطة التي لم أعد أستطيع فيها تحمُّل الأمر لفترة أطول، غادرت وتمكنت من القيادة طوال الطريق إلى سياتل دون أن أحاول حتى إقناع نفسي بالعودة.

سألتني: "لماذا لم تأت لزيارتي؟".

أطلقت نفَسًا طويلًا، ونظرت نحو النافذة ثم أجبتها: "لقد أتيت".

تتبعت إيميري نظراتي وقالت: "هل أتيت إلى هنا؟".

أومأت برأسي.

كنت قد وصلت إلى الجزيرة على متن آخر عبَّارة، ومشيت عبر الطريق بالقرب من الأشجار، وكان المنزل مظلمًا عندما دخلت من البوابة، وكانت نافذة إيميري مفتوحة، وبمجرد أن رأيتها من خلال الزجاج عرفت أنني ارتكبت خطأً ما. كانت نائمة، ولم أستطع رؤية وجهها، لكن راحة يدها المفتوحة كانت مضاءة بشعاع من ضوء القمر.

كنت أفكر حينها في أنني سأذهب إلى المنزل، وإلى إيميري، لكن عندما وقفت هناك في الظلام أدركت أنني لم أعد الشاب نفسه الصغير الذي اعتاد تسلُّق المنزل عبر تلك النافذة، ولم تكن هي الفتاة نفسها التي وافقت على مغادرة سيرشا معي.

راقبتني إيميري وأنا أتذكر تلك اللحظة. لم أكن أريدها أن تسألني عن أي شيء آخر، ولم أكن أريد أن أخبرها كيف كانت تلك اللحظة، وما الذي تطلبه مني الأمر حتى أدير وجهي وأقرر الرحيل.

قلت لها: "اعتقدت أنه سيكون من الأسهل عليكِ ألا أعود".

لوت شفتيها.

ثم تابعت: "هل كنتِ ترغبين في أن أعود؟ بعد كل شيء؟".

ظلت صامتة طويلًا قبل أن تجيب: "نعم".

تأملت عينيها، ولم أكن أعرف ماذا يجب أن أقول، فلم يكن بإمكاني العودة بالزمن وتغيير ما حدث أو القرارات التي اتخذناها، وكثيرًا ما تساءلت عما إذا كانت قد تألمتْ كما تألمتُ أنا بعد رحيلي، وتساءلت حتى عما إذا كان ذلك سيجعلني أشعر بتحسن، عندما أعلم أنها تألمت مثلي، كما لو كان ذلك سيبرر كل هذا الألم بطريقة ما، ولكن هذا لم يحدث.

فجأة أصبح صوتها أجش وخافتًا وهي تسألني: "هل صحيح أن تلك الجزيرة كانت تناديك بطريقة ما؟ كانت أمي تقول دائمًا إنك إذا غادرت، فسوف تدعوك للعودة مرة أخرى".

قلت لها: "نعم، هذا صحيح".

شعرت بذلك منذ اللحظة التي خطونا فيها على العبَّارة، ولم يتركني مطلقًا هذا الإحساس حتى عدت إليها مجددًا.

حدقت بعيدًا وهي تفكر في كلماتي.

قلت لها وأنا أحاول تغيير الموضوع: "أنتِ تبدين في حالة مزرية للغاية يا إيم، يجب عليكِ أن تحصلي على قسط من الراحة".

كادت تضحك ثم قالت: "شكرًا".

تابعت: "أعني متى كانت آخر مرة نمتِ فيها؟".

هزت كتفيها، ومرت بعينيها فوق الحروف المطبوعة على الصفحة مرة أخرى.

استسلمت، وخطوت فوق الكومة الموضوعة على الأرض، وجلست على حافة السرير لأقرأ من فوق كتفها وسألتها: "ما هذا؟".

وضعتها أمامي، وقالت: "سجل أو شيء من هذا القبيل. يبدو أنه شيء وُجد معها. كانت ترتدي ملابس الحفل؛ لذا لا بد أنها كانت متجهة إلى الحفل".

قلت لها: "أو إلى الشاطئ، فلقد تركت لكِ رسالة لمقابلتها، أليس كذلك؟".

وضعت إيميري يديها في حضنها، وقالت: "حسنًا، لكنها لم تحضر قط. دعنا نراجع الأمر مرة أخرى".

قلت لها: "حسنًا".

قالت إيميري: "بعد مراسم التخرج كانت ليلي معي في المقهى، تشاجرنا، ثم ذهبت لرؤيتك في البستان، ولكن في وقت لاحق، أتت إلى منزلي وتركت ملاحظة تخبرني برغبتها في مقابلتي في شاطئ هالو"، ثم نظرت إلى الأوراق مرة أخرى، والتقطت واحدة منها، ثم تابعت: "وما نعرفه أن آخر شخص رآها هو إيتزيل أدلمان، الذي قال إنه رأى ليلي في متجر ليودا بعد الساعة الرابعة".

قلت لها: "لا بد أنها قد عادت إلى المنزل في وقت ما إذا كانت ستستعد للحفل".

قالت لي: "لكن إذا كانت قد فعلت ذلك، فلم يرها والداها، فقد قالا إن آخر مرة رآها فيها كانت قبل الغداء؛ لذا فلا بد أنها قد عادت إلى المنزل عندما لم يكونا هناك".

نظرت إلى سجل ما وجدوه مع ليلي، سطرًا سطرًا. لم يكن ذلك هو السجل الأصلي؛ كان نسخة منه، وباستثناء سطر تمت إزالته، سُردت العناصر الواحد تلو الآخر، فستان، وحذاء، وسوار، وأقراط، وساعة، وأعواد ثقاب.

قلت بصوت مرتفع: "لماذا تحمل أعواد ثقاب؟".

رمقتني إيميري بنظرة متفهمة. لقد اعتدنا التدخين كثيرًا في المنارة في سنتنا الأخيرة، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت حجة غيابي مع دوتش تبدو حقيقية.

قلت لها: "ربما كانت في المنارة حينها".

قالت لي: "ربما، لكنك لم ترها هناك".

قلت لها: "ربما كانت قد وصلت إلى هناك بعد أن غادرت".

بحثت إيميري في إحدى القصاصات، وتجعد جبينها، ثم قالت: "عندما حللوا نسيج الفستان، قال جيك إنهم قد وجدوا شمعًا عليه، كأنه قد انسكب على القماش،

وهـذا هـو الجـزء الأكثـر غرابـة"، ورفعت ورقـة أخرى في الهـواء، ثم قالـت: "لقد وجدوا أعشابًا بحرية في معدتها عندما قاموا بإجراء تشريح للجثة".

جفلت عند سـماعي تلك الكلمات، فلقد جعلتني فكرة تشـريح جسـد ليلي أشـعر برعشة.

تابعـت: "وهـذا التقريـر هـو أيضًا مـا جعل جيك يـدرك أن ليلي كانـت مرتبطة بشـخص ما، وقد اعتقد أن هذا الشـخص هو أنت؛ لأنك لم تكن في البستان عندما اندلـع الحريـق. كان يعلم أنني وليلي تشـاجرنا في المقهى، حيث رآنا أبوت نتجادل، لذا فقد جمع كل الخيوط معًا، معتقدًا أنك وليلي تجمعكما علاقة ما، وهنـاك كذلك تاريخ من العنف و..."

همست: "أي تاريخ للعنف؟".

رفعت إيميري كتفيها، وتشبثت أصابعها بالورقة.

سألتها وأنا أتأملها: "ما الأمر؟".

ومع ذلك، لم ترفع عينيها.

قلت لها: "يا إلهي، أخبريني فقط بالأمر".

قالت لي: "عائلتك".

ضغطـت بيـديَّ علـى الكـوب. إذن كان جيك يعلـم بأمر جدي، ربمـا كان الجميع يعلمون، لكن لم يفعل أحد شيئًا حيال ذلك، قلت لها: "إذا كان شخصًا أحمق وثملًا فإن هذا لا يمثل تاريخًا للعنف".

أنزلت الورقة مرة أخرى على كومة الأوراق، ووضعت يدها فوقها، ثم قالت: "لم يكن يتحدث عن هنري فقط، كان يتحدث عن كالفن".

سألتها: "والدي؟ ماذا عنه؟".

قالت لي: "ذكر جيك أنه قبل أن يغادر، كان كالفن... يؤذي إيلويز".

نظرت لأسفل نحو الأرض، وشعرت بألم حاد في بشرتي.

سألتني بلطف: "هل هذا صحيح؟".

شـعرت فجـأة بغصـة فـي حلقـيّ وقلت لهـا: "إذا كان الأمـر كذلك فـإن أمي لم تخبرني بأي شيء من هذا القبيل".

قالت: "على الأرجح لن تفعل ذلك".

ربما لم أخبرها بما كان يفعله جدي معي للسبب نفسه، ولم تبدُ أمي حزينة مطلقًا عند رحيل والدي، ولكنها لم تبدُ سعيدة بذلك أيضًا.

لم يهم ما إذا كان ما قاله جيك عن والدي صحيحًا، فلم أكن كالفن، ولم أكن هنري.

قلت لأغيِّر الموضوع: "هناك أيضًا تلك التفاصيل غير المكتملة، مثل اتصال ألبرتين بمكتب رئيس الشرطة في ذلك المساء".

قالت: "نعم، لم يسفر التحقيق عن أي شيء مفيد على الإطلاق، فلم يُسرق أي شيء من المنزل، وعدَّت شرطة سياتل الأمر مجرد تهيؤات لسيدة عجوز عمياء، اختلط لديها الأمر عندما سمعت صوت الرياح وهي تعصف بالنوافذ أو صوتًا مشابهًا من هذا القبيل".

كنت متشككًا في ذلك فقلت: "إنهم لا يعرفون ألبرتين".

رفعت إيميري حاجبيها، وقالت: "لا، لا يعرفونها، بالإضافة إلى ذلك لا يوجد أي ذكر في أي من هذا عن مجيء ليلي لرؤيتك في البستان؛ لذا لا أعتقد أن جيك هو من هددك بالرسالة، لو كانت لديه معلومات مثل تلك لاستخدمها بالفعل ضدك، لا أعتقد أن دوتش أخذها، إذن من الفاعل؟".

قلت بحذر: "هل يمكن أن يكون هذا الشخص هو والدك؟".

لم تنظر إليَّ إيميري وقالت: "قبل بضعة أيام، كنت سأقول إنه من المستحيل أن يفعل هذا، لكن الآن، لست متأكدة، لست متأكدة من أي شيء".

انحنيت لأسفل، والتقطتُ صور ليلي. كانت الأولى لقطة واسعة الزاوية أُخِذَت لها وهي مستلقية على الأرض. لم تبدُ حقيقية، فالتباين بين الأبيض والأسود جعلها تبدو كأنها كانت لشخص آخر، ثم أمسكت الصورة التالية؛ لقطة مقربة ليدها المفتوحة. كانت الصورة التي تليها صورة جانبية، وفي الزاوية، كانت هناك ثلاثة أرقام صغيرة مطبوعة على الصورة هي 388. عدت إلى الصورة التي قبلها، ووجدت الرقم التالي: هو 386، وكانت الصورة التي قبلها 385.

كانت الصور مرتبة بالأرقام من 382 إلى 404.

قلبت الصور أمام إيميري وقلت لها: "ما هذه؟".

حدقت فيها، وقرأتها ثم قالت: "أعتقد أنها أرقام الصور السلبية".

قلت لها: "أين الصورة رقم 387؟".

مـدّت يدهـا نحو الكومـة الموضوعة علـى يمينها لتجـد غلاف الصور السـلبية، وانتظـرت بينمـا كانـت تفحصها، وأمسـكت بكل واحـدة منها في الضـوء، ثم قالت: "إنها ليست هنا".

أخذتهـا، وتحققـت من الأرقام مرة أخـرى. قُطِعَ الفيلم عنـد الصورة رقم 387 في خط مائل.

قالت لي: "ربما كان ذلك بسبب التعرض الزائد للضوء، أو أن الصورة قد تلفت بطريقة ما".

قلبـت الفيلـم بيـن يـديَّ قبل أن أنزل مـن حافة السـرير، باحثًا فـوق الأرض عن سـجل الأدلـة، وأشـرت إلى الخط الوحيد الـذي قد مُحي ثم قلت: "أو كان شـيئًا لم يرغب جيك في أن يراه أحد".

الفصل الثامن والأربعون

إيميري

كان منـزل جيـك يقـع على مقربة من المرسـى، وأحد المسـاكن القليلـة الموجودة في شـارع ماين، ولم يكن منزلًا بالمعنى التقليدي على الإطلاق، بل كان أشـبه بشقة مـن طابقين يفصلهما عن المخبز جدار مشـترك، لكـن المدخل الوحيد كان الباب المطل على الزقاق المواجه للبحر.

طرقـت البـاب ثلاث مـرات وأنا أحـرك قبضتي التي كنت أشـعر بلسـعات البرد عليهـا، عندما سـمعت أخيرًا صـوت خطوات جيك في الداخل. وفـي هذا الوقت من الليل، سيكون قد تناول بعض المشروبات، ربما كان هذا أمرًا جيدًا.

فتـح البـاب وتراجع على الفور، مندهشًـا لرؤيتي، ثم قـال: "مرحبًا يا إيم"، ثم أغمض عينيه اللتين علتهما نظرة ضبابية.

مـررت بجانبـه، وألقيت نظرة على زجاجة الشـراب المفتوحـة والموضوعة على طاولـة القهـوة. كان موقـد بيليـه يعمـل، لكن نافـذة المطبـخ كانت مفتوحـة والهواء البـارد يدخـل عبرهـا، ومجلة سيرشـا مفتوحة بجـوار كوب فارغ علـى الطاولة. كان منزله دائمًا يعبق برائحة التبغ الطازج والقهوة.

خرج من المنزل لينظر إلى الزقاق، قبل أن يغلق الباب ويسألني: "هل كل شيء على ما يرام؟".

أجبته بصدق: "لا".

رفع يده، وحك مؤخرة رأسه ثم قال: "حسنًا، ماذا هناك؟"، كان حديثه أبطأ قليلًا مما كان عليه عادة في ساعات الصباح.

سألته: "هل كنت أنا أحد المشتبه بهم في مقتل ليلي؟".

استغرق الأمر منه بضع لحظات حتى يستوعب كلماتي، لكن عندما أدرك ما كنت أقوله، أرجع كتفيه للوراء وقال: "ماذا؟".

فركت جبهتي في نفاد صبر، ثم قلت له: "ليس لديَّ وقت لهذا يا جيك، فقط أجب عن السؤال".

سألني: "كيف فعلت ذلك..."

قلت ببساطة: "أخذت الملفات من مكتبك"، ماذا كان يمكنه أن يفعل حيال ذلك الآن؟. تابعت: "لقد كنت أراجعها طوال الليل".

شحب وجه جيك وهو يحدق إلى وجهي ويسألني: "ما الذي كنت تفكرين فيه يا إيم؟".

قلت له: "أنا لست شرطية، لكنني لست حمقاء أيضًا، وهذا الملف يجعلني أبدو كأنني مشتبه بها، هل هذا صحيح؟".

قال لي: "هذه ليست قضية مغلقة قد تتعرضين لمشكلات خطيرة بسبب..." رددت عليه: "وقد تتعرض أنت لمشكلات خطيرة بسبب إخفائك الأدلة".

تجمد في مكانه، واتسعت فتحتا أنفه، لم أكن متأكدة من صحة نظرية أوجست، لكنها كانت واضحة على وجه جيك.

قلت مرة أخرى: "أريد أن أعرف الحقيقة يا جيك، هل كنتُ مشتبهًا بها أم لا؟".

نظر نحوي طويلًا، وهو يكز على أسنانه وبدا مستغرقًا في التفكير. لا أظن أنني قد رأيته على هذا النحو من قبل؛ كان مرتبكًا ولا يعرف ما الذي يجب عليه فعله. وفي لحظة، بدا عمي هشًّا بشكل لا يصدق، ولم يعجبني هذا الشعور الذي شعرت به عندما رأيته هكذا.

تحدث وهو يتنفس بصعوبة: "لقد كانت شرطة سياتل تعدك مشتبهًا بها".

سألته: "لماذا؟".

عاد إلى كرسيه وجلس وهو يتأوه ثم قال: "لقد نظروا إلى الجميع بريبة، وكنتِ أنتِ أقرب صديقة لليلي، وقد ذكرتِ أنكِ ذهبت إلى الشاطئ لمقابلتها، وقد ماتت غرقًا، فبالطبع كانوا سيشكون فيكِ".

سألته: "إذن، لماذا لم تخبرني؟".

قال لي: "لأنني كنت أعلم أن هذا غير صحيح، وكنتِ مصدومة بدرجة كبيرة، فلقد ماتت ليلي وأصيب والدك، لم أعتقد أنه من الصواب أن أخبرك، ليس حينها".

سألته: "هل علم والداي؟".

هز رأسه.

جلست على زاوية الأريكة بجانبه وأنا أفكر، ثم سألته: "هل وجدوا شيئًا يدينني عندما كانوا يفحصون الأدلة؟"، كان هذا هو السبب الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه لإخفاء جيك الأدلة.

تردد جيك قبل أن يقول: "ربما".

قلت له: "ماذا؟".

مطَّ شفتيه ثم قال: "مجرد بيان من شخص يقول إنه رأى كلًّا منكما، وأنتما تتشاجران في المقهى، لا شيء مهم، بينما كانت هناك أدلة أكثر كثيرًا تشير إلى أوجست، وبدا أنهم مهتمون به أكثر منك كثيرًا".

قلت له: "لذا فقد دفعتهم في هذا الاتجاه".

قال لي: "لم أفعل".

لم يكن حدس جيك بأن أوجست مذنب خطأً تمامًا، فلقد كان هو من أشعل النار، لكن الجميع كانوا مشغولين جدًّا بالتساؤل عمن قتل ليلي، لدرجة أن أحدًا لم يهتم بما حدث في البستان.

سألته بهدوء: "ما الذي كان موجودًا في الصورة السلبية رقم 387؟".

ارتفعت عينا جيك فجأة، وعندما اعتقدت أنه سيتجنب هذا السؤال، بدا كأنه قد غَيَّر رأيه وقال: "القلادة".

نظرت إليه في حيرة وقلت: "أية قلادة؟".

قال لي: "قلادتك، تلك التي أعطاك إياها والدك في ذكرى ميلادك".

أحسست بثقل تلك الكلمات على نفسي. كان والدي قد أعطاني قلادة فضية عليها نقش فراشة في ذلك العام، وكنت أرتديها كل يوم تقريبًا، لكن في مرحلة ما فقدتها.

أصبح صوت جيك أعمق: "كانت ملقاة بين الأوراق بجانبها. في البداية لم أتعرف عليها، وقمت بتسجيلها ضمن الأشياء الأخرى، والتقطت صورة لها كما فعلت في كل شيء آخر، معتقدًا أنها تخص ليلي. لم أتذكر أنها كانت لكِ إلا في صباح اليوم التالي عندما شاهدت شريط التصوير".

همست: "لذلك أخفيتها".

قال لي: "قطعت الصورة السلبية وأحرقتها، وألقيت القلادة في البحر في ويلكي بوينتي، ولم تر شرطة سياتل أيًّا منهما".

بدا كل شيء مبهمًا؛ ما جعل من الصعب عليَّ فهمه. لقد تخلص من القلادة حتى لا يجدها أحد أبدًا، وحتى لا يكون لدى أحد سبب لاعتقاد أنني كنت هناك عندما ماتت ليلي.

تنفست بعمق وأنا أحاول استرجاع تلك الذكريات الضبابية لذلك اليوم، ثم سألته: "كيف وصلت إلى هناك؟".

سألني جيك: "هل أنتِ متأكدة من أنكِ لم تريها تلك الليلة؟"، لكن هذه المرة نظر مباشرة في عيني، حيث كانت هناك نبرة غير مألوفة في كلماته.

سألته في عدم اكتراث: "هل تسألني عما إذا كنت قد قتلتها؟".

حدق جيك إليَّ دون أن يرمش، وقال لي: "أعلم أنك لم تقتليها، لكنني أعتقد أنه من الممكن أنكِ تعرفين عن وفاتها أكثر مما أخبرتني به".

قلت له: "لقد أخبرتك بكل ما أعرفه. لقد تركت لي رسالة وذهبت لمقابلتها ولكن..."، توقفت فجأة، وأنا أشعر بغصة في حلقي، ثم أضفت: "كانت في غرفتي..."، ثم بترت عبارتي.

سألني جيك: "متى؟".

قلت له: "ذلك اليوم، لقد أتت لتترك لي تلك الرسالة التي تقول إنها ستقابلني في شاطئ هالو، ربما أخذت القلادة حينها".

بدا جيك متشككًا.

قلت له: "كانت تأخذ الأشياء دون أن تسأل طوال الوقت، الملابس والأحذية... ربما استعارت العقد من أجل الحفل، لا أعلم، لكنني لم أكن هناك يا جيك، لم أكن معها".

لم يقل شيئًا، ومد يده إلى زجاجة الشراب، وأعاد ملء الكوب الصغير الذي كان بجانبها. لم يكن هناك حد لعدد الزجاجات التي كان يشربها.

سألته: "هل كنت ستخفي الدليل، حتى لو كنت تعتقد أنني مَن قتلها؟".

وضع الكأس على شفتيه، وأخذ رشفة ثم قال: "لا أعلم، ربما".

كان جميع من في العائلة وكل سكان الجزيرة يعرفون أن جيك كان دائمًا يعدني ابنته. كان مخلوقًا وحيدًا، وقد أحب امرأة لم تكن تحبه، أو ربما لم تستطع أن تكون معه، ولم يمنعه ذلك من الاعتناء بكل من أوجست وإيلويز، كأنهما كانا من أفراد عائلته، ثم تحمل وطأة غضب البلدة بعد مقتل ليلي، وحتى أكثر من ذلك عندما واجهتنا صعوبات كثيرة عقب الحريق، كانت هناك أوقات كنت أستمع إليه وإلى والدي يتحدثان في الشرفة، وسمعته يقول أكثر من مرة إن سيرشا كانت تحتضر، وربما كانت هذه هي النهاية.

كان من الممكن أن تكون كذلك من دون البستان.

إذا قام مجلس المدينة بتعديل صك ملكية البستان، فمن غير المرجح ألا يعرف جيك بالأمر؛ فمسئولية رعاية سيرشا كانت ملقاة على كتفيه، وكان من المحتمل أيضًا أن يكون جيك، قد جعل رحيل أوجست على رأس أولوياته.

سألته بهدوء: "أين كنت الليلة الماضية عندما أشعل أحدهم النار في شاحنة إيلويز؟".

ارتجف، كأن التلميح يؤلمه.

سألته: "هل فعلت ذلك؟".

أجابني: "هل تعتقدين أنني فعلت ذلك؟".

قلت له: "لا أعرف، ربما".

ثم أعاد جيك ملء كأسه، وأخذ يحدق إليه، ثم قال: "اعتقدت أنكِ تعرفينني يا إيميري".

قلت له: "وأنا أيضًا".

الفصل التاسع والأربعون

إيميري

راقبته من خلال النافذة، بينما كان البخار المتصاعد من أنفاسي يشكل طبقة رقيقة من الضباب على الزجاج.

كان أوجست نائمًا على الأريكة ووجهه يتجه نحو النار، وكنت قد أخبرته بألا يعود إلى منزله بعد أن بدأ الناس إشعال النار، وترك رسائل تهديد أمام بابه. قررت في هذه المرحلة أن نخوض ذلك معًا.

لكن رؤيته هناك وهو مستلقٍ في غرفة المعيشة كانت أكثر مما أستطيع أن أتحمَّله. أوجست سولت هنا في منزلي بعد كل هذا الوقت.

فتحت الباب بعناية، وعلقت سترتي على الخطاف بهدوء قدر استطاعتي، لكن بحلول الوقت الذي كنت أخلع فيه حذائي، كانت عينا أوجست قد انفتحتا. رمش مرات عدة قبل أن يجمع شتات نفسه، كأنه كان يحاول أن يتذكر أين هو.

سألته: "هل اتصل إيريك؟".

جلس ببطء، وفرك يديه على وجهه، وحاولت ألا أحدق إليه عندما ارتفع طرف قميصه الرمادي عن خصر بنطاله الجينز. كان كمه مشدودًا على عضلات ذراعه القوية، كاشفًا عن وشم محفور في جلده على شكل رسم مدبب. إنني أعرف أوجست جيدًا؛ لذا فإنني متأكدة أن هذا الوشم لم يكن موجودًا هنا من قبل.

قال وقد بدا منزعجًا من أثر النوم: "لا".

كانت الوصية هي القطعة الوحيدة المفقودة من الأحجية، وحتى نتمكن من رؤية ما كتبه هنري سولت في النسخة الأصلية من الوصية، فلن نعرف بالضبط ما تم بشأن البستان.

أرجح أوجست ساقيه على الأريكة، واقتربت حينها من ذراع الأريكة، وجلست بجانبه. كان المكان دافئًا حيث كان نائمًا، ووضعت قدميَّ الحافيتين بين الوسائد. كانت الغرفة تفوح برائحة تشبه رائحته.

سألني: "هل وجدت جيك؟".

حدقت إلى النار، ومررت بإبهامي على شفتي السفلية ثم قلت: "كنت محقًّا بشأن السجل. كانت ليلي تحمل شيئًا يخصني عندما قُتلت: قلادة، وقد تخلص منها جيك لأنه كان خائفًا أن تبدأ شرطة سياتل من إلقاء التهمة عليَّ".

حدق أوجست إلى الفراغ الذي أمامي، ولم يكن هناك أي تعبير بادٍ على وجهه، لم يكن الأمر مفاجئًا، لكنني كنت أعلم أنه شعر بخيانته له بعمق أكبر الآن، فقد كان أوجست ينظر إلى جيك بوصفه أبًا، لكن عندما كان على جيك الاختيار بيننا، اختارني أنا.

قال أخيرًا: "يجب عليكِ أن تنامي".

قلت له: "لا أستطيع".

تفحصتني عينا أوجست ثم سألني: "لماذا؟".

ضممت ركبتيَّ إلى صدري، وقلت: "إنني أعاني الكوابيس كل ليلة منذ ليلة الحريق، لقد كنت معتادة إياها منذ فترة طويلة، لكنها عادت الأسبوع الماضي".

سألني: "أي نوع من الكوابيس؟".

كززت على أسناني، محاولة إبعاد تلك الصور قبل أن تتشكل بكامل هيئتها في ذهني، لكنها كانت لا تزال هناك. كانت هناك دائمًا، قلت له: "أرى نفسي على الشاطئ واقفة في الماء"، ازدردت لعابي ثم تابعت: "والمكان مظلم وأسود بالكامل تقريبًا، ثم أبدأ سماع أصوات الصراخ".

انحنى أوجست إلى الأمام وهو يستمع إليَّ في اهتمام، لم أخبر أحدًا قط بما رأيته في تلك الأحلام.

أكملت: "كما أن صوت الصراخ مرتفع للغاية، لدرجة أنه يؤلم أذني وهو لا يتوقف، ويستمر ويستمر. ثم أنظر إلى الأسفل"، تنفست بعمق ثم قلت: "ثم أرى

نفسي وأنا أحمل فتاة ما تحت سطح الماء، ويداي مخدرتان ومتشابكتان في شعرها، وهي تحاول الصعود وأنا أستمر في دفعها للأسفل"، ثم أغلقت عينيَّ.

قال لي: "إنه مجرد حلم يا إيميري، فليلي..."

قلت له: "إنها ليست ليلي، إنها أنا... ولا يبدو الأمر كأنه مجرد حلم".

تغيرت تعبيرات وجه أوجست وقال في حذر: "ماذا تقولين؟".

ترددت قبل أن أقول: "أحيانًا أتساءل عما إذا كنت أتذكر الأمور بشكل خطأ في تلك الليلة، أعني أن كل شيء غير مكتمل الآن، بما في ذلك الذكريات. تلك الليلة، واليوم الذي يليها ماذا لو...؟".

ارتفع صوت أوجست، وقال بجدية: "إيميري، أنِت لم تكوني هناك".

هززت رأسي وقلت: "أشعر كأنني أفقد صوابي، ولا أعرف ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي، أعني أن هناك أشياء أعتقد أنني تخيلتها، أو ربما لم تكن بالطريقة التي أتذكرها بها".

سألني: "مثلنا؟".

رمشت بعيني وأنا مندهشة، لكن أوجست نظر إليَّ مباشرة، وكانت نظراته ثابتة، فاعترفت: "نعم".

مرر يده في شعره وهو يدير وجهه نحو إلى النار ثم قال: "أنا أفعل ذلك أيضًا، أحاول فهم الأمر أو صياغته إلى شيء لم يكن موجودًا، كان من الممكن أن يجعل ذلك الأمور أسهل كثيرًا، لو لم يكن كل هذا حقيقيًّا".

لكنه كان حقيقيًّا، حقيقيًّا لدرجة أنه أصبح نبتة شائكة عنيدة، وكلما انتزعتها من الأرض نَمَتْ من جديد مرة أخرى.

لم أستطع منع نفسي من سؤاله وقد أثقل الحزن قلبي: "إذن، لماذا غادرت؟".

فكر أوجست في كلماته بعناية قبل أن يقول: "شعرت بأنني دمرت كل شيء، بما في ذلك كلانا. لم أستطع أن أتحمل عواقب إخبارك بما فعلته؛ لذا عندما قالت أمي إنها تعتقد أنه يجب علينا المغادرة، والبدء من جديد في مكان آخر، لم أجادلها، شعرت بأن هذه كانت الطريقة الوحيدة لوقف كل هذا".

سألته: "وهل توقف؟".

ابتسم أوجست ابتسامة متكلفة. وبدا حزينًا ثم قال: "لا، وأعلم أنكِ شعرت كأنني قد تركتك هنا، لكنكِ كنتِ معي في كل مكان ذهبت إليه".

همست، وأنا أشعر بالدموع وهي تتجمع في عيني: "هل هذا صحيح؟"، لقد أردت بشدة أن يكون هذا صحيحًا.

قال بهدوء: "كنت أتمنى لو لم يكن الأمر كذلك، فأحيانًا أعتقد أنكِ أسوأ شيء حدث لي على الإطلاق".

كان الشعور الذي يعتمل بداخلي الآن عندما قال تلك الكلمات أشبه بجرح مفتوح، لكنني لم أستطع مجرد أن أغضب؛ لأنني فكرت في ذلك أيضًا، ولأكثر من مرة.

مسحت دموعي بيدي، فلم يكن هناك جدوى من البكاء بشأن ذلك الآن، ثم سألته: "ألم تجد أبدًا الشخص المناسب؟".

قال لي: "لم أستطع قط أن أشعر بالحب الحقيقي مع أية امرأة حقًّا. كانت لديَّ علاقات عابرة وفتيات واعدتهن، لكنني كنت أعلم دائمًا أنني لن أقضي حياتي مع أي منهن. لم يكن أمرًا مطروحًا مطلقًا".

فسألته: "لماذا؟".

وجَّه بصره نحوي كأنه يحاول أن يقرر كيف يجب أن يصوغ إجابته، ثم قال: "هل أنتِ متأكدة من أنكِ تريدين معرفة ذلك حقًّا؟".

قلت له: "أعتقد أنه لا مفر من ذلك سواء أردنا ذلك أم لا".

قال لي: "سيبدو الأمر جنونيًّا".

قلت له: "لا بأس".

أطلق نفَسًا عميقًا ثم قال: "لأنني ما زلت أشعر بأنني متصل بكِ بطريقة ما، كأنني أفتقد جزءًا مني إذا لم تكوني بجانبي، ولسنوات اعتقدت أن هذا الشعور سيختفي، لكن ذلك لم يحدث".

حدقت إليه في صمت، وكنت أعرف ما سيقوله، لكنني لم أتوقع أن يقوله بهذه الطريقة.

تابع: " ينبغي ألا يكون الأمر هكذا، أليس كذلك؟ أعني، كنا أطفالًا"، كان ينظر من خلفي مرة أخرى، وفكه مطبق ثم قال: "كم من الوقت مر وأنتِ تبحثين عني؟".

قلت له: "مر وقت طويل جدًّا".

حل صمت آخر، وتركت رأسي يسقط للخلف، وشاهدت الضوء وهو يرقص فوق السقف.

تنهدت ثم قلت: "ما زلت أحتفظ بالتذاكر".

قال في اندهاش: "تذاكر العبَّارة؟".

أومأت برأسي، ولم أنظر إليه، فقد أردت أن أضحك وأن أبكي في الوقت نفسه.

نظر نحوي نظرة طويلة قبل أن يتحدث أخيرًا ويقول: "إنني آسف لعدم إخبارك بالحقيقة".

شعرت بألم في حلقي، ولأول مرة شعرت كأننا عدنا كسابق عهدنا، نحن بشخصيتنا الحقيقية، وكأن المحيط الذي كان بيني وبينه قد اختفى، ومقاومتي الأخيرة التي كانت تمنعني من لمسه قد تبخرت في الهواء.

مددت يدي لأجد يده بجانب يدي، ثم وضعت أصابعي بين يديه، حدق أوجست فيها ثواني، قبل أن يمر بإبهامه على راحة يدي.

كان هذا الشعور هو نفسه الذي انتابني عندما أمسكت بيده في المقبرة، بينما كنا نشاهد زاكريا وهو يدفن رماد إيلويز. في اللحظة التي لمسته فيها توقفت الرياح العاتية بداخلي عن العواء، وفي اللحظة التي تركني فيها عادت من جديد.

رفع أوجست يدي، وضغط بفمه على معصمي جلس هناك يتنفس بعمق، وفي تلك اللحظة، سالت أول دمعة على خدي، وعندما لم أعد أتحمل ما تبقى من المساحة بيننا، رميت بنفسي نحوه لأغوص بين ذراعيه.

أغمضت عينيَّ، واستنشقت رائحة جسده، كأنها أول مرة أتذكر كيف كانت.

قال بهدوء: "أنا آسف، أنا آسف لأنني غادرت".

مددت يدي إلى وجهه، كأنني أستعيد تفاصيله من ذاكرتي.

وجدتني أقول له، كأن هناك قوة حبيسة بداخلي كانت مصممة على الخروج لتجد عزاءها بجواره: "لقد افتقدتك"، ثم همستُ مرة أخرى: "لقد افتقدتك كثيرًا"، ثم ضغطت يدي على وجهه.

طوال أربعة عشر عامًا، شعرت كأنني كنت أحسب الدقائق والثواني حتى تأتي لحظة لم أكن أعتقد أنها ستأتي أبدًا. ظل أوجست ألمًا بداخلي لن يهدأ أبدًا، كان ألمًا لم أرغب حتى في الخلاص منه.

كان صوت موسيقى الغابة يصل إلينا عبر النافذة المفتوحة، حيث بدا صوت الريح وهي تعصف بالأشجار وكأنه ألف همسة، لكنني لم أستطع سماع أي صوت سوى صوته.

كنت في حالة من النشوة وأنا أتأرجح على حافة مظلمة ومجهولة.

كنت أحب أوجست سولت قبل أن أعرف معنى الكلمات، لا أعرف متى حدث ذلك بالضبط، هل حدث ذلك في الزمن القصير بين الثواني؟ أم عندما أضاءت شرارة لامعة السماء منبئة بميلاد مائة نجم داخل جسدي. منذ ذلك الحين، كان كل يوم ملونًا بضوئه المتلألئ الذي كان يسحبني خلفه لكنني لم أهتم، إذا كان هذا هو الشعور بالغرق، فلن تكون لديَّ رغبة لبقية حياتي في استنشاق الهواء مرة أخرى.

الفصل الخمسون

أوجست

أيقظني صوت رنين هاتفي من أهدأ نوم نعمت به منذ فترة طويلة.

فتحت عينيَّ لأرى ضوء الشمس الساطع القادم من النافذة، وغمر الضوء غرفة النوم على شكل قطع متفرقة من الضوء الأبيض الذي انعكس على الجدران، وبجانبي كانت إيميري نائمة تحت الأغطية، وكان شعرها الداكن متناثرًا فوق غطاء الوسادة الأصفر الباهت.

أطلقت زفرة طويلة وأنا أحاول استيعاب الأمر. لقد فكرت في الأمر مرات عديدة، وحلمت به، والآن أصبحت إيميري بلاكوود قريبة جدًّا مني لدرجة أنني تمكنت من لمسها، ولففت ذراعي حول خصرها، وتحركت قدماها لتلمس قدميَّ، حيث كانت رائحتها مثل رائحة الأعشاب المجففة المعلقة في محل الشاي، وبدا عليها الارتياح.

همست: "مرحبًا".

كانت جميلة جدًّا لدرجة أنني كنت أستطيع تحمل النظر إليها بصعوبة. كان من المؤلم أن أشعر ببشرتها تحت أطراف أصابعي، فقلت لها: "مرحبًا".

خرجت إحدى يديها من البطانية، ودفعت الغطاء لأسفل، وتقلبت بين ذراعي، وضرب الضوء وجهها. كنت قد تعرفت على نساء أخريات منذ أن قابلتها، لكن

إيميري لم تكن مثل أية امرأة قابلتها من قبل، ولم أشعر قط مع أية امرأة بما شعرت به وأنا مستلقٍ بجانبها.

قالت فجأة: "ما هذا؟".

نظرت إلى أسفل، متتبعًا نظرتها التي كانت مركزة على ذراعي اليمنى، حيث كانت النجمة ذات السبعة رءوس الموشومة فوق مرفقي، فلمستها وضيقت عينيها ثم قالت: "لقد رأيتها في الليلة الماضية"، ثم تتبع إصبعها الإطار الخارجي لهذا الشكل غير المتماثل، ثم سألتني: "ما هذا؟".

قلت لها: "إنه لا شيء".

قالت لي وهي ترفع حاجبيها: "هل ستقوم بوشم شيء عديم الأهمية على ذراعك؟، فقط أخبرني بما هو؟".

انتظرت بضع دقائق قبل أن أمد يدي نحوها. راقبتني بينما كانت يدي تقترب منها وإبهامي يمسد وجنتها، أسفل عينها اليسرى. كانت النجمة الخضراء الزمردية التي تميز قزحية عينها تتوهج في ضوء الصباح، وتلمع وسط بحر عينيها الأزرق البلوري.

كنت قد رسمتها على قطعة من الورق، وأعطيتها لفنان وشم في بورتلاند منذ سنوات، كانت تؤلمني في كل مرة أنظر إليها، لكنني كنت أتألم على أية حال.

نظرت إليَّ من خلال رموشها، وشفتاها تضغطان على بعضهما.

قلت لها: "أنا أيضًا قد افتقدتك".

رن الهاتف على الطاولة، ومددت يدي فوقها، وقرأت الاسم الظاهر على الشاشة وقلت: "اللعنة، لقد اتصل إيريك، لا بد أنه ترك رسالة".

نادرًا ما استخدمت هاتفي منذ وصولي إلى الجزيرة، فلم يكن الكوخ مزودًا بشبكة واي فاي، ولم تكن هناك أية وسيلة يمكنني أن أتفحص بها رسائل بريدي الإلكتروني، فضلًا عن الصوتي.

جلست، ثم نهضت من جانبها واقفًا.

استندت إيميري إلى مرفقها، وراقبتني وقالت: "ربما تتمكن من الحصول على تغطية جيدة للهاتف المحمول بالقرب من الشرفة".

سرت في الممر حتى وصلت إلى الباب الأمامي، ونقرت على الشاشة حتى وجدت رقم إيريك. كان الهواء في الخارج باردًا ورطبًا، لكنه كان أول صباح غير ممطر قضيته على الجزيرة منذ عودتي.

استغرق الأمر مني ثلاث محاولات لجعل الهاتف يرن، لكن عندما رن أخيرًا، رد إيريك على الفور قائلًا: "أين كنت؟ كنت أحاول الاتصال بك منذ الليلة الماضية".

قلت له: "آسف، فالتغطية سيئة هنا"، وعندما لم يقل شيئًا، سحبت الهاتف بعيدًا وأنا أتحقق أن المكالمة لم تنقطع فقلت له: "إيريك؟".

قال لي: "نعم ما زلت على الخط"، ثم صمت قبل أن يقول: "لقد حصلت على المستندات من المقاطعة، وهي بالتأكيد لا تحمل أخبارًا جيدة".

قلت له: "أخبرني".

قال لي: "أنت المالك يا أوجست، لقد ترك جدك البستان لك".

اتكأت على العمود في زاوية الشرفة وأنا أحاول استيعاب ما سمعته حالًا. كان هذا آخر شيء أردت سماعه.

قال إيريك ويبدو أنه كان يغطي الهاتف بيده لأن الصوت كان مكتومًا: "انتظر"، ثم سمعته وهو يتحدث إلى شخص آخر في المكتب.

نظرت وراء النافذة نحو المطبخ حيث وقفت إيميري عند المنضدة تملأ إبريق القهوة بالماء، وهي ترتدي قميصًا من الفلانيل بدا واسعًا عليها.

قالت إيميري: "أوجست؟".

رمشت بعيني، وأدرت وجهي بعيدًا عن النافذة، ثم قلت: "آسف، لم أسمعك".

قالت لي: "إذا كان توقيعك موجودًا على صك نقل الملكية على الرغم من أنك لم توقعه، فهذا يعني أن شخصًا آخر قام بذلك".

سمعت صوت هدير محرك في مكان ما بين الأشجار وصرير الفرامل قبل أن تظهر شاحنة أمامي. كانت هي الشاحنة الحمراء نفسها التي كانت في الغابة الليلة الماضية.

تباطأت عندما وصلت إلى البوابة. كان دوتش جالسًا في مقعد السائق يراقبني، وهو يستند بيده إلى النافذة. قبل أن يضغط على دواسة الوقود، وينطلق على الطريق.

نظرت إلى نفسي، كنت حافي القدمين مرتديًا بنطالي الجينز وأنا أقف على شرفة إيميري، فتمتمت في صوت خفيض: "اللعنة".

سمعت طقطقة على الطرف الآخر من الخط وإيريكيقول: "ماذا؟".

قلت له: "لا شيء"، وقرصت أنفي محاولًا تخفيف الألم الذي كنت أشعر به في رأسي، ثم قلت له: "حسنًا، ماذا عليَّ أن أفعل حيال ذلك؟".

قال لي: "أنت بحاجة إلى محام".

قلت له: "أنا أتحدث إلى محامٍ الآن".

ضحك ثم قال: "أنا لست من هذا النوع من المحامين"، ثم تابع بجدية أكثر: "أنت في ورطة كبيرة. سأرسل لك اسم شخص ما في سياتل، فسيكون من الجيد أن يتولى الأمر شخص من السكان المحليين".

قلت له: "حسنًا".

صمت إيريك مرة أخرى.

سألته: "هل ما زلت على الخط؟".

قال لي: "نعم، لكن يوجد لديَّ شعور سيئ بشأن هذا الأمر يا رجل. أعتقد أنه ربما عليك أن تعود إلى بورتلاند".

نظرت إلى النافذة مرة أخرى، حيث كانت إيميري جالسة أمام المنضدة على أحد المقاعد، وكانت قد فتحت ملف قضية ليلي، بينما كانت صفحاته مبعثرة أمامها، وقالت لي: "إنني أفحصه مجددًا".

راقبت الطريق حيث اختفت شاحنة دوتش عند المنعطف. لم يكن جدي على وفاق مع أهل البلدة، أو مع أي شخص، حقًّا، وعندما كنت أصغر سنًّا، كنت أعتقد أنه مصاب بجنون الارتياب، ومهووس بتهديد لم يكن موجودًا حقًّا، لكنه كان على حق. أرادت البلدة أن تستولي على البستان، وقد استولوا عليه، فما الذي كانوا على استعداد لفعله من أجل الاحتفاظ به؟

عندما أخبرتني أمي بأنها تريد مغادرة سيرشا اعتقدت أنها لم تستطع تحمُّل نبذ البلدة إيانا، لكن ربما كانت تعلم ما لم أكن أعلمه، فهؤلاء الناس ليسوا مجرد أناس ريفيين هادئين تسيطر عليهم بعض الخرافات الغريبة، ويريدون العيش في سلام. كان هناك ظل كئيب يخيم على سيرشا، وكان يزداد يومًا بعد يوم.

لم ترفع إيميري بصرها عن الورقة التي كانت في يدها عندما دخلت، وكانت القهوة قد بدأت تغلي بداخل الإبريق، وانسكب السائل على الجوانب وبجانب الموقد، لكنها تجاهلت كل ذلك، وركزت عينيها على إحدى الصور، ثم قالت وهي تضع الصورة: "كيف يبدو هذا لك؟".

وقفت خلفها، وأنا أتأمل الصورة. كانت صورة ليد ليلي، حيث لم يكن يبدو السوار حول معصمها أكثر من مجرد طيف ضبابي، قلت لها: "مثل سوار، لماذا؟".

قالت: "لا تبدو كأنها سلسلة، تبدو كأنها خيط أو شيء من هذا القبيل، أو صفصافة".

قلت لها: "تعنين نبتة الصفصاف؟".

قالت لي: "نعم، علمتنا جدتي كيفية صنع أساور الصفصاف الملتوية هذه عندما كنا صغارًا، واعتدنا صنعها طوال الوقت"، ثم قالت، وقد بدت مذهولة: "ماذا قال إريك؟".

قلت لها: "قال بالضبط ما كنتِ تعتقدين أنه سيقوله، النسخة الأصلية من وصية هنري تجعلني أنا المستفيد من كل شيء".

اتسعت عينا إيميري، وقالت: "إذن، أنت تملك البستان".

جعلتني تلك الفكرة أشعر كأن المنزل بأكمله يدور من حولي. لقد كرهت البستان، ليس فقط بسبب التوقعات التي كانت منتظَرة مني، لكن بسبب ما فعله بعائلتي. لقد كان لعنة، أو مرضًا، ولم أرغب قط في أن تكون لي أية علاقة به، ومعرفة أنه ملك لي جعلتني أشعر كأن هناك سرطانًا ينمو في أمعائي.

أعادت إيميري الصورة إلى الكومة، وهي تحدق إليَّ، ثم سألتني: "ماذا ستفعل؟".

قلت لها: "لا أعرف".

وضعت شعرها خلف أذنيها، وهي لفتة جعلتها تبدو فجأة أصغر سنًّا كثيرًا. لقد نسيت أنني لم أرها منذ فترة طويلة، وشعرت كأنني أسترجع جزءًا من جسدي ظل مفقودًا، كأنني أستطيع أخيرًا أن أتنفس بعمق مرة أخرى بعد أربعة عشر عامًا من التنفس الضحل.

وقفت على الجانب الآخر من المنضدة، وراقبتها وهي تعض ظفر إبهامها بينما كانت تفكر، ثم قلت لها: "نحن بحاجة إلى التحدث عن هذا".

سألتني: "عن ماذا؟".

قلت لها: "عن علاقتنا".

سرعان ما رأيتها تعض شفتيها، وتجلس بشكل أكثر استقامة وتغلق الملف الموضوع أمامها، وقالت: "حسنًا".

قلت لها: "لا يمكنني البقاء هنا".

قالت لي: "أعلم".

تابعت: "لكن بعد الليلة الماضية، لا أعرف كيف سأغادر إذا لم تأتِ أنتِ معي"، قلت ذلك لأنه لم يكن لدينا وقت لنتهرب من الحديث حول هذا الأمر، ومنذ فترة طويلة كنت قد فقدت كل ذرة من الكبرياء، في أي شيء كان يتعلق بإيميري.

بدت مذهولة من كلماتي، وركزت نظراتها عليَّ، كأنها تتذكر الليلة الماضية، واضطُررت إلى الضغط بيدي على حافة المنضدة، لأمنع نفسي من لمسها.

ثم سألتني: "هل تريدني أن أذهب معك؟".

قلت لها: "نعم، أريد ذلك".

كنت أعلم أن الأمر يبدو جنونيًّا، فبالنسبة لأي شخص آخر، لن يكون أي من هذا منطقيًّا، لكن علاقتي بإيميري كانت تبدو دائمًا غريبة، وقد عشت بما يكفي من دونها، لدرجة أنني لن أقلق حتى لو بدوت أحمق.

جلست ساكنة، ولفت خصلة من شعرها حول إصبعها.

فسألتها: "بماذا تفكرين؟".

ترددت قبل أن تقول: "ماذا لو كانت هذه مجرد مشاعر مضطربة ظلت معلقة؟ أو حلمًا خياليًّا نحاول أن نعيش فيه، أو أي شيء من هذا القبيل؟".

قلت لها: "ليس كذلك، وأنتِ تعرفين أنه ليس كذلك، وأنا أيضًا أعرف ذلك"، كان بإمكاني أن أرى أنها كانت خائفة، ولم أستطع أن ألومها.

قالت لي: "لقد تغير كل شيء، لقد تغيرنا، حتى إننا لم نعد نعرف بعضنا".

قلت لها: "بل نعرف بعضنا".

قالت لي: "أنا لست الفتاة نفسها التي أعطيتها تذاكر العبَّارة تلك يا أوجست".

قلت لها: "لكنكِ احتفظت بها".

تحركت على المقعد. واحمر وجهها قليلًا.

ثم سألتها: "قال دوتش إنكِ لن تتزوجيه، لماذا؟".

قالت لي: "لأنني لا أحبه".

قلت لها: "لقد كنتما معًا سنوات، لماذا لم تستطيعي أن تحبيه؟".

حدقت إليَّ دون أن ترمش.

لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها واقفة على الطريق، بعد وصولي إلى الجزيرة، ومنذ المرة الأولى التي رأيتها فيها، ومنذ المرة الأولى التي أخبرتها فيها بأنني أحبها، وأنني لن أتمكن من حب امرأة أخرى؛ لأن قلبي كان ملكًا لها، وسيكون ملكها دائمًا، وإذا لم تكن هي على استعداد لقول ذلك، فسأقول أنا ذلك.

قلت لها: "أعلم أن كلًّا منا كان يعيش حياة أخرى، منذ آخر مرة كنا فيها معًا، لكنني سئمت من العيش من دونك، ولا أريد أن أفعل ذلك بعد الآن".

ظهر شبح ابتسامة باهتة على شفتيها، وسألتني: "إلى أين نذهب؟".

تلاشى الخوف الذي شعرت به عندما قالت هذه الكلمات، لم تكن تقول نعم، لكنها لم تكن تقول لا أيضًا.

قلت لها: "إنني أعيش في بورتلاند، لكنني سأبدأ حياة جديدة معك في أي مكان".

صمتت مرة أخرى، لكنني استطعت أن أرى خلف عينيها طوفان الأفكار الذي كان يجتاحها.

قلت لها: "ما زلت أحبك، فما الذي تغير حقًّا؟".

قالت بصوت خافت: "لا أعرف".

لم أكن أطلب شيئًا صغيرًا، ولم يكن الأمر بسيطًا ويمكن الإجابة عنه بـ نعم أو لا، كان هناك والدها وألبرتين ونيكسي والمتجر، وسيستغرق الأمر بعض الوقت حتى تثق بي مرة أخرى، هذا إن استطاعت أن تفعل ذلك حقًّا. لم أفكر ولو ثانية واحدة عندما نزلت من العبَّارة، أنه يمكنني أن أقف هنا أمامها وأقول كل تلك الكلمات، لكن كان هذا كل ما أردته على الإطلاق.

سألتها: "هل ستفكرين في الأمر؟".

ضغطت بأصابعها على فمها، وحدقت إلى النافذة طويلًا قبل أن تجيب، ثم طوت يديها أسفل ذقنها بينما ركزت عينيها عليَّ.

وأخيرا قالت: "نعم".

الفصل الحادي والخمسون

ست ساعات قبل الحريق

إيميري

كان كل سكان البلدة مجتمعين في المقهى، فملأتُ كأسًا تلو أخرى بالشراب من الصنبور، بينما كان والدي يتلقى الطلبات وهو يحمل قطعة من القماش على كتفه. كانت الأصوات الصاخبة المقبلة من المطبخ المزدحم تتنامى إلى مسامعي، حيث جاءت كل العائلات لتناول الغداء بعد حفل التخرج، وكان زملائي في الفصل لا يزالون يرتدون ملابسهم الجميلة، أما أنا، فقد كانت تفوح مني رائحة المشروبات والحساء الذي كان يُطهى على الموقد.

بعد بضع ساعات، سيجتمع الجميع في البستان لإشعال النار وتناول العشاء، قبل أن يعود بعض الآباء إلى هنا لتناول بعض المشروبات قبل النوم، ثم يتوجه معظم الخريجين إلى الشاطئ.

لم أفكر حقًّا في أنني سأشتاق لأي من زملائي في الفصل. بوصفنا أطفالًا ليس لدينا أي أشقاء، فقد انعزلنا أنا وأوجست ودوتش وليلي عن الآخرين، واقتربنا من بعضنا في معظم الأوقات على مر السنين، وشكَّلنا ما يشبه الأسرة الصغيرة الخاصة بنا. كان من المقرر أن يتوجه عدد قليل من الخريجين من مدرستنا إلى استكمال دراستهم في الجامعة في الخريف، بمن فيهم دوتش، وكانت تلك مفاجأة

للجميع، وسيبقى الآخرون في الجزيرة ويبدأون العمل لدى والديهم أو في البستان. ظننت ليلي أنها وأوجست وأنا سنكون من بينهم.

بينما كنت أفكر في الأمر، رأيتها تدخل من الباب وتسرب حينها شعاعٌ من ضوء الشمس إلى المقهى وهو الضوء الذي تَجَمَّعَ على الأرضية الخشبية، ثم رأيتها تلقي نظرة سريعة على الطاولات، وعندما رأتني رفعت يدها في الهواء، ولوَّحت نحوي.

شعرت على الفور بالغثيان، فلم أكن قد أخبرتها بعد بأننا سنغادر، ولم يكن الأمر يتعلق بكونه سرًّا بقدر ما كان يتعلق بالخوف من ردة فعلها. كانت ليلي شخصية مرحة وعفوية وحماسية، لكنها كانت أيضًا أنانية، وتخشى أن تكون وحدها. كانت ليلي ستغضب، لم يكن هناك شك في ذلك، لكنني لن أكون هنا لأتحمل تبعات ذلك.

أخذ أبي الكأس الممتلئة من يدي، وقال: "اذهبي إلى هناك يا عزيزتي"، وحرك ذقنه نحو الكشك الفارغ في الزاوية"، ثم تابع: "سأحضر لكما بعض شطائر البرجر".

قلت له وأنا آمل أن يجبرني على البقاء في مكاني: "هل أنت متأكد؟".

قال أبي: "اذهبي يا إيم، سأتولى أنا الأمر".

فككت على مضض المئزر الذي كنت أضعه حول خصري، وقلت له: "شكرًا يا أبي".

ذهبت فأحضرت زجاجتين من الصودا من الثلاجة الموجودة في الخلف، وتبعت ليلي إلى الكشك، وجلست على أحد الجانبين بينما جلست هي على الجانب الآخر، وما لبثت أن أمسكت بكيس من السكر وفتحته، ثم أفرغت محتوياته في فمها، كان ذلك أحد طقوسها الصغيرة، والأشياء التي لم تتغير فيها مطلقًا، حتى ذلك الوقت.

تنهدت وهي تقول: "آسفة على التأخير، لقد جعلني والداي ألتقط مليون صورة بهذا الرداء الغبي".

قلت لها: "لا بأس، كان والدي بحاجة إلى مساعدتي على أية حال".

جلست بشكل أكثر استقامة وعيناها تتلألآن، بينما كانت تنقر بأصابعها على الطاولة وقالت: "حسنًا، ما هذا الشيء المهم الذي ستخبرينني به؟ إن الفضول يقتلني حقًّا!".

رفعت الزجاجة من فوق الطاولة، وحدقت إلى الحلقة المبللة التي تركتها وراءها، لم أكن قد قررت كيف سأخبرها بالأمر، لكن لم يكن لديَّ وقت لتحديد ذلك، ولم تكن هناك طريقة جيدة لإخبارها بذلك.

انتزعت كيسًا آخر من السكر، ثم قالت: "ما الأمر؟ ما كل هذا التشويق؟".

أجبرت نفسي على الابتسام وقلت لها: "إنه أمر مهم".

قالت ليلي: "حسنًا"، وكانت تزداد حماسًا مع كل دقيقة، لم أكن أعرف ما إذا كان هذا أمرًا جيدًا أم سيئًا،

انحنيت للأمام، وقلت لها أخيرًا: "أنا وأوجست سنغادر غدًا".

تلاشت ابتسامتها، وقالت: "أوه"، ولم تحاول حتى إخفاء خيبة أملها، لكنها بدت منزعجة أكثر من كونها متألمة، ثم تابعت: "إلى أين؟".

قلت لها: "سياتل".

كان الضجر باديًا عليها وهي تسألني: "حسنًا، متى ستعودان؟".

قلت وأنا أخفض صوتي: "لن نعود".

في تلك اللحظة، شحب وجه ليلي، ما جعل عينيها الزرقاوين تبدوان أكثر إشراقًا، وسألتني: "ماذا تقصدين؟".

شعرت بأن الهواء من حولنا أصبح مشحونًا، وأن المقهى أصبح خانقًا وأكثر سخونة، ولكنني قلت لها: "أعني أننا لن نعود، سنسافر ولست أعرف إلى أين بالضبط".

وضعت ليلي يدها على الطاولة، وحدقت إليها ثم سألتني: "هل أنتِ جادة؟".

قلت لها وأنا أبتسم وأحاول تلطيف الأجواء: "نعم"، لكن ليلي بدا عليها الضيق.

قالت لي: "لا يمكنك فعل ذلك".

نظرت حولنا لأتأكد من عدم وجود أي شخص يستمع لنا، بدت هي كأنها على وشك الإصابة بنوبة هلع.

قالت في ذعر: "لا يمكنه المغادرة".

قلت لها: "ماذا؟".

تلعثمت وقالت: "لا يمكن لأوجست مغادرة البستان ببساطة".

قلت لها: "إنه لا يريده يا ليلي وأنتِ تعرفين ذلك".

ضربت الطاولة بيدها بقوة، وقالت: "لا يهم ما يريده!"، فقفزت من مكاني، وبدأ العديد من الأشخاص يحدقون إلينا الآن.

قلت لها: "يا إلهي! اصمتي يا ليلي".

امتلأت عيناها بالدموع، وقالت: "لن تذهبا".

قلت لها: "بلى، سنذهب وهذا هو السبب بالتحديد الذي جعلني أتردد في إخبارك؛ لأنني كنت أعلم أنكِ ستصابين بالذعر".

قالت لي: "كيف أمكنك أن تكذبي عليَّ؟".

قلت لها: "لم أفعل، كنت أنتظر فقط الوقت المناسب لأخبرك؛ لأنني كنت أعلم أنك ستفعلين كل هذا".

قالت لي: "أفعل ماذا؟".

لوحت بيدي وقلت لها: "أن تجعلي نفسك محور كل شيء، وأن كل شيء يدور حولك فقط".

كانت تتنفس بصعوبة الآن، وعيناها تتحركان بسرعة وهي تنظر عبر الطاولة، والأفكار تتسابق في ذهنها، ثم قالت لي: "سأخبر والديك، وسأذهب إلى هناك الآن وأخبر والدك".

همست بصوت أجش: "ليلي! ماذا ستفعلين؟".

نظرت إلى حيث كان والدي يمشي وهو يمسك بطبقين.

همست: "لا تفعلي ذلك، أنا جادة يا ليلي، لا تقولي أي شيء".

سالت دمعة على خدها، وما زال الغضب باديًا عليها، قبل أن تقف وتصطدم بالطاولة وتكاد تسقط زجاجات الصودا، فتسارعت دقات قلبي، وارتفع صوت أنفاسي، وأنا أشاهدها تسير مباشرة نحو والدي، ولففت المنديل في توتر حتى شعرت بحرارته بين راحتيّ يديَّ. لكن عندما كانت على وشك أن تخبره تراجعت، ثم دفعت نفسها عبر الطاولات وخرجت غاضبة.

راقبها والدي وهي تختفي عبر الباب ثم سألني: "ماذا كان ذلك؟".

ازدردت لعابي بصعوبة، وتركت المنديل من يدي، وقلت له: "أنت تعرف من هي ليلي".

الفصل الثاني والخمسون

ليودا

تفرقت الأوراق داخل إبريق الشاي، وتصاعد البخار العطري في الهواء البارد، وأنا أضعه على الصينية الخشبية وأعيد إغلاق الغطاء.

لم يكن هذا النوع من الشاي مناسبًا لزيارة اجتماعية، بل كان من النوع الذي تضعه على الطاولة لجعل الناس يشعرون براحة أكبر عندما تكون هناك موضوعات غير مريحة تجب مناقشتها، ثم تقوم بصبه بعد ساعة عندما يبرد. لقد صنعت العديد من أباريق الشاي مثله على مر السنين، وكنت أتوقع أنه لن يكون الأخير.

جاءت المكالمة قبل الإفطار مباشرة، وكان هناك طَرق على الباب بعد نصف ساعة، فتحته لآخر شخص كنت أتوقع أن يستطيع حل تلك المشكلة.

تناولت الصينية، وارتطمت أكواب الشاي بأطباقها، ثم لفتت أشعة الشمس الساطعة المنعكسة على الزجاج الأمامي انتباهي، وهي تلمع عبر زجاج النافذة، وراقبت الطريق من خلال الستائر الدانتيل، بينما كانت السيارة تمر، وأنا أنتظر لأتأكد من أنها لم تدخل الممر.

عندما اختفت عن الأنظار دفعت باب المطبخ المتأرجح، وشققت طريقي إلى غرفة الطعام، حيث كان جيك ودوتش ينتظران.

كان أحد جانبي وجه دوتش منتفخًا ومتورمًا وقد اصطبغ باللون الأرجواني، وكانت زاوية شفته مجروحة، فقلت له في عبوس: "إذا أتيت إلى الصيدلية فسأعطيك شيئًا لتداوي ذلك الجرح".

وضعت الصينية في منتصف الطاولة وجلست.

حدق جيك إلى الشاي وقال: "شكرًا يا ليودا"، لكنه كان يعلم أنه لا ينبغي له أن يلمسه.

نظرت نحو دوتش وقلت: "حسنًا، ما الأمر؟".

أومأ جيك لدوتش برأسه برفق، وقال مخاطبًا دوتش: "تفضلْ يا بني".

تنحنح دوتش، وجلس بشكل أكثر استقامة في مقعده، وقاومت الرغبة في النقر بإصبعي بنفاد صبر على الطاولة.

قال أخيرًا: "أنا لست غبيًّا لأصدق الأسباب السخيفة التي سردتِها عليَّ عندما عرضت عليَّ العمل في إدارة البستان، أعتقد أن الأمر مرتبط بمعرفتك أنني لن أطرح الكثير من الأسئلة، وأنا لم أفعل؛ لذا يجب عليكِ أن تضعي ذلك في حسبانك عندما تقررين ما إذا كنتِ ستعيدنني إلى تلك المشكلات أم لا".

رفعت حاجبيَّ، فقد كان الاتفاق مع دوتش بمثابة تعهد صامت بيننا جميعًا، أشبه بهدنة، فقد تولى هو الإدارة وفي المقابل، سامحناه على الخطايا التي لم يعترف هو بها مطلقًا، لكن عندما جلس هنا الآن، بدا مثل الطفل الأحمق نفسه الذي كنا نتذكره جميعًا.

قلت له: "حسنًا".

أومأ برأسه، وألقى نظرة أخرى في اتجاه جيك ثم قال: "لقد كذبت بشأن تلك الليلة".

قلت وقد بدا عليَّ الانزعاج: "هذا واضح"، وكنت قد اعتدت تلك المناورات معه ومع إيميري فترة كافية.

نظر دوتش نحوي في تركيز، وكان نبضه يتسارع.

قلت له: "أتحدى أن الجميع في هذه الجزيرة يعرفون أنك كذبت، ولكن السؤال هو عن أي شيء كذبت بالضبط؟ ولماذا؟".

حدق إلى الطاولة، ومرت لحظات من الصمت الطويل قبل أن يقول: "بشأن وجودي مع أوجست في المنارة. في الحقيقة أنا لم أكن معه".

قلت له: "أخيرًا، وصلنا إلى شيء ملموس، هل طلب منك أوجست أن تكذب من أجله؟".

قال: "لا". ثم توقف قبل أن يكمل: "أخبرت جيك بأنني كنت معه، لأنني أعلم أنه كان يبحث عن أوجست، فقد أردت حمايته وحماية نفسي".

رفعت حاجبي، وسألته: "نفسك؟".

ألقى نظرة سريعة على جيك ثم قال: "لقد التقيت بليلي قبل وفاتها، كنت خائفًا من أن يكتشف أحد الأمر، فيعتقد أنني كنت متورطًا فيما حدث لها".

اختفت النظرة الساحرة التي كانت تظهر عادة على وجه دوتش، وبدا لي الآن الصبي الصغير الخائف الذي عرفته منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، عندما ساعدت في ولادته، ورأيت حينها وجهه الأحمر وهو يصرخ، تحت ضوء القمر، وعرفت في اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليه أنه سيسبب المتاعب. كان دوتش دومًا أشبه بجرو ضال يتجول في الجزيرة، خاصة بعد وفاة والده، لكن أي شخص لديه ذرة من العقل يمكنه أن يرى أنه كان شخصًا جبانًا.

غصت في مقعدي، ثم قلت له: "إذا كنت قد كذبت بشأن وجودك معه في المنارة تلك الليلة، فأين كان إذن؟".

قال دوتش: "لا أعرف".

سألته: "ألم تسأله قط؟".

أجابني: "لا، فقد اعتقدت أنه من الأفضل أن نتمسك بتلك القصة".

نظرت مرة أخرى إلى جيك، ولم أر أي تعبيرات على وجهه، لكنني كنت أعرف الطريقة التي يفكر بها، فالطريقة التي وقف بها على الحائط وظهره متصلب، جعلتني أتيقن أنه دخل في دوامة من الأفكار.

تابع دوتش: "آخر مرة رأيته فيها كان قبل الحفل، وكان يعمل في البستان، ثم غادرت للذهاب إلى المنزل لتغيير ملابسي، وعندما عدت لم يكن هناك".

قلت وأنا أطوي يديَّ فوق الطاولة: "حسنًا"، لماذا لا تتوجه إلى البستان الآن؟ فأنا أخشى أنك ستتأخر، ولا نريد أن نثير أي تساؤلات عن مكان وجودك، كما كنت أنا وجيك وأنا بحاجة إلى التحدث".

تردد دوتش، ونظر إلى جيك كأنه يحتاج إلى إذنه، وجعلني ذلك أرفع عيني.

قال جيك: "تفضل".

أومـأ دوتش برأسـه، وقام من الكرسـي، واسـتمعنا إلى خطواته وهـي تتجه إلى الباب قبل أن يُفتح ويُغلق.

قلت وأنا أراقب جيك من الجانب الآخر من الطاولة: "حسـنًا؟ هل أنت مسـتعد الآن للتصرف حيال ذلك الأمر؟".

حدق من النافذة. كان هناك سبب لإحضاره دوتش إليَّ. لقد فعلنا جميعًا ما كان علينا فعله من أجل أمن الجزيرة، لكن بعضنا كان أكثر موثوقية من غيرنا.

قلـت لـه: "كانـت الكذبة التي قالها ذلـك الصبي هي الشـيء الوحيد الذي يقف بينـك وبيـن اتهام أوجسـت بالقتـل، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أي شـك بعد الآن، لقـد أفلـت مـن العقـاب من قبـل، والآن عاد وهـو يحاول الاسـتيلاء على ما هو لنا".

لقـد جعلتنـا تلـك العائلة الملعونـة نظل تحت رحمتها سـنوات، وكانت تسـتخدم البسـتان للحفـاظ علـى السـلطة التي تمتلكهـا، والآن كل أفـراد عائلة سـولت تقريبًا يتعفنون تحت التراب، وآخرهم ينتظر دوره.

استدار جيك أخيرًا لمواجهتي، ومرر أصابعه على حافة قبعته قائلًا: "ربما حان الوقت لنتعامل مع هذا الأمر".

ضممت شفتي، وقلت في رضا: "ربما حان الوقت".

قال لي: "لا أريد أن يتورط أخي في الأمر".

قلـت لـه: "لا داعـي لذلـك"، وفكرت أنه مـن الأفضل أن يسـير الأمـر على هذا النحـو، فقـد كان الخطـأ الذي ارتكبناه في المرة الأخيرة هو إشـراك عدد كبير من الأشخاص، لكن تلك المرة سيحل في هدوء.

أعاد القبعة إلى رأسه، وأخرج المفاتيح من جيبه، وألقى عليَّ نظرة أخيرة طويلة قبل أن يغادر.

ركـزت عينـي على البخـار الـذي كان لا يزال يتصاعـد من فوهة إبريق الشـاي، وتنازعتنـي الأفـكار قلـت لنفسـي لقـد اعتنينا بالجزيرة منذ سـنوات عديـدة ولعدة أجيال، ولم يكن الأمر مختلفًا هذه المرة.

مددت يديَّ أمامي، وأنا أنتظر أن أشعر بالوخز في أطراف أصابعي، ومع ذلك، لم يكن هناك شيء، لم يكن هناك شيء منذ سنوات، كانت الأعمال السحرية شيئًا صعبًا ومتقلبًا، وفي آخر مرة لجأت لها فشلت، لكن هذه المشكلة لها أكثر من حل.

الفصل الثالث والخمسون

إيميري

كانت شجرة الصفصاف المزروعة بجانب منزل ألبرتين الصغير تبدو كأنها تحتضنه، فقد كانت تقف بشموخ فوقه مثل عملاق ضخم، وكانت كل أوراقها قد تساقطت، بينما كانت أغصانها الطويلة الرقيقة تتمايل في مهب الريح، وتنقر النوافذ كأنها أصابع رشيقة تعزف لحنًا عذبًا.

كان ذلك المنزل والذكريات التي يحملها تحت سقفه بمثابة طوق النجاة بالنسبة لي، وكانت فكرة تركهما تزعجني بشدة.

توقفت عند الدرجة السفلية من الشرفة، وظللت واقفة هناك. لم يكن مجرد التفكير في والدي هو الذي أبقاني هنا، بل كان هناك ألبرتين ونيكسي وذكرى والدتي. في أعماقي كنت أعلم أيضًا أنه الخوف، وكنت أريد المغادرة، وودِدت لو فعلت ذلك، لكنني كنت أيضًا خائفة من الذهاب وحدي.

لم أعط أوجست إجابة عن سؤاله، ولم أكن حتى قد اتخذت قرارًا، لكنني لم أكن أعرف ما إذا كان عليَّ أن أجيبه، فإذا لم يكن قد طلب مني المغادرة، فقد كنت متأكدة تقريبًا من أنني كنت سأتبعه في كل الأحوال.

كانت ذكراه حاضرة طول الوقت ما جعلني أرتجف. كان ذلك نوعًا من السحر الذي أخافني؛ لأنني إذا فقدت أوجست سولت للمرة الثانية، فلم أكن أعرف ما إذا كان بإمكاني تخطي ذلك تلك المرة.

مسحت قدميَّ في الممسحة قبل أن أفتح الباب وأدخل، وناديت: "جدتي!".

ناديت، لكن لم تكن هناك إجابة، لا رائحة مربى تغلي على الموقد أو وقع خطوات في الرواق. كان قلبي يخفق قليلًا عندما يحدث ذلك؛ لأنني أتذكر أنه سيأتي يوم لن أجدها في هذا المنزل، وكنت خائفة من ذلك أيضًا.

توجهت إلى غرفة النوم، حيث كان لحاف ألبرتين المرقع مفروشًا بشكل أنيق فوق السرير المرتب، وناديت مجددًا: "جدتي!".

سمعت صوت خشخشة في الخارج، فذهبت نحو النافذة، وسحبت الستارة الرقيقة لأرى الصوبة في أسفل التل، كان الباب مفتوحًا، ومن خلال الزجاج الضبابي، كان بإمكاني رؤية الوهج الأحمر الساطع لمعطف ألبرتين.

خف التوتر قليلًا عندما رأيتها، وخرجت إلى الرواق ومشيت عبر المنزل، ثم توقفت عندما مررت بجوار رف الموقد، ففوقه كان يقبع كتاب بلاكوود للتعاويذ، وقبل بضعة أيام فقط، كنت أقف في المكان نفسه ممسكة بالكتاب الثقيل بين يدي والدموع تنهمر على خديَّ. في النهاية، لم أتمكن من قطع الرباط الذي كان سبب عذابي أربعة عشر عامًا، لكن كانت هناك بعض الأشياء التي عَدَدْتُها جزءًا مني، بغض النظر عن مدى إيلامها.

مددت يدي ولمست الغطاء الجلدي السميك، وشعرت بوخز تحت أطراف أصابعي. ربما كنت سأترك ذلك أيضًا ورائي... السحر، وهمسات الجزيرة الهادئة.

انحرفت نظراتي نحو النافذة، حيث رأيت قطرات المطر وهي تتساقط من زاوية الصوبة من بعيد، ففتحت الباب الخلفي، وسرت عبر المسار الحجري الذي اصطفت على جانبيه ورود متسلقة وأزهار خجولة، تتلألأ بقطرات المطر.

سمعتها تصيح: "إيميري؟ هل أنتِ هنا؟"، كانت ألبرتين تقف أمام المدخل، وفي يديها أصيص معدني قديم ممتلئ بالطين، وكان وشاحها المنقوش ملفوفًا حول رأسها، وحذاؤها الشتوي يغطي ساقيها فوق بنطالها الجينز.

قلت لها: "ها أنتِ قد جئت!"، ثم هززت شعري المبلل، وتركته يتساقط على ظهري بينما كنت متجهة إلى الداخل.

كانت الألواح الزجاجية التي تعلوها الطحالب قد جعلت كل شيء في الصوبة يبدو مغمورًا بضوء أخضر زمردي، فوقفت أمام زهور الداليا والزنابق وشقائق النعمان، وأنا أراها تطل من خلف الكروم المتشابكة المتدلية من الأرفف المعدنية القديمة.

كانت العناية بالنباتات من الأشياء الأخرى التي أظهرت كيف تحدت ألبرتين فقدانها بصرها، فلم يكن السبب في جعل الصوبة ممتلئة بالأزهار حتى في أوج الشتاء هو خبرتها في البستنة فقط، فعلى الرغم من أنها لم تر قط في حياتها أيًا من الزهور التي كانت تعتني بها، فإنها ظلت تنمو فترة طويلة حتى بعد انتهاء موسمها، لكن السحر الذي كانت تمارسه في صمت كان له تأثير كبير، فلقد لامس كل ركن من أركان منزلها والأرض من حولها، مثل النباتات المتسلقة البرية.

قالت لي: "لم أكن أعلم أنك قادمة"، ثم عادت ألبرتين إلى منضدة الزرع وهي تتعثر قليلًا في خطواتها. كانت عظامها تؤلمها ومفاصلها متيبسة، وكانت حالتها تزداد سوءًا عندما يكون الجو باردًا.

قبلتها على خدها، وقلت لها قبل أن أجلس على المقعد الصدئ بجانبها: "لقد جئت فقط للاطمئنان عليكِ".

قالت لي: "حسنًا، إذن ساعديني فيما أقوم به"، وأشارت بإصبعها المعقوف في اتجاه وعاء فارغ آخر.

أطعتها، فقلبت الوعاء رأسًا على عقب، لإفراغ ما فيه من التربة القديمة الجافة، في سلة المهملات الموضوعة على الأرض. كانت زهور البنفسج موضوعة على المنضدة، فقمت بقص الساق الذابلة قبل وضعها في الداخل.

رأيتها وهي تراقبني فقلت لها: "ما الأمر؟".

انحنت على المقعد، وقالت: "هناك شيء ما يدبر وأستطيع أن أشعر به".

تابعت: "هل ستخبرينني لماذا قطعت كل هذا الطريق لتأتي إلى هنا؟ أم عليَّ أن أنتزع منكِ الكلمات؟".

نظرت إليها بطرف عيني، لقد كانت تستطيع أن تستشعر الخداع من مسافة ميل، قلت لها: "أريد أن أسألك عن شيء ما".

قالت لي: "حسنًا، تكلمي أنا أسمعك".

قلت لها: "إنه يتعلق بليلة الحريق".

استقرت يداها على الوعاء، واستدارت نحوي، وقالت في تردد: "حسنًا".

تابعت: "لقد اتصلتِ بجيك بعد الظهر؛ لأنكِ اعتقدتِ أنكِ تعرضتِ لعملية اقتحام".

قالت لي: "نعم".

قلت لها: "نحو الساعة الثالثة عصرًا، أليس كذلك؟".

قالت لي: "أعتقد ذلك، فلقد حدث ذلك منذ زمن طويل يا عزيزتي".

قلت لها: "هل يمكنكِ أن تخبريني بما تتذكرينه؟".

وضعت يدها على فخذها، ونظرت إليَّ نظرة وهي تتساءل: "ما الأمر؟".

قلت لها: "أحتاج فقط إلى معرفة ما حدث".

تنهدت وهي تتخلص من التراب العالق في يديها ثم قالت: "حسنًا، كنت قد دخلت من الحديقة، وكان هناك شخص ما في المنزل، شعرت بذلك على الفور. كنت في المطبخ وسمعت وقع خطواته وأنفاسه. انتقل هذا الشخص من غرفة المعيشة إلى الباب الأمامي ثم اختفى، واتصلت بجيك حينها وجاء بعد بضع دقائق وتفقد كل شيء، لكن لم يختف أي شيء".

سألتها: "من تعتقدين أنه كان إذن؟".

هزت كتفيها وقالت: "لا يمكنني أن أحدد ذلك، على الرغم من أنه لم يكن قد مر وقت طويل على مهرجان بلتان، حيث يكون الحجاب الروحي شفافًا".

كانت هناك مرتان في السنة يكون هذا الحجاب فيهما شفافًا؛ مهرجان بلتان في الأول من مايو، ومهرجان سامهاين الذي كان سيحل بعد بضعة أيام فقط، وقد قيل إنه في تلك الليالي تسير الأرواح ذهابًا وإيابًا، عبر المعبر المؤدي إلى العالم الآخر، وقد رأيت قدرًا لا بأس به من الأشياء الغريبة التي جعلتني أصدق ذلك، قلت لها: "الأشباح لا تدخل البيت من بابه يا جدتي".

قالت لي: "حسنًا، بعد كل ما حدث في تلك الليلة، فحص جيك المنزل مرة أخرى، لكنه لم يجد شيئًا".

قلت لها: "ربما كان شخصًا يعيش هنا في الجزيرة".

تنهدت وقالت: "لا أعتقد ذلك".

سألتها: "لماذا؟".

أجابتني: "لماذا يتسلل؟ إذا كان شخصًا من الجزيرة، فأنا أعرفه، ولا يوجد سبب يجعله يتسلل في صمت".

فكرت بصوت مرتفع، وقلت: "ما لم يكن يفعل شيئًا لم يكن من المفترض أن يفعله".

قمت بتكديس التراب حول جذور البنفسج في الوعاء، بينما كنت أفحصه مرة أخرى. إذا كان المَغْنِيُّ شخصًا من الجزيرة، فقد يكون أي شخص، لكن لم يكن هناك شيء يمكن سرقته في المنزل. لم أستطع التفكير في أي شيء تملكه ألبرتين قد يكون ذا قيمة.

مدت يديها المصابتين بداء التهاب المفاصل أمامها، ثم قالت: "لا أحب كل هذا الحديث عن الماضي يا إيم، لا داعي لاستدعاء الأرواح، دعي الفتنة نائمة لا توقظيها".

سمعت عندئذٍ صوت نقر خافت بالخارج يصاحب عواء الريح، فنظرت نحو المنزل الموجود أعلى التل، على الجانب البعيد، حيث كانت أغصان الصفصاف تضرب نافذة المطبخ.

تجمدت في مكاني، وغرزت أظافري في التربة التي تملأ الوعاء.

الصفصاف!

بجانبي، شعرت ألبرتين بسكوني المفاجئ فسألتني: "ما الأمر؟".

قلت لها: "كانت ليلي ترتدي إحدى الأساور المجدولة والمصنوعة من أغصان الصفصاف التي علمتنا كيفية صنعها، هل تتذكرين؟".

عبست ثم قالت: "نعم، أتذكر".

كانت ممارسة قديمة تعلمتها جدتي من جدتها، وهي ربط غصن صفصاف مضفر حول معصمك لحمايتك من السحر الأسود.

همست: "كانت معها أعواد ثقاب، وكان هناك شمع ذائب على فستانها".

قالت وقد أصبح صوتها أعمق: "إيميري"، لم أستطع معرفة ما إذا كانت هي أم أنا الذي شعر بأنه مشوش، وكل شيء كان غامضًا.

تابعت: "لقد عثروا على ليلي جثة في وسط الغابة، لكن سبب وفاتها كان الغرق، إذن كيف وصلت إلى هناك؟"، كانت الأفكار تتسابق بسرعة كبيرة في ذهني حينها، ولم تكن الكلمات قادرة على مواكبة ذلك، تابعت: "إذا كان هناك شمع، فربما كانت تمسك بشمعة، وكانت ترتدي فرعًا من الصفصاف حول معصمها".

فجأة رأيت ألبرتين وهي تشيح بوجهها بعيدًا عني.

ازدردت لعابي وسألتها: "كيف تفسرين هذا الأمر؟".

قالت: "حسنًا، هذا يبدو مثل..."، ثم سكتت، وضغطت على شفتيها معًا كما لو كانت تمنع نفسها من قول المزيد.

قلت لها: "جدتي؟".

لم يكن هناك أي مرح في صوتها هذه المرة، واختفت تلك الابتسامة الساخرة التي كانت ترتسم على زاوية فمها وهي تتكلم ثم تابعت: "كنت سأقول، يبدو الأمر كأنه... تعويذة".

تنفست بعمق، وقلت: "كانت هي إذن"، وسحبت يدي من الوعاء ومشيت نحو الباب، ثم تابعت: "كانت هنا".

قالت جدتي: "إيم؟"، ثم تبعتني ألبرتين، وتحسست بيدها السياج خلف ظهري مع كل بضع خطوات كانت تتبعني فيها.

تسلقت التل، ودفعت الباب الخلفي، وذهبت نحو الموقد، ثم أخذت كتاب التعويذات من الرف، وحملته بين ذراعيَّ وأنا أتجه إلى المطبخ، ثم وضعته على الطاولة.

كانت ألبرتين تدير أذنها نحوي، وتجعد جبينها وهي تحاول فك رموز الأصوات، التي كانت تسمعها ثم سألتني: "ما الذي يحدث؟".

قلت لها وأنا أقلب الصفحات: "لقد أتت إلى هنا من أجل كتاب التعويذات، لكنها لم تكن تقوم بأي سحر، فإذا كانت ترتدي غصن الصفصاف فقد كانت تقوم بالسحر الأسود".

قالت لي: "لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فلا توجد طريقة يمكنها من خلالها أن تقوم بعمل تعويذة مثل هذه".

قلت لها: "بالضبط".

رفعت ألبرتين يدها إلى فمها، وأخذت تفكر.

قلت لها: "ماذا عساها أن تفعل؟".

هزت ألبرتين رأسها، وقالت: "لا أعرف، ولكن شمعة وفرع صفصاف ليسا كافيين".

قلت وقد تذكرت فجأة: "أعشاب بحرية كانت موجودة في معدتها".

ببطء، تغيرت تعبيرات وجه ألبرتين.

قلت لها: "ما الأمر؟".

قالت لي: "هناك تعويذة في هذا الكتاب عن الغرق"، كانت الكلمة الأخيرة غير مسموعة تقريبًا. مدت يدها فوقي، وتحسست حواف الصفحات، ثم تابعت: "في مكان ما هنا"، ثم بدأت تقليب الصفحات، وتحسسها الواحدة تلو الأخرى.

قالت: "تعويذة عن بحار أو شيء من هذا القبيل".

سحبت إصبعي بشكل محموم على الأسطر المكتوبة حتى وجدتها.

عذاب البحّار.

كانت تعويذة قديمة جدًّا، فحواف الورقة كانت مهترئة ومصفرة، وكان الحبر متلطخًا في أماكن مختلفة على طول الرسم المنقوش على شكل فرع.

قرأت بصوت مرتفع: "في ليلة القمر المظلم، تمسك اليد اليمنى بالمرساة، وفي اليسرى، ساق من نبات السيكران، ثم تقال ثلاث مرات فوق لهب شمعة، مع دم وأعشاب بحرية توضع على اللسان: "الهواء إلى الماء، والماء إلى الرئتين".

تسللت قشعريرة حادة على بشرتي وسألتها: "ماذا تعنين بأنها تعويذة للغرق؟".

أجابت: "ليس كل شيء في هذا الكتاب يتحدث عن تعويذات لجلب البركات والوفرة، يا حبيبتي، وأنتِ تعرفين ذلك، أظن أنها كانت تعويذة مصممة لإغراق شخص ما، من الاسم الذي أُطلق عليها، يمكنني تخمين أنه كان بحارًا، صيادًا، ربما؟".

قرأت الكلمات مرة أخرى، وسألتها: "ما المرساة؟ مثل تلك التي على متن سفينة؟".

قالت: "لا، المرساة تربط التعويذة بمتلقيها والشخص المقصود إيذاؤه".

سألتها: "كيف؟".

أجابتني: "إنها عادة أي شيء من ممتلكات الشخص المقصود، خصلة شعر..."

قاطعتها: "هذا لا يعني أي..."، واختفت الكلمات من لساني عندما جاءت كلمة القلادة إلى ذهني، وكان هناك شعور بالغثيان يتملكني، لكني قلت لجدتي في صوت واهن: "كانت معها قلادتي".

الفصل الرابع والخمسون

أوجست

هذه المرة اشتريت تذكرتين.

لم تقل لي إيميري بعد ما إذا كانت ستأتي معي أم لا، ولكن إذا وافقت فسأكون مستعدًّا لاصطحابها معي في أول عبَّارة تنطلق في الصباح، وإذا لم تفعل فلا أعرف كيف سأغادر من دونها.

سرت عبر الممر، وألقيت نظرة خاطفة في اتجاه الشاحنة المحترقة. ربما ستبقى هناك أربعة عشر عامًا أخرى، وتغطيها الأعشاب الأفعوانية ببطء مثل كل شيء آخر تبتلعه سيرشا.

عندما دخلت رأيت ضوء الشمس يغمر الكوخ، وكانت أشعته تنعكس من خلال النوافذ. تأملت الأرضية الخشبية بنمطها المألوف وأنا أتفقد الغرف للمرة الأخيرة، وكل ما كان عليَّ أن أفعله الآن هو غلق الباب وتسليم المفاتيح لبرنارد. كانت أغراضي التي حزمتها في منزل إيميري جنبًا إلى جنب مع الأوراق التي تمكنت من العثور عليها في ملفات والدتي، لكنني قررت عدم اصطحاب أي شيء آخر من الكوخ. لقد أمضيت كل هذه المدة دون أن أحتفظ بالهدايا التذكارية التي تركتها والدتي خلفها، وكنت أشعر الآن كأنها تنتمي إلى زمن آخر، ولم أشعر بالحزن لعدم رؤيتها مرة أخرى.

توقفت فجأة عندما مررت بجوار المدفأة، ورأيت الصورة الموضوعة على الرف؛ صورة والدتي وهانا، وبينهما إيميري وأنا عندما كنا أطفالًا نجلس على حِجرها، وكانت قوارب الصيد تتهادى من بعيد على امتداد البحر الرمادي خلفهما، وكانتا تقفان بأقدامهما الحافية على الرصيف الذي انعكست عليه أشعة الشمس.

أمسكتها، ومسحت الزجاج براحة يدي، وأنا أبتسم تقريبًا.

هذا ما سآخذه.

نظرت إلى غرفة المعيشة والمطبخ، وفوجئت حينما أدركت أنني كنت أريد أن أطبع صورتهما في ذاكرتي، دورق القهوة المتروك على الموقد، والسجادة القماشية الموضوعة تحت الأريكة، والكراسي القديمة عند طاولة المطبخ التي بدت كأنها تخص ذات يوم مطعمًا ما. في المرة الأخيرة التي غادرت فيها هذا المنزل لم أكن مستعدًّا لتوديع كل هذه الأشياء، لكنني الآن كنت مستعدًّا لذلك، ربما لأنني لم أكن أهرب هذه المرة.

خرجت إلى الشرفة، ودفعت المفتاح في القفل، وأنا أضع الصورة المؤطرة تحت ذراعي، عندما تمكنت أخيرًا من تحريكه، علق المفتاح، وحاولت تحريره، وهززت المقبض حتى دار سنتيمترًا آخر.

جعلني الظل المتحرك الذي رأيته عند قدمي أتجمد في مكاني، فشددت أصابعي على المقبض. سمعت صرير الألواح الخشبية في الشرفة فتنفست بعمق، لكن بحلول الوقت الذي قررت فيه أن أنظر نحو الانعكاس البادي خلف ظهري، كان الأوان قد فات. أحسست بضربة قوية من شيء صلب تأتي من الخلف، ووقعت أرضًا، وكان صوت الزجاج المحطم هو آخر ما سمعته، قبل أن أتلقى ضربة أخرى.

عندئذٍ... عم الظلام كل شيء.

الفصل الخامس والخمسون

إيميري

علينا أن نخرج من هذه الجزيرة اللعينة.

اندفعت عبر الباب، وازدردت لعابي وأنا أشعر بحرقان في حلقي. كان المنزل مظلمًا، والمدفأة باردة، لكن إذا أسرعنا، فإنه يمكننا اللحاق بالعبَّارة الأخيرة قبل أن تغادر الميناء.

ناديت: "أوجست؟".

ذهبت إلى غرفة النوم، وفتحت خزانة الملابس، وأخرجت أول حقيبة رأيتها في الداخل. لم أهتم أي واحدة كانت، رميتها على السرير قبل أن أخرج مجموعة من الملابس من الدرج العلوي لأضعها فيها؛ بعض القمصان والسترات الصيفية.

ثم ناديت مجددًا: "أوجست!".

مددت يدي إلى جيب سترتي، ووجدت هاتفي المحمول، وبحثت بأصابع مرتجفة عن الرقم الذي أعطاني إياه، استغرق الأمر محاولات عدة، لكن عندما رن الهاتف أخيرًا، وضعته على مكبر الصوت، وعدت إلى الغرفة، وسحبت معطفي الشتوي من الشماعة. كان لدينا أكثر من عشرين دقيقة بقليل للوصول إلى الميناء، لم نكن نستطيع الانتظار حتى الصباح، لا يمكننا الانتظار ساعة أخرى.

عندما تحولت المكالمة إلى خاصية البريد الصوتي، لعنت حظي، وأعدت الاتصال.

سمعت همهمة خفيفة في المنزل فتوقفت وتركت الحقيبة، وتبعتها من الصالة حتى غرفة المعيشة، وهناك، على الطاولة بجانب الأريكة، كان يوجد هاتف أوجست، وكان اسمي يظهر بأحرف بيضاء على الشاشة.

كانت حقيبته المعدَّة لا تزال على الأرض تحت طاولة المطبخ، وعلى الجانب الآخر من الطريق، كانت نوافذ كوخ عائلة سولت تبدو مظلمة، شعرت برعشة تسري في رقبتي، عندما رأيت السحب السوداء وهي تتجمع في صفحة السماء.

أغلقت الهاتف، وفتحت الباب مرة أخرى. عبرت الطريق، وألقيت نظرة من فوق كتفي نحو الغابة المظلمة. كانت طيور الزرزور لا تزال تغرد، على الرغم من أن الليل كان يقترب، وكان صوتها يزعجني، ويتردد صداه في رأسي مثل الصراخ، وكانت تقفز عبر الأغصان فوق رأسي، وتنتقل من شجرة إلى أخرى أثناء سيري، وأسرعت خطواتي محاولة عدم النظر إليها، لكنها كانت تتبعني.

كان باب الكوخ مغلقًا، لكن عندما سمعت صوت الزجاج المكسور تحت حذائي، لم أخطُ خطوة أخرى، وترددت قبل أن أنظر إلى أسفل.

رأيت قطع الزجاج المحطم على الشرفة، والذي تناثر على يسار الباب، حيث كان إطار الصورة ذات الحواف الذهبية ملقى على وجهه. انحنيت ببطء، وأخذته وقلبته؛ كانت صورة لنا، أوجست وإيلويز وأنا وأمي.

وقفت مرة أخرى وصرخت: "أوجست!"، وحاولت فتح الباب، لكنه كان مقفلًا، ناديت مرة أخرى: "أوجست!".

ضغطت بيدي على النافذة وأنا أنظر إلى الداخل، كان كل شيء مظلمًا، والأضواء مطفأة، والمنزل مرتبًا، ولم يكن هو هناك.

استدرت وشعرت فجأة بالبرد وأنا أسمع همسات الغابة. اتجهت عيناي نحو الأشجار، وخفق قلبي بقوة لدرجة أنني شعرت بأنني لم أكن أرى شيئًا.

لم تكن طيور الزرزور هي فقط ما يراقبني، لكن الجزيرة كانت تراقبني أيضًا، كان بإمكاني الشعور بذلك.

زأر محرك الشاحنة وأنا أشق طريقي على الطريق الترابي تحت المطر الغزير، وكانت المصابيح الأمامية الخافتة تكاد تنير الظلام، وكان صوت بوق العبَّارة يصل إليَّ من بعيد، بينما كانت تبتعد عن الميناء، وفي غضون دقائق ستختفي.

سرت عبر المنعطفين المؤديين إلى كوخ الصيد، وضاق الطريق قبل أن أصل إلى طريق مسدود، ثم قمت بضبط الشاحنة على وضع الانتظار، وخرجت منها دون حتى أن أخرج المفتاح.

ركضت عبر الممشى، ودفعت الباب.

كاد والدي يسقط من كرسيه، وارتجف عندما رآني، وصاح: "إيم؟".

قلت وأنا أجز على أسناني، وأنا أنظر نحوه بغضب: "أين هو؟".

لكنه بدا مرتبكًا تمامًا، وهو يقف أمام صندوق أدواته المفتوح، ممسكًا كماشة صغيرة في يده وسألني: "ماذا؟ من؟".

صرخت: "أوجست!، أين هو؟".

نظر والدي حول الكوخ، ووقف على قدميه بصعوبة، ثم قال: "أنا.. لا أعرف".

فأدخلت كلتا يديَّ في شعري، أحاول أن أفهم ما حدث وأنا أرتجف بشدة.

مد يده نحوي وسألني: "ماذا يحدث؟"، لكنني تراجعت، وصرخت، فسألني مجددًا: "إيم؟".

قلت له: "لقد اختفى أوجست".

سألني: "هل غادر؟".

تلعثمت قبل أن أقول: "لا... أنا... لا أعرف، لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك، فأغراضه لا تزال في منزلي".

ظهر الاندهاش على وجهه على الفور، لماذا كانت أغراض أوجست موجودة في منزلي؟ ماذا كان يفعل هناك؟ لكنه لم يسأل.

قلت له: "ترك أحدهم ملاحظة تقول إنه إذا لم يغادر، فسوف يقدمون أدلة عن مقتل ليلي، وكان يتقصى في موضوع صك ملكية البستان و..."

رمقني والدي بنظرة قاسية.

سألته: "ما الأمر؟".

قال وقد بدا أنه أدرك الأمر: "هل أخبرته بالوصية؟".

لم أجب، فلم يكن هناك أي مجال الآن لكي أراوغ بذلك الخصوص. لقد اخترت أوجست بدلًا منه، وسأفعل ذلك مرة أخرى إذا عاد بي الزمن.

قال لي: "كان يفحص أوراق البستان، أليس كذلك؟".

قلت له: "بلى".

تغيرت تعبيرات وجهه وأسقط الكماشة على الطاولة.

سألته: "أبي؟ ما الأمر؟".

ضغط شفتيه وحدق إليَّ للحظة قبل أن يخطو بجانبي، باتجاه المطبخ، شاهدته وهـو يرفع سـماعة الهاتف الموضوع على الحائـط، ويتصل برقم ما في غضب. أدار ظهـره لـي بينما كان الهاتف يـرن، ولكن بعد لحظات قليلة أغلـق الهاتف، ولم تترك يده السماعة بينما كان يحدق إلى الأرض، متفكرًا. عندما رفع السماعة مرة أخرى، اتصـل برقم مختلـف، ومع ذلك لم يرد، وبعد المحاولة الثالثـة، أغلق الهاتف بقوة، متوجهًا إلى المدفأة.

سألته: "إلى أين أنت ذاهب؟".

ذهب إلى الخزانة التي كانت بجوار الحائط البعيد، وفتحها بيد ثابتة، وشاهدته وهو يسحب بندقيته من الداخل.

قلت: "أبي؟".

كان قد ارتدى سترته بالفعل، وتبعته إلى الطريق ونظر نحوي، قبل أن يفتح باب السائق وقال: "يمكنني التحدث معهم".

معهـم؟! إذن، كنـت علـى حق، لم يكـن الأمر بسـيطًا مثل غيرة دوتش أو انتقام جيك، كان والدي يعرف بالضبط ما الذي كان يحدث هنا.

سألته: "ما الأمر؟".

لم يجب، وصعد إلى الداخل، ووضع البندقية على ساقه، وعندما جلست بجانبه، أدار المفتاح وتراجع دون حتى أن يلقي نظرة واحدة في المرآة.

لم يكن الأمر يتعلق بليلي، وربما لم يكن الأمر يتعلق بها قط.

كان الأمر يتعلق بالبستان.

الفصل السادس والخمسون

جزيرة سيرشا

3:36 مساءً.

كان شعر ليلي مورجان الأشقر يلمع مثل جذوة من النار وهي تركض بين الأشجار.

بدا واضحًا أن هناك عاصفة بدأت تتكوَّن في الأفق، وتسربت رائحتها عبر الهواء الرطب، فملأته بحلاوة عبق الصيف، لكنها لن تصل إلى الجزيرة في وقت قريب بما فيه الكفاية.

كان الجزء الأمامي من فستان التخرج الخاص بها لا يزال مفتوحًا، وفكت أزراره وقد انزلق أحد أكمامه فوق كتفها، وضاع صوت صراخها المكتوم وسط الرياح التي كانت تتسلل عبر الأشجار.

شعرت بالنار تحرق جوفها، وكانت رائحة أوجست التي تشبه رائحة الزعتر البري الذي ينمو على طول صفوف أشجار التفاح عالقة في أنفها.

هربت صرخة محبوسة أخرى من شفتيها عندما تذكرت ما حدث، وسحبت الفستان بأصابع مرتجفة. ففي اللحظة التالية، كان يدفعها بعيدًا عنه، وكانت النظرة التي ارتسمت على وجهه هي التي زادت إحساسها بالألم، ففي كل مرة شاهدته فيها يلمس إيميري كان ينظر بعيدًا عنها، عندما كان يدرك أنها كانت تحدق إليه.

لقد كانت دائمًا هي الفتاة الجميلة بينهما، وكل من ليلي وإيميري تعرف ذلك، لكن إيميري كانت الأكثر طيبة ولطفًا. لقد أحبت ليلي أوجست، ولكن كل ما أراده هو كان إيميري بلاكوود.

ظهر منزل ألبرتين بين الأشجار أمامها، فتوقفت ليلي وهي تراقب النوافذ. كان جميع من في الجزيرة تقريبًا، إما في المقهى، وإما يستعدون للحفل في البستان، لكن كان لا يزال هناك وقت لإصلاح هذا.

لم يكن الباب مقفلًا، وكانت تلك هي العادة دائمًا، فدخلت ليلي وسارت مباشرة عبر غرفة المعيشة إلى المدفأة، وهناك كان كتاب بلاكوود للتعاويذ موضوعًا على الرف.

كان الكتاب الوحيد من نوعه في الجزيرة. كان لدى معظم العائلات كتب خاصة بالتعاويذ ورثته ابنة من والدتها، ولكن ليس مثل هذا الكتاب. كان كتاب بلاكوود للتعاويذ سجلًّا كاملاً وممتدًّا يعود إلى أجيال، وبينما مزقت بعض العائلات صفحات السحر الأسود في كتبها، لم تفعل عائلة بلاكوود ذلك.

عندما كانت ليلي وإيميري طفلتين كانتا تطالعان التعويذات على ضوء النار، وتقرآنها معًا، وكانت تعرف بالضبط التعويذة التي تحتاج إليها.

سحبت ليلي الكتاب وأمسكته بين ذراعيها، وجلست على الأرض، وفتحت الغلاف الثقيل، واستنشقت عبق الخزامى والأرز المألوفة لتلك الصفحات، وبحثت في الكلمات المكتوبة بخط اليد عن الكلمة التي كانت تبحث عنها - عذاب البحار، يجب أن يبدو الأمر كأنه حادث، ولن تكون إيميري أول شخص يموت غرقًا على هذه الجزيرة.

أثارت الفكرة الغثيان في معدتها، لكنها تقبلت الأمر، فقد كانت تفعل فقط ما كان عليها أن تفعله، وما تريده الجزيرة.

عندما وجدتها قامت بسرعة بنسخ التعويذة كلمة كلمة، على ورق دفتر الملاحظات المتجعد الذي أحضرته معها، لكن عندما سمعت صرير الباب الخلفي، شعرت ليلي كأن قلبها سيتوقف عن الخفقان.

رفعت عينيها ببطء لترى ظل ألبرتين المنعكس على أرضية المطبخ، ولم تتحرك عندما أغلق الباب خلفها.

تردد صوتها الأجش في جميع أنحاء المنزل وهي تقول: "مرحبا؟، من هناك؟".

رفعت ليلي الورقة من الكتاب، وأغلقته بهدوء قدر استطاعتها قبل أن تنهض واقفة، ثم ظهرت ألبرتين في نهاية الرواق، ووجهت أذنها نحو غرفة المعيشة. كانت تمسك قفازات البستنة في يد، واليد الأخرى كانت تتحسس الحائط بينما تتقدم خطواتها المترددة للأمام.

لم تفكر ليلي في التحقق من وجودها في الصوبة.

قالت مرة أخرى: "مرحبًّا"... لم تستطع ألبرتين رؤيتها، لكن ليلي كانت متأكدة أن عينيها تركزان على وجهها، كأن جزءًا منها يدرك وجود ليلي.

أعادت ليلي كتاب التعويذات إلى الرف، وزحفت إلى الخلف وقلبها ينبض بقوة، وفي اللحظة التالية، دفعت الباب، واتجهت نحو الشرفة، ونزلت الدرج، ودارت حول المنزل قبل أن تخرج ألبرتين، وبينما مرت بشجرة الصفصاف في الزاوية، مدت يدها لأعلى، وانتزعت غصنًا من حيث كان معلقًا.

04: 04 مساءً.

كان شارع ماين مهجورًا، وظلت ليلي تسير على الممشى المرصوف بالحصى الذي يحيط بأبواب المحلات، وتراقب النوافذ المظلمة. كانت المحلات القليلة المفتوحة في هذا الوقت من العام، قد أغلقت أبوابها لهذا اليوم، حتى المقهى كان سيطفئ أنواره قريبًا، وسكان البلدة سيجدون ما يكفيهم من المشروبات في البستان، وهم يستمعون إلى أصوات الموسيقى على مشغل الأسطوانات في الحظيرة.

رأت ليلي انعكاس صورتها على نافذة صيدلية جدتها قبل أن تتسلل إلى الداخل، وعيناها مثبتتان على الخزانة الزجاجية خلف المنضدة. كانت الرفوف المزدحمة مليئة بالأعشاب البحرية والسموم والأسنان والقشور.

انحنت وسحبت المقبض النحاسي، وانفتح الباب. تجولت ببصرها بسرعة على الملصقات حتى وجدت الملصق الذي تحتاج إليه؛ نبات السيكران. كانت الأزهار البيضاء الهشة تبدو مثل أوراق المناديل المجعدة، وكان قلبها أسود اللون أشبه بعيون واسعة مفتوحة.

شعرت ليلي بالدماء الساخنة تندفع عبر عروقها، وهي تلتقط النبتة وتقلبها بين يديها، تبعت ذلك ابتسامة لا إرادية ارتسمت على شفتيها. كانت تحمل في أصابعها مفتاح كل ما أرادته على الإطلاق، وكل ما كان على ليلي فعله هو مد يدها وأخذه.

4:48 مساءً.

رفعت ليلي نافذة غرفة نوم إيميري بعناية، ونظرت خلفها لتراقب الطريق. دخلت بهذه الطريقة؛ لأنها أخبرت والديها بأنها ستبقى الليلة مع إيميري، وكانت تخبرهم بذلك عندما كانت تقضي النصف الأول من تلك الليالي مع دوتش في المنارة، وكانت تكذب حينها على إيميري أيضًا.

لقد بدأ الأمر على الشاطئ، في اليوم الذي قضى فيه الأربعة الليلة، بتناول عصير التفاح وهم في الماء القاتم، وبعد ساعة أو ساعتين، ترك أوجست وإيميري دوتش وليلي خلفهما. لقد كانا يفعلان ذلك دائمًا. وعندما لم تعد ليلي قادرة على تحمُّل فكرة تقرب أوجست من إيميري فترة أطول من ذلك سحبت دوتش نحوها؛ ما جعله يشعر بها بقربه.

لقد استغرق الأمر منه لحظة ليعانقها، ولكن عندما فعل ذلك، أغمضت عينيها ولم تكن تفكر فيه، بل كانت تفكر في أوجست.

ما اعتقدت أنه سيكون ليلة عابرة تحول إلى ليالٍ عديدة، وكلما طالت قلت رغبة دوتش في إخفاء السر، والآن، كانت هناك مشكلة بطنها الذي انتفخ، وسيكون الطفل مشكلة يجب حلها بمجرد رحيل إيميري، وستكون ليلي قادرة حينها على عبور ذلك الجسر الذي يفصلها عن أوجست.

بجانب السرير، كانت ملابس إيميري التي ارتدتها في حفل التخرج مكومة حيث خلعت صندلها، وتركت فستانها يسقط على الأرض، صعدت ليلي إلى داخل الغرفة، وشقت طريقها إلى الخزانة بجوار الحائط.

حاولت ألا تفكر في عدد المرات التي ارتمت فيها إيميري في أحضان أوجست، لكن ذلك لن يحدث مجددًا.

على المرآة، كانت هناك صورة تجمع ليلي بإيميري، صورة ضبابية فورية لهما وهما على الرصيف. رفعت ليلي إصبعًا ولمستها، وازدردت لعابها عندما أحست بألم في حلقها. لقد أحبت إيميري. كان هذا صحيحًا، لكنها كانت تغار منها بشدة.

بحثت في صندوق الجواهر حتى وجدتها، قلادة الفراشة التي أعطاها نوح لإيميري في ذكرى ميلادها. كانت ترتديها كل يوم تقريبًا؛ لذلك ستكون مناسِبة تمامًا في إتمام التعويذة.

ألقتها في جيبها، ثم وقعت عيناها على نهاية السرير، حيث كانت زاوية الحقيبة تبرز من تحت اللحاف. كانت الرؤية لدى ليلي أصبحت ضبابية من شدة الغضب، فإيميري كانت على وشك المغادرة دون أن تنظر إلى الوراء، كأن ليلي لم تكن موجودة على الإطلاق.

كتبت الملاحظة وتركتها على الوسادة.

أعتذر، قابليني عند شاطئ هالو في الساعة 6 وسنذهب إلى الحفل معًا.

يجب أن يكون الوقت دقيقًا تمامًا، لكن إيميري لم تتأخر قط.

5:57 مساءً.

لقد اختارت المكان لموقعه الهادئ بين الأشجار، وكان القمر غائبًا تلك الليلة، وكانت ليلي بحاجة إلى كل ذرة من تلك القوة لاستدعاء سحر الجزيرة.

جلست مُربَّعة الساقين على الأرض الناعمة، وهي تضع الأشياء التي أحضرتها معها، الشمعة، وأعواد الثقاب، والقلادة، ونبات السيكران، والأعشاب البحرية التي جمعتها من الشاطئ، والملح، وبمجرد أن أشارت عقارب ساعتها الطويلة إلى الساعة السادسة، بدأت العمل.

كانت يداها ثابتتين وهي تضغط طرف الشمعة في التراب، وتشعل عود الثقاب، وتحيطها بيدها لحماية لهبها، وعندما اسودَّ طرف الفتيل رفعت الدبوس، وضغطته على طرف إصبعها حتى تجمع الدم هناك مثل لؤلؤة قرمزية لامعة، وبمجرد أن بدأ دخان نبتة السيكران التصاعد، لفّت عقد إيميري حول قبضتها بإحكام شديد حتى وخز أصابعها.

رفعت عينيها إلى السماء المظلمة في الأعلى، وشعرت بدفء بطيء يسري تحت جلدها، وأحضرت الأعشاب البحرية، ثم وضعتها في فمها، وابتلعتها قبل أن تضغط

بإصبعها على لسانها. جعل طعم الدم اللعاب يسيل من فمها، وعندما نظرت إلى الأعلى مرة أخرى تحولت السحب إلى اللون الأسود.

سقطت دمعة على خدها وهي تغمض عينيها، ورأت إيميري هناك، لكن كان هناك وهن في صوتها وهي تقول ذلك، "الهواء إلى الماء، والماء إلى الرئتين"، ثم تنفست بعمق.

اشتدت الرياح، وسحبت شعرها. كان بإمكانها أن تشعر بالجزيرة والبحر الذي يحيط بها، وشعرت به يتدفق في عروقها.

قالت مرة أخرى: "الهواء إلى الماء، والماء إلى الرئتين".

تشكلت في ذهنها هيئة إيميري وتمايلت أمامها، لكنها استجمعت تركيزها عندما قالت ذلك للمرة الأخيرة، وشعرت بحرقان في حلقها وهي تقول للمرة الأخيرة: "الهواء إلى الماء! الماء إلى الرئتين!".

وفجأة، توقفت الريح تاركة الغابة في حالة من السكون. فتحت ليلي عينيها وهي تتنفس في ثقل وتنتظر، وكانت أصوات طيور الزرزور تملأ الأشجار، ثم سمعت همهمة سيارة بعيدة، أو ربما صوت مولد كهربي في البستان، وفي السماء عادت السحب السوداء إلى لونها الأبيض من جديد.

زفرت وفحصت ساعتها مرة أخرى حيث كانت الساعة 06:09. لقد أنجزت المهمة. كان بإمكانها أن تشعر به في سكون الهواء، وفي النبض الثابت تحت جلدها.

ارتجفت يداها وهي تحفر في الأرض، وتدفن الشمعة والدبوس وما تبقى من نبات السيكران، وعندما وقفت على قدميها نفضت فستانها، وظل عقد إيميري يتدلى من أصابعها.

لم يعد هناك مجال للتراجع الآن، لقد رحلت إيميري، وأخيرًا أصبح هناك متسع لليلي لتجد طريقها إلى قلب أوجست، وستجده على الأقل، ستجد طريقًا إلى سولت، وعندما تنجب ليلي طفلًا سيعتقد الجميع أنه طفله، وستحصل على ما تستحقه، ولأول مرة منذ سنوات، ستوضع الأمور في نصابها الصحيح.

كانت عائلة مورجان هي من زرعت البذور الأولى للبستان، وكان سولت هو من انتزعها من بين أصابع عائلتها البيضاء.

لكن كان هناك شيء واحد نسيته ليلي، وهو أن السحر ملك لي أنا الجزيرة.

كانت الغابة هادئة باستثناء أصوات الزرزور، وسارت ليلي عبر الشجيرات الكثيفة عائدة إلى الطريق المؤدي إلى البستان، ولكن قبل أن تصل إليه شعرت بألم في أسفل بطنها؛ ما جعلها تزدرد لعابها بقوة، وتبع ذلك بعد بضع خطوات خطتها، ألم حاد في كل مرة تستنشق فيها الهواء.

توقفت ليلي، وتقلص جبينها في اللحظة التي تذوقت فيها الملح على لسانها، وعندما حاولت أن تتنفس مرة أخرى لم تخرج أنفاسها.

خرج صوت صغير من حلقها، وتلاه صوت فقاعات، ومدت يدها لأعلى، ولمست زاوية فمها، حيث كان الماء البارد يتدفق فوق ذقنها. خفق قلبها بشكل مؤلم في صدرها وعندما خطت خطوة أخرى، شعرت بأنها كانت تختنق الآن، كانت تلهث بينما كان حلقها ممتلئًا بمياه البحر، وعندما سقطت على ركبتيها كان آخر شيء رأته هو زرزورًا يقف على فرع شجرة فوق رأسها، ينظر إليها، وكانت عيناه سوداوين ولا ترمشان، بينما كانت ليلي مورجان تغرق وسط الأرض الجافة.

الفصل السابع والخمسون

ليودا

في المرة الأخيرة التي وقفتُ فيها في علية الحظيرة، كنا نقرر مصير شخص ما، والآن، سنقرر مصير شخص آخر.

لن يُقدَّم الشاي في هذا الاجتماع. وقف زاكريا ونيكسي وبرنارد جنبًا إلى جنب في الغرفة الضيقة، وكل منهم ينظر إليَّ، ولكن لو كان بإمكاني إتمام تلك المهمة بنفسي، لَأُنْجِزَتْ بالفعل.

نظرت من خلال الشق الموجود في الباب، وراقبت الدرج. كان البستان فارغًا لساعات وأرسل دوتش آخر عمال المزرعة إلى المنزل، لكننا لم نكن نستطيع أن نخاطر بأن يرانا أحد هنا، ليس الليلة.

قال برنارد بصوت منخفض في قلق واضح: "ماذا عن نوح؟".

كذبت عليه قائلة: "لم نتمكن من الوصول إليه".

لقد كان وجود إيميري يزيد من تعقيد الأمور بالنسبة لنوح، ولم أثق به في موافقتنا على ما كنا ننوي فعله، ولم يكن من السهل علينا جعله يغض الطرف عن تلاعبنا بوصية هنري.

تنهد برنارد وقال: "ربما يكون هذا هو الخيار الأفضل".

لم يكن زاكريا يبدو مقتنعًا، ولم يكن يحب اتخاذ قرارات لم يتفقوا عليها بالإجماع، وكان برنارد ونيكسي ونوح وزاكريا وأنا؛ الأصوات الخمسة المؤثرة في

مجلس المدينة، ولم يكن الأمر يتعلق فقط بإصلاح الطرق والتعامل مع أحداث المدينة وأمور الميناء، ففي أكثر من مرة، اتخذنا قرارات تتعلق بمصير الجزيرة، لكن هذه كانت المرة الأولى التي نتصرف فيها من دون وجود شخص منا نحن الخمسة.

كانت نيكسي هي ما تمثل المشكلة الأخرى؛ حيث كانت يداها مدسوستين في جيوب ملابسها الخاصة بالعمل، بينما كانت تستند بكتفها إلى عارضة خشبية في منتصف الغرفة، كنت على وشك عدم إشراكها في الأمر هي أيضًا، لكنني كنت بحاجة إلى مساعدتها، وكان لديَّ ما يكفي من السلطة لإبقائها في صفي.

لم تنبس ببنت شفة منذ وصولها، ولا حتى عندما أخبرتهم بأمر الرسالة، ولا عندما أخبرتهم بتراجع دوتش عن قصته.

قلت لهم: "لا يختلف الأمر الآن عن المرة الماضية"، وظهرت تلك النظرة المضطربة على أعينهم التي كانت تظهر في كل مرة يطرح فيها قصة الماضي، ولم يكن بينهم من هو رابط الجأش، لكنني تابعت: "نحن نعلم ما يجب علينا فعله".

كانت نيكسي أول من جادل، وهو أمر لم يكن مفاجئًا: "ليس علينا أن نفعل أي شيء".

أطلقتُ نفَسًا عميقًا، وأنا أحاول ألا أنفعل وأنا أتحدث، فيجب أن أتعامل مع هذا الأمر بحذر، وقلت لها: "لم تكوني مترددة مطلقًا عندما أخبرتنا هانا بأن كالفن كان يسيء معاملة زوجته".

لم أكن مخلصة لإيلويز كما كان الآخرون، لكنني كنت أهتم بإرساء النظام في الجزيرة، كما رأيت الفرصة المتاحة أمامي.

قالت نيكسي: "كان كالفن ثملًا، وكان يؤذي إيلويز".

ولكن بالنسبة لي، لم يكن الأمر يتعلق قط بإنقاذ إيلويز سولت وطفلها كان من الواضح منذ البداية أن التخلص من كالفن كان بمثابة ضرب عصفورين بحجر واحد، لقد جعلني هذا الأمر أتخلص من فرد من عائلة سولت كي تقترب سيرشا خطوة أخرى من تصحيح الأمور.

حصل كالفن على بعض التحذيرات أولًا بالطبع، زيارة من زاكريا وجيك ونوح، حيث كانوا يأملون بعد أن كسروا ضلوعه أن يعود إلى رشده، لكنني كنت أعرف عائلة سولت، وعندما لم يتوقف عن ضرب إيلويز تعاملنا مع الأمر.

كان جيك ونوح هما من تبعاه من المقهى، وتأكدا من عدم عودته إلى المنزل مطلقًا. لقد أخذاه إلى أعماق الغابة، وكان جيك هو من ضغط على الزناد. لقد دفناه بينما نقل برنارد وزاكريا قاربه عبر المضيق، وتركاه ليُعثر عليه في ميناء سياتل. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يُبلغ عن الأمر، ويُنشر خبر مغادرته المدينة.

لم يكن من الصعب أن يصدق الجميع الأمر. كان كالفن شخصًا أنانيًّا وجبانًا ويكره تولي مسئولية البستان، وكنا أقرب من أي وقت مضى إلى إقناع هنري بتسليم البستان للمجلس، ولكن عندما أنجبت إيلويز طفلًا ذكرًا تغير كل شيء. لقد أصبح لديه أخيرًا وريث، ولم يكن هناك شيء يمكننا فعله.

أزحنا كالفن عن الطريق، لكننا ما زلنا نواجه اثنين من عائلة سولت. لقد كانت لديَّ خطط لأوجست منذ أن بدأ بطن والدته المنتفخ في الظهور. ولد هو وحفيدتي ليلي بفارق أشهر قليلة، وكان المسار الطبيعي للأمور هو أن أعيد البستان إلى عائلة مورجان بالطريقة نفسها التي سُرق بها... الزواج، لكنني لم أتوقع أن تقف إيميري بلاكوود عقبة في طريقي، أو أن ترتكب ليلي شيئًا غبيًّا مثل أن تقيم علاقة مع دوتش.

لم يحب أوجست ليلي قط، وأصبح من الواضح أنني سأُضطر إلى التعجيل بوفاة هنري سولت، فإذا مات ووريثه الوحيد لم يبلغ سن الرشد بعد، فستكون لدينا فرصة.

لقد أمضيت شهورًا في تحضير تعويذة لإيذاء هنري، ثم قمت بدفنها عميقًا في الغابة، وبعد بضعة أيام بدأ السعال، وبعد شهر من ذلك بدأ النزيف، كان هناك ارتياح ملموس منتشر في البلدة سنتخلص منه أخيرًا، وكنا على مسافة أيام قليلة من دفن ذلك الرجل الكريه، ثم توقفت عن الشعور بجاذبية الجزيرة، واختفى طنين السحر من أطراف أصابعي، لم أعد قادرة مطلقًا على قتل أي شخص،بأي من تعويذاتي أو أعمالي السحرية منذ ذلك الحين، وكان عليَّ أن أنتظر وفاته الطبيعية لوضع خطط البستان أخيرًا موضع التنفيذ، لكن أوجست كان على وشك تدمير كل ذلك.

لقد كان خطئي. ساعدت في ولادة أوجست بعد عملية مخاض دامت ثلاثًا وثلاثين ساعة، وقد حملت المولود الجديد بين يدي لحظة تنفسه الأول. لم يكن مجرد طفل، لقد كان أحد أفراد عائلة سولت، شخصًا آخر سيرث ما لم يكن ملكه.

أتذكر أنني نظرت إليه والكراهية تغلي بداخلي، لرؤية روح أخرى تولد من تلك السلالة، ولو فعلت ما كان عليَّ فعله حينها، لدفنَّا طفلًا رضيعًا، ولما كنا هنا، ولكن لم تكن هناك عودة إلى الوراء الآن.

كان لدى سكان البلدة عادة النظر في تجاهل الأمر عندما يتعلق بعائلة سولت، ولقد اعتادوا ذلك دائمًا، فلم يهتم أحد عندما كان يظهر كالفن في المدرسة مغطى بالكدمات، ولم يقل أحد شيئًا عندما بدأ الشيء نفسه يحدث لأوجست. لم أحب أيًّا من الصبيين قط، وكانت لديَّ مسئولية تجاه البستان.

زرعت جدتي الكبرى أول خمس بذور لبستان التفاح، واعتنت به سلالة عائلتي حتى تزوجت إحداهن من عائلة سولت، واستُبعدت عائلة مورجان، لكنني ما زلت أفهم واجبي، وهو ما لم يكن بمقدوري قوله لهذه المجموعة. استغرق الأمر أغلب سنوات عمري، لكنني فعلت الشيء الذي أقسمت على فعله. لقد عشت لأرى البستان يخرج من حوزة عائلة سولت، وبحلول وقت دفني في تلك المقبرة سأشعر بالراحة وأنا أعلم أنني حققت هدفي، حتى لو فقدت قدراتي السحرية في هذه العملية.

وُلدت لأكون طبيبة لهذه الجزيرة، وكانت عائلة سولت سرطانًا عميقًا.

لهذا السبب أخبرت ليلي بما يجب عليها أن تفعله بالضبط عندما أتت إلى بابي، ووجهها أحمر وتبكي بسبب رحيل أوجست وإيميري عن الجزيرة. أخبرتها بأن الرابطة بينهما لا يمكن أن تنكسر إلا بالموت، وكان من السهل أن تقنع شخصًا يعاني انكسار القلب، ولم يستغرق الأمر سوى دقائق لإقناعها بالذهاب إلى منزل ألبرتين للحصول على كتاب التعويذات، ثم ذهبت إلى الصيدلية، وفتحت الخزانة، وتركتها مفتوحة كما وعدتها.

كنت أعلم أن الثقة بها في هذه المهمة كانت مخاطرة، وكنت سأقوم بتنفيذ التعويذة بنفسي لو كان بوسعي ذلك.

أطلقت نفسًا طويلًا، ونظرت نحو زاكريا و برنارد. كان عليَّ أن أتحدث اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الحمقى؛ فتاة ميتة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، كان اعتقاد البلدة أن أوجست قتل ليلي كافيًا للتخلص منه في المرة الأولى.

قلت لهم: "لقد قتل أوجست حفيدتي. أنتم تعرفون ذلك، وأنا أعرف ذلك، والبلدة بأكملها تعرف ذلك".

قالت نيكسي وهي تنظر إلى زاكريا الذي اعتقدت أنه سيؤيدها الرأي: "فقط لأن دوتش كذب لا يعني أن أوجست قتلها".

كنت أعرف كيف يجب أن أتصرف، وأذكرهم أننا جميعًا على المركب نفسها.

فقلت لألفت انتباههم: "لا يوجد بيننا شخص بريء".

كان هذا تحولًا خطيرًا في المناقشة، لكنه كان ضروريًا، فكل شخص في هذه الغرفة كان مذنبًا بجرائم لم يعاقب عليها.

تابعت: "ليس بيننا من لم تكن يداه ملطختين بالدماء، وبعضنا حتى أكثر من غيرنا"، ثم نظرت إلى نيكسي، حيث قادت هي وهانا الهجوم ضد كالفن، وكانت نيكسي نفسها كاتبة العدل في صك البستان.

تنحنح زاكريا وقال: "ما زلنا لا نعرف على وجه اليقين أنه فعل ذلك. ربما يكون بريئًا".

قلت لهم: "حتى لو كان هذا صحيحًا - وهو ليس كذلك - فإننا عندما نسمح لأوجست بالرحيل، فلن تكون سوى مسألة وقت قبل أن ينهار كل شيء، وإذا اكتُشِف ما فعلناه بالبستان، فهذا يعني أننا لن نواجه مجرد قاتل، بل نواجه شخصًا يشكل تهديدًا على الجزيرة نفسها، وإذا ذهب إلى محامٍ أو إلى السلطات، فقد انتهى كل شيء، وربما يكون قد حصل على الوصية بالفعل".

ساد صمت عميق في الغرفة الصغيرة، ومرت لحظة قبل أن يتشجع أحدهم لقول شيء.

قال برنارد: "إذا كنا سنفعل ذلك فيجب أن يكون ذلك الليلة"، لكنني كنت أنا من ألهمه قول هذه الكلمات؛ كان هذا نوعًا مختلفًا من السحر مارسته حينها.

سأل زاكريا: "كيف سننجح في ذلك؟"، وأخيرًا، كانت الأمور تسير في الاتجاه الصحيح.

قال جيك: "أوجست لديه تذكرة على العبَّارة المغادرة هذا الصباح، وإذا جاء أي شخص ليبحث عنه، فسنقول إنه غادر المدينة، واختفى سولتيٌّ آخر، فقد اختفى آخر من قبل، ولن يشكك أحد في ذلك".

قال نيكسي في سخرية: "وماذا سنفعل إذن؟ هل ستذهب لإخراجه من سريره؟".

رفعت ذقني وقلت: "لا نحتاج إلى ذلك، لقد أحضره جيك بالفعل إلى ويلكز بوينت".

صاح برنارد: "ماذا؟".

أدارت نيكسي رأسها للخلف، وحدقت إلى السقف وقالت: "يا إلهي! ماذا فعلتِ يا ليودا!".

قال جيك: "لقد اختطفته أثناء فترة ما بعد الظهر. لقد تم هذا الأمر في إتقان وسرعة".

قالت نيكسي: "ليس هناك أي شيء متقن في الأمر، فلديه وظيفة في بورتلاند، وأصدقاء، وأشخاص سيأتون للبحث عنه".

قلت لها: "حسنًا، إذن سنلعب الأمر بطريقة مختلفة هذه المرة، وسنجعل الأمر يبدو كأنه انتحار".

رفعت حاجبها وسألتني وهي تنظر نحوي: "ولماذا قد يفعل ذلك؟".

أجبتها: "بسبب شعوره بالذنب، ولدينا أدلة أكثر من كافية لإقناع أي شخص بما فعله بليلي"، عَدَدْتُ صمتهم علامة جيدة، فتابعت: "سيأخذه برنارد وجيك إلى المنحدرات في ويلكز بوينتي، وسنترك الجثة ليكتشفها أحد الصيادين، فهم ينتشرون في ذلك الخليج كل صباح في هذا الوقت من العام، ويمكنك يا نيكسي الذهاب إلى المنزل، والتأكد من عدم وجود أي شيء هناك من شأنه أن يعقدِّ الأمور، زاك.. راقب نوح حتى ينتهي كل هذا، فيجب أن يصدق القصة".

سألت نيكسي: "وماذا عن إيميري؟".

كانت إيميري دائمًا ما تمثل مشكلة بالنسبة لنا، فقد تدخلت من قبل في خططي التي وضعتها لليلي وأوجست، ولم تتخل قط عن البحث عنه بعد رحيله. كانت تفسد الأمور منذ البداية، لكنني لن أقنع نيكسي أبدًا بأنها يجب أن ترحل هي الأخرى.

قلت لها: "سنقوم بحل هذا الأمر قبل أن تستيقظ في الصباح، لقد حزنت عليه مرة، وستحزن عليه مرة أخرى".

انتظرت طرح المزيد من الأسئلة، لكن لم يتكلم أحد. نظرنا نحن الستة إلى بعضنا، صامتين. كان لا يزال لدى جيك وبرنارد ونيكسي سنوات عديدة متبقية ليعيشوها، لكن زاكريا وأنا كنا متقدمين في السن الآن، بشعرنا الأبيض وتغضُّن

وجهينا، وعظامنا التي كانت تؤلمنا، ومع ذلك، كان هناك شـيء واحد يربطنا لأداء تلك المهمة وهو - الجزيرة.

لقد قدمنا جميعًا تضحيات من أجل سيرشـا، ولكنني قدمت تضحيات أكثر من أي شخص آخر.

نظـرت إلـى عينيَّ في المـرآة المعلقة فوق الخزانة والضـوء يلمع فيهما، وعندما نطقـت بالكلمـات أخيـرًا": هل نتفـق جميعًا على الأمـر؟"، شـعرت بموافقتهم على القرار.

الفصل الثامن والخمسون

أوجست

انبعث دخان كثيف من الباب المفتوح، وظهر كسحابة بيضاء تدور في السماء السوداء.

لم أستطع رؤية جيك، لكن عقب سيجارته كان يتوهج باللون الكهرماني في الظلام، وهو يستنشق آخر نفَس منها قبل أن يلقيها على الصخور.

وخلفه امتد بحر من النجوم واختفى في الأفق، حيث لامست المياه السماء، كان الجرف يطل على المدينة من بعيد، وكنا نأتي إلى هنا كأطفال عندما لم نكن نريد أن يعثر علينا أحد. أدركت أننا لم نكن الوحيدين الذين فكرنا في ذلك.

كان معصماي يؤلمانني تحت وطأة الحبال التي ربطهما بها، وكان الكرسي الخشبي الصغير أشبه بنصل سكين يضغط على ظهري. لم يكن ذلك شيئًا مقارنة بالألم الذي شعرت به في رأسي حيث ضربني، أو الألم الحاد في ضلوعي كلما تنفست. كان أحد أضلاعي على الأقل مكسورًا.

قلت وأنا أراقبه وهو يمشي جيئة وذهابًا أمام الباب: "هل ستخبرني بما نفعله هنا؟".

توقف وحك ذقنه قبل أن يستدير نحوي أخيرًا. لم يكن الشخص الذي ينظر إليَّ من الجانب الآخر من الغرفة، هو نفسه الشخص الذي نشأت معه، ذلك الذي كان يترك دلوًا من السمك محاطًا بالثلج على الشرفة مرة واحدة على الأقل في

الأسبوع، أو ذلك الذي كان يصلح شاحنة أمي في الصباح الباكر قبل أن تستيقظ. كان الرجل الذي ينظر نحوي الآن شخصًا آخر.

قال لي: "لن أتلاعب بك يا أوجست".

قلت له: "حقًّا؟ هذا يبعث على الراحة؛ لأن هذا ما كنت تفعله منذ ليلة الحريق".

تصلبت عيناه، وركز عليَّ، لقد أغضبه ذلك، حسنًا ذلك جيد.

دخل وأغلق الباب. كانت الغرفة الصغيرة مجهزة بكرسيين بذراعين، أمام مدفأة باردة ورف كتب مدمج في الحائط. كان أحد أقدم المنازل في الجزيرة، وقد بناه شخص ما من عائلة بلاكوود.

غرق في أحد الكراسي، ووضع كلتا يديه على ركبتيه. لم أستطع إلا أن ألاحظ أن عينيه كانتا صافيتين للمرة الأولى، وأيًّا ما كان يفعله، فقد كان يفعله عن وعي.

قال لي: "لقد أفسدت كل شيء يا أوجست، كان يجب عليك أن تستمع إليَّ".

قلت له: "هذا المكان فاسد قبل ولادتي بوقت طويل يا جيك".

كان هذا صحيحًا، فقد كانت سيرشا مثل سم أو مرض عضال يتسلل للجميع، وفي قلب كل هذا كان يقبع البستان اللعين، لكن والدتي لم تتمكن من رؤية ذلك.

نظر جيك نحوي، واستقرت عيناه على أثر الدم الذي جف على كتف قميصي الأبيض، وشعرت به أشبه بالقشور على أذني ورقبتي.

قلت له بعدم اكتراث: "هذه ليست المرة الأولى التي يضربني فيها شخص ما ضربًا مبرحًا، لكنك كنت تعلم ذلك بالفعل، أليس كذلك؟".

حدق إليَّ، فمن الواضح أنه شعر بعدم الارتياح.

ابتسمت وتابعت: "لقد اعتقدت ذلك، لكنك لم تفعل أي شيء حيال ذلك، أليس كذلك؟ أنت جيد في غض الطرف عن أي خطأ عندما تريد ذلك".

قال لي: "لقد تصورت أنه إذا كنت بحاجة إلى مساعدتي، فسوف تطلبها".

ازدردت لعابي بقوة، وشعرت بحرقان في حلقي؛ لأنه كان على حق، كنت أعلم أنني إذا ذهبت إليه، فسوف يساعدني، لقد كان مستعدًّا دائمًا لمساعدتي أنا وأمي، لكنني لم أذهب إلى جيك لأنني لم أرغب في أن تتدخل أمي، وربما لم يكن يريد هو أيضًا ذلك.

قلت له: "كما تعلم، كنت أعتقد دائمًا أنك تحبها".

قال لي: "لقد أحببتها دائمًا".

لـم أسـتطع إخفاء دهشـتي، فلـم أتوقع منـه أن يجيب على الإطـلاق، فضلًا عن الاعتـراف بذلـك. كان النـاس يقولـون ذلـك طوال حياتـي؛ إن جيـك كان يحب أمي سـنوات قبل ولادتي، وهذا أحد الأسـباب التي جعلت البلدة تعتقد أنه لا يريد العثور على الدليل لتوجيه تهمة القتل إليَّ.

حنى رأسـه قليلًا وقال: "لا أعتقد أنه كان سـرًّا بأي شـكل من الأشـكال، وكنت لأفعل أي شيء من أجل إيلويز، وقد فعلت بالفعل".

تقلص حاجباي، فأيًّا ما كان يشـير إليه، فقد شـعرت بـأن لا مبالاته تزداد، من خلال النظرة الجوفاء في عينيه وبرودة صوته.

سألته: "إذن لماذا انقلبت ضدها؟".

أجابني: "هذا ليس صحيحًا".

تابعـت: "حسـنًا، لماذا انقلبت ضدي؟ أنت تعلم أننـي لم أقتل ليلي، وقد عرفت ذلك منذ المرة الأولى التي أجلستني فيها في مكتبك واستجوبتني".

أشاح بوجهه عني وهو يقول: "نحن نفعل ما يجب علينا فعله، أليس كذلك؟".

لم نعد نتحدث عني أو عن أمي بعد الآن، فقلت له: "إيميري"، وفي اللحظة التي قلت فيها اسمها انقبض فكه.

ربمـا كانت إيميري الشـيء الوحيد في العالم الـذي يهتم به جيك أكثر من أمي، كان لديه خيار وقد اتخذه.

سألني وهو يتأمل وجهي بحثًا عن الإجابة: "هل كانت سعيدة؟ أعني إيلويز؟".

إذا كان هناك أي جانب ضعيف في جيكوب بلاكوود، فهو هانا، وإذا أردت، فإنه يمكننـي أن أمزقـه، لكن لا يمكننـي أن أتظاهر بأنني لا أفهم مـا فعله ولماذا. طوال هـذه السـنوات، كنت أعتقد أنه تخلى عنا، لكنه كان يحـاول حماية إيميري، معرِّضًا نفسه وأي شخص آخر يعترض طريقه للخطر.

أجبت بصدق: "ربما، بطريقة ما".

أطلق نفَسًا طويلًا، وأومأ برأسه إليّ، وقال: "حسنًا".

لـم تكـن لـديَّ أية فكرة عما إذا كانت أمي سـعيدة في بروسـبر، حيـث تكن على طبيعتها، هذا صحيح، لكنني كنت أعتقد أحيانًا أنها أصبحت شخصًا آخر، ووجدت طريقة للعيش مع ذلك.

قلت له: "كما تعلم. إذا كان كل هذا يتعلق بالبستان، فيمكنك الحصول عليه".

قال لي: "أخشى أن يكون الوقت قد فات على ذلك".

ازدردت ريقي بصعوبة، وعندما لم تتغير تعبيرات وجهه أدركت أنه قد اتخذ قراره بالفعل بشأن أي شيء كانوا سيفعلونه، سألته: "إذن ماذا ستفعل؟".

أجابني: "لقد أخبرتك، نحن سنفعل ما يجب علينا فعله".

رأيت وميض ضوء أبيض ساطع على النافذة خلفه وسكت جيك، وبصعوبة سمعت صوت إطارات السيارة، فوقف وسار باتجاه الباب.

تسارع نبضي، وشعرت برطوبة في يديَّ اللتين كانتا مقيدتين خلفي، انغلق بابان للسيارة، ثم تبعهما صوت خطوات. توقفت أنفاسي عندما أدار جيك مقبض الباب وانفتح، لكن عندما رأيت من يقف هناك تجمدت في مكاني.

ليودا مورجان.

كان غطاء رأس سترتها مرفوعًا فوق قبعة محبوكة، وكان وجهها الصغير متجهًا نحوي. وقف جيك وقد بدا أطول منها كثيرًا، ثم فتح الباب على مصراعيه حتى يتمكن من الخروج.

لم تقل ليودا شيئًا وأغلق الباب، ثم سمعت أصواتًا مكتومة وهمهمات، لم أتمكن من تمييزها بسبب صوت هدير الرياح، والأمواج المتلاطمة في المنحدرات أسفل مني.

كان قلبي ينبض بسرعة الآن، وشعرت بقشعريرة تسري في ذراعي، أيًّا كان ما سيحدث، فقد كان سيئًا، كنت أشعر بذلك.

حاولت التخلص من القيود المربوطة حول معصميَّ، وهززت الكرسي بقوة، لكن بعد ذلك انفتح الباب مرة أخرى، وعاد جيك إلى الداخل، وسحب السكين من جيب بنطاله الجينز.

سألته: "ماذا تفعل يا جيك؟".

لم يجبني، ودار حولي، وبعد ثانية، شعرت بالحبال وهو يقطعها، وعندما أصبحت يداي حرتين، سحبني من قميصي، ودفعني للأمام.

سألته: "ماذا يحدث؟"، ونظرت إلى الباب المفتوح، حيث كانت المصابيح الأمامية لا تزال ساطعة.

مد جيك يده إلى سترته وأخرج المسدس من جرابه، وأمسكه بجانبه، وأمرني قائلًا: "امشِ أمامي"، كان هناك تصميم في الطريقة التي نظر بها إليَّ عندما التقت عيناه بعينيَّ، ما جعلني أرتجف.

استدرت ببطء قبل أن أسمع صوت نقرة المسدس الحادة خلف أذني، إذا كان هناك مخرج من هذا، فلم أستطع رؤيته، كنا على الجانب الشرقي من الجزيرة، حيث لن يسمع أحد صوت الطلقة النارية أو صوت صراخ.

قال مرة أخرى: "امشِ".

خطوت خطوة نحو الباب المفتوح، ثم خطوة أخرى، وعندما نزلت الدرج كانت ليودا تنتظرني، وأنفاسها تتصاعد وهي تراقبني، وخلفها، كان برنارد كيلر يقف، وقد انعكس ضوء المصابيح الأمامية على ساقيه.

دفعني جيك بجوار الشاحنة، وكان القمر يبدو شبه مكتمل فوق المنحدرات، وكانت الأعشاب الطويلة التي ملأت المرج تتمايل حولنا، لكن عندما وصلنا عند الحافة توقفت، ففي الأسفل كانت الأمواج البيضاء تتكسر، ويذوب الزَّبد على امتداد الصخور السوداء.

كان صوت جيك العميق قد أصبح أقرب مني الآن وهو يقول: "أعطني محفظتك".

أدركت فجأة ما كان على وشك الحدوث. لم يُحضرني إلى هنا لتخويفي أو تهديدي، كنت على وشك الموت.

كانت الرياح تلفح وجهي وتهب على الصخور من حولي، واستدرت لمواجهته وقلت له وأنا أشعر بالغثيان: "ليس عليك أن تفعل هذا يا جيك".

لم أستطع أن أشعر بيديَّ، أو الأرض تحت قدميَّ، لم أكن أعرف حتى إذا كان قلبي ما زال ينبض.

فقال كأنه كان يعني ما يقوله: "لم يكن ينبغي لك أن تعود إلى هنا يا أوجست"، كأنه كان لا يريد أن يفعل ما كان على وشك فعله، لكنه سيفعله على أية حال.

ملأ صوت المياه وعواء الريح رأسي، قبل أن يجعلني صوت خافت لشيء آخر أتراجع.

سمعت صياح: "أوجست!".

في مكان ما، في طوفان أفكاري المتسارعة، سمعت اسمي، كان الصوت يبدو مرهقًا ومتقطعًا.

سكت جيك، واتسعت عيناه قبل أن يستدير، وينظر إلى الوراء نحو جدار الظلام. فعبر المرج، كان المنزل لا يزال مضاءً بمصابيح برنارد الأمامية، لكِّن شخصًا ما تحرك نحونا سريعًا، لا... شخصان.

لم أرها حتى توارت السحب، ولمس ضوء القمر وجهها.

إيميري.

الفصل التاسع والخمسون

إيميري

"اللعنة!".

كان والدي يهمس وقد بدا منزعجًا عندما ظهر أمامنا المنزل في ويلكيز بوينتي. كانت النوافذ مضاءة، وكانت سيارة برنارد كيلر متوقفة أمام المنزل، ومصابيحها مضاءة.

تباطأت الشاحنة عندما ضغط والدي على الفرامل، وظهر برنارد في المدخل المفتوح للمنزل، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، ونظر في الظلام نحو الماء، اتبعت نظراته، واستدرت في مقعدي لأرى ما كان ينظر إليه.

كانا مجرد ظلين أسودين في ظلام الليل.

وقف جيك بجانب أوجست الذي كان قد اقترب من حافة الصخرة الشاهقة، التي لم يكن يفصلها شيء عن قاع الشاطئ في الأسفل.

تنفست بعمق، وصرخت: "يا إلهي"، ثم مددت يدي إلى مقبض الباب، واندفعت خارج الشاحنة قبل أن تتوقف، ثم ركضت.

صرخت وحلقي يحترق، وشعرت كأن صوتي قد ابتلعته الرياح: "أوجست!".

نزل والدي على الأرض من خلفي، ومزقت العشب الطويل وأنا أركض، وتوقفت الصرخة في حلقي.

"أوجست!".

عندما رأيت وميض ضوء القمر ينعكس على المسدس في يد جيك، شهقت وتباطأت، كانت يدا أوجست في الهواء، وجانب وجهه مغطى بالدماء، لقد غمرت الدماء قميصه عند الكتف.

حدقت إلى عمي في حالة من الصدمة وقلت: "ماذا تفعل؟".

سمعت صوتًا آخر، والتفتُّ لأرى ليودا واقفة خلفي وهي تقول: "يجب ألا تكوني هنا".

تنقلت بنظري بينهما، وأنا غير قادرة على فهم ما يدور من حولي، فلم يكن أي من هذا منطقيًا، وقلت: "ما هذا؟".

ظهر والدي بجانبي، والبندقية مدسوسة تحت ذراعه، لكنه لم يبدُ مرتبكًا، كان يعرف بالضبط ما كان يحدث.

بصق جيك ونظراته الغاضبة مركزة على أخيه، وقال: "كيف أمكنك إحضارها إلى هنا؟". وقف عمي مثل الحجر، وأصابعه مشدودة بإحكام على مسدسه.

قالت ليودا بهدوء وهي تخطو نحوي: "يجب أن تغادرا الآن،"، وكانت الرياح تتلاعب بخصلات شعرها الفضي، لكن زوايا خديها الوردية جعلتها تبدو كأنها هيكل عظمي.

رفعت يدي نحو أوجست وقلت: "تعال".

لكنه لم يتحرك، ونظر إلى جيك.

راقبتني ليودا بعينيها اللامعتين، وقالت: "إنه لن يذهب إلى أي مكان".

اتخذ أبي خطوة حذرة للأمام، وقال: "لن نغادر إلا إذا جاء أوجست معنا".

قال جيك: "لا يمكنني أن أسمح لك بذلك".

تَغَيَّرَ صوت والدي، وهو يتمهل في حديثه قائلًا: "لقد تَغَيَّرَ الأمر عما كان من قبل يا جيك".

شعرت بأن حوارًا خفيًا قد دار بينهما، وتردد جيك، وجالت عيناه ذهابًا وإيابًا بيني وبين والدي قبل أن يرفع المسدس، ويوجِّهه إلى صدر أوجست.

اندفعت للأمام، وألقيت بنفسي أمامه، وتجمد جيك على الفور، وانخفض المسدس.

صاح: "ابتعدي يا إيميري!".

سمعت أوجست يقول بصوته المرتعش: "إيميري ابتعدي".

استطعت أن أسمع صوت والدي وهو يُعِدُّ البندقية في الظلام، وصوت ليودا يرتفع، لكنني لم أرفع عيني عن جيك.

هززت رأسي، وقلت: "مهما كان ما يحدث هنا فهو لا يهمني، دعنا نرحل فحسب".

من بعيد رأيت ضوء زوج المصابيح الأمامية ينعكس على الأشجار، ثم شاهدت سيارة برنارد وهي تختفي.

سمعت وقْع خطوات تتقدم نحوي، وظهرت ليودا فجأة بجانب جيك، ومدت يدها وانتزعت المسدس من قبضته، وقالت: "ليس لدينا وقت لهذا، إذا لم تتمكن من فعل ذلك، فسأفعله أنا".

أمسكت يدا أوجست بسترتي ودفعني للخلف، ما جعلني أتعثر على العشب، وبحلول الوقت الذي وقفت فيه على قدمي، كان ليودا قد وجهت المسدس إليه مرة أخرى.

خلفها رفع والدي بندقيته إلى أعلى، وقال: "إذا سحبتِ هذا الزناد، فسأسحب أنا زناد بندقيتي".

قالت ليودا في سخرية: "هل تعتقد أنني أهتم بالموت؟"، أنا امرأة عجوز، يا نوح. لقد ولدت في هذه الجزيرة لأفعل شيئًا واحدًا وسأفعله".

في الوقت الذي قضيته لالتقاط أنفاسي مرة أخرى، رأيت قِطع الأحجية وهي تتجمع أمامي معًا.

البستان.

عائلة سولت.

ليلي.

تلعثمت، وأنا أبحث عن الشيء الوحيد الذي كان عليَّ التشبث به، وقلت: "لقد وكَّلنا محاميًا في البر الرئيسي، ولديه الوصية".

جعلها ذلك تتوقف ثم تنظر نحوي ثم إلى أوجست.

تابعت: "إذا حدث له أي شيء، فسوف يفتضح الأمر، وسيعلن كل شيء".

لم أر ليودا قط على النحو الذي كنت أراها به الآن، وهي تقف هناك في الظلام ضعيفة، بينما ترمقنا بعينيها الزرقاوين الجليديتين.

كثيرًا ما فكرت فيها كجدة، والجميع كان يراها كذلك. لقد ساعدت على في أن يرى الكثير منا أول نور في الحياة، وراقبت أنفاسنا الأولى في هذا العالم، وتساءلت الآن عما إذا كانت قد شاهدت أيًّا منا وهو يلفظ آخر أنفاسه أيضًا.

قلت لها وقد أدركت الأمر الآن: "لقد تركتِه مفتوحًا، أليس كذلك؟".

اتسعت عينا ليودا، وهي تنظر في عيني.

قالت: "ما الذي تتحدثين عنه؟".

بدا صوتي غريبًا في أذني وأنا أقول: "آخر مرة رأيت فيها ليلي لم تكن في حفل التخرج".

رأيت في عينيّ ليودا أنها كانت تفهم ما كنت أرمي إليه، لكنها لم تتحرك من مكانها.

تابعت: "كانت تذهب إليكِ دائمًا بشأن كل شيء؛ لذلك، عندما كانت مستاءة بعد شجارنا في المقهى، وبعد أن ذهبت لرؤية أوجست، ذهبت للبحث عنك"، تحدثت بهدوء، وسردت ما استخلصته من ملفات جيك، فأكملت: "لا يوجد سوى مكان واحد في هذه الجزيرة للحصول على نبات السيكران، وهو الخزانة المغلقة في الصيدلية. هل تذكرت هي التعويذة من كتاب الظلال، أم أنكِ أنتِ من وجهتِها إليها؟":

رفعت ليودا ذقنها بتحدٍّ، وظهر بريق شيء شرير في عينيها. تساءلت الآن عما إذا كنت رأيته من قبل، كان هناك شيء مألوف بشأنه لأنني رأيته في وجه ليلي.

تابعت: "لكن ليلي لم تكن تمتلك المهارة اللازمة لإلقاء تعويذة كهذه، وبدلًا من قتلي، قتلت نفسها".

كانت نظرة ليودا خاوية الآن، خالية تمامًا من تعبيراتها المألوفة والدافئة السابقة للمرأة الحامية، التي كانت تحن عليَّ طوال حياتها، مثل دجاجة تحتضن فراخها.

أكملت: "وعندما ماتت ليلي، كان عليكِ تغيير الخطة، ربما لم تتمكني من توجيه تهمة قتلها إليه، لكن أوجست ترك سيرشا؛ لذا حصلت على ما أردت. وكل ما كان عليكِ فعله هو انتظار وفاة هنري، حتى تتمكني من التأكد من أن البستان انتهى به الأمر في مكانه الصحيح".

لم تنكر ذلك، كيف يمكنها؟

قالت ليودا: "هذا البستان مِلك لعائلة مورجان، وليس لعائلة سولت، وكانت ليلي هي القربان الذي طلبته الجزيرة". قالت ذلك بقناعة مزعجة أرسلت قشعريرة في عمودي الفقري.

لقد كان الأمر دائمًا يتعلق بالبستان، كل شيء على هذه الجزيرة يتعلق بالبستان، هذا ما كان أوجست يفكر فيه وهو يقف والمصباح في يده، يحدق إلى لهبه، لكن النار أيضًا لم تكن قادرة على إفنائه.

لم تكن ليودا تعرف ماذا سيحدث عندما تلقي ليلي تلك التعويذة، لكن قبل تلك الليلة بوقت طويل، وضعت حفيدتها على مذبح تلك الجزيرة، وبررت موتها بالنتيجة التي حصلت عليها؛ أخيرًا تحرر البستان من ملكية عائلة سولت.

قلت لها: "دعينا نذهب وإلا فسأنقل كل تلك المعلومات إلى الشرطة بنفسي".

تلعثمت وانتفخت أوداجها، وقالت: "لن تجرئي على فعل ذلك، فحب هذه الجزيرة يجري في دمك تمامًا مثل بقيتنا".

قلت لها: "وسأحرقها إذا آذيته".

ضاقت عينا ليودا.

قلت مرة أخرى: "لدينا الوصية وأنتِ لديكِ رسالة إيلويز، أليس كذلك؟ إذا رأت وصية هنري ضوء النهار يومًا ما، فيمكنك استخدامها".

إعادة فتح القضية مع كل الأدلة التي جمعها جيك ضد أوجست، كانت شيئًا لن نجازف به، وكانت تعلم ذلك، وإذا ظل الجميع هادئًا، فسيحصل كل شخص على ما يريده.

اتخذت خطوة نحوها، وقلت: "ولن تكوني أنتِ فقط من يقع تحت طائلة القانون، بل أي شخص آخر لعب دورًا في تلك المسألة، وبحلول الوقت الذي ينتهي فيه كل شيء، سوف يتحول هذا المكان إلى مدينة أشباح".

أغمضت ليودا عينها، وأنزلت البندقية.

مددت يدي خلفي، ولم أرفع عيني عن عينيها، وبعد ثانية وجدت يد أوجست في يدي.

قلت وأنا أراقبها بعناية: "سأصطحبه معي".

لم يعجبها الأمر، لكنها لم تستطع الجدال أيضًا.

حرك والدي ذقنه للخلف باتجاه المنزل وقال: "أخرجوه من هنا".

شددت يدي حول يد أوجست ولم يخفض والدي البندقية حتى ابتلعنا الظلام، لم أنظر إلى الوراء، وكنت أعدُّ أنفاسي، بينما كنا نعبر المرج. كانت الشاحنة لا تزال على وضع التشغيل عندما وصلنا إلى المنزل، وانخفض ضوء المصابيح الأمامية، بينما دار أوجست حول مقدمة الشاحنة وهو يضغط بيده على ضلوعه. جعلتني هيئته أشعر بالغثيان، لو وصلنا هناك بعد دقيقة واحدة ...

صعدت إلى الداخل، وكانت يداي ترتجفان على عجلة القيادة، بينما كنت أنتظره ليغلق بابه، وبمجرد أن فعل ذلك ضغطت على دواسة الوقود، وانطلقت الشاحنة في الوحل، وتمايلت على الطريق غير المستوي متجهة نحو صف الأشجار.

قلت له وأنا أتفوه بالكلمات بصعوبة بالغة: "هل أنت بخير؟"، وشاهدت المنزل يختفي في المرآة الخلفية.

حدق أوجست من النافذة إلى ضوء القمر المنعكس على المياه السوداء في الأسفل، ولم يكن عليه أن يقول ذلك، كانت الإجابة لا، لم أكن أعرف ما إذا كان بوسعنا تخطي ذلك أم لا.

الفصل الستون

إيميري

بدأنا بالطريقة التي كانت تبدأ بها جدتي عادة؛ بالتراب والهواء والنار والماء.

كانت النجوم الملونة تلوح أعلى النافذة فوق طاولة الطعام، وأخذت تلقي بأضوائها المتلألئة التي هي مزيج من ألوان قوس قزح على الأرض بجانب قدمي. كانت النافذة تواجه جهة الشرق، وفي اللحظة التي كانت تشرق الشمس فيها فوق المباني في وسط المدينة، كان مطبخ شقتنا الصغيرة مغمورًا بضوئها الدافئ.

قلبت الفطائر المحلاة في المقلاة، فأصدرت العجينة السائلة صوتًا عاليًا عندما لامست السطح الساخن، ولمحت نورا وهي تصعد إلى أحد الكراسي، بينما تحمل قلم تلوين في يدها، وكانت أختها جالسة على سطح الطاولة، وساقاها العاريتان تتأرجحان في الهواء، بينما كانت تأكل التوت الأزرق التي وضعته بجانبها.

كان المبنى المصنوع من الطوب الأحمر في شارع إيست يطل على الحديقة، وفي الأيام الصافية يمكنك رؤية الجبال من بعيد، وكانت تلك الجبال هي نفسها التي يمكنك رؤيتها في سيرشا، لكن الجزيرة كانت تبدو كأنها كانت تنتمي إلى عالم آخر هذه الأيام.

لم أعد إلى هناك منذ ست سنوات، عندما صعدت أنا وأوجست علي متن العبَّارة، ولم يعد أي منا منذ ذلك الحين اعتقدت أن هذا كان أفضل، لقد قطعت علاقتي بسيرشا، كما ويقطع الجزء الفاسد من التفاحة.

لكنني أخذت معي شيئًا واحدًا منها، وأعطيته لبناتي؛ الطرق القديمة، علمتهم كما علمتني ألبرتين وأمي. كانت شقتنا تقع في وسط المدينة الصاخبة، لكن في الداخل، كانت تحتوي على طقوس سحر الأعشاب وقراءة العظام والحجارة والأصداف، وكان بها بعض الرماد والملح الأسود، والرموز المنحوتة في الشموع، وما زلت أجفف المريمية والخزامى في النافذة، وأصنع الشموع وبعض الخلطات التي علمتها لجيراني، حتى إنني بدأت قراءة أوراق الشاي مرة أخرى، على الرغم من أن العودة إلى هذه الممارسة كانت بطيئة.

بطريقة ما، ساعدني ترك الجزيرة في العثور على سحري الخاص للمرة الأولى.

كانت هناك رسائل من نيكسي وأبي، وبذور وأزهار مجففة وجدت طريقها إلى صندوق بريدي بعثتها إليَّ ألبرتين، وما زلت أصنع لها الفطائر المحلاة كل عطلة نهاية أسبوع، لكن في بعض الأحيان كانت تمر أيام كاملة دون أن أفكر في سيرشا، وهو أمر لم أكن أتصوره ممكنًا.

ظهر أوجست في الردهة بينما كنت أرفع الفطائر، وأضعها فوق الكومة السابقة. كان قميصه مرفوعًا على أحد الجانبين، كاشفًا عن الجلد الزيتوني الممتد من فخذه إلى ضلوعه، وكان يبدو أنه قد ارتداه حالًا، لكنه لم يكلف نفسه عناء إنهاء ارتدائه، كان شعره أطول الآن، وأشبه بما كان عليه عندما كنا مراهقين، ومن حين لآخر، كنت أرى في وجهه لمحة من أوجست الفتى المراهق، والتي بدت مثل ظل عابر.

التقط إحدى الفطائر التي كان يتصاعد منها البخار، ثم أسقطها على الفور، وهو يقول: "يا إلهي! إنها ساخنة!".

اقتربت منه ليف بشعرها البني الناعم، الذي انسدل بجانب وجهها، بينما كانت تخط على الورقة البيضاء السميكة التي انتشلتها من مكتبي.

كتمت ضحكتي، وقبلني أوجست على كتفي، قبل أن يلتقط الطبق ويضعه على الطاولة - حمل نورا بعد ذلك، وأسندها إلى وركه، بينما كان يفسح لها مقعدًا آخر - بدت صغيرة بين ذراعيه، وهي تتطلع إليَّ من فوق كتفه بعينين زرقاوين كبيرتين.

لقد تخيلته أبًا مرات عديدة، لكنني لم أتوقع كل هذا الحنان الهادئ الذي يغمرهما به، والطريقة التي كان يفهم بها ما وراء الكلمات، ويتجاوب بلمسة لطيفة أو ابتسامة حانية. لقد قللت من شأنه بطريقة ما، وقللت من شأننا أيضًا.

أدركت أن زواجنا لم يكن هو بداية حياتنا معًا، فلقد كنا معًا طوال عمرنا، وعندما فكرت في الأمر بهذه الطريقة، شعرت بالارتياح، كأنني لم أكن أنتظر نهاية لحياتنا معًا أيضًا.

لقد احتفظ بوظيفته في الكلية، واستمر في التدريس، عندما التحقت أنا بالفصول الدراسية. استغرق الأمر مني ثلاث سنوات ونصف السنة، لإنهاء شهادتي في علم النفس، الذي اخترت دراسته من بين كل الأشياء الأخرى، وسرت عبر المنصة في حفل التخرج وأنا حامل في نورا.

الآن تطورت حياتنا إلى شيء جديد. كان أوجست يدرس الفصول الدراسية أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، وكانت لديه أوراق تجب عليه قراءتها وتصحيحها يومي الثلاثاء والخميس، بينما كنت أحضر أنا الفصول الدراسية للحصول على الدكتوراه. قضيت عطلات نهاية الأسبوع على هذا النحو؛ صباحات ناعسة في ظل ذلك الضوء الذهبي وبخار المقلاة يتصاعد أمامي، فبعد حياة رتيبة سابقة كنت أتوق فيها لأي نوع من أنواع التغيير. استقرت حياتي الآن بطريقة كنت أتمنى ألا تتغير أبدًا.

كانت الشقة تعمها الفوضى، وهي عبارة عن بضع غرف ضيقة تبعثرت فيها بعض الأشياء التي كانت تشكل حياتنا البسيطة، ولكنها مفعمة بالحياة، فكانت تحتوي بعض الكتب، وفرش الرسم، ومجموعة من الأوشحة الملونة التي تستخدمها الفتيات للتزين. لقد أحببتها كثيرًا لدرجة أنني كلما فكرت فيها، شعرت كأن قلبي سيخرج من صدري.

انحنى أوجست فوق ليف، وحرك الورقة التي كانت تلونها نحو الضوء القادم من النافذة وسألها: "ما هذا يا حبيبتي؟" .

وضعت كأسين من العصير، واقتربت منهما وأنا أمسك بمنشفة مبللة لمسح آثار التوت الآزرق من أصابع نورا.

قالت: "إنها سيرشا" ، وشعرت فجأة وأنا أسمع تلك الكلمات من فم ليف الصغير بهزة في جسدي.

وعندما رفعت عيني التقت عيني بعينيّ أوجست.

قلت، وقد أسقطت يَد نورا وأنا أشعر بانقباض في حلقي: "ماذا قلتِ يا عزيزتي؟".

حرك أوجست الورقة نحوي ببطء، وارتجف قلبي عندما رأيتها. كانت هناك أشجار، كانت ليف ذات السنوات الأربع قد رسمت غابة من أشجار الصنوبر الخضراء والزرقاء، وكانت الأغصان الخضراء تتشابك مع بعضها.

جلس أوجست القرفصاء بجوار كرسيها وهو يحدق إليها، وسأل وهو يفحص وجه ابنتنا: "سيرشا؟».

قالت وهي تلتقط الشراب: "إمممم».

التقطت الرسم بأصابع مرتجفة، وتبعني أوجست إلى المطبخ. لم نخبرهما قط بسيرشا، ولم ننطق بالاسم بصوت مرتفع، خوفًا من أن تجدنا الجزيرة حتى إن كنا هنا.

وقفنا هناك، يحدق كل منا إلى الآخر، ولا يريد أن يقول ما يدور في ذهنه، قبل أن تتجه نظراتنا مرة أخرى إلى الفتاتين اللتين توهجت بشرتهما بأشعة الشمس القادمة من النافذة، وهما تأكلان من كومة الفطائر الموضوعة بينهما. وبعد لحظة أخذ أوجست الرسم من بين أصابعي، ورفع غطاء سلة المهملات، وأسقطه في الداخل دون أن ينبس ببنت شفة، وعندما أغلق الغطاء أطلقت أنفاسي التي كنت أحبسها.

كانت هناك العديد من القصص التي حُكِيت عن الجزيرة. لقد نشأنا على هذه القصص، وكنا حريصين على عدم نقلها إلى أطفالنا، لكن هناك في المطبخ، على مسافة ثلاثمائة ميل تقريبًا، كنت أسمع صوت جدتي القديم وهي تروي أقدم أساطير سيرشا: إذا غادرت الجزيرة، فسوف تناديك دائمًا للعودة.

شكر وتقدير

عندما بدأت أولى لمحات تلك القصة في التبلور داخل ذهني لم أكن قد فكرت إلا في قصة رجل استقل عبَّارة، وقد قرر الذهاب إلى موطنه لدفن رماد والدته، ولم تكن لديَّ أية فكرة عن كيفية تطور ذلك المشهد.

ووجدت أن العمل على هذا الكتاب كان تجربة ثرية لي ككاتبة بشكل لا يصدق، وهناك العديد من الأشخاص الذين يجب عليَّ أن أشكرهم على دعمهم إياي طوال هذا الطريق، والجزء الأكبر من امتناني، كما هي الحال دائمًا، يذهب إلى عائلتي - جويل وإيثان وجوزايا وفينلي وريفر، أنتم أفضل أسرة حقًّا، وأنا أحبكم كثيرًا.

لعبت وكيلتي، باربرا بويل، دورًا مهمًّا في تطوير هذه الرواية عندما أرسلت لها نسخة أولية، وأعادتها إليَّ، وهي تحثني على التعمق بشكل أكبر في الجانب المظلم من القصة، ومن دونها، لم يكن لهذه الرواية أن ترى النور بالشكل الذي هي عليه اليوم. إنني محظوظة جدًّا لوجودك في حياتي يا باربرا.

عرَّفتني تلك الرواية على محررة موهوبة بشكل استثنائي، وهي شونا سامرز، التي كانت قادرة على رؤية سحر الرواية قبل الانتهاء من المسودة الأولى. إنني سعيدة جدًّا لأن تلك الرواية وقعت في أيدٍ أمينة. شكرًا لكِ على مساعدتي على نسج هذه القصة، وتحويلها إلى شيء أفتخر به بشكل لا يصدق. شكرًا أيضًا لماي مارتينيز على دورك القيِّم في عملية التحرير.

وشكرًا لشريكتي في النقد، كريستين دواير، التي ساعدتني على تجاوز المصاعب الأولى لهذا المشروع، حتى أصل إلى المسودة النهائية. وهل جعلتنا تلك

الرواية نأخذ مسارًا ملتفًّا ومختلفًا عن أي كتاب سابق؟ شكرًا لكِ على وجودكِ معي في تلك الرحلة، حتى عندما لم نكن نستطيع رؤية الوجهة النهائية.

كذلك أود أن أقدم أسمى آيات الشكر لستيفاني جاربر التي دفعتني في وقت كنت فيه عند مفترق طرق مهم، للعودة إلى كتابة هذه الرواية ومتابعتها حتى النهاية. إنني ممتنة جدًّا لصديقة يبدو أنها تؤمن حقًّا بأنني أستطيع فعل أي شيء أضع يدي عليه، والتي لم تقف صامتة وهي ترى الخوف يتسرب إلى قلبي. امتناني أيضًا لإيزابيل إيبانيز التي ظلت تذكِّرني بصبر أن هذه القصة كانت تنتظرني لأرويها، وشكرًا لأوجست وإيميري على ولائهما الذي لا يتزعزع.

شكرًا لـ ديا ميشرا، الروائية الرائعة والصديقة العزيزة التي لم تبخل عليَّ بوقتها وطاقتها، بينما كنت أعمل على تأليف هذه الرواية في شكلها الأولي. ساعدتني مساهماتك على خلق روح لهذه الرواية، ومن دونك، لا أعرف بصراحة إذا ما كنت لأجدها. شكرًا أيضًا لجوردان جراي الذي كانت مساهمته الإبداعية لا تقدر بثمن، خاصة في عملية المراجعة، شكرًا لك على رؤيتك المذهلة.

شكرًا للفريق بأكمله في دار راندوم هاوس؛ لإخراج هذه الرواية إلى النور بحماس كبير. وشكرًا أيضًا لمساعدتي، كارولين شفايتز، ودار جولد ليف ليتراري لدعمهما إياي على مدار العام الماضي. وشكرًا لقارئتيّ النسخة التجريبية اللتين قرأتا إصدارات مبكرة جدًّا من هذه الرواية: ناتالي فاريا وفانيسا ديل ريو.

لديَّ العديد من الأصدقاء والعائلة والزملاء الذين يشكلون دائرة الدعم التي تجعلني أكتب القصص التي أؤمن بها. أنا ممتنة جدًّا لكل واحد منكم.

نبذة عن المؤلفة

أدريـان يانـج هـي مؤلفـة سلسـلة Fable وثنـائيـة Sky in the Deep، التـي حققـت أعلـى مبيعـات فـي *نيويورك تايمز ويو إس إيه توداي*. وعندمـا لا تكون مشـغولة بالكتابة، يمكنك أن تجدها جالسـة على حصيـرة اليوجـا، أو يمكن أن تقابلها في نزهة في الغابة، أو تراها تخطـط لمغامرة جديدة في رحلتها التالية. إنها تعيش وتكتب في جبال بلو ريدج في ولاية كارولينا الشمالية.

موقعها الإلكتروني: adrienneyoungbooks.com

والإنستجرام: @adrienneyoungbooks

تعاويذ النسيان

تقدم لنا مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا أدريان يانج، رواية عميقة غامضة تتناول السحر المتوارث، وجريمة القتل الغامضة، والفرصة الثانية في قصة حب حقيقي.

تتغير حياة إيميري بلاكوودز للأبد في الليلة التي تُقتل فيها صديقتها المقربة، ويُتهم في قتلها حبيب عمرها أوجست سولت. بعد سنوات، فعلت ما كانت قد أقسمت على عدم فعله في مرحلة مراهقتها؛ وهو العيش في المكان الهادئ وسط الضباب على شاطئ جزيرة سيرشا النائية، وفي الوقت نفسه تدير أعمال الأسرة، ولكن عندما بدأت تظهر في القرية الغارقة في سحرها وتراثها القديم علامات غريبة وغامضة، علمت إيميري أن شيئًا ما سيحدث. وعندما استيقظت في ذلك الصباح وجدت أن جميع أشجار الجزيرة قد تغير لونها بين عشية وضحاها، وقد عاد أوجست لأول مرة منذ أربعة عشر عامًا، نافضًا الغبار عن الماضي الذي حاولت المدينة جاهدة أن تنساه.

يعلم أوجست جيدًا أنه غير مُرحب به في سيرشا، خاصة بعد تلك الليلة التي تغير فيها كل شيء؛ فبينما اندلعت النيران في بستان أسرة أوجست، عُثر على لِيلي مورجان مقتولةً في الغابات المظلمة، فتزعزعت أواصر المجتمع الراسخة واتُّهم أوجست بالقتل. عندما عاد لدفن رفات أمه، تحتم عليه مواجهة كل مَن أدار له ظهره، وكذلك مواجهة جُرح ماضيه الذي لم يندمل بعد - إيميري. ولكن كان لدى الناس أكثر من عُذر لمطالبتهم برحيل أوجست، إلا أن ظهور الوعود الخفية، والخيانات العميقة المنتقلة عبر الأجيال، هدد بظهور الحقيقة وراء جريمة القتل الغامضة لليلي.



أدريان يانج

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز ويو إس إيه توداي، ومن أعمالها: ثنائية Sky in The Deep وسلسلة Fable. نُشرت كتبها في أكثر من خمس وعشرين دولة. وعندما لا تكون منشغلة في كتابة أيٍّ من أعمالها، تجدها تمارس تمارين اليوجا، أو في نزهة للسير في الغابات، أو تخطط لمغامرتها التالية. تعيش أدريان يانج في جبال بلو ريدج في كارولينا الشمالية.



"مع السحر، والقتل، والترانيم التي تشبه الموسيقى، تنسج هذه الرواية قصة مذهلة عن جزيرة سيرشا على المحيط الهادي، حيث يمتزج الحب والألم معًا في صميم الوجدان... الرواية التي ستظل عالقة بذهني لسنوات عديدة تالية".

شاندلر بيكر، مؤلف الرواية الأكثر مبيعًا
The Husbands

"من خلال الإثارة والغموض وتوالي الأحداث المفاجئة والرائعة، سوف تراوغك الرواية الأولى للكبار التي كتبتها أدريان يانج، وكذلك ستبهرك، وتجعلك تتوسل إليها لكتابة المزيد".

ستيفاني جاربر، مؤلفة سلسلة Caraval

"إن هذه الرواية المثيرة، والشاعرية، والرومانسية، قصة آسرة لا يمكنك أن تجد أفضل منها. كان بإمكاني استشعار المَلح على بشرتي، واستنشاق الدخان، وكل صفحة كانت تشبه الخطوة الأولى إلى داخل الضباب الذي يواري جميع الأسرار السحيقة لجزيرة سيرشا".

روث إيمي لانج، حاصلة على جائزة Ohioana للكتاب

"مع السحر الهادئ الذي يشبه الريح في ليلة خريفية مخيفة، تجعلك هذه الرواية ذات الأحداث المتسارعة تحبس أنفاسك. إن الأسلوب القصصي الشعري للمؤلفة أدريان يانج يخلط بين الرومانسية والغموض، فتقدم رواية تعد بمثابة جوهرة مصقولة رائعة الجمال. أنا متأكدة أنك ستعشق هذه الرواية".

سارة إديسون، مؤلفة الرواية الأكثر مبيعًا *Garden Spells*

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

امسح الكود للنسخة الإلكترونية



